خيرية المصري

طريق النور

ما أحلى الرجوع إليه

قصة واقعية لامرأة تائبة

تقديم

الأستاذ الدكتور

محمد راتب النابلسي

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى
1425هـ ـ 2005 م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أوالنسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص. ب. ٣١٤٢٦ هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ فاكس ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم
الأستاذ الدكتور
محمد راتب النابلسي

طلب مني أن أراجع قصَّةً من إنسانةٍ تائبةٍ إلى الله تعالى ، وأن أكتب مقدِّمةً لها ، عنوانها : (طريق النور) ، وقد استلهمت من القَّصة موضوعين : المرأة ، وتثمينها العالي في الإسلام ، فالنساء شقائق الرِّجال ، والمرأة مساويةٌ للرَّجل تماماً ، من حيث إنَّها مكلفةٌ كالرجل بالعقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، ومساويةٌ له من حيث استحقاقُها الثواب ، والعقاب ، وأنَّها مساويةٌ له تماماً في التَّشريف ، والتَّكريم ؛ لهذا قال ﷺ في خطبة حجَّة الوداع : «**اتقوا الله في النِّساء ، واستوصوا بهنَّ خيراً**»[١] .

وقد ورد في الأدب المفرد للبخاريِّ قول النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام :

---

(١) رواه الترمذي (١١٦٣) وابن ماجه (١٨٥١) .

«**أنا وامرأة سَفْعاء الخَدَّين كهاتين يوم القيامة**» ، وأومأ يزيد بن زريع ـ أحد الرواة ـ بالوسطى والسَّبَّابة «**امرأة آمَتْ من زوجها ، ذات مَنْصِبٍ وجمال ، حَبَسَتْ نَفْسَها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا**»[(١)] .

وفي حديث آخر يخاطب فيه النبي كلّ النساء ، يقول: «**أَبْلِغي مَنْ لَقِيْتِ من النساء؛ أنَّ طاعةَ الزَّوج ، واعترافاً بحقِّه يعدلُ ذلك ـ أي: الجهاد ـ وقليلٌ منكنَّ مَنْ تفعلُه**»[(٢)] .

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦] ، فيعني: أن لكلٍّ من المرأة والرَّجل خصائص فكريَّةً ، ونفسيَّةً ، واجتماعيَّةً ، وجسميَّةً ، هي أكمل ما يكون لمهمتها التي خلقت لها ، فالمرأة ، والرَّجل متكاملان؛ بمعنى أن كلاً منهما يسكن إلى صاحبه؛ لأنه يكمل نقصه به .

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١] .

وقد شكت امرأة إلى رسول الله ﷺ زوجها فقالت: إنَّ زوجي تزوَّجني؛ وأنا شابةٌ ذات أهلٍ ، ومالٍ ، وجمالٍ ، فلما كبرت سني ، ونثر بطني ، وتفرق أهلي ، وذهب مالي؛ قال: أنت علي كظهر أمِّي ، ولي منه أولادٌ ، إن تركتهم إليه؛ ضاعوا ، وإن ضممتهم إليَّ؛ جاعوا . . . فبكى النَّبيُّ رحمةً بها . . . مهمَّتها تربيةُ الأولاد ، ومهمَّته كسبُ الرزق .

* * *

---

(١) رواه أبو داود (٥١٤٩) والبخاري في الأدب المفرد (١٤١).

(٢) رواه البزار كما في كشف الأستار (٢/ ١٨١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/ ٣٠٨).

والموضوع الثاني: **التوبة**، والتوبة في حقيقتها مخرج النَّجاة للإنسان حينما تحيط به خطيئاته، وهي صِمَامُ الأمان حينما تضغط عليه سيئاته، وهي تصحيح للمسار حينما تضلُّه أهواؤه، وهي حبل الله المتين حينما تغرقه زلَّاته، وهي الصِّراط المستقيم حينما تنحرف به شهواتُه. فالله يريد أن يتوب على عباده المذنبين، وإنَّـه ما أمرنا أن نتوب إليـه إلا ليتوب علينا، وما أمرنا أن نستغفره إلا ليغفر لنا، وما أمرنا أن ندعوه إلا ليجيبنا، وما أمرنا أن نستعين به إلا ليعيننا، وإنَّـه يبسط يده في النَّهار؛ ليتوب مسيءُ الليل، ويبسط يده في الليل؛ ليتوب مسيءُ النَّهار، وإذا كان الثلث الأخير من اللَّيل؛ نزل ربكم إلى السَّماء الدُّنيا، فيقول: هل من تائبٍ؛ فأتوبَ عليه؟ هل من طالب حاجةٍ؛ فأقضيَها له، هل من مستغفرٍ؛ فأغفرَ له؟ هل من سائلٍ؛ فأعطيَه؟ حتى ينفجر الفجر. والتَّـوبة النَّصوح ـ كما قال بعض العلماء ـ: النَّـدم بالقلب، والاستغفـار باللِّسان، والإقـلاع عن الذنب.

كيف لا وفي الحديث القدسيِّ عن أنس بن مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله: يابن آدم! إنَّك ما دعوتني، ورجوتني؛ غفرت لك على ما كان منك، ولا أبالي. يابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السَّماء، ثمَّ استغفرتني؛ غفرت لك، يابن آدم! إنَّك لو أتيتني بقُراب الأرض خطايـا، ثم لقيتني لا تشرك بـي شيئـاً؛ لأتيتك بقرابها مغفرةً**»[1]، إنَّه شرطٌ واحدٌ: ألا تشرك به.

كيف لا؟.. والنَّبيُّ الكريم يقول: «**للهُ أفرحُ بتوبة التَّائب من الظمآن**

(١) رواه الترمذي (٣٥٤٠) عن أنس، وبنحوه رواه أحمد (٥/ ١٦٧ و١٧٢) والدارمي (٢٨٣٠) عن أبي ذر.

الوارد، ومن العقيم الوالد، ومن الضَّالِّ الواجد». كيف لا؟.. والنبي الكريم يقول: «**إذا تاب العبد توبة نصوحاً؛ أنسى الله حافظيه، وجوارحه، وبقاع الأرض كلَّها خطاياه، وذنوبه**»[1]. ورواه أبو العباس الهمذانيُّ مرسلاً.

كيف لا؟ والحقُّ ـ جلَّ، وعلا ـ يقول في الحديث القدسي الذي رواه البيهقي عن أبي الدرداء: «**أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أُقنِّطُهم من رحمتي، إنْ تابوا؛ فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا؛ فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب؛ لأطهِّرهم من الذنوب، والمعايب**».

كيف لا؟.. وإذا رجع العبد العاصي إلى الله، نادى منادٍ في السَّموات والأرض أن أيتها الخلائق! هنِّئوا فلاناً، فقد اصطلح مع الله.

والتَّوبة: علمٌ، وحالٌ، وفعلٌ.. فهي علمٌ؛ لأنها معرفة ضرر الذُّنوب، وكيف أنَّها حجاب بين العبد وبين المحبوب.

وهذا العلم يولِّد حالةً نفسيَّةً هي الشعور بالنَّدم، على ما اقترف من الذنوب، وعلى ما فاته من الخيرات، وهذه الحالة من النَّدم تولِّد إرادةً، وقصداً إلى فعلٍ له تعلُّقٌ بالحال، وبالماضي، وبالاستقبال.

فالتائب يترك الذنب الذي كان متلبساً به في الحال، والتائب يعزم بقلبه على ألا يعود إليه في الاستقبال، والتائب يسعى لإصلاح ما كان في الماضي.

وقد لخَّص النبي ﷺ هذه المراحل الثلاث بالنَّدم، فقال فيما رواه

---

(١) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (١٠٢٧٣) وعزاه لأبي العباس الهمذاني في كتاب «التائبين عن الذنوب».

الإمام أحمد في مسنده عن أنس بن مالكٍ: «**النَّـدم توبةٌ**»[1] حيث لا يخلو النَّـدم من علمٍ أوجبـه، ومن عملٍ أثمره، وقد بيَّـن الإمام الغزالـيُّ ـرحمه الله ـ ما تعظم به صغائر الذُّنوب، فأدرج منها الإصرار، والمواظبة؛ إذ لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الاستغفار.

ومنها استصغار الذَّنب، فالذنب كلَّما استعظمه العبد في نفسه؛ صغر عند الله، وكلَّما استصغره العبد في نفسه كبر عند الله، وقد قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاريُّ: «**إنَّ المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه، يخاف أن يقع عليه، والمنافق يرى ذنبه كذبابٍ مرَّ على أنفه، فأطاره**»[2].

ومنها: أن يُظهر الذَّنب، ويتهاون بستر الله عليه، وحلمه عنه، وإمهاله إيَّاه، وقد قيل: لا تنظر إلى صغر الذَّنب، بل انظر على مَنِ اجترأت.

وقد صحَّ: أنَّ المعاصي، والمخالفات عقباتٌ كؤودٌ على الطَّريق إلى الله، وأنَّ التَّوبة النَّصوح إزالةٌ لهذه العقبات، بحيث يصبح الطريق إلى الله سالكاً، وآمناً.

لقد فُطر الإنسان فطرةً عاليةً، وكيف لا تكون عالية، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها؟! فإذا حاد الإنسان عن مبادئ فطرته، وخرق حدود إنسانيَّته بالإثم، والعدوان؛ اختلَّ توازنه النَّفسيُّ، وأحسَّ بكآبةٍ مدمِّرةٍ لصحَّته النَّفسيَّة، وهذا ما يُسمَّى عند علماء النفس بالشدَّة النفسيَّة،

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٧٦) وابن ماجه (٤٢٥٢) وابن حبان (٦١٢ و٦١٤) والطبراني في المعجم الصغير (٧٤) وأبو يعلى (٤٩٦٩) عن ابن مسعود. ورواه ابن حبان (٦١٣) والبزار (٣٢٣٩) والحاكم (٤/ ٢٤٣) من حديث أنس.

(٢) رواه أحمد (١/ ٣٨٣) والبخاري (٦٣٠٨) والترمذي (٢٤٩٧).

التي هي سبب رئيسٌ لكثيرٍ من الأمراض التي تصيب العضوية ، كتسرع ضربات القلب ، واضطرابها ، وتضيق الشرايين الاختلاجي ، وارتفاع ضغط الدم ذي المنشأ العصبيِّ ؛ الذي هو في حقيقته ارتفاع لضغط الهمِّ ، وتقرُّحات الجهاز الهضمي ، وأمراض الحساسية ، وأمراض الأعصاب ، والشَّلل العضوي ذي المنشأ النفسيِّ.

وحينما يصطلح الإنسان مع الله ، فيتوب من ذنوبه ، ويستقيم على أمر ربِّه ، ويعمل الصَّالحات تقرباً إليه ؛ عندئذ يشعر بأنَّه قد أزيح عن صدره كابوسٌ ضاغطٌ كأنَّه جبلٌ جاثم ، وأنَّ ظلماتٍ بعضها فوق بعضٍ قد تبددت من أمامه ، وأنَّ مشاعر الكآبة ، والضيق قد اختفت إلى غير رجعة ، وعندئذٍ يشعر : أنَّ في قلبه من الطمأنينة والسَّعادة ما لو وُزعت على أهل بلد ؛ لأسعدتهم جميعاً ، وعندها تتأثر العضويَّة بهذه الصِّحَّة النَّفسيَّة ، تأثراً إيجابياً ، فتزول أعراض أكثر الأمراض العضويَّة ذات المنشأ النَّفسيِّ .

التَّوبة ، والعمل الصَّالح أساس الصِّحَّة النَّفسيَّة ، والصِّحَّة النَّفسيَّة أساس صحَّة الجسد ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن رسول الله ﷺ قوله : «**استقيموا ، ولن تحصوا**»[١] ، وقد وضَّح الإمام المناويُّ في شرحه لهذا الحديث : أنه إذا استقمتم ؛ فلن تحصوا الخيرات ؛ التي تجنونها من الاستقامة .

* * *

وبعد قراءة القصَّة . . . وجدتها قصَّةً بالغة التأثير ؛ لأنَّ فيها صدقاً في المشاعر ، وعمقاً في التَّجربة ، وكما قال عليه الصَّلاة والسَّلام : «إنَّ

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧) وابن ماجه (٢٧٧) والحاكم (١/ ١٣٠) عن ثوبان.

الصِّدق يهدي إلى البرِّ ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنَّة . . »[1] .

فكاتبة القصَّة ـ فيما يتَّضح ـ أختٌ كريمةٌ . . . شردت عن منهج الله حقبة من الزَّمن ، ثمَّ اصطلحت مع الله ، فوصفت ـ بدقةٍ متناهيةٍ ـ مشاعر المرأة حينما تكون على غير ما خُلِقت له ، وكأنَّ وصفها لهذه الفترة شرحٌ لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه : ١٢٤] ، ثمَّ بيَّنت ببلاغةٍ أساسها الصِّدقُ ، والنَّدم الحالة النَّفسيَّة المتوهِّجة ؛ التي غمرت قلبها بعد أن سارت على المنهج القويم ، والصِّراط المستقيم . وإنَّ تجربة صاحبة القصَّة درسٌ بليغٌ لكلِّ شاردٍ عن الله ، ذكراً كان ، أو أنثى ، يُستشفُ منه : أنَّ حياةً طيِّبةً تنتظره ؛ إذا اصطلح مع الله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

وأنَّ الله لا يستوي عنده المحسن ، والمسيء ، ولا الصَّادق ، والكاذب ، ولا المؤمن ، والفاجر ، ولا المستقيم ، والمنحرف ، وأنَّ استواء هؤلاء مع هؤلاء لا يتناقض مع عدالة الله فحسب ، بل مع وجوده .

قال تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية : ٢١] أرجو الله أن يجعل هذه القصَّة في ميزان حسنات مؤلِّفتها يوم القيامة ، وأن ينفع بها كل فتاةٍ انبهرت بالغرب ، وتفلَّتت من منهج الله ، فتعود إلى دينها القويم ، وإلى طاعة ربِّها الرَّحيم من دون أن تدفع الثَّمن باهظاً .

محمد راتب النابلسي

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٤) ومسلم (٢٦٠٧/١٠٥) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تمهيد

إنَّ الحمدَ لله حمداً طيباً مباركاً فيه ، حمداً لا يبيدُ ، وهو أقربُ إلينا من حبل الوريد ، وما نلفظ من قولٍ إلا لديه رقيبٌ عتيدٌ ، إنَّه هو الحميد المجيد . . أحمدُه على فضله الجليل بأن ألهمني هذا العمل ، وعلى جزيل عطائه ، ومِنَّتِهِ على عباده أجمعين . . وأعوذ به وإيَّاكم من شرور أنفسنا ، ومن سيِّئات أعمالنا ، ومن شرِّ الشيطان ، وشركه ، وأعوذ بالله من العُجْبِ ، والرِّياءِ ، والكِبْرِ ، والكَذِب . . وأدعوه بأن يهديَنا لطاعته ، ورضوانه ، وأستغفره لي ، ولكم . . فهو الغفَّار لمن تاب؛ حتَّى ولو أسرف في ارتكاب المعاصي ، وقد قال في أرحم وأرجى آية في الكتاب العظيم كلِّه : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣] .

وإن كانت تدلُّ على شيءٍ؛ إنَّما تدلُّ على رحمة الإله على عبده الضَّعيف ، وحبِّه الكبير لنا نحن البشر ، إنَّ رحمة الله تقتضي ألا يدعهم ينغمسون في أوحال شهواتهم الدُّنيويَّة ، الرَّخيصة ، وهم يعتقدون : أنَّ المتعة لا تكون إلا في الدُّنيا ، فيرسل لنا ما ينبِّهنا ، ويحذِّرنا مغبة الرِّيح التي تعصف بنا ، وتحملنا ـ شئنا ، أم أبينا ـ إلى الهاوية .

الحمد لله الَّذي يقبل التَّوبة من عباده ، ويعفو عن السَّيِّئات ، وأفضل الصَّلاة والسَّلام على نبيِّنا محمَّدٍ؛ الَّذي بعثه الله هادياً ، ومبشراً ، ونذيراً . . إلى ما فيه خير ابن آدم في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة ، والحمد لربِّ العالمين على حبِّه للتَّوابين ، وأمره لهم بالتَّوبة قائلاً سبحانه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨] .

قصةُ امرأة تائبةٍ إلى الله . . أكتبها بتجرُّدٍ عن أيِّ مطمعٍ دنيويٍّ ، راجيةً أن يجعلها الله عبرةً إيجابيةً لكلِّ إنسانٍ . . وأن يجعل منها الفائدة المرجوَّة لعباده . اليوم أقلِّد قلمي مهمة هتك الأسرار ، أسرار الضَّياع سنين طويلةً مرهقةً . . ولم تكن توبتي نتيجة ظروفٍ قاسيةٍ ، أو محنةٍ عارضةٍ ، بل كنت أتقلَّب في أحضان النَّعيم الحياتيِّ . . أنعم بكل أشكال التَّرف ، والحرِّيَّة في كلِّ شيءٍ ، فهاأنذا أضع سرِّي بين أيديكم ، لا أبتغي من ذلك إلا فائِدَتكم .

نفعني الله ، وإيَّاكم بهذا العمل؛ الذي لا هدف لي منه إلا إرشاد مَن كُنَّ مثيلاتي ، عندما كان الشَّيطان يتربَّع على عرش قلبي ، فأغراني بزينة الدُّنيا ، وزهَّدني بالآخرة ، ودفعني على ركضٍ لاهثٍ وراء سرابٍ اعتقدتُه سعادةً ، فقد شَبَّهْتُ الحياة كأكلةٍ لذيذةٍ دسمةٍ ، يأكل منها الإنسان ، ويستزيد ، ولا يدري بأنَّها ستسبِّب له عسر هضمٍ يوشك أن يؤدِّي إلى هلاكه . . أمَّا الآن؛ فقد تحوَّلت إلى صرخة حقٍّ في وجه الباطل ، لأنني بعد أن ذقت حلاوة الرُّجوع إلى الله لا يسعني إلا أن أشتهيه لكلِّ إخوتي ، وأخواتي في الله ، حتَّى يذوقوا السَّعادة التي أنعمَ بها عليَّ المنعمُ الكريم، ويدعون لي بالخير ، وقد جاء في الحديث

الشريف: «لا يؤمن أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه»(١).

فمن يُرِدِ اللهُ به خيراً؛ يُنِرْ بصيرَته للجوانب الإيجابيَّة في قصَّتي، ويجعلْه متجاوزاً عن كلِّ سلبيَّاتها، ويشرحْ صدرَه لاتِّباع خير ما فيها.

بعد أن تعرَّفت على ديني، وبدأت أتلمسُ بحورَ علومه، وأتبصَّر في آفاق شريعته، صرت أنظر إلى كلِّ أمرٍ في شؤون الحياة من منظارٍ دينيٍّ، وأخذت أقارن بين ما عرفت، وبين ما أسمع، وأشاهد، فبدا لي خلال سنوات أنَّ أخطاء كثيرةً اجتاحت عقول، وتصرُّفاتِ عموم المسلمين، فقد شابتهم في عقيدتهم، وأخلاقهم شوائبُ كثيرةٌ، وعمَّت نفوسَهم الجهالةُ، فكدَّرت صفاء هذا الدِّين الرائع، وأخرجتهم عن نقاء الأخلاق الإسلاميَّة، فصدق فيهم قول المولى سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [لقمان: ٢٠].

وحقّاً رأيتهم يهتدون بغير هدي الإسلام في السُّلوك، والمعاملة، فإذا بأفعالهم قد حادت عن الشَّريعة الحقِّ، منها ما يمسُّ صلب العقيدة، ولبَّها، كالمسارعة بالإفتاء الجاهل، وإلى تكفير الناس بسبب ذنوبهم، وتكفير الناس لمجرَّد ارتكاب أيِّ ذنبٍ شيءٌ خطيرٌ ومحزنٌ! ومنها ما يمسُّ الإسلام في مبادئه، وأخلاقه عند أولئك الذين ينتمون إلى الإسلام بأسمائهم، وأنسابهم، وقد عمل الغزو الفكريُّ عمله في رؤوسهم، واستوردوا أخلاقيَّات الغرب، وتبنَّوها، فشوهت هويَّتهم؛ حتَّى صارت الهويَّة الإسلاميَّة عند المسلم تكاد تكون معدومةً.. إن لم تعدم بهويةٍ مستوردةٍ! فلم يعد يسعني أمام هذه الفوضى في الدِّين الحنيف إلا أن أدلي بدلوي للدِّفاع عنه دفاع المستميت، والحفاظ على سلامة هويَّته، بعد أن

(١) رواه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥).

لمست مدى روعته ، واتِّزانه غيرة على الذي أحببت ، وجميعنا مسؤول عن تقديم صورةٍ صحيحةٍ لهذا الدِّين؛ لنسلك طريق الإيمان ، وننتقل من خانة المسلم بالهويّة واللِّسان ، إلى خانة المؤمن الآخذ بالأركان ، فواقع المسلمين اليوم كلُّه غير سليمٍ ، فما ذنب الإسلام من أخطاء المسلمين؟! الَّذين توَّجهم الله بتاج الإسلام ، ثمَّ لم يكونوا على مستوى هذا الشرف ، فانحرفوا عنه إلى تقليد الغرب ، وشردوا عن منهاجه بشكلٍ يدمي القلب.

فأردت أن أتَّخذ من أخطاء هؤلاء الجُهَّال مادةً أنوِّه بها ، كي ألفت انتباه من لم يدرك فحواها ومساوئها ، معتقداً أنه على صواب.. وأفعالُه ، وآراؤه الجاهلة تُحسب على الإسلام. وبعض الناس يتعدَّى حدوده ، ويصف أموراً من السُّنَّة ، والشَّرع بأنَّها قشورٌ لا ضير في تركها ، بل لا ينبغي الالتفات إليها.

واللهَ أسأل أن يعفو عن هؤلاء ، فإنَّ الدِّين كلَّه لبابٌ ، لا قشور فيه.. لذلك رغبت في تصحيح التَّصرُّفات ، والأفكار المغلوطة والشَّائعة؛ حتَّى بين المتدينين من النَّاس؛ راجيةً المولى أن يوفقني لتنوير بصيرة مَنِ اهتدوا بغير هدي الإسلام القويم.. لأبيِّن حقيقة ديننا الَّذي إن أحسنَّا فهمه ، ووعيناه ، وطبَّقناه؛ كنَّا أسعد خلق الله على الأرض.. ومدى صلاحية هذا الدِّين للمسلمين ، وغير المسلمين كنظام حياة.. حيث ابتعد أكثر الناس اليوم عن العلم ، وغلب عليهم التقليد ، واتِّباع التقاليد ، وصار المعروف عندهم منكراً ، والمنكر معروفاً ، والسُّنَّة بدعة ، والبدعة سنَّةً!! ونشأ في ذلك الصَّغير ، وهَرِمَ عليه الكبير.. طُمست الأعلام ، واشتدَّت غربة الإسلام ، وبات المسلمون يتحَلَّلون كلَّ يوم شيئاً ، فشيئاً عن المنهج

الإسلاميِّ ، وذلك مصداقاً لقول الرَّسول الكريم ﷺ: **«لتنقضنَّ عُرا الإسلام عروةً ، عروةً»**[1].

إنَّ غياب منهج الله في التَّفكير ، والسُّلوك معناه أن يصبح كلٌّ منَّا عبداً لأهوائه . ولكنَّ أكثر الناس تركوه ، ومشوا يتخبَّطون في ظلام الجهل ، والأهواء . . وغاب عنهم: أنَّ الشَّرع الحنيف لا يقوم إلا على الدَّليل الشَّرعيِّ في ضوء القرآن العظيم ، والسُّنَّة المطهَّرة . . وهما معاً يكوِّنان «دليل الاستعمال» لحياة البشر . . يجب أن نعي الَّذي حدث حتَّى ضاعت هذه المبادئ ، وضاع عنها المسلمون ! ! وضاع تأثيرها في النُّفوس ! وإنِّي لأسأل الله سبحانه ـ دعوةً خالصةً مخلصةً ـ أن يوفق المسلمين ، والمسلمات إلى التَّسلُّح بالعلم النافع ، من فقهِ كتاب الله ، وآياته في أنفسهم ، وفي الآفاق . . ومن هدي رسول الله ﷺ وسيرته؛ ليميِّزوا ، ويفيقوا ، ويخرجوا بها من ظُلمات الجهل إلى أنوار المعرفة . . ومن الغيِّ إلى الرُّشد . . ومن السَّفه إلى الحكمة ، ومن وحول الشَّهوات إلى جنَّات القُربات . . مسترشدين بقول الشَّافعي ـ رحمه الله ـ: (كلما ازددت علماً ، ازددت علماً بجهلي) ، فالمواءمة بين العلم بدين الله ، والعمل بِهديه يكشف الغشاوة عن البصائر . . ويبدِّد الرَّان عن القلوب . . ويعيد الناس إلى الحياة الطَّيبة؛ الَّتي وعدهم الله إيَّاها بقوله: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] . . فنسير على الطريق المستقيم؛ الذي لا يضلُّ مَنِ اتَّبعه . . ولا يزيغ مَنْ سار على ضوئه .

أيُّ فائدةٍ أن نقول: إننا مسلمون ، ثمَّ نعمل بعمل غير المسلمين . . فلا

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٢٥١) والطبراني في المعجم الكبير (٧٤٨٦) والحاكم (٤/ ٩٢) وابن حبان (٦٧١٥) والبيهقي في شُعب الإيمان (٥٢٧٧) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٢٨١) عن أبي أمامة.

يكفي الإعلان عن كوننا مسلمين ، وننتسب إلى الإسلام بالكلام ، بل لا بدَّ أن يقترن هذا الإعلان بالعمل بمُرادات الله سبحانه. . وقولنا: «لا إله إلا الله محمَّد رسول الله» لا بدَّ أن يصاحبه عملٌ بمنهج الإسلام. . لهذا استعنت بما تعلَّمت من علماء الدِّين الحنيف ، وانكببت على دراسة كتبهم القيِّمة ، وقد نقلت من بعضها كلاماً كثيراً نافعاً.

ويعلم الله: أنَّ رضوان ربي كان نصب عيني؛ وأنا أسطِّر فقرات هذا الكتاب. . علَّني أساهم ما استطعت في مساعدة النَّاس بالعودة إلى دينهم ، والإياب إلى خالقهم ، في عملٍ إيجابيٍّ هادفٍ. . بعد ما آلت إليه حالهم بسبب المخالفات العديدة في دينهم. . سأحاول مساعدتهم من خلال تجربتي ، وبتعبير أصحَّ: محنتي. . التي تحوَّلتْ بحمد الله من محنةٍ إلى منحةٍ ، كي أنقذ مَنْ بعدي حتَّى لا يسيروا مسيرتي. . فقد أضناني المسير ، وأنا مُغَيَّبَةٌ عن الإسلام سوى حروف كلماته ، وحدت عن الصَّواب ، ولم أنتبه إلا وشمس العمر تميل إلى المغيب. . ولكي يستخدموا أسماعهم ، وأبصارهم ، وعقولهم ، وأفكارهم على خير وجهٍ ، مسترشدين بنور الله الحقِّ. . من خلال الفهم النير العميق للنصوص الإلهية والعمل بها ، والالتزام بمضامينها.

إنَّها كلماتُ محبَّةٍ ، وزفرات مذنبٍ! ولو لم يعظ في الناس من هو مذنب ، فمن يعظ العاصين بعد محمَّدٍ المعصوم؟! فنحن مذنبون ، خطَّاؤون ، غافلون. . و: «**كل ابن آدم خطَّاء ، وخير الخطَّائين التَّوابون**»[1] ، وكما طمأننا ﷺ ، فلنكن ممَّن قال فيهم ربُّنا سبحانه: ﴿ إِنَّ

---

(1) رواه أحمد (٣/ ١٩٨) والترمذي (٢٥٠١) وابن ماجه (٤٢٥١) والدارمي (٢٧٦٩) والحاكم (٤/ ٢٤٤).

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠] . . وهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩] .

وبما أنَّنا كلّنا عبادٌ ضعفاء؛ فحقٌّ علينا أن نبلِّغ كلام الله ، وينصح بعضنا بعضاً بالتنبيه المخلص. . والخوف الرَّحيم. . والتَّوجيه السليم. . فلعلَّ المولى تعالى ينفع بكلماتي هذه كلَّ مَنْ يحتاجها. . وتُفتح بها قلوبٌ غُلِّفت بالرَّان فأصمَّت الآذان ، لعلمي الأكيد بأنَّ هناك الكثير ممَّن يعانون ما عانيت ، ويتيهون بين الفضيلة ، والرَّذيلة. . يحتاجون يداً متينةً ، وحنونةً توصلهم برَّ الأمان الحقيقيِّ ، وحيث بقي الإسلام ، وهجره المسلمون!! فلينظروا ما أجمل الرُّجوع إليه. فكان ذلك الدَّافعَ الرئيسَ لكتابة هذا الكتاب ، وهذا هو كلُّ ما أردت أن أثبته في هذه المقدِّمة بين يدي كتابي هذا. . ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ [هود: ٨٨] .

ولقد بينت الدَّافع الأساسيَّ من تسليط الضوء على أخطاءٍ غرق فيها الكثير من المسلمين ، ممَّن رأت عيني ، وممَّن سمعتُ عن تجرُّئهم بنشر أقوالٍ ، وفتاوى تشوِّه حقيقة ديننا القويم ، ويفسِّرون الدِّين بأهوائهم بجرأةٍ وقحةٍ تضعف الإيمان ، والثِّقة بالله. . وضعفُ الإيمان بالله هو سبب كلِّ مشكلةٍ ! حيث يُعير المبتلى به أذناً صاغية للجهَّال ، فيصبح أرضاً خصبةً يزرعون فيها كلَّ ما يحلو لهم.

فالإيمان يمدُّ قنديلَ الفكر بزيت الحقيقة ، وهو جوهر العبادة؛ الَّتي هي علَّة وجودنا ، والعلم بالشَّرع ، ومعرفةُ الله يقوِّيانه ، ويعضدانه ، وهكذا نجد كثيراً ممَّن حُرموا العلم ، ورشد الفقه ، يحكمون على

الأعمال بغير ما حَكَم الشَّرع ، وهنا يضيع الدِّين بين الغالي فيه ، والجافي عنه . . كالَّتي أفتت لي بأن الصَّلاة المطوَّلة بقراءاتٍ من سورٍ طويلةٍ هي خاصَّةٌ لنبيِّنا ﷺ الَّذي أحببته ، وصار مثلي الأعلى ، وقدوتي ، فحرمتني من أن أتَّخذ منه أسوةً في جملة أعمال كنت مَشُوقةً في تقليده من خلالها ، ولسنواتٍ عدَّةٍ ! ـ مع العلم بأنَّها ممَّن يدرِّسون الدِّين ـ وأمور أخرى من أخريات كثيرات ، ما جعلني أترنَّح تائهةً بين الخطأ ، والصَّواب ، إلى أن هداني ربي سبحانه من خلال بحثي الدَّقيق عن حقائق الأمور ، لأن لا آخذ علوم الدِّين إلا ممَّن أخذ عن كتاب الله العظيم ، وسار وفق ما بيَّنه رسوله الكريم في الأحاديث الصَّحيحة .

أرجو الله أن يجعل من هذا الكتاب صدقةً جاريةً ، أرجو برَّها ، وذُخرَها عند الله لي ، ولوالديَّ ، هذا وأسأل الله العليَّ القدير ، أن ينتفع به كلُّ من يقرؤه ، وأن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم ، وينفعَني به في آخِرَتي ، بعد أن اخترت أن ألوذَ بجانب ربِّي ، فحبُّه قد ملأ جوارحي ، وتمكَّن من فؤادي ، وأسماؤهُ تسري في عروقي ، وامتزجتْ معها روحي ، أُحصيها في ليلي ، ونهاري ، فتخاطبُ خَلَجاتي ، وسَكَناتي . . ولم يعُدْ لديَّ شيءٌ عزيزٌ غيرُ حبِّ الله ، والتقرُّبِ إليه بمشاعر قلبية مخلصة جردتها كلها لله . . في حبِّ كلٍّ من يحبُّه ، فلم أعد أحبُّ إلا لله ، ولا أبغض إلا لله ، ولا أفرح إلا بما يرضيه ، ويحبُّه . . والدِّفاعِ عن دين ربي الَّذي أُحسُّ : أنَّه يطوِّقُني بفضله ، وحنانِهِ ، ويغمرني برحمتِهِ ، ورأفته ، جلَّ ثناؤه . . حاطني بعونِه ، وكرمه . . وألهمني الإنابة إليه . . لا أريد إلا عبادتَه . . ولا أتوسَّم إلا رضاهُ ، وغفرانَهُ ، وهو خير الغافرين . . وما توفيقي إلا بالله .

ولا أنسى شكري وامتناني ودعائي لشيخنا الكبير الأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي على مقدِّمته الرائعة ، الَّتي أوضح لنا فيها عظمة التوبة ، وضرورتها لكلِّ عبدٍ ، جزاه الله كل الخير عنا أجمعين !. . اللهمَّ آمين !

اللّٰهم! دُلَّنا عليك. . وارحم ذُلَّنا بين يديك. . واجعل رغبتَنا بما لديك. . ولاتحرِمْنا بذنوبنا. . ولا تطردْنا بعيوبنا يا من دعَوْتَنا إلى كَنَفِ الإسلام ! واغفر لنا ، ولوالدينا ، ولجميع المسلمين برحمتك يا أرحم الراحمين ! والحمد لله ، وكفى ، والصَّلاة ، والسَّلام على عبده الذي اصطفى[1].

* * *

(١) تنبيه:
إن الآراء الواردة في هذه القصة تُعبِّر عن رأي الكاتبة ، ونظرتها الشَّخصيَّة ، وقد كتبتها من وحي الذات ، وهي لا تُعبِّر بالضَّرورة عن رأي الدار الناشرة. (الناشر).

ماضٍ كم أتمنَّى لو لم يكن

لقد كنت حتَّى زمنٍ قريبٍ مع مَنْ تمكَّن منهم الشَّيطان ، فأخذهم إلى أغوار المعاصي ، فكنت فريسةً سهلةً لا مقاومة لها بين أنيابه ، فأغواني شرَّ غَوايةٍ ، وحلَّل لي الخطايا ، والذُّنوب ، وكان حظُّه منِّي أن زَيَّن في قلبي المنكرات ، فتمكَّنَ منِّي حبُّ الدُّنيا والاستغراقُ في ملذّاتِها والتعلُّق بأذيالها ، اطمأننتُ لها ، وانغمس فيَّ دنيءُ شهواتها ، فحبُّها إذا استولى ؛ أسر ، فأصبح في أذنيَّ وقرٌ ، وعلى قلبي قفلٌ محكمُ الإغلاق ، وكاد حظي الكبير الذي منحني إيَّاه ربي من جمالٍ ، ومالٍ ، وذكاء . . أن يجعله ذلك اللَّعين سبباً لدخول النَّار ! عندما أعرضت عن منهج ربِّي ، فأضلَّني الله الَّذي يضلُّ الظالمين ممَّن تفلَّت عن منهجه القويم تماماً ، كقوله : ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٦] .

ولمَّا تبيَّنتْ نفسي عزمي على الذُّلِّ ؛ ذلَّت ! فعبدتُ هوايَ ، ونسيتُ مولاي ، وأنساني إبليس معنى الآية الصَّريحة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذَّاريات : ٥٦] ، ودَلالتها القطعية على أنَّ عبادة الله هي علَّة وجودنا . . في تطبيق الأمر ، والطَّاعة . . وسرُّ سعادتنا في الدُّنيا . . وثمن جنَّة ربِّنا في الآخرة ، فقد كنت أعشق الحياة منذ

وعيتها ،غرَّتني بهجتُها ، وزخرفها ، واجتذبني بريقُها السَّاطع ، وسرابُها الخادع.. أطمح أن أنهل من جمالها الأخَّـاذ ، أسير نَهِمَةً في اتِّباع مغرَياتها الآسرة ، مستغلةً ما ملّكني ربي من نعمه الكثيرة ، في تحقيق رغبات نفسي اللَّجوج بأعمالٍ منبوذةٍ شرعاً ، وبما أنِّي أحمل في شخصي أكثر من مجرَّد امرأةٍ؛ فكنت أتباهى بذلك ، وأزهو بما فضلني به خالقي على كثيرٍ من النساء ، وجعل منِّي استثناءً ، حيث خصَّني بميزاتٍ تفرَّدتُ بها بين هؤلاء ، من مواهبَ ، وميِّزات عديدة ، نادراً ما تتوافر في امرأةٍ واحدةٍ.

كانت حياتي أشبه بحياة الجاهليّة ، على الرَّغم من أنَّني ابنة أناس متديِّنين ، ومتمسِّكين بالقيم ، والمبادئ الإسلاميَّة.. أما أنا فقد كنت خلاف ذلك ، كنت مسلمةً بالوراثة فقط.. كانت ميولي ، وأهدافي كلُّها دنيويَّةً.. وأمَّا وقتي؛ فكنت أقضيه في اللَّهْوِ واللَّغو؛ الَّذي لا يزيدني عن الله إلا بعداً ، كنت ألهو بقراءة المجلاَّت الفنيَّة ، والرِّوايات الهابطة ، و«المشاوير» التي تضرُّ ولا تنفع ، وأمَّا لباسي فكنت لا ألبس إلا ما تهواه نفسي ، فقد كنت مفتونة جدَّاً بالأناقة ، والأزياء ، والموضة ، والَّتي ما كنت أختار إلا أكثر صيحاتها ابتذالاً! وحب ابتكار «الموديْلات» لصياغة شخصية أتميز بها عن سائر الفتيات.. فكنت إذا حضرت مناسبة ما ، أحوز على إعجاب الجميع ، وتنهال عليَّ عبارات الإطراء والمديح ، لطريقة لبسي وماكياجي وتسريحة شعري المميزين ، وذلك مما كان يغذي غروري إعجاباً ، ويجعلني أسعى إلى المزيد من هذه الأشياء ، لأحوز على مديح أكثر! فعشت بداية حياتي في ضلالٍ ، وضياعٍ ، وغفلة ، قد يستصغرها البعض ، ويقول: ليس هذا بمعصية!! ولكني أقول: إنَّها قد تكون من أكبر المعاصي.

فحبُّ المرأة للزِّينة ، والجمال ، والشُّهرة ، وميلُها الغريزيُّ لذلك ، كان من أكبر مداخل الشَّيطان عليَّ؟! فحبَّبني بالمنكرات في حبِّ الظهور ، وجعلني أعشق الأزياء ، وأتوق لتقليد الفنانات ، وعارضات الأزياء ، والتملُّق لهم. . فكنت لا أنكر منكرهم ، بل أجسِّد أعمالهم في نهجي ، وكانت محاباتُهم دستوري ، وأشرطتهم مرصوصة في مكتبتي.

كانت الموسيقا والغناء نديمي في كلِّ أوقاتي ، وأحوالي ، أمَّا الرَّقص بكلِّ أنواعه ، فقد جعلته رياضةً تكسبني اللِّياقة ، والرَّشاقة ، وتعالج تخمة الفراغ ، كان ذلك كلَّ همِّي ، وما أملأ به وقتي ، وأحشو به رأسي.

وكانت أفكاري تجد بين الأهل صيتاً عالياً ، ومميَّزاً، منهم المؤيِّد ، والمعارض ، سرت على هذا النَّمط سنين عديدةً . . على الرَّغم من أنَّني كنت أصلِّي ، وأصوم ! نعم. . ولكن كانت صلاتي قليلةً ، ولم أكن أعلم بفداحة ترك فرضٍ من فروض الصَّلاة. . كانت صلاةً جافَّةً لا أخشع فيها ، أؤدِّيها بسرعةٍ ، وأنقرها كنقر الغراب. . بل أركع ، وأسجد دون ما استشعار لما أقرأ من آياتٍ ، وأذكار ، ولا أدري كم انصرف من الرَّكعات ، فقد جعلتُها محطة تفكير. . فكلُّ ذهني مُنْشَغِلٌ بالأزياء ، وموديْلات الشَّعر ، والمشوار ، فأعدُّ لهم ، وأخطِّط وأنا في صلاتي واقفة بين يدي الله! لا أصدق أنَّني أنتهي منها؛ كي أبدأ في وصف الموديْل وما أعددت من أفكار لأخواتي ، فكانت صلاتي عادة لا عبادةً ، إذا تذكَّرتها أدَّيتُها ، وإن لا ؛ فلا حرج! ثمَّ صرت لا أحافظ عليها ، بل لم أعد أصلِّي إلا في المواسم ، وكتاب الله لا تمسُّه يدي ، وصلاة الفجر كنت أكره أن أترك لذَّة النَّوم ، وأتكاسل من أجلها.

كنت أرى والدي ـ طيَّب الله ثَراه ، وجعل الفردوس مثواه ! ـ يقوم

الليل يصلِّي ، ويقرأ القرآن ، وعندما كان يطلب مني أن يستظهر لي ما حفظ من السُّور؛ كنت أتململ ، وأتذمَّر في داخلي؛ خوفاً ، واحتراماً له ، أريد النَّوم ، فقد أيقظني من متعتي قسراً ، كي يكسبني رضاء ربي ، ولم أكن أعي ما أسمع ، هو في وادٍ ، وأنا في وادٍ غيره ، فحقَّ علي قوله سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦] . .

وحيث أنشأني والدي منذ نعومة أظفاري على منهاج الدِّين القويم ، فأمرني بالحجاب . . وكنت ألبسه على أنَّه عادةً ، ومن التقاليد . . ألبسه من أجل رغبة والدي ، وحرصاً على إرضائه فقط ، لا على أنَّه من التكاليف الواجبة ، الَّتي يثاب فاعلها ، ويعاقب تاركها! لأنَّني لم أكن أدرك الحكمة من مشروعيته ، وكنت أتساهل به ، وأتضايق منه أيَّما ضيقٍ ، وذلك لأنَّني لم أتيقَّن بعدُ وجوبه ، وأنَّه فرضٌ من الله .

وقد كان بعض أقاربنا يلومون والدي رحمه الله على شدة تعصبه ، وتزمُّته بأنَّه لم يعطني ، وأخواتي حرِّيتنا ، ولا يدخل بيته وسائل التَّرفيه ، مثل التلفزيون ، والمسجِّلة ، وما شابه ذلك على الرَّغم من ثرائه الكبير ، ولكنَّه لم يكن يبالي بأقوالهم؛ لأنه لا يهتمُّ إلا بأوامر خالقه ، ونواهيه . أما أنا فقد كنت أفضل المكوث في بيوتهم فترات طوال بين حينٍ وآخر ، لأنَّني أجد عندهم مُبْتَغايَ من الحرِّيَة ، والتَّفلُّت من ضغوط والدي ، فكنت في عالمٍ آخر . . إذ وظَّفتُ ملكاتي فيما يرضي غروري في السَّير على هواي . . في نوم ، وخروج إلى السينما ، والأسواق مع رفيقات بعيداتٍ عن التديُّن . . وكُنَّ على شاكلتي في التَّكالب على مغريات الحياة . .

هذا . . . ومضت السِّنون على هذا الحال الَّذي اصطبغت به معيشتي

إلى أن زوَّجني والدي! زوَّجني زواجاً غير واعٍ، ولا مدرك! زواجاً غير متكافئ.. تزوَّجت في سنٍّ مبكِّرةٍ، وأنجبتُ أطفالاً أنسوني نفسي في غمرة فرحتي بوجودهم.. ولأنَّني أعشق الأطفال، وأحبُّ تربيتهم، فقد مارست معهم جزءاً هامّاً، ورائعاً من إحدى هواياتي المتعدِّدة، وهي حبُّ المطالعة؛ الَّتي تعد من أرقى الهوايات، حيث صقلتُها ونمَّيتُها بقراءة الكتب المتخصِّصة في علوم النَّفس، والطِّبِّ، والمجلاَّت التي تهتم بتوجيه ربات الأسر، وتأهيلهنَّ كي يصبحن ماهراتٍ في إدارة بيوتهنَّ، وإرشادهنَّ إلى أساليب تربويةٍ مثاليةٍ، وذلك بعد أن تزوَّجت، وتنبَّهت لمَسؤوليَّتي تجاه أولادي.

وبما أنَّهم أعزَّائي فقد حقَّقت ذاتي بهم، ولم آخذ حظِّي من الحياة بما تهواه نفسي، وتتوق إليه إلا في حدودٍ ضيِّقةٍ جداً.. لا تشبع نهمي في حبِّ الحياة، ولا ترضي طموحاتي، فقد كانت غريزة الأمومة تُكَبِّلني بقيود المحبَّة، والاهتمام بأولادي، فتناسيت حقوقي الطَّبيعية، ودفنت رغباتي في سحيق خلَدي، وأغفلت عيني عن تطلُّعاتي، وأرجأت تحقيقها حتَّى حين.. كي أتفرغ للاعتناء بأولادي قرة عيني.

وكبر أولادي، وسافروا إلى بلاد الغرب لتحصيل العلم، وليشقّوا طريق المستقبل.. حينها شعرت بالوحدة الحقيقيَّة، وبأنَّه قد حان وقت تعويض ما فاتني من حقوق لإنسانيَّتي، وما أخمدت من شوق لممارسة حياتي بما ترغب نفسي، الَّتي ما فتئتُ أمنِّيها بالإفراج عنها من ذلك السِّجن الَّذي قَسرتُها على الدُّخول فيه، فمكثتْ سنواتٍ طوالاً مستكينةً على مضضٍ، نتحيَّن معاً الفرصة، والظَّرف المناسب للانطلاق سويَّةً؛ إذ كنت أسارع إلى خنقها كلَّما برزت لتؤرق مشاعري، وتحرك فيها

ما أتناساه ، متسلحةً بحبل الصبر المتين ، كيف لا . . ومصلحة الأبناء تفوق كلَّ مصلحةٍ ، فكلُّ هذا لم أعد أستطع على تأجيل تحقيقه صبراً .

وبما أنَّ طموحاتي قد ملأت ساحة نفسي ، فقد بات لزاماً عليَّ الانسحاب من حياة زوجي ؛ الذي لم تكن جبلَّته تتوافق مع جبلَّتي في أيِّ جانبٍ ، وكنت أعتبره المسبب الأوَّل في حرماني من متع الحياة ، فقد كان شاباً جاداً إلى أقصى الحدود ، متَّزناً ، وهادئاً . . ورغم صغر سنه كان يجاري بذلك رجلاً بلغ السِّتِّين من عمره ، فنتج من جراء ذلك هوةٌ سحيقةٌ باعدت بين عقلينا ، فتباينت مفاهيمنا ، وتباعدت نظرتُنا إلى الحياة برمَّتها ، وأصبح الفرق بيننا شاسعاً ،ولاستحالة الاستمرار على هذه الحالة ؛ عرضت على زوجي أن يحاول كلٌّ منا البحث عن نصفه الآخر الَّذي يتناسب مع ميوله ، لينام على الجانب المريح له .

وبما أنَّه يتمتع بقدرٍ من الأخلاق الحميدة ، ولم تكن لديه تطلُّعاتٌ ؛ رضي بما قسمه له ربُّه من العيش ، فجعل منِّي الجانب الَّذي يرتاح عليه ؛ وهو سعيدٌ . . . وحاول أن يثنيني عن رغبتي هذه بطرقٍ شتَّى . . . ولكنَّه ما كان ليفلح في ذلك . . . وقد نفخ الشَّيطان في رأسي ، وتمكَّن من عقلي ، ووجداني .

وبعد وفاة والدي تركت الصَّلاة ، ومن ثمَّ خلعت الحجاب ، الَّذي كنت أضعه بطريقة تجعلني أكثر جمالاً ، وفتنةً . . وكان رميه حلماً يداعب خيالي! والآن صار ذاك اللعين إبليس يدفعني لخراب بيتي ، فقد تمكَّن مني ، وأحاطني بجنوده ، فغيبني عن عقلي ، ورشدي بحاجزٍ منيعٍ عن سماع أيِّ نصيحةٍ ، أو موعظة ، كلُّ الناس في نظري على خطأ ، وأنا الوحيدة على الصَّواب ، كنت أنسب إخفاق الحياة الزَّوجيَّة إلى الكبت ،

والعُقَد من آثار أساليب التَّربية القديمة؛ الَّتي استعملها أهلُنا معنا.

إذاً لا بد من التَّحرُّر، ولم أعد أفكِّر إلا بتحقيق رغباتي الشَّيطانيَّة!! وجعلتني جهالتي أؤمن بمقولة: «ولكن تؤخذ الدنيـا غلابـاً»، فانطلقت بكلِّ قوى ملكاتي إلى ما زُيِّن لي من الحياة، فضللت السبيل ضـلالاً بعيداً.

لم أكن أعي أنَّ كـلَّ شيءٍ يقـدِّره الله عز وجل تقديـراً.. حيث يقول في حديث قدسيٍّ مأثور: «عبدي! أنت تريد، وأنا أريد.. فافعل ما تريد، ولا يكون إلا ما أريد». وقوله المُنْزل: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْۚ﴾ [الصف: ٥]!! وأمام إصراري حصلت على حرِّيَّتي.. أطمح أن أحظى بإنسانٍ يوافق جبلَّتي، ومزاجيَّتي المتطلبة لكلِّ جديد.

ركبتُ زورقَ الأمل؛ لأقطع مشوار حياتي الجديدة، دون أن أمسك بيدي أيَّ مجدافٍ ليساعدني على الوصول إلى تحقيق أهدافي، وغاياتي.. واجهتني العواصف القويَّة، والرِّياح الشَّديدة، وعانيت من طمع المغرضين، وكذبهم، ودناءتهم، ومحاولاتي صدّهم عنِّي بما لا يخطر على بالٍ، ولا أدري إلى أين المصير.. ومصير الإنسان يهمُّه.. ويعنيه ماذا سيصير.. إنَّه شقاء القلب المثقل؛ الَّذي أتعبه المسير، وأنا في زورق حياتي التقيت بالإنسان؛ الَّذي وافق تطلُّعاتي، ورغباتي، بما يفوقني حبَّاً لمتع الحياة، فتفجَّرتْ في داخلي ينابيعُ الشَّوق، فركب زورقي، وأخذنا نتنقل من محطَّةٍ إلى محطَّةٍ.. نغوص في بؤرة الأقذار، وننتهك الذُّنوب انتهاكاً عشوائياً بصورةٍ ماجنةٍ غيرعابئين بشيءٍ! وأطلقنا لنفسينا العنان، وتمادينا في العصيان، وليكن من بعدنا الطُّوفان!

فكانت أيَّامنا كلُّها عثراتٍ، وأعمالنا كلُّها مخالفاتٍ، نرتع في لظى

شهواتنا ، وندوس بأقدامنا المبادئ ، ونتمرد على الأعراف ، وأوغلنا في طريق الفساد حتَّى الثُّمالة.

أخذنا نتيه في ظلماتٍ نحن صنعناها ، واخترنا أن نصير إليها ، حِدْنا عن طريق الحقِّ. . بل عاديناه ، وعصبنا أعيننا بمنديل الباطل ، فلفَّنا ظلامٌ ملأ نفوسنا ضلالاً ، وسرنا في الحياة كبهيمة الأنعام؛ إذ أطلقت نفسي على سجيَّتها فانفلتت من عقالها لتنهل من نعيم الدُّنيا ، تروي ظمأها في نشوةٍ ساحرةٍ ، تريد أن تحقِّق وجودها في هذه الحياة الرائعة الحسن ، والجمال ، رافضةً أن تحكمها أيُّ ضوابط ، فأصبحتْ كالبركان العارم ، يجرف بتيَّاره كلَّ مَنْ يحاول الوقوف في طريقه ، فانتفَضتُ كما اللَّبوة الكاسرة ، تريد أن تفترس كلَّ العقبات ، جعلتني ممَّن شبههم ربُّ العالمين بالحُمُر المستنفرة ، التي فرَّت من قَسورة ، لم تعد تفيدني عظةٌ ، ولم يعد عقلي يستمع لحكمةٍ. .

فكنتُ كمن يَتَخَبَّطه الشيطانُ من المَسِّ ، فلا أَدَعُ إثماً إلا فعلتُه ، ولا أتجنَّبُ معصيةً إلا ارتكبْتُها ، بعد أن غيَّبني اللَّعين عن عقلي ، وديني ، فكم ، وكم تسببتُ في خراب بيوتٍ ، أو زعزعتها بسبب مظهري الملفت للنَّظر؛ الذي ما إن يراني رجلٌ ضعيف الإيمان إلا وتنقلب حياته ، فلم تعد تروقُ له زوجتُه ، وتلك كبرى آثامي.

وكان كلُّ ذلك في سبيلِ إشباع غُروري ، ونَهَمي في تحقيقِ رغباتي الشَّيطانيةِ في التلهِّي بالمرَحِ ، والرَّقص ، وشدٍّ للأنظار إليَّ بمؤهِّلاتي العابثة ، والتي كلَّما حقَّقْتُ منها شيئاً؛ قالتْ لي نفسي: هل من مزيد؟! أخذني بريق الدُّنيا الغرورة في لعبٍ ، ولهوٍ ، وتفاخرٍ ، فحظيتْ دنياي بالنَّصيب الأوفر من عمري ، ضِعْتُ في متاهاتها ، وخضعتُ للشَّيطان ،

واستسلمتُ لإغوائه. فطغى عليَّ بالأفكار السَّيِّئة، والعمل المحرَّم، وزيَّن لي عملي كدأبه مع جميع أوليائه، فجعلني أتوهَّم اعتبار نفسي شريفةً جداً، وعفيفةً بدرجةٍ عاليةٍ! ومنزَّهةً عن المطامع الدَّنيئة.. بعدم ممارسة ما كنت أشاهدُ، وأسمعُ عن سلوكِ أكثر سيِّدات المجتمع المخملي الرَّفيع المستوى.. من فرطٍ في التَّدنِّي الأخلاقيِّ، وأنقى من اللاتي كنَّ من عائلاتٍ كبيرةٍ الشأن في المجتمع، ويخطفن أزواج صديقاتهنَّ، أو أقاربهنَّ بطرقٍ معيبةٍ ومخجلةٍ.

إنَّني فقط أمارس حياتي بتحقيق وجودي في الدُّنيا بما وهبني الله من نعمة الجمال، وبراعة المواهب، وعلى النَّحو الَّذي أرغب، بعيدةً كلَّ البعد عمَّا تفعل أولئك الكثيرات اللاَّتي يمارسن حياتَهنَّ بأشكال مشينةٍ، وأهداف متدنِّيةٍ. فلا حرج إذاً بتحقيق وجودي، وممارسة رغباتي بالمرح البريء، طالما غيَّب عنِّي اللَّعينُ هَدَفَ الوجود.

وبَعْدُ.. فقد مرَّت سنواتٌ طوالٌ والحال على هذا المنوال، لا بل زاد، واستطال، في عالم الوهم والخيال.. وهم يفرزان سيئ الأعمال! فالذي كان أمنيةً، ورغبةً، وحُلماً أصبح حقيقةً، وعادةً لنمطٍ حياتيٍّ لا أرغب في الاستغناء عنه؛ طالما أنَّ وليي هو اللعين الخبيث القائل لربه: ﴿ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧].

مع أنَّ الله تعالى أنذرنا بقوله: ﴿ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴾ إلى قوله فيها: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴾ [الزخرف: ٣٦ـ٣٨].. الذي سيقول يوم القيامة

لأتباعه: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وسلكتُ سبيلاً متفرِّعاً ليس له من نهاية، كلَّما اعتقدْتُ أنَّني نِلْتُ مُرادي في أمر؛ أَجدني سلكْتُ فرعاً آخرَ من فروع الشيطانِ المزروعة بحبائله الشائكة، فإذا بي أقع في الفخِّ، فأَغْرَقُ من جديدٍ في كيدِ ذلك اللَّعين.

نسيت الله، فنسيني من عنايته، وتركت الله فتركني إلى الشيطان يعبث بإرادتي، فلم يعد يكفيني أن أمارس هواياتي في سهراتٍ نسائيَّةٍ، بل ذهبت إلى نطاق أوسع يشبع غروري تحت مسمَّيات التَّطوُّر، والتَّحرر، والتمدُّن! وخلعت برقع الحياء الذي كنت أتحصن به، فأصبحت أسرح، وأمرح في وسطٍ مختلطٍ، جاعلةً من زوجي مِجْدافاً طيِّعاً، وجسراً موصلاً لتحقيق كلِّ ما تشتهيه نفسي، وأصبح غروري، وكبريائي يمنعاني من الاختلاط إلا بمن كُنَّ على شاكلتي من المتعالين في الرُّقيِّ المغرور.

على التناقض الدَّائم والمتنوع أعيش مع سائر أموري! فأنا الآن بين نقيضين؛ من بين مُتناقضاتي الكثيرة التي تغلف حياتي، إنَّني أحسُّ بأنَّ جسدي في مكان.. وروحي في مكان آخر، تتراءى لي أشياء في ضبابيةٍ لا أستطيع كشف حقيقتها بوضوح.. صرت أتمتَّع بملذات الدُّنيا بجسمي؛ وروحي، منفصلةٌ تماماً عنه، مستقلةٌ عني برؤيتها المغايرة لتصرُّفاتي، فكثيراً ما كانت تكبت همَّتي لتبدِّد رغباتي، وتخوِّفني بشدَّةٍ ممَّا سألاقيه من مصيرٍ مرعبٍ لكثرة ارتكابي للمعاصي، وانغماسي بالمحرَّمات.. فلا تدعني أهنأ بأدنى سرور، حتَّى لا أركن إلى أوهامي بالسَّعادة المنشودة، والتي لم أوفر لها سبيلاً يوصلني إليها إلا سلكته، ولكن عبثاً!! فكانت

تنغِّص عليَّ، وتكربني في أوج فرحي، ومرحي.. لا تدعني وشأني للحظةٍ، على الرَّغم من تحذيرات (الأنا) وصدِّها عني، فكثيراً ما كانت تتصادم معها أناتي، وتقول: دعيها تتمتَّع، إنَّني أدعوكِ أن تنضمي إلينا؛ كي نساعدها لتأخذ حصَّتها من نعيم الدُّنيا؛ التي خلقت بزينةٍ رائعةٍ من أجل الله، فيها التَّمتُّع بِجَميلها، وبهجتها، ألم تعلمي أيَّتها الرُّوح بأنكِ تحرمينها من جوهر الحياة، وتبعدينها عن سرِّ الوجود! ألم تسمعي من يقول بأنَّ الموسيقا، والطرب هما غذاؤك؟! أيَّتها الرُّوح المتزمتة! انسجمي معنا لنكمل نحن الثلاثة بعضنا بعضاً.. فتأبى روحي الانصياع لهذه الدَّعوة الخاطئة، والاستسلام لتلك النَّصيحة المضلَّة.. فتخنق أناتي باستمالة روحي العنيدة والمتصلبة لإغراءاتها؛ لأنَّها متعصبةٌ لمبدئها، ومعتدَّةٌ به.

فتحوَّلتْ عنها، واستفردتْ بنفسي الضَّعيفة لتغريها، فتحثَّها قائلةً: دعيها وخذي حظَّك من دنياكِ الَّتي خُلِقَتْ من أجل إمتاعك، خلقت لتعيشيها، فالحياة جميلةٌ، وأجمل منها جمالُك، والدُّنيا مشرقةٌ، وأتمُّ منها إشراقك.. ولا زالت روحُ الصِّبا، والشَّباب تنبع من ملامحك، وبفيض من الحيوية تمدُّك، ويتفجَّر بالحركة، والمرح نشاطك، فيبعث البهجة، والسرور لمن حولك، ويتألَّق الذَّكاء، والبهاء من لمحاتك، فالأجدر ألّا يحجبوا نِعَمَ الخالق عن خلقه أمثالك، دعيهم يمتِّعوا أنظارهم بجمال الكون من خلالك، وشنِّفي آذانهم بعذوبة صوتك، وأتحفيهم برقي مظهرك، وبجميل حديثك.. وانفعيهم بخبرتك من مواعظ، ونصائح كي يماثلوا حيويَّتك.. وبدِّدي همومهم بفائق مرحك.. أنسيهم مشاكلهم، وأحزانهم، فأنت مليئةٌ بالخيرات تفوق ما للشَّابَّات، ثم إنَّ الكرم من طبعك.

ومن ثم ستطربين مسامعك بترانيم الإعجاب ، ولك الأجر ، والثواب ، لأنَّك تذكِّرينهم بخالقهم الوهاب . . كلَّما نظروا إليكِ يسبِّحون بحمده ، ويقولون : تبارك الخلاق فيما خلق ، ويصلُّون على نبيهم الكامل المُكمَّل .

أليس هذا شأنك ، وما تسعَيْن إليه منهم؟! أليس هذا حالهم معك على الدوام؟!وشهوة لفت الأنظار والتلذُّذ بها . . واستعراض محاسني أمام العيون الحيوانيَّة . . والتباهي بمؤهِّلاتي .

كان يملأ الأنا منِّي زهوَّاً ونشوةً ، فتحثني على المزيد ، فحب المديح قاسم مشترك بيننا ، وليس سرّاً بأنَّ كلمات ونظرات الإعجاب لها وقعها في النفس المغرورة . . فتملؤها غبطةً ، وتزيدها هياماً؛ لتشبع غرورها . . فالمديح يسكب في الأعماق نشوة تشحذ الهمَّة ، وتجدِّد النشاط لعمل الأكثر .

أنفقت الكثير من وقتي ، والكثير الكثير من مالي أنفقته بذخاً ، كانت أيَّامي عامرةً باللهو وبالفرح . . كنت أعدُّ نفسي مسؤولةً عن إسعاد الآخرين ، فأشارك بما عندي من مواهب ، وأختلق مناسبات التلهِّي؛ كي أشبع غروري فيهم ، فأوهم نفسي بأنَّني مصدر سرورهم ، مع العلم أنَّني كثيراً ما كنت أسمع تعليقاتٍ حاسدةً ، وتقريعاً حاقداً مغرضاً ممَّن ليس بمقدورهنَّ مجاراتي .

وقد سمعت من قالت مرَّةً : ألم تَمُتْ هذه بعد!! كن يشتهين لي الموت ، حتى يتخلصن من هذا النموذج الفريد ، والغريب؛ الذي أتعب نَفسيّاتِهنَّ ، وأثار غيظهنَّ ، وأحبط مساعيهنَّ في مجاراتي ، فأضرب بما سمعت عرض الحائط ، وأبتلع جرحي ، وأكتم غيظي ، وأعزِّي نفسي بأنَّ

وجودي بين هؤلاء حقيقةٌ لا يحتملن تصديقها!! وأكثرهنَّ للحقيقة كارهات! وللكذب مصدِّقات، لا بل محبّات! فأنا أرفض ارتداء الأقنعة، وأتعامل معهنَّ بصدقٍ، وشفافية.

والحقيقة الأخرى والأهم هي أنَّني لا أستطيع العيش من دون مثل هذه النَّوعية من النَّاس، أو البعد عنهم، فهم حقيقةٌ لحياتي، ووجودي، فأنا بحاجةٍ كبيرةٍ إليهم على الرَّغم من مساوئهم، لأنَّني من غيرهم لا شيء.. فهم جمهوري الَّذي أُفرغ مواهبي أمامهم على مسرح الحياة، وأحقِّق ذاتي بينهم، وأشبع غروري منهم، ثم ينتهي المشهد فأؤجر بالتَّصفيق الحاقد، ويسدل ستار المسرح في كلِّ ليلةٍ على نغمٍ جديد من التوتُّر التأنيبيِّ، أحمله في داخلي، وأجرُّه إلى فراشي، فيؤرق منامي وصَحْوي.. فبينما نفسي تغني فيها الأماني.. يكاد أن يقضي عليها المغرضون، ولكنني أعود للتصبّر والتناسي كالعادة.

وأُشهِدُ اللهَ.. أنني عندما أكون في أشدِّ نشوتي في تحقيقِ ما أريد وأتوَهَّمُ التمتعَ والسرورَ، كان خوفٌ دفينٌ يعتريني يُذَكِّرني بالله!! شتَّانَ بين مضموني وبين ما أُوْهِمُ به مَن حولي من سعادةٍ زائفةٍ، فمن أين لي تلك السعادةُ وأعين الحساد تحيط بي، وكلامهم يثقب أذني، فالرجال يحسدوني على مالي، والنساء تحسدني على مواهبي وجَمالي.

وكم استغربت هذا الحسد الذي لم أكن أعرفه وما أحسست به يوماً في حياتي لأحد، وتحدثني نفسي: لماذا يحسدونك على ما مَنَّ الله به عليك؟! هل ترى خصَّكِ الخالق العظيم بشيء لا يستطيع أن يمنحه أو يكرره مع أحد غيرك؟ فأجيب حاشا لله العزيز الوهاب ذلك.. إذاً بوسعهم أن يسألوا الله فيعطيهم ما أعطاني، ويهبهم ما وهبني، وهم يعلمون أنَّه

ما من حَسَنٍ في الدنيا إلا ويوجد الأحسن منه ، وما من شيء إلا من فضلِ الله!! فأحتقر نفسي الضعيفة. . وأشعر بنفور ممن حولي أتمنى معه ألا أرى منهم أحداً. . ولكنَّه العنادُ والتعوُّدُ على منهجٍ خادع ، فأُبعِدُ تلك الوساوس ، وأنزعُ المخاوفَ من مصيرٍ سيئٍ حقاً ، وأُنحّيها جانباً ، وأُلهي نفسي بمُجونٍ من نوعٍ آخر حتى ترغَبَه؛ لأنَّها ملَّت كلَّ شيءٍ ، كي تنسى مخاوفَها ، واحتقارَها لذاتِها ، ولمن معها.

وكنتُ في الوقت ذاته أُوَيِّدُ ، وأغْبط كلَّ فتاةٍ ، أو امرأةٍ متديِّنة ، ومتحجِّبةٍ ، وملتزمةٍ في سلوكها ، فأَشعر بأن قلبي يئنُّ ببكاءٍ صامتٍ حزين ، مُحرِقٍ عميق ، وبحسرةٍ تعتصرني ، وبإحساسٍ ممتزج بالاحتقار الشديد يشمل أحوالي كافة كلَّما رأيت إحداهنَّ تلبس حجاباً ، ولكن لماذا؟ هل أريد خَلاصاً؟ وأنَّى لي هذا؟ وكيف العدولُ؟! وقد تعوَّدتْ نفسي الحريةَ المطلَقةَ ، والانفلاتَ من العرف ، والقيودِ الاجتماعيَّة ، والاستهتارَ بالواجباتِ الدِّينيةِ.

كان في داخلي إلهاماً لم أعطه أُذناً صاغية ، كنت دائمة التفكير بسوء الخاتمة ، وفي المقابل كنت دائمة الاستعداد لتلبية دعوة الشيطان ، أعلم: أنَّ أمامي طريقين. . طريق الإيمان الموصل إلى الجنة ، وطريق المعاصي ، الموصل إلى النَّار ، وأنا الآن أقف بينهما. . فأيّهما أختار؟. . العقل يأمرني باتباع الطَّريق الأول. . والنَّفس الأمَّارة بالسُّوء تأمرني باتباع الطريق الثاني ، وتمنِّيني ، وتقول لي: إنك ما زلت في ريعان الصِّبا ، وباب التوبة مفتوح ما زلت على قيد الحياة ، فبإمكانك المضي في رحلة الغفران ، والتوبة فيما بعد! فتجدني أهرع ، وأنسى.

تغلغلتُ في إعراضي ، وامتطيتُ جناح الخيال متنقلةً على متنه من

ظلامٍ إلى ظلام، ناشدة الوصول إلى السَّعادة، فصرت أؤجلُ فكرة الالتزام، والتَّديُّن، وأسوِّف إلى أن يشيخ قلبي وتشيخ نفسي المفعمين بالشباب.. فكنتُ إذا سمعت نداءً للصلاة، أو تلاوةً للقرآن الكريم، أو حديثاً دينيَّاً، أُصِمُّ أُذنيَّ، وأحاول إبطالَ المنشأ؛ خوفاً من أن أهتديَ، وحتى لا ينتابَني ذلك الخوفُ من مصيري مع خالقي، ويزداد احتقاري لمساوئي، و يتضاعف هذا الشعور على مدى الأيام، ويا له من صراعٍ مخيف!

ثم أهرب بسرعة من تأنيب ضميري إلى شيءٍ ينسيني، فألجأ مجدَّداً إلى إلهاءِ نفسي بأيِّ عملٍ يُشغِلُها عن هذا التفكيرِ؛ لئلا أدعَ شيئاً من تلك الأمورِ يتسرَّب إلى عقلي، فيهيِّج تلك المشاعرَ التي تكاد تفتك بي، وكان لي من الله عزَّ وجل على مدى تلك السنين هزَّاتٌ، وصدماتٌ، وتنبيهاتٌ؛ إذ ساق لي من الشَّدائد، والفواجع ـ سأذكرها لاحقاً ـ علَّها تدفعني للالتجاء إليه.

وقد كان ربّي يحميني، ويُنجِّيني في مواقفَ خطيرةٍ لا أستأهلُ رحمتَه فيها، فأعلمُ: أنَّ الله يُحبُّني، ولا يريدُ ضرري.. وما أبلغ هذه الآيات الواصفة لغفلتي: ﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٦]. ﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾! [الأعراف: ١٦٨].

إنَّه سبحانه يذكِّرني فقط، ويدعوني إليه، ولكنِّي لست مهيأةً للاستجابة؛ وأنا على هذه الحال من الفسوق، غارقةً في عالم المغريات.. فحبُّ الدنيا، ومتاهاتها، والملذَّاتُ على أشكالها قد مدَّت جذورها في أعماقي، فأخذتْ مني كلَّ مأخذٍ، وطوّقَتْني، فشملتْ كلَّ

حياتي ، تأصَّلتْ في نفسي ، واستحوذتْ على تفكيري ، حتَّى غدوتُ لا أستطيع التخلِّيَ عن هذا الانفلات؛ الذي أَعيشُه أبداً ، بل صار المستحيلَ بعينه ، فعدت كما اعتدت. . لا أعرف التقيُّدَ بنظام الكون ، نهاري ليلٌ. . وليلي نهارٌ.

وكم كنتُ أكره نومَ الناس في الليل لأنني أريدهم حولي ، أستأنسُ بهم ، وأبقى معهم حتى الصباحِ كي أَكْسرَ وحشةَ الليلِ بسلواهم ، وسكونَه بضجيجهم ، وأبدِّد ظلامَه بصَخِبنا في ظلمات المعاصي ، وعلى الرَّغْمِ من ذلك كنتُ عندما أرى الرَّاقصين على حَلْباتِ المراقِصِ الليلية؛ التي أدمَنْتُ السَّهرَ فيها لتحقيق التغيير ، والتنويع؛ كنت أرى فيهم صوراً من عفاريتِ الليلِ تقفز أمامي متراقصةً ، تتمايل بنشوةِ المسِّ الشَّيطانيِّ الذي أفقدَها صوابَها ، وجعل منها أُضحوكَةً ، ومصدرَ استهزاءٍ لمن يراها؛ وهو متمتِّعٌ بنعمةِ العقل الواعي ، فيحتقرُ تلك الأشباح ، ويحتقرُ وجودَه بينهم.

وعندما أُشاركُهم مجونهم بإلحاحٍ منهم؛ كنتُ أرى نفسي شَيطانةً في ثوبِ الإنسِ ، سخَّرها وليُّها إبليسُ لإغوائهم ، ولزيادةِ جرعةِ النَّشوة فيهم ، فتستلبُ منهم إعجابَهم بمواهبِها ، وجمالِها ، ممَّا يُرضي غرورَها الدَّنيءَ ، ويُشبع رغبتَها الشَّيطانيةَ بالاستئثارِ بقلوبِهم ، والاستحواذ على اهتمامهم ، فأُلهبُ مشاعرَهم بحركاتٍ راقصةٍ مركَّزة مستوحاةٍ من «أستاذي» إبليس اللَّعين ، ويحصُل مرادي في تحويلِ كلِّ مَن حولي من الرِّجال عن صديقاتهم ، أو زوجاتِهم ، وبداخلي يتآكلُني المقتُ من قِلَّة عقولهم التي سلَبَتْها منهم كؤوسُ الخمرِ ، فأصبحوا مع كِبَر شأنهم في المجتمع أُلعوبةً في أُصبُع امرأةٍ تتلهَّى بتدنِّي شخصياتهم الرَّفيعة أمامها ، كرهتهم ، وكرهت نفسي الغارقة في الضلال ، تباً لهم ، ولعقلي الصغير!

معذبةٌ أنا ما بين بين. . إنسانةٌ تعسةٌ أرتدي أثواب الفرح ، والسَّعادة. . حائرةٌ في غرابة أمري ، لا أدري ما هذا الكرب ، والاستياء الذي ألمَّ بي؟ كان هناك شيءٌ غامضٌ يقتحم مشاعري ، ويرفض عملي ، وما يحصل منّي. . وأنا في غمرة انغماسي معهم ، فَقَلَبَ رؤيتي ، وحوّلَني من مشارِكةٍ ، ومشجِّعةٍ. . إلى منتقدةٍ مشمئزةٍ ، ونافرةٍ ، وأبهتَ حماسي للموسيقا والرَّقص ، وأفقدني الإحساس السَّابق ، لا أشعر بأيِّ شيءٍ ، كلُّ شيءٍ بلا طعمٍ ، وبلا لونٍ ، بل جعل بداخلي إعصاراً من الحيرة المضنية. . ثم يُرجع إليَّ الوعي الذي راح يلهث وراء المنكرات. . فتنقلب مفاهيمي في لحظات ، فأرى أشياء ، وأموراً عوجاء يجب تقويمها.

حتَّى إنَّ زوجي الذي كان يتباهى بي أمامَ أُولئك الشياطينِ ، وكنتُ فرحةً معه ، وفخورةً بذلك؛ بت أحتقره؟! أحتقرُ فيه استجابتَه لرغباتي ، وتطويعَ نفسه لأمري لشدَّة حبِّه لي ، وأيضاً تحقيقاً لمآربه الشَّخصية من أُولئك ، على حساب شرفه ، ونخوته ، إنَّه يجهلُ وبكلِّ تأكيدٍ الحبَّ الحقيقيَّ الذي من مقوماته المحافظة على الحبيب. . ويجهلُ: أنَّ المرأةَ عندما تحبُّ تطوِّع نفْسَها لمن تُحبُّ ، وعندما تكره تطوِّع من يحبُّها لأمرها ، ثم تسخَرُ منه ، وتحتَقِرُه.

ولم يعلم زوجي مدى استصغاري له؛ إذ جعل رجولته رهنَ إشارتي ، ولم يعلم بأنَّني كأيِّ امرأةٍ في الوجود ، لا تُحبُّ في زوجِها إلا الرُّجولةَ الحقَّ ، والشَّهامةَ التي يَصونُها بها ، ويحميها من شرّ نفسها ، ومن حماقات الآخرين ، لتشعرَ بالأمان ، والاستقرار. . وبما أنَّ فاقد الشيءِ لا يُعطيه ، فأنَّى له ذلك برجولةٍ ممزَّقةٍ قد أذابها أمام كبريائي ، وتطلُّعاتي ، ووضعها تحت قدمي تسحقها تلبيةً لرغباتي ، وبرهاناً لمحبَّتي ، وكَسباً

لقلبي ، فيُضحِّي بأعزِّ ما يتمتَّعُ به الرَّجل (العقل ، والإرادة ، والشرف) . . ألم يعلم بأنّ كيدهنّ عظيم؟! وأنَّهُن حبائلُ الشُّيطان ، يحيط من خلالهنَّ بمن يريد استغلالهم ، وإذلالهم ، ويُسخِّرُهُنَّ لإغوائهم ، حتى يكونوا من أَتباعه ، ثمَّ يَخنِقُهم بتلك الحبال عن طريق بثّ البغضاءِ بينهم ، فيفرِّق بين من كانوا أحبَّةً؟! وقد أخبرنا العليم الكبير سبحانه ، وأعطانا المناعة الواضحة للَّذين يتفكَّرون قائلاً : ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣] .

إذاً . . فلا عجبَ من التفكير في الخلاص من رجلٍ كهذا ، ولا بُـدَّ من الطَّلاق . . وقد كان . . وهكذا كنت على الدوامِ أعيش مُتناقضاتي ، أَعيشُ ضمن دائرةِ التَّـوتُّـر لا أَنعُم بشيءٍ من حولي ، ولا أُحِسُّ طعماً لسعادةٍ ، وتائهة مع نفسي ، لا أعرف ماذا أريد ، ألهث وراء ضبابٍ ، تارةً أطير في سماء الخيال ، والأحلام ، وأخرى أغرق في بحر المخاوف ، والأوهام ، فقط أبتغي قتل الوقت؛ الَّذي يمضي عليَّ بطيئاً مقيتاً؛ لما يُحيط بي من أسباب الاشمئزازِ ، والمَللِ ، إلهي! ما هذا الشقاء؟!

وقد بقيت في زورقي وحيدةً مدَّةً طويلة ، بعد أن ألزمت مغادرته من حسبته رفيقاً مناسباً لرحلتي فيه ، وسرت في سردابٍ طويلٍ مظلمٍ علَّني أقتبس آخره نوراً يدلُّني على سعادتي المنشودة . . .

وعِشتُ بعد الطَّلاق الثاني حياةً مليئةً بالمخاوفِ من الطَّامعين بي ، متمنيةً زوجاً أفضلَ ، رجلاً بمعنى الكلمة . يستطيعُ أن يحميَني ، ويُبدِّد قلقي من طمع الذئاب؛ الَّذين مِنْ حولي ، ولكنْ أين هو ضمن ذلك الصنف الذي اعتدتُ رؤيته في مجتمعات السُّوء ! لم أعد أرى أمامي إلا رجالاً بلا رجولةٍ ، أشباه رجال يُدير رؤوسَهم ويُذهبُ عقولَهم خيالُ

امرأةٍ! أيِّ امرأةٍ.. تُغلِّف حقيقتَها أقنعةُ التَّمويه من ماكياج، وزينةٍ، وأزياءَ بدهاءٍ أنثويٍّ، دون أيِّ درايةٍ منهم عن مضمونها، لا يُكلّفون أنفسَهم مشقَّةَ الخَوض إلى داخِلِها، ولا النظرَ إلى ما تحت الجلدِ.. فيكتفون بتلك القشورِ التي سرعانَ ما تبلى، وما أسهلَ عليهم من تغييرها والانتقال إلى غنيمة أخرى يُرضي نهمهم الحيواني.

فآهٍ من هذا الزَّمـان كم غرَّنـي، وألهانـي، وأغرقنـي، وأنسانـي، وأحزنني، وأبكاني!

وكانت لي في حياتي حسنةٌ ولله الحمدُ، بالإضافة لحبِّي الشديد لمساعدة الناس المحتاجين، وحب الخير للجميع، فقد ربَّيْتُ أولادي تربيةً حسنةً، فكنت أغرس فيهم القيم الإسلاميَّة، وحبَّ العمل الصالح، وكنت فيما مضى أصحبهم إلى المسجد كي يستمعوا إلى الدُّروس الدِّينيَّة، وأحمل مسجلةً؛ كي أسجل تلك المحاضرات، من باب التَّرغيب، والتَّشجيع؛ لأنَّ ذلك كان يجري وقت صلاة الفجر، لقد كنت على علم من أن زَرْعَ الإيمان، والأخلاق الحميدة في نفوس الأولاد، والنشأة القائمة على حب الله تريحهم، وتريح أهلهم، وفعلاً هذا ما حصل بالضَّبط، فقد اكتسبوا أخلاقاً حميدةً نَيِّرةً، كنت أُحسد عليها من قبل الأمَّهات من معارفي، وكثيراً ما عزوا ذلك إلى الحظِّ، وأنِّي محظوظةٌ بأولادي.. ناكرين لي مجهودي في تطبيق مبادى التَّربية الخيِّرة!.

وخلال سفرهم لتحصيل شهاداتٍ دراسيَّةٍ، وفَّقهم اللهُ بملاقاة أُناسٍ من أهل العلم في دين الله، وصحبوهم مدَّة سني سفرهم، فتعلَّموا منهم أمورَ دينهم بشكلٍ سليمٍ، وتعرَّف أحد أبنائي على فتاةٍ هناك، تدرس الدِّينَ الإسلاميَّ في المسجد؛ الذي يصلِّي فيه، ووجد عندها ميلاً كبيراً

إلى دين الإسلام ، وإليه أيضاً ، وكانت على جانبٍ كبيرٍ من الأخلاق الحميدةِ ، فتزوَّج منها ، وبعد عدَّة سنوات ، دخلتْ في دينِ الإسلام ، ومن ثمّ تحجَّبتْ ، ثم حجَّت إلى بيت اللهِ ، وكانت نِعْم الزَّوجةُ ، ونِعْم المرأةُ المسلمةُ.

وكان أنْ زُرتُهم للاستجمام بعدما اعتراني من جرَّاء الطلاق من عذاباتٍ.. ومكثْتُ عندهم شهوراً ، شاهدتُ خلالها العَجَبَ في أمور هذه الزَّوجة.. بَهَرني إسلامُها ، ومدى طاعتها لزوجها ، ودينُها ، وقوَّةُ إيمانها ، الذي لم أتوصَّلْ ولا إلى ذرةٍ منه؛ وأنا المسلمةُ الأصل!! وكم كنتُ أتحَرَّج من الظهورِ معها في الأماكن العامة ، وعند المعارف لتناقض مظهري مع ما أدَّعيه من الإسلام ، فهي الأجنبية الحديثةُ العهدِ بالإسلام متحجِّبة وفي بلدها غير المسلم ، وأنا المسلمةُ أصلاً تجدني سافرةً ! فلم أستطع المكوثَ طويلاً مع هذا التناقضِ المُحرِجِ ، فاختصرتُ مدَّة الزيارة ، ورجعتُ إلى بلدي تلفَحُني حرارةُ الخجل من هذا الفارق بيننا ، وتركتُ قلبي الذي أحبَّها كلَّ الحُب ، وتعلَّقَ بها.. أبقيتُه عندها ، وتركتُها رغم توسُّلاتها وابني للبقاء معهم؛ لأنها لا تستطيع البعد عنِّي لشدةِ تعلُّقها بي ، وقد قدَّمَتْ لي من الإغراءات ما يجعل أيَّ حماةٍ تعدِل عن ترك مثلِ هذه الكِنَّة الرَّائعة ، وهذه الإنسانةِ النَّادرة ، ولكن أنَّى لي أنْ أستجيبَ؛ وقد كانتْ تناديني أهوائي ، ويصمُّ أُذُنَيَّ شَوقي إلى ممارسةِ ما أدمنَتْ عليه نفسي ، فقد أصبحت أسيرةَ عاداتي المكتَسَبةِ من محيطٍ فاسدٍ ، لا أقدر على الفكاك منه ، ولا العيش على غير منهجه ، حيث أصبح جزءاً من شخصي.. ألم يكن هذا ما برحت نفسي تتوق إليه؟ أليست تلك أحلامي التي من أجلها شتَّتُ شمل عائلتي ، وأعزائي؟! أليست هي طموحاتي الَّتي هدمت كل ما بنيت خلال سنواتٍ في لحظةِ أنانيةٍ ؟! وأنا الأمُّ الرَّؤوم ،

المتفانية في مصلحة بيتي، ومن فيه.

وضحّيت بطفولتي، ومن ثمَّ شبابي، وأحلامي، وجعلت من كلٍّ ذلك جسراً يعبر أولادي من خلاله إلى طريق المستقبل؟ ثمَّ بقرارٍ طفوليٍّ ساذَجٍ غير مسؤول.. جرَّدتُهم من هنائهم، وبدَّدتُ أحلامهم، وحطَّمتُ آمالهم، وحرمتُهم دِفء الحنان الأسريِّ بالطَّلاق.. ذلك الرَّصاص المدمِّر للأسر قاطبةً! ما أقصى أن يختار المرء تحت تأثيرالرَّغبة! وما أصعب أن يسلك طريقاً لا هدف له فيه سوى تلبية نداء الشَّيطان في نفسه! لقد دفعت ثمناً باهظاً من أجل تحقيق ما صبوتُ إليه، فلا مندوحة إذاً من السَّير في نفس الطَّريق، وعلى نفسها جنت بَراقِش.

ولكن ـ والحقُّ يقال ـ كنتُ وأنا في الطائرة أثناء عودتي إلى بلدي مشتَّتةَ الفِكْر، في صراعٍ أليمٍ بين ما تشدُّني إليه عاداتي، وما يعتريني من شعور التأنيب بشأنها.. وبين صورة تلك الإنسانة الملائكية؛ الَّتي تركَتْ دينَ، ولباسَ، وعاداتِ أهلِ بلدِها المتفلِّتِ من القيم الأخلاقيَّة إلا ما ندر منهم، والتحقَتْ بدينٍ، وحِشمةٍ، وعِفَّةِ الإسلام.. لماذا كلُّ هذا؟! لأنّها درسَتْه على عِلمٍ، وتفهُّمٍ لشريعتِه، وأصولِ فِقهِهِ، فأحبَّتْه عن اقتناعٍ، وأخذَتْ كلماتُها عن الإسلام تَرِنُّ في أُذُني طوالَ الطَّريقِ: الإسلامُ جيِّدٌ جداً، نظيفٌ، وهادئٌ، ومُريحٌ، ومنْصِفٌ، وآمنٌ، وأنَّها لم تشعُرْ بالأمانِ، والاطمئنانِ إلا عندما دخَلتْ هذا الدِّينَ، وتزوَّجَت ابني، ولله الفضل.

فبدأْتُ في مقارنةٍ بيني وبينها، أنا كشرقيةٍ مسلمةٍ، وهي كغربيةٍ قد رضَعتِ الحرِّيَّةَ المتفلِّتةَ من ثدي أُمِّها، وطبيعة بيئتها، فتركَتْ كلَّ شيء مقابل حبِّ الله، ودينه، وكعادتي دائماً أهرُب من هكذا تفكير حتى لا يُحبطَ نشاطي، وشوقي، وهمَّتي العالية.. استماتةً في اكتساب

الإعجاب ، وتحصيل الألقاب. . مرَّةً يقال لي: ذاتُ الشباب الدَّائم. و: بعدها مثل الطبقِ الصيني أينما ترِنُّه يَرِن ، و: (بتاع كُلُّه) ، و: أجمل من بنت العشرين ، إلى آخر هذه الألقاب الَّتي عشقتُ ، فكيف أُفَرِّطُ بما تَعِبْتُ في تحصيله . فإنَّني حيث ما حللْتُ أُديرُ رؤوس الشباب قبل الرِّجال ، والفتيات قبل النِّساء ، فلا أُريد أنْ أَخْسَرَ تفوُّقي الدَّائمَ ، وفي كل المناسباتِ . والمجالات كافّة ، لذلك لا أَدَعُ فرصةً لأيٍّ من بنات جِنسي أن تُبرِز ذاتَها بواحدةٍ من تلك المناسباتِ ، كنتُ دائماً أهيمن على الجوِّ كلِّه ، ألفتُ أنظارَ الكُلِّ ، فأجد الفتياتِ على الرَّغم مِنْ جمالِهنَّ مرتبكاتٍ خجلاتٍ أن يُظهرن أيَّ موهبةٍ لديهنَّ أثناءَ وجودي ، ولم أتْركْ مجالاً لأيِّ فتاةٍ أن تأخُذ حَظَّها من لَفت نظرِ أيِّ مُعْجَبٍ ، بل ذلك لي وحدي.

وتعوَّدْتُ أن أأسِرَ اهتمام كلِّ مَن حولي ، من الشلّة وغيرِهم من المعارف ، وبعد أن أخلوَ إلى نفسي أحسُّ بأنانيتي ، وبأنني آخذةٌ نصيبي ، ونصيب غيري على حساب الأخريات. . لمجرّد التَّعالي ، والفوقيَّة ، وأكثرُ ما كان يحثُّني على ذلك لقبٌ: «مثلُ الحَبلاس» كلَّما نضج زاد حلاوةً ، أحببتهُ ، وأحببتُ الحفاظَ عليه ، مع علمي بأنَّني في نَظَر بنات جنسي: ـ سَفَرجل ـ كلُّ لُقمةٍ بغَصَّةٍ! .

أسندت رأسي على مسند مقعد الطائرة ، وغرِقْتُ في بحر الذِّكريات المغبطة ، أتذكر كيف صار لنا «شلَّةٌ» من زوجات ، وأزواج نلهو معهم بين فترةٍ ، وأخرى ، وكيف كنا نتلهَّى بلعب الورق حتَّى الصباح ، وأحياناً نتحلَّق حول طاولة النَّرد ، كلُّ واحدةٍ من الزَّوجات تريد الفوز لزوجها ، وكنت المشاغبة الأولى في تلك المجموعة. . أطلق ضحكاتٍ ، وصرخاتٍ عابثةً ، لتشجيع زوجي على الفوز بتلك اللُّعبة ، فأدبُّ الحماس في زوجات اللاَّعبين ، وتتسرب العدوى إليهنَّ ، فينقدنَ ببلاهةٍ لإطلاق

صيحاتهنَّ ، قياماً بواجبهنَّ تجاه أزواجهنَّ . . فيهيج حماس التنافس بين اللاعبين ، وتتعالى الأصوات ، وتتَّحد متعهدةً بألا تدع على الأرض نياماً ، ضاربين السكون بعرض الحائط ! كلٌّ يريد إثبات جدارته أمامي ، فأنا محور اهتمامهم؛ لأني أحثُّهم على ذلك بدبلوماسيَّةٍ خبيثةٍ .

فكانت عيون الأزواج تكاد تلتهمني ، لفرط أناقتي ، وحيويَّتي ، وعيون زوجاتهم تكاد تبيدني ، أو تقتلعني من مكاني ، وتذهب بي بعيداً عن عيون أزواجهم من فرط الغَيرة ، فتشعرني بنشوةٍ خفيَّةٍ تدعّم غروري ، والمضحك أنَّهنَّ كنَّ يبدين إعجاباً ، واستحساناً بي ، يجاملنني بنفاقٍ مكشوفٍ ، خاصَّةً عندما كنا نجتمع في مناسبة فرحٍ ، أو سهرةٍ عامَّةٍ ، حيث أكون على هيئةٍ لا يستطعن تحمُّلها ، أعرض ما بحوزتي من الأزياء ، والمجوهرات ، والمواهب ، وأنا في غاية مرحي ، ونشاطي ، أتباهى بما تفرَّدتُ به من فِتَن آسرةٍ ، ونجاحاتٍ متنوعة ، وقد استحالت عليهنَّ مجاراتي في ميِّزاتي المتفوِّقة . . حيث يتفاوت الناس في المواهب ، والمَلَكات ، وتابعت مسترسلةً بذكرياتٍ تمرُّ أمام عيني ، تطربني ، وتزيدني غبطةً وابتهاجاً ، أتخيَّلُ تلك الفتاة في ذلك الموقف؛ وهي تبكي من شدّةِ غَيظها لسَلبي منها إعجابَ حبيبها بها ، وتلك الَّتي تركَتْ السَّهرةَ من أوَّلها هروباً من وجودي ، حيث تلاشى كلُّ ما جهدت من أجله لإبراز جمالها . . بنظرة رنت بها إلي ، فهزَّتْ كيانها ! فأخذت أضحك في سرِّي ، وعصف بقلبي السُّرور وأنا في غاية الطَّرب ، تعتريني نشوةٌ تآزرت مع مجريات الموقف .

وهذه المرأةُ الجميلةُ الوجهِ الَّتي كانت تحاولُ تقليد بعضِ حركاتي الرَّاقصةِ ، فوقعَتْ على رأسِها ، فأجلسها أحدهم؛ وهي تبكي ألَماً ، وخَجَلاً ، ومن موقفٍ جعل فلانةً من الشلَّة تتكسَّر من عالي شموخها ،

واعتزازها بنفسها أمام رونقي ، وجمال روحي . . وجاذبيَّتي ؛ الَّتي أخذَتْ لُبَّ صديقها ، فلم يسعها إلا أن تختصر الموقف ، وتلوذ معه بالفرار ، فأُعَزِّي نفسي بأنَّ هذا من نِعَم ربِّي الَّتي منحني إيّاها ، فلا ذَنْب لي إذاً ، ولا دخل بعدم ثقتها بنفسها ، هذه مشكلتها هي ، وتلك ، وتلك. . وتراءَت أمامي صورٌ ، وصورٌ ملأت قلبي غبطةً ، وكبرياءً حتَّى نهايةِ رحلةِ العودة إلى بلدي ، ولم يفُتْني أن أشغل ذهني بإعداد كمٍّ لا بأس به من المفاجآت الجديدة في مظهري ، وتحضير ما يلزمها من حيثيّات . .

وصحوتُ على جرس التنبيه لوصول الطَّائرة إلى أرض الوطن ، فإذا به ينتزعني من سرد الأحداث من ثنايا ذاكرتي . . فوجدتني مبتسمةً ابتسامةً عريضة ، تناسقت مع تخيُّل الأحداث ، فرفعت رأسي المثقل بالأحداث أتلفت يمنةً ، ويسرةً ، وأجول بناظري خجلاً من أن يكون من الرُّكاب من انتبه لما ارتسم على وجهي! فيظن بي الجنون ، ولكن ـ ولله الحمد ـ لم يكن هناك أيُّ شيءٍ . . لعلَّ كلاً منهم له من الخصوصيات ، والتأمُّلات ما يغنيه عن مراقبة الآخرين ، والتحديق في وجوههم؛ لاكتشاف ما يبدو عليها . .

فاطْمأنَنْتُ ، وأخذت ألملم أفكاري المبعثرة بين ذكرياتٍ ، وتخيلاتٍ؛ استعداداً لما أحتاج إليه من تركيزٍ في إتمام إجراءات الوصول في المطار . . وصلتُ داري ، وكُلِّي حنينٌ له ، ولأصحابي من الجِنسَين ، الَّذين انقطعتُ عنهم شهوراً على غير عادةٍ . . فقد سافرْتُ إلى نفس البلد البعيد جداً ، ولكنِّي لم أغِب عنهم أكثرَ من أسابيع قليلة ، وأيضاً في كل زياراتي إلى بلدانِ العالم لا أمكُث في أحدها أكثرَ من أُسبوعين؛ لذلك أَشعر بهذا الشَّوق الكبير إلى لقائي بهم .

* * *

انتفاضة: مرحلة التمرُّد على الأنا

طبعاً كحال كلِّ من عاد من سفرٍ طويل لم أستطع مزاولة أيِّ عملٍ قبل أن آخذ قسطاً من الرَّاحة؛ لانعدام النَّوم تقريباً في الطريق، وتغيُّر المناخ، والتَّوقيت بين البلدان، وفي أثناء هذه الفترة أحسست بشعورٍ دخيلٍ على نفسي، لم أعتده من قبلُ، وجدتُني أحاسب نفسي بطريقةٍ مغايرةٍ، واتِّجاهٍ مختلفٍ، وأسلوبٍ جديد.

لقد اعتَدْتُ التَّحاور الذَّاتي كلَّما خلدت إلى فراشي في حوارٍ ضمنيٍّ، فألومُ نفسي على أحداثٍ، وأعمالٍ لم يستسغها عقلي بعد أن يعود إليَّ؛ وأنا في فراشي! إلى أنْ أغُطَّ في نعمة النَّوم؛ كي أُجدِّدَ نشاطي لمواجهة مواقفَ طريفةٍ، وخَلقِ أحداثٍ جديدةٍ، متسلحةً بتباهٍ عالٍ بما مَنَّ به عليَّ ربي من نعمه الكثيرة.

أما الآن لم يكن هذا محور المحاسبة في برجي العاجيِّ؛ الذي أتَّخذُ فيه قراراتي اليوميَّة، ولم يكن هذا بسبب غيابي عن الجو، فانقَطَع ما يدعو إلى المناقشة مع الذَّات، حيث تنتظرُ حدثاً يكون مادةً للحوار، أبداً! لقد كان هذا دأبي في جميع حالاتي، في السَّفر، والحضَر، لا أنفكُ ليلةً واحدةً عنه، فذلك من أهمِّ عاداتي؛ التي تساعدني على النَّوم.

ولكن الحوار تحول الآن إلى محاسبةٍ، وعلى غير تلك المادة أصلاً،

وتلك النَّوعية السَّاخرة ، والباهتة ، تحيط بي سحابة من التَّفكير العميق في تأمُّلٍ صارمٍ ، أصبح قادراً على هزِّ كياني بطريقةٍ تقشعرُّ لها الأبدان ، علمت أنَّني أريد شيئاً لكن ما هو.

لست أدري ، اختليت بنفسي لأعرف علَّتي ، فقدتُ اللَّذة الَّتي كنت أجدها بين كتبي ، وأحجمت عن هذه القراءات دون سببٍ ظاهرٍ. . فلم تعد تشعل حماسي لها ، وللنَّاس كافَّةً ، أين ضحكاتي المجلجلة ، وحواراتي؟ وشغفي إلى جلسات السَّمر والرَّقص؟ كيف ثقل جسدي بهذا الشكل؟! وبدأت أتساءل. . هذه الموسيقا المنسابة إلى مسامعي لم أعد أشعر بروعتها ، لو كانت غذاء الروح؛ لكانت روحي الآن في روضةٍ خضراء ! وكلَّما أمسكت قلمي ، وحاولت الكتابة ، أَجِدُني أسير بقلمي بشكلٍ عشوائي لخطوطٍ ، وأشكالٍ لا معنى لها ، إلهي ماذا ألمَّ بي؟ أريد تفسيراً يريحني!!!.

وجاء البيان. . . الآن برزَتْ لي ـ الأنا ـ في حُلَّةٍ جديدةٍ. . الأنا الفاضلةُ المحِبَّةُ للخير. . بعد أن جنت عليَّ بغرورها. . كانت على الدوام تحثُّني على أن أكون (نْمَبر وَنْ). . الرقم الأول والأعلى في جميع مجالاتي الحياتيَّة ، أمَّا الآن؛ فلقد اتَّحدت مع روحي؛ الَّتي دخلت معها في مفاوضات كي تدعني ألين لنداء العقل ، ففازت عليها ، واستسلمتْ لها بعد أن أقنعتها برؤيتها المثالية السَّامية.

كانت تبتغي علواً من نوعٍ آخر تضمن فيه الفخر في البقاء الأبديِّ ، فحولتها إلى ـ أنا ـ صارمةً ، خائفةً على صاحبتها من مصيرٍ مُخيفٍ تقود إليه أعمالُها الجائرة.

هذه الأنا التي برزَتْ لي اليوم هيمنت على مكامن مشاعري ، فحرَّكَتْ

نزعةَ الخير ، والخوف من المجهول الموجودَين بالفطرة عند أيِّ إنسانٍ ، ولكنَّه إما أن يخمدهما بمزاولة الأعمال الفاسدة ، أو ينمِّيها بالعمل الصَّالح . . فالمسألة تتراوح من شخصٍ لآخر ، وحسب المواقف الحياتيَّة . . فأيقظَتْ ـ أنا ـ اليوم هذا الخيرَ المكبوتَ في الأعماقِ مرَّةً واحدةً ، تعاتبني ، وتَهُزُّ ضميري النَّائم بانتقادٍ لاذعٍ محقِّر ، كي يَصحوَ من غفوته ، ويدرَأَ عنِّي شرَّ ما تُقدِّمُ يداي ، فأخذت تُوجِّه إليَّ الأوامر ، وتقول : إلى متى هذه الغفلة؟! إلى متى هذا الاستهتار بالعمر وقد بدأ العدُّ التنازلي من عمرك؛ والسِّنون ، والأيامُ يطوي بعضُها بعضاً بسرعةٍ مذهلةٍ؟! إلى متى هذه المكابرةُ ، وهذا العنادُ ، وهذا الشَغَبُ السُّلوكي؟! إلى متى ستأخُذُكِ العزَّةُ بالإثم؛ التي تقود إلى النَّار ، فتُبهرُكِ الألقابُ الغَرَّارَةُ مُستَغِلَّةً ما مَنَّ اللهُ به عليكِ من همَّة عاليةٍ ، وفَرْط حيوية في إظهار النَّقص عند الأخريات متسببةً لهنَّ بعقدٍ نفسيةٍ مؤلمة؟! إلى متى هذه المسيرةُ مع معصية الله حتَّى يكونَ فيها هلاكُكِ؟! نعم أنا التي كنت أدفعك لذاك التسيُّب ، وساهمت في تشجيعك على تنفيذ رغبات نفسك الَّتي ملَّكتِها للشَّيطان ، فأخذ يجول بك ، ويصول من خلالها ، حتَّى أعماكِ عن حقيقتك ، وغرَّك في ملَكاتك ، وأوصلك إلى : ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٧] .

أمَّا اليوم! فأنا قد صحوت على نداء الرُّوح ، والضمير ، وأصبحنا معاً نخاف عليك ، فأنت مخلوقةٌ ضعيفةٌ . . وخالقنا منتقمٌ جبَّارٌ ، وشديد البطش ، وقهَّار . . فهو خير الماكرين! إنَّه يملي لك الآن من كيده المتين بنعمه! وقد سلَّط عليك إبليس اللَّعين كي يحوِّل هذه النعم إلى نقمةٍ في استهلاكِ وافر صحَّتك ، ووقتك خارج نطاق خالقك سبحانه وتعالى ،

فيكاد أن يطيح بك إلى الهاوية! إنَّني الآن آمرك بأن تنضمِّي إلى روحك الصَّالحة، والصَّادقة، حيث وضَّحتْ لي مصيرَك لو بقيت هكذا من خلال آيةٍ من كتاب الله العزيز: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٩-١٢١]، والتي كان يتلوها والدك الصَّالح قبل أن يَتَوَفَّاهُ مولاه، طيَّب الله ثراه! ذاك الرَّجل العابد؛ الذي تدَّعين: أنَّه سبب نفورك من اتِّباع دينك القويم، لأسلوبه القاسي تعصباً لمبادىء دينه! وكم كان يقرأ أمامك القرآن الكريم، فكانت روحك تسمو، وتهيم لسماعه! من حلاوة كلامه، وبالغ عظمته! وفي آنٍ تخاف من شديد توعُّده، وعقابه؟! وتأبى نفسك إلا أن تهفو لاتباع شيطان النفوس الضَّعيفة.. تتحجَّجين بقسوة والدك الحنون؛ الذي وأمثاله لا يبغون إلا الخير، ولا ينطقون إلا بالحقِّ، أما آن لك أن تحذي حذوه؟! فأحتجُّ قائلةً: أليس خالقنا هو الذي زيَّن لنا الدُّنيا، ووهب لنا الحياة، ورزقنا المال، والجمال، وأودع فينا الشَّهوات كي نتذوَّق من حلاوة كل ذلك؟! ومن ثَمَّ سخَّر إبليس اللَّعين؛ ليحرِّك فينا الغرائز، ويدفع نفوسنا إليها، متحدِّياً مقاومتنا؟ فتجيبني: احتسبي قول مولاك سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، لأنه أنصفنا بعقلٍ، وسلَّمَه السلطة التَّشريعية للعباد.. وهبنا إيَّاه كي نميِّز به بين الخير، والشرِّ فيما يجتلب، ويجتنب، ومتَّعنا بالإرادة، وجعلها السُّلطة التنفيذية لإنقاذنا من المهالك، فأنا أهيب بك أن تتغلَّبي على نفسك، وعلى شيطانها اللَّعين، وتنتصري لي، ولروحك الشفَّافة، وتتَّعظي من الحكمة التي قالها علي ـ رضي الله عنه ـ: «لا خير في خيرٍ بعده النَّار. ولا شرَّ في شرٍّ بعده الجنَّة».

ونسير معاً على طريق النجاة ، وكأنني بها تخُزُّني في إحساسي . لتوقظ ضميري ، وتحثُّني على خشية الله تعالى ، وتقول: كيف تجرئين على عمل المعاصي؛ وعين الله ناظرةٌ إليك ، وهو شديد العقاب؟! فأجيبُها: ولكن كيف أستطيع التخلِّي عما ترعرعت فيه ، وأصبح جزءاً مهمَّاً من شخصيتي في مسيرة حياتي؟ أجيبي ، وساعديني! فتقول: تسألينني عزيزتي ، والقرآن قد أجابك على لسان والدك: ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [الرعد: ١٨] . . ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧١] .

فكانت تارةً تُرهِّبُني من عقابٍ أليم ، وتارةً تُرَغِّبُني بتركِ هذا الغرورِ والتَّحوّلِ إلى طريق الخير ، والحقِّ ، إلى طريق السَّلامة ، طريق النُّور الإلهيِّ . . كي أنعم بِخيراته ، وتَحُثُّني على توبةٍ نصوحٍ أُسَخِّر كلَّ مؤهلاتي لمسيرتها ، وأستغلُّ مواهبي ، وفرط حيويتي في طاعة الله عزَّ وجلَّ . . وسأكون في أَمَسِّ الحاجة إليهم؛ ليكونوا عوناً لي على عبادةٍ نشيطة . . بلا ركاكةٍ ، ولا بلادةٍ ، ولكنْ أنّى لي هذا؛ ونفسي أضحت مكبَّلةً بعاداتها ، وبعدها عن خالقها ، وقد تملَّكتْني مساوئي ، التي لا أتخيَّل العيش بدونها ، وإذا انتابتني موجةٌ من الخجل؛ كانت أناتي تعزِّز تصرُّفاتي ، وأهدافي ، وتغريني أن أركن إليها ، وأعتمد عليها؛ لأنَّها على الصَّواب ، أمَّا الآن؛ فهي تؤنِّبني ، وتحتقر سلوكي ، وتهيِّبني من خالقي ، وكلَّما تلا أحدٌ قرآناً تقول: استمعي إلى هذه الآية . . وإلى تلك ، وتلك ، واستفيدي ممَّا أشارت إليه الآية الكريمة في عباد الرَّحمن؛ التي سمعناها ، فأنصتنا ، وشنَّفنا آذاننا لسماع قارئها عند أحد الأقارب في يوم

تعزيةٍ ، ثمَّ تجاهلناها بعد ذلك : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴾ [الفرقان: ٧٣] .

لم هذا الانقلاب الجذريّ يا ترى؟! وحاولتُ أن أُذهِبَ عنِّي هذا التفكير من نتائج تلك المحاضرة الطَّويلة مع الأنا ، والتي مللت تكرارها ! ولكن محاولاتها باءت بالإخفاق.

وكعادتي . . حاولت أن أهربَ من أيِّ شعورٍ بالذَّنب فوراً ، وبأيِّ طريقةٍ؛ لكيلا أدع مجالاً لسيطرة عقلي على نفسي ، ولا لثوانٍ؛ خوفاً من الهزيمة؛ إذ كنت لا أسمح لناقدٍ ، أو لائمٍ أن يتدخل في شؤوني ، ويبدِّل حالي . . ولكن أَناتي لم تيأس منِّي ، فكانت لي بالمرصاد ، تريد احتكار أحلامي.

وعجباً أنَّني وَجدت في نفسي الآن تجاوباً ، واستكانةً ، لا أرى فَكاكاً منها اليوم على عكس عادتي في السَّابق ، أصبحت مستسلمةً كلِّياً لتكملةِ ما تُمليه هذه - الأنا- عليَّ ، فأحسَّت بذلك ، وأخذت تزيد ، وتقول : إنَّ هذا الجمال كلَّه سيذهب بالموت ، وهذا الجَسَد؛ الَّذي تتباهينَ به ستأكله الدِّيدان في التُّراب ، وَسَيَنعدم كلُّ حِسٍّ منكِ ، وينتهي كلُّ شيءٍ بعد الموت ، فتندمين ، ولا نفع وقتئذٍ للنَّدم! اعقلي يا هذه! وارجِعي إلى مولاكِ؛ الَّذي خلقك ، فأحسن خَلْقَك ، ووهب لك هذه الصحَّة ، والحيويَّة؛ التي تَصرِفينها في غير ما خُلِقَتْ له ، وعلى غير ما وَجب عليكِ عملُه ، فتركْتِهَا ألعوبةً في يد الشيطان ، بعشقك لمباهج الحياة الفانية . . بينما ربُّك بحكمته يقول : ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتُهَاۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٠ أَفَمَن وَعَدۡنَٰهُ وَعۡدًا حَسَنٗا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعۡنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ثُمَّ هُوَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾ [القصص: ٦٠ - ٦١] . . إلى

جهنم وبئس المصير: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية: ٣٥]!

إلى متى سأظلُّ أحذرك، وأنبهك؟! لقد سئمت ذلك معك! يا هذه! إلى متى تلهثين في حب هذه الدنيا طالما أنَّك تعرفين: أنَّها زائلةٌ، منتهيةٌ بنهاية حتميَّةٍ.. فالموت علينا حقٌّ لا ريب فيه، ولا مهرب منه، والموت الحقيقي هو موت النفس، وبُعْدها عن خالقها، وأنا أحبُّك كثيراً، وتهمُّني مصلحتك، وأسعى للمحافظة عليك، وتنبَّهي إلى قول سيِّدنا أبي بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ في مرضه؛ إذ أخذته الحمَّى قال:

كلُّ امرىءٍ مُصَبَّحٌ في أهله والموتُ أدنى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ(١)

وما يضيرك أن تطيعيني، وتنقذين نفسك من براثن ذلك اللَّعين الَّذي سيودي بك إلى هلاكك، ثم يتبرَّأُ منك! صدِّقيني، فمصلحتنا واحدةٌ، تذكَّري قول مولاك في تلك الآية المُعبِّرة عن حالنا، وفكِّري فيها: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا أَنفُسَكُم ۖ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وهكذا صادرتْ رغباتي كي تَصْرِفني عن المغريات، ووجَدتُني رويداً روَيداً أنصاعُ إلى نصائح ـ الأنا ـ الجديدة هذه، وبياناتِها؛ وأنا أتساءل: يا إلهي! أحقَّاً أريد ذلك؟! هاهي نفسي المتمرِّدة بدأتْ تكنُّ، وتستكينُ لها، وإحساسي قد تفاعل مع صدقها، فقدمتُ الطَّاعة، والولاء لمن تحرص عليَّ، وصرت أشعرُ بالخجل منها عند أيِّ سلوك خاطىءٍ، وممَّا عَزَّز مخاوفي سماعي لقارىءٍ يتلو آية عظيمة في هذا المعنى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ

(١) رواه البخاري (٣٩٢٦).

ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦] .

وأخذت أحسب لتصرُّفاتي ألف حسابٍ ، وأغربل السَّيىء منها . . فصرت أكره كلَّ مَنْ سبَّبَ لي ، أو دعاني ، أو شجَّعني على أيِّ خطأ ارتكبتْه نفسي الضَّعيفةُ ، وبينما كنت أتعنَّت ، وأجادل ، وأستهجن كلَّ من يدعوني للاستغفار ، أو دعا لي بالهداية ؛ لأنَّ قناعاتي توهمني بأنَّني محقَّةٌ بكلِّ أعمالي ، فأنا أمارس حياتي بوضوحٍ ، وبراءةٍ ، وبَدَهيَّةٍ ، فأين الخطأ؟ إلا أنَّ الاستغفارُ بدأ يأخذ طريقَه إلى لساني ، حتَّى تعوَّدت ألا أنامَ قبل أن أَستغفر ربي من كلِّ عملٍ مُخزٍ قمت به! وأنا أشعر بخجلٍ يجتاحُ شعوري ، فأتقوقع حول بعضي في فراشي . . أسمع صيحاتِ داخليَّةٍ من ضميرٍ يرفض أن أنام ، فأرتَعِدُ خوفاً من أعمالي المستهترة ؛ إلى أن تحوَّل هذا الشعورُ بقُدرةِ قادرٍ إلى قناعةٍ قويَّةٍ شَحَذَتْ عزيمتي على ترك أمورٍ كثيرةٍ ، كنت لا أطيق التخلِّي ، أو البعد عنها ، فصحوة الأنا قلبت الموازين رأساً على عقب .

* * *

طريق التّوبة

وأوّل عملٍ هداني إليه ربِّي هو ترك تلك «الشلَّة» وجميع مَنْ عرفتُ فيهم السُّوءَ من المعارفِ ، وذلك بالاعتذارِ أولاً من زيارتهم لي بمناسبة عودتي بعد هذا السَّفر الطويل ، فلم أسمح لأحدٍ أن يدخل بيتي أياماً طويلةً ، فقد كنت غائبةً مع الأنا نتسامى عن الوجود ، نتفكَّر بشفافيةٍ مع أحوالنا ، حتّى تناغمت رؤيتنا للحقِّ .

ومن ثمَّ ابتدأت اعتذاري المتكرِّر عن السَّهر معهم؛ لأنَّه لا طاقة لي اليوم على تحمُّل سخافاتهم . . وتبديداً لظنونهم أتوني متتابعين يستفسرون عن هذا التغيُّر المفاجىء ، أَهو كَيدٌ جديدٌ ، أَكيدُه لهم؛ حتّى أفاجئهم بمظهرٍ جديدٍ ، لا يعرفونه من قبل ، كما كنت أفعل في الماضي؟! أم أنني منزعجةٌ من تصرُّفِ ما من قِبَلِهم؟! فكان جَوابي لكلٍّ منهم : إنني أريد أن أعيش حياةً مغايرةً لما كنت عليه ، وبكل جرأةٍ صارحتُهم بأنَّني لا أريد أيّاً منهم أن يشاركني حياتي الجديدة ، فظنُّوا أنَّني أخفي عنهم مشروع زواجٍ سرِّيٍّ . . تركتُهم لظنِّهم الغبيِّ؛ لأنَّهم يعلمون جيداً بأنني لستُ بالتي تختبىء مع زواجٍ من هذا النَّوع على كثرة ما عُرِضَ عليَّ ذلك ، وعلى معرفةٍ منهم . . تركتُهم يظنُّون بي الظنون؛ لأنني أنا نفسي لا أدري ما بي ،

وماذا أريد . ولماذا؟ وكيف هذا الانقلاب الجذريُّ المفاجىء . الشامل لكلٍّ تفكيري ، وسلوكي.

ومن ثَمَّ هَمَدَتْ رغبتي باعتنائي بمظهري ، على الشكل المُشين المبتَذل ، فتركتُ «الكوافير» وبيوت الأزياء ، والتي طالما سافرتُ لحضور عروضها ، وشراء النَّفيس ، والغريب ، والجديد منها ، حتَّى في سفري الأخير هذا لم أرغب بشراء أيِّ شيءٍ من هذه الأمور؛ لأنَّها لم تعد تبهرني ببريقها ، لقد بهِت أثر تلك الأشياء في نفسي ، منذ شاهدت اهتمام كِنَّتي بأمور الآخرة ، ولم تكن متعلقةً بزينة الحياة مثلي . . تلك الشَّابة وهي في مقتبل العمر ، لقد اهتزَّ قلبي ، وخضعت مشاعري لمشاهدتها . . وعلَّمتني أقسى درسٍ في الحياة . . هذه الفتاة الغربيَّـةُ المسلمة.

صارت ـ الأنا ـ الجديدة هي الآمرةُ ، والناهية لجميع تصرُّفاتي ، أحسست بردَّة فعلٍ جديدةٍ منها عليَّ . . إلا أنني لم أدرك أبعادها ، ولا سبب احتقان غضبها . ورفضها لجميع تصرُّفاتي ، والحؤول دون الخاطىء منها! فهي لا تَدَعُني أتملَّص من إرشاداتها لأيِّ عذرٍ ، تحبسني أياماً داخل البيت الذي ما كنتُ سابقاً لأطيقَ المكوثَ فيه أكثر من ساعات النَّوم ، والإشراف على بعض الأمور المنزلية التي كانت تقوم بها الخادمات . وأخذْتُ أتلهَّى عن ملاقاة النَّاس بمتابعة برامج التِّلفاز ، التي لم أكن في السابق أحتَملُ متابعةَ أيٍّ منها.

فلا وقْتَ لديَّ لكي أضَيِّعَه في سخافاتٍ تُبعِدُني عن الأصحاب؛ الذين بتُّ من دونهم كسمكةٍ بلا ماء ، عَجَبي كلّ العجب . أنني أصبحت في استغناءٍ عنهم الآن ، واستعذبت ذلك! لقد تحرَّرتْ نفسي من أغلالها ، ونصرتني على وهمٍ كبيرٍ من إملاء «أستاذي» سابقاً إبليس؛ بأنَّ موتي في

تركِهِم ، أو البعد عنهم . . فأصبحت أكرهُ مساوئَهم . . وكنت أَقْسِرُ نفسي على مصاحبتهم؛ لأحقِّقَ ذاتي بينهم ، وأرضي غروري معهم ، ويُزَيِّن لي اللعينُ أعمالي؛ لأنه يخشى أن أتفلَّتَ من عقاله ، ويخسر واحدة كانت من أوليائه ، فيزيد من جُرعة هذا الوهم بالإيحاء لاقتراف أعمال يعرف : أنَّها تَستهويني ، فباتت علاقتي فيهم عبارةً عن قشرة تخفي تحتها همّاً ، وشقاءً مضنيين .

وأصبحتُ أستطيع المكوثَ لمشاهدة التلفاز أغلبَ ساعات النَّهار ، والليل ، أنتقلُ من مشاهدة قناةٍ إلى أخرى جاعلةً جهاز التحكُّم «الريموت كنترول» وسيلةً هدفُها إبعاد الملل من شيءٍ لم أعتَدْه ، ثمَّ تعودتُ على هذه النُّقْلَة العجيبة في حياتي والغريبة عنِّي ، والتي كنتُ أُنكرُها على كلِّ مَنْ تعوَّد على متابعة البرامج التلفزيونيَّة . . وصرتُ أعتذر عن زيارةٍ تلو الأخرى ، وعن مناسبةٍ تلو الأخرى ، وحُجَّتي التي أُبديها لهم : أنَّني لا أستطيع ترك متابعة ذلك المسلسل ، وذاك الفيلم . . فلم تُصدِّق آذانُهم ما تسمع من عجائب أمري ، فمن المستحيل وصول ذلك إلى قناعتهم ، ومن ثَمَّ تصديقه ، فلم تكد تخفى عنهم خافية من أدقِّ أموري خلال سنوات معرفتهم لي . . فلم يكن سهلاً إقناعهم بأعذاري .

لم أكن أدري : أنَّ عنايةً إلهيةً تُسيِّرني ، وتدعوني إلى طريق الحقِّ . . لم أكن أدري أن هذا التحوُّل لم يكن إلا تهيئةً لطريقٍ جديدٍ أراده ، وأعانني عليه خير الرَّاحمين ، مُقلِّب القلوب ، والأبصار ، فكرهتْ نفسي مساوئها . . تعوَّدتُ المكوثَ في البيت أياماً ، لا أخرجُ منه إلا لشراء الحاجات الضرورية ، وبلباسٍ بعيدٍ عن الابتذال . . صارَتْ نفسي ترتاحُ إلى الاحتشام في كلِّ شيءٍ ، وأخَذتُ أروِّضها كي تصارع رغباتي

الشَّيطانية في كلِّ جهةٍ ولمدَّة عام تقريباً.

وبدأ هيامي بحبِّ الظهور يتلاشى شيئاً، فشيئاً.. ممَّا أثار الدَّهشة في نفوس مَنْ هم حولي.. وكلَّما سألني أحدٌ منهم: أين أناقتُك المعهودة؟! كنت لا أجد جواباً؛ لأنَّني لم أكن على بينةٍ من أمري هذا.

وتزامن حالي مع قدوم شهر رمضان المبارك، شهر تحصيل الخيرات من عدَّة جهاتٍ، فجرت مطابقاتٌ عديدةٌ بين ما أصبو إليه، وبين ما بدا لي حينما صرت أتابع المسلسلات الدِّينيَّةَ، ومحاضراتِ الفقه الإسلاميِّ؛ التي صارت بحمد الله متوفرةً في كثير من القنوات الفضائيَّة، وأتابع برامجَ تُبيِّنُ عَظَمةَ الخالق من عالَمِ البحار، وعالمِ الفضاء، إلى عالَمِ الحيوان، والنَّبات، والهوام...

فكانتْ مشاهدةُ تلك البرامجِ تُوقعُ في قلبي، وعقلي أثرها البالغَ، فتهزُّ مشاعري، وتشدُّني إلى التقرُّب أكثر لهذا الخالق العظيم؛ الَّذي اتَّضحت عظمتُه الهائلة في كلِّ كياني، فبدأتُ أرغبُ في عبادة الله تعالى جلَّت قدرته، بعدما وعيتُ، وعرفت عظمته، وأحسست بتفاهة الحياة مع بُعد الإنسان عن موالاة خالقه، فخشع قلبي، وتيقَّظ عقلي، وعدتُ إلى رُشدي، وبدأت أصلِّي فرضي، مع متابعة برامج التِّلفاز، وسماع الأغاني، وأُبدي رأيي بهذا المطرب، وإعجابي بتلك الفنانة بسبب التعوُّد، ثُمَّ وجدتُني رويداً.. رويداً، أتململ من تلك المشاهدات.. وأحياناً أُحسُّ بالخجل من مشاهدة العورات، وما فيها من فجورٍ، وخدشٍ للحياء، الَّذي أعاده الله إليَّ بفضلٍ منه، كسابق عهدي قبل فترة الضَّياع، لا بل أكثر، أتخيَّل أنَّ ربي يراني؛ وأنا أتابعها، فأغيِّر القناة إلى برامجَ تمثيليةٍ لا عورات فيها إلا ما نَدَر؛ لأنَّه وللأسف لا يخلو الأمر من

ذلك حتَّى في المسلسلات الدِّينية ، فنجد بعض الأدوار النِّسائية فيها معدومة الحِشمة ، ولا داعي لذلك إلا لشدِّ اهتمام الجمهور ، أو لأمرٍ تجاريٍّ بحت ، على الرَّغم من أن الشَّخصية في هذا المسلسل تكون لامرأةٍ صالحةٍ ! فنشاهد التي تُمثِّلها في أزهى ثيابٍ ، وزينةٍ ، تشوِّه الهدف الأصليَّ ، كدأب أغلب المسلسلات الدِّينية التي تذهب بالمشاهد بعيداً عن الهدف السَّامي للقصَّة بتزييف حقيقتها.

وحتَّى المسرحيات الفكاهيَّة لم أعد أطيق صبراً على رؤيتها؛ لأن -أناتي- تبرز لي ، وتهمس: أتضحكين وأنت فعلت ما فعلت من المساوئ ، والتقصير في عبادة الله؟ هل يا ترى بقي في العمر ما يكفي للتعويض؟ إلى متى ستهدرين الوقت وتضيعينه هكذا؟ فصرت أكره التلفاز أيضاً لما وجدت فيه من إباحياتٍ مخجلة.

وأيضاً لم أعد أرغب النزهات ، ولا أماكن السَّمر؛ التي لا تخلو من الشُّبهة في الإثم ، فقد أصبحت في حال أشهد معه: أن عين الله تراني أينما كنت.. ولا يبرَحُ ذهني أبداً ، وكان أن سايرت أحد أبنائي حين دعاني إلى طعام الغداء في مطعمٍ عاديٍّ مع بعض الأقارب ، بعد أن حرَّمت على نفسي دخول المطاعم الليلية ذات النُّجوم.. لتناول الطعام على أنغام الموسيقا الصاخبة ، والفجور!! إلا أنني فوجئت بظهور مغنية شبه عارية ، مع فرقة موسيقيَّة؛ رباه! حتى في هذا المطعم العادي ، وفي مثل هذا الوقت!! هل صارت الأطعمة لا تؤكل إلا على ألحان الغناء المبتذل ، والآثام؟! ولمّا صار صوت الموسيقا يصمُّ الآذان ، والمغنية تتمايل ، وتتغنَّج على أنغامها وبطريقة خاليةٍ من أدنى حياء ! وفي حضور العائلات مع أولادهم في وضح النَّهار..؟! شعرت بتقلصٍ في جسمي ، وبشيءٍ

يخنقني في حلقي، ويكبس على أنفاسي، وبأنَّه سبحانه ناظر إليَّ بعينٍ غاضبةٍ.

ذلك الشعور الجديد على نفسي، جعلني أتلملم حول بعضي خجلاً من ربِّي.. بعد أن كانت أساريري تنشرح، وتنساب مع سماع الأنغام، فتتحرَّك أعضائي تلقائياً، وتتمايل كما يتناسب مع النغم، ولمّا صرت أخاف من نفسي، ومن هيامها بحبِّ السماع الشَّيطانيِّ المؤذي لإيماني؛ حوَّلت الذهاب من الملاهي الليلية إلى مطاعم النَّهار العادية، فإذا بها الأخرى قد تحوَّلت إلى ملاهٍ نهارية!! وأخذت أتساءل: أمعقول ما أرى؟! ترى هل هذا من متطلبات الحضارة؟! وهل أنا في بلدٍ مسلمٍ حقاً؟! إن ذلك لم يعد يزيد في نفسي إلا شعوراً بالغربة، وإحساساً بالوحشة في ظلامٍ دامسٍ يعصب عيني عن كلِّ المغريات.

وانهمرت دموعي، فعرقلتْ دخول الطعام إلى فمي لغزارتها ألماً على نفسي؛ لأنَّني لم أعد أريد عملاً يغضب ربي منِّي ـ إلا أنني أرغمت عليه مسايرةً منِّي ـ وبما أنَّ الحديث الشريف يقول: «**لا طاعةَ في معصية الله، إنما الطاعةُ في المعروف**»[1]؛ رجعت إلى بيتي حزينة على نفسي، وعلى بلدي الذي صار المقلِّد الأكبر للغرب، وعلى استيراد قبائحهم! وجعلتها آخر مرة أذهب فيها إلى أماكن كهذه فيها الخروج عن المألوف الشيء الكثير والخطير في الحال والمآل! كنا نشاهد العشاء الرَّاقص، فأضيف إليه الغداء الرَّاقص.. أجارنا الله منهما، ومن فطورٍ راقص مستقبلاً!!!!

❊ ❊ ❊

(١) رواه البخاري (٧٢٥٧) ومسلم (١٨٤٠/ ٣٩).

مطالعات مثمرة

وجاءت اللحظة الحاسمة في حياتي. . فهداني تفكيري إلى مطالعة كتاب كان ابني قد أَهدانيه عندما زرته في بلاد الغرب ، وقد تمنَّى علي وقتها أن أقرأه ، ولكنِّي جاملْتُه بقراءة بضع صفحاتٍ لم أفقه منها شيئاً ، لأنه كتابٌ دينيٌّ ، وأنا لم أعتَدْ إلا قراءة المجلات الفنِّية ، و الروايات العاطفية التي كنت شغوفةً بقراءتها ، إلى جانب مطالعة الكتب الأدبيَّة ، والعلميَّة ، والطبيَّة ، أما الكتب الدِّينيَّة فهيهات أن أحتمل قراءَتَها ! فتركْتُه جانباً .

أما اليوم فإنني أجد في نفسي رغبةَ ، ولهفةً إلى قراءة ذلك الكتاب ، فكان نبراساً أسهم في إضاءة دربي ، علمت بعد قراءته أن دافعاً إلهيّاً ألهمني قراءته ، وعندما قرأت ما كنت قد قرأته من قبلُ تبيَّن لي أنه يوضح صورةً جليَّةً ، ومغايرةً عمَّا قرأتُه سابقاً ، وعن ما وصل إلى مداركي من معانٍ بدت لي آنذاك مُبهَمةً ، ولم تُحرِّكْ فيَّ ساكناً .

أما اليومَ فإنّ كلَّ صفحةٍ أقرؤها تَهزُّني ، وتُنيرُ مداركي أشدَّ من الصفحة التي قبلَها ، ولمَّا وصلتُ إلى فقرة الموت. . ونعيم القبر ، وعذابه ، وتبيان مشاهد يوم القيامة في عرض تفصيليٍّ لمواقفها المذهلة ؛ مضيت مسترسلةً في انبهاري ، لقد هالني ما قرأت ، بل صعقني! بدأ

الخوف يتسلَّل إلى أعماقي ، وبدأت أسناني تصطكُّ ، وقلبي يرتجف ، وأصابني هلعٌ شديدٌ انخلع له قلبي من مكانه ، ورحت أزرع أرض بيتي جيئةً ، وذهاباً بخطواتٍ متعبةٍ ، تلفُّني سحائب الذُّهول ، تخيَّلت نفسي في النَّار آكل من زقُّومها ، وأشرب من صديدها ، وأعاني زمهريرها ، وأعالج أغلالها ، وسعيرها ، وكأن ذلك أمامي! وكلمة الحساب تهزُّني هزّاً عنيفاً.

تصوَّرت حجم ذنوبي ، فاشتعل اللَّهب في عقلي ، وبدأ العرق البارد يتصبب من جبيني ، لقد فتحتْ هذه القراءةُ آفاقاً فكريَّةً جديدةً ، وتركت في نفسي علامات استفهام عديدةً ، واضطرابات تائهةً ، وثورةً عنيفةً قويَّةً تجلَّت على شكل صرخةٍ مكبوتةٍ عارمةٍ دوَّت في أعماقي ، أهكذا يكون مصيري المرعب؟!

كـلاَّ . . ثمَّ كـلاَّ ، ربَّـاه! لا أريد هذا المصير المخيـف ، وأحسست بتعبٍ ، وإعياءٍ شديدين ، وبدُوار كأنَّه يلفُّ بي الكرة الأرضيَّة ، فصرت كمن ضُرب على رأسه بآلةٍ حادةٍ ، ويكاد رأسي ينفجر ممَّا يدور!! يا إلهي! ماذا ألمَّ بي؟! انعقد لساني ، وخانتني قُواي الفكريَّة ، ولم أَعُد أتجرَّأ أن أتابع القراءة ، وكلي لهفة وشوق إلى هذه المتابعة لعلمٍ لم أكن أدري عنه شيئاً . . وعند وصولي إلى هذه النقطة عافت نفسي كل شيءٍ ، وتخلَّت عن كلِّ ما كان يشغل ساحتها ، فقد همَّها همٌّ عظيمٌ! ولبثتُ غارقةً في دوَّامة الحيرة عدَّة أيامٍ ، يؤرِّقني قبح أعمالي ، فأكابد الآهات ، وأحبس الدُّموع ، وأنشد حلاً لهذا المصير ، أواه ، أين المفر؟! وأنا في هذا الخضم سألت نفسي بحدَّةٍ: أيُّ شيءٍ تريدين؟ أجابت بذهول: أطيعك ، نعم أطيعك ، ونعمل صالحاً!! ومن تلك الساعة اقتلع حبُّ الدُّنيا من

فكري . وطهرت نفسي من شغفها بزينتها فنفضتُ عنِّي غبار المعاصي ، بعد أن كنت على شفا حفرةٍ من النار! كنت في غفلةٍ لاهيةٍ ، ولعذاب ربي ناسيةً!! فأحسستُ بأنِّي نُقِلتُ نُقْلَةً هائلةً من عالَمٍ إلى ضِدِّه.

وكان هذا الكتاب سبباً للعودة إلى الله ، وما أحلى الرجوع إليه!! أدعو بالخير لمن كتبه ، ولمن أهدانيه ، وصدق من قال: «**مَنْ دلَّ على خير فله مثلُ أجر فاعله**»[1] ، وبقيت تحت تأثير ما قرأت ممَّا عرفت من شأن الله في قدرته ، وعظمته ، فهيمن عليَّ الشُّعورُ بالخوف ممزوجاً بالخجل ممَّا اقترفت يداي ، وتقصيري في معرفة خالقي ، حتَّى بلغت هذا العمر ، وبُعدي الخطير عمَّا يريده الخالق من كلِّ عبدٍ خلقه ، وما دور الإنسان في التكليف الإلهي له ، وكيف: أنَّ هذه الحياة الدَّنيئة الحقيرة هي بمثابة جسرٍ جميلٍ مزدانٍ بكلِّ ما تشتهيه النَّفس نَعبُرُه إلى الدَّار الآخرة ، إلى الحساب! ثمَّ إلى إحدى المنزلتين ، فإمّا الجزاءُ بثواب الجنَّة. . أو العقاب بعذاب النَّار! ولكلِّ نفسٍ ما عَمِلَتْ ، وبما أنني اشتغلت بزينة المعبر عن الغاية بما لا يَنبَغي؛ فلا بد أن يزداد شعوري بالخجل ، والخشية ممَّن سخَّر لنا كلَّ شيء. . فإذا بنا قد سخَّرنا أنفسنا للشَّيطان ، عدوِّنا وعدوِّ إلهنا ، وخالقنا العظيم.

وما أن أتمَمْتُ قراءة الكتاب حتى بَدَوْتُ امرأةً أُخرى ، أَحَسَّتْ إنسانيَّتَها الَّتي هَدَرَتْها رخيصةً بين أنياب إبليسَ ، وأوليائه ، هذه الإنسانيَّةُ المقدَّسة التي توَّجَها خالقُها بعقلٍ شرَّفها به للتمييز بين الخير ، والشرِّ ، وأنَّ الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا ينمو زرعها إلا مِنْ بذر الإيمان ، وزادها

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٢٠) ومسلم (١٨٩٣) وأبو داود (٥١٢٩) والترمذي (٢٦٧١) عن أبي مسعود الأنصاري.

تقوى الله.. ومن ثَمَّ طاعة أوامره، والانتهاء عن معصيته، وأعطانا ملكاتٍ عاليةً، وفكراً عظيماً؛ لنصل بوساطته إلى معرفته، وندرك وحدانيَّته، وعظمته، فنتَّقيه.. ساعتئذٍ لن يكون لأحدٍ سلطان علينا! أين أنا من هذا الفضل الإلهي كلِّه؟ وأين باقي الناس الغافلين والجاهلين لهذا كلِّه؟! وقد سخَّرنا عقولنا، وأبداننا في فنون الملهيات في متعٍ زائلةٍ، فجرفتنا بتيَّارها إلى سحيق الفجور، والآثام، إلى متى يا ربِّي! إلى متى يا إلهي؟ أنا الآن حقّاً أصبحت أتمنَّى خلاصاً من هذه الازدواجية الكريهة، والمضنية بين العمل، والفكر، وهذا التناقضِ العجيبِ بين العلم، وقدرة العمل به، وهذا الصِّراعِ المميتِ بين حُبِّ الحياةِ، والخوفِ ممَّا بعد الموتِ!

رباه رحماك! رحماك يا الله! أتوسَّل إليك يا رباه! بدموع النَّادم أن تلهمني رشدي، إنَّني أرغب توبةً نصوحاً.. فهب لي من لدنك نوراً تغسل به نفسي المشبعة بحبِّ الدُّنيا.. أسألك أن تفيض عليَّ، وتجود.. فلا تردَّني بحاجتي خائبةً يا رب! يا من تهدي لنورك من تشاء؛ فاهدني بنورك إليك! وأقمني بصدق العبودية بين يديك! اشملني بأكناف رحمتك! تباركت، وتعاليت يا إلهي! خُذْ بيدي حتى تُبَلِّغَني رضاك! منك أطلب الوصول إليك، وبك أستدل عليك يا إلهي! خذ بيدي يا إلهي، ودلَّني على طريقك؛ طريق الاستقامة، وارزقني اتِّباعه، والثبات عليه، رباه! أُقسم عليك باسمك الأعظم أن تُعينَني على حُسن عبادتك، والإقلاع عمَّا يغضبك منِّي يا الله! إنَّني أخشى على نفسي من غضبك، وأخشى مسَّ سَقر، فلا تعذِّبني فيها يا الله!

إنَّك تعلمُ يا إلهي بأنه ما من أحدٍ في هذه الدُّنيا أصبح يهمُّني إرضاؤه،

ولا محبته بعد معرفتك إلا أنت ، ولكنِّي جاهلةٌ ، فأعنِّي على قوَّة الكيف ، وكثرة الكم السَّليم لبلوغ رضاك ، وسأطيع أمرك ، فأنت سيِّدي ومولاي ، وخالقي يا إلهي! كم أنت لطيف بنا يا الله! وأنت الوهاب؛ إذ تهبنا حبَّك لتردعنا عن عصيانك ، أستغفرك من ذنوبي جميعها يا غافر الذَّنب! يا الله! وأتوب إليك يا قابل التَّوب! يا الله! فتقبَّل توبتي لوجهك الكريم . .

ألتجئ إليك يا الله! أحتمي بك يا الله! وبك أعتصم . . فلا منجى منك إلا إليك يا الله! أرجوك ، وأتودَّد إليك يا ودود! أستعيذ بك يا إلهي من شرِّ نفسي ، ومن شرِّ الشَّيطان الرَّجيم . . ومن شرِّ كل إنسانٍ لئيمٍ ، أستغفرك يا عظيمُ من كل ذنب عظيم! لأنه لا يغفر الذَّنب العظيم إلا العظيم . . وأنت بلا ريب العليُّ العظيم .

يا الله ! يا إلهي! العبد كفور ، وأنت الغفور الشَّكور يا الله! فارحمني أنت يارب! برحمةٍ تخلِّصني بها منْ قلقي ، وضياعي ، فوحقِّ وجهك لن أتوسل بعد معرفتك إلى غيرك! ولن أسكب دموعي إلا بين يديك! ولن أتذلَّل إلا لجلالك . . وحقِّ ربوبيتك لن أحيد عن بابك بعد اليوم! إنَّك أنت الإله الحليم . . وأنت العزيز العليم ، والبرُّ الرَّحيم . . يا الله!

* * *

صحوة من غفلة

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١١٨] ، كنت تحت تأثير إغراء الدُّنيا عندما جاء صوت الحقِّ في لحظة مراجعةٍ صادقةٍ مع النَّفس ، وتبصُّرٍ عميق. . فانتزعني من وحول الشَّهوات ، والآثام. . وأوقف زورقي على شاطئ نهر التَّوبة الصَّافي ، بعد أن غصتُ في أغواره ، وانكشفت لي الحقيقة ناصعةً ، فخرجت من ذلك النَّهر إنساناً آخر. . وكأني مولودةٌ جديدةٌ ، لقد غسل هذا النَّهر ما كان في داخلي من ضلال ، أفقت من سباتي العميق في سعادةٍ وهميَّةٍ ، فصرت أعي تدريجياً أنَّني كنت ظالمةً لنفسي ، وأنَّ حياتي كانت عبارةً عن أوراقٍ متناثرةٍ بلا معنى ، ولا هوية ، ولا عنوان ، إلى أن شعَّ في روحي نور من الرَّحمن ، و توضَّع في نفسي الإيمان ، فلملم تبعثري ، وانقشع الغمام من أجواء مخيلتي. . وتبلورت الصُّورة الغائبة. . وزالت الغشاوة التي رانَت على بصيرتي ردحاً من الزَّمن.

نبذتُ شخصيَّة التَّعجرف ، والخيلاء ، فبدت لي الحقيقة بلا غبَش ، وأصبح شعوري بألم الاحتقار أقلَّ وجعاً عن ذي قبل ، بعد أن انتشلني الله تعالى من بحر الظُّلمات ، وفجوره ! لقد سَرَتْ إلى نفسي روحٌ جديدةٌ

مطهَّرةٌ ، ولمسَتْ قلبي لمسةً بعثت فيها برداً من الرَّاحة ، والأنس ، أغنياني عن الدنيا بأسرها ، وبدأ جسمي يهبط إلى الرقَّة ، والذَّوبان ، بينما أخذت روحي تشب نحو القوَّة والانتعاش ، وأشرقت شمس عهدٍ جديدٍ ، بعد ظلام لفَّني بردائه أعواماً ، وأعواماً ، وعدتُ لطريق السَّعادة الحقيقية ، ولأوَّل مرَّةٍ أعرف طريقي الصَّحيح ، وتوصلت للوجود الإلهيِّ ، فعصف في نفسي حبٌّ طاغٍ جعلني أهيم حبّاً للإله العظيم . . فجعلت من رضاه هدفي المنشود؛ الذي أسعى لتحقيقه ، وأسدلت الستار على فترةٍ مظلمةٍ كالحةٍ في حياتي .

فسبحان مغيِّر الأحوال! حطمت زورق الحياة الَّذي ركبت فيه في بداية مشواري الماجن ، حيث اجتذبني بريقُها السَّاطع ، وسرابُها الخادع . . وتكسَّرتْ على صخرة الحقِّ كلُّ أوهامي ، وهجرْتُ ما اكتسبْتُ من عاداتٍ دخيلةٍ ، واحتفظتُ بما فُطِرت عليه ، ثم ركبت زورق الإيمان ، والصبر ، وأمسكت بيدي أقوى المَجاديف ، أمسكت مِجْدَافَ الرَّجاء ، والأمل بيدٍ ، ومجْدَافَ العلم ، والعمل باليد الأخرى ، فخرجت من حياة الفسق ، والمجون إلى حياة الأمن ، والأمان ، ومشيت بزورقي إلى طريق النُّور ، والرَّحمة ، والله سبحانه بفضل هداه أعانني على تطبيق منهجه بالعودة إلى رشدي ، واستعمال إرادتي . . وأخذت تعظم صلتي بالله ، وتتعلَّق آمالي به ، بدأت حياتي تتغيَّر ، وهيئتي تتبدَّل ، وأخذت أكفِّر عن تقصيري ، وأدرأ بالحسنات سيِّئاتي .

أحببت الرَّسول ﷺ ، وصار مثلي الأعلى . . فأصبح الإحسان للخلق هو همِّي ، ومرادي كافَّة ، فأخذت أمسح على رؤوس اليتامى ، وأربِّتُ على أكتاف الثَّكالَى ، وأرسم الابتسامة على شفاه المحزونين ، بدأتُ

بالأقربين؛ لأنهم الأولى بالمعروف، وأصبح الحنان، والمحبّة، والرَّحمة ماءً لزورقي، والسَّعادة سماؤه، ونغمات الإيمان والأمل تدفعه إلى الأمام، فيا له من زورقٍ آمنٍ مريحٍ لكلٍّ من آب إلى ربّه، وسأعيش فيه إلى أن ألقى الرَّحمٰن؛ وهو راضٍ عنّي؛ كي أحصل الألقاب المفيدة لصاحبها بديلاً نافعاً عن الألقاب المضلَّة، حيث قرأت بأن الإنسان عندما تصعد روحه للسَّماء بعد وفاته مباشرة تتعرَّف عليه الملائكة من خلال ألقاب اكتسبها بأفعاله، فيقدِّمونه إلى خالقه بشهرته الدُّنيويَّة مثل: الكريم، الخَلوق، البار، واصل الرَّحم، وهكذا كلٌّ بحسب عمله، ولا أطمع إلا أن يكون تطبيقي لهذا المنهج سبباً في دخولي الجنَّة برحمة الله لقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠]. . ولله الحمد والامتنان.

أدركْتُ الآن بيقينٍ أكيدٍ: أنَّ عنايةً إلهيّةً رعَتْني، وأحاطت بي، وستعينني على التخلُّص من أوزاري، كما نزعت من قلبي حبّي للدُّنيا، وملذَّاتها، وتعلُّقي بمعاشرة النَّاس المستهترين بدين الله. . سأتبدَّل بإذن الله وعونه، فإنَّ التَّحوُّل مِنْ حالٍ إلى حال يتطلَّب تغييراً جذرياً، وانقلاباً شاملاً في حياة الإنسان التَّائب، بل وتتغيَّر قَناعاتُه من مبدأ عاصَرَ بناء شخصيَّته إلى آخر؛ ليتمَّ التَّحوُّل الفكريُّ إلى المبدأ الجديد المكتسب حديثاً. . وهذا التَّحوُّل يحتاج إلى مجهودٍ كبير مع النفس. . فيظهر أثره على السُّلوك اليوميِّ، والعادات المتأصِّلة في النفس، فيُفلترها، وينقِّيها، ويخلِّصها من شوائبها.

وانعكس ذلك على نظرتي إلى الحياة الدُّنيا، فبهت بريقُها في عيني، واختلفت الصُّورة التي أحببتها في الماضي، وكأنَّ حاجزاً جبَّاراً قد تحطَّم

من أمامي سامحاً لي النَّظر والإحساس في جمال ديننا القويم، وإمكانية الامتثال لأوامره.

فبرزت أمامي صورةٌ مثاليَّةٌ بعد أن سادت عقلي المعرفة، والتي سأجسِّدها بالعمل الإيجابيِّ في طاعة الله، فالنُّقلة كبيرةٌ جداً بين ما كنت عليه، وما صرت إليه من معرفة ربِّي، بعد أن أحسست بالإيمان قد شعَّ نوره في صدري، وأنار بصيرتي، وشحَذَني برغبةٍ هائلةٍ في طاعته، ومن روعة هداه: أنَّه رزقني التَّوبةَ المرجوة من أفضل أبوابها برحمَتِه التي وَسِعتْ كلَّ شيءٍ.

لقد وهبني الزُّهدَ في الدنيا بما فيها، بعد أنِ استَحْوَذَتْ على عقلي ما ينوف عن ثلاثين عاماً، مُفْعمةً بالضَّياع، والفجور! لأنَّ الزُّهد هو من الخطوات الأولى في السَّير على الطريق الموصل إلى محبَّة الله.

قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: إنك لن تنال عمل الآخرة بشيءٍ أفضل من الزُّهد في الدنيا!

صدق والله! سيِّدُنا عمر، إلهي! كم أعشق مناجاتك! أفلا أناجي بالشُّكر مَن أكرمني بتوبة مميَّزة؟! وغمرني بنعيم فضله!

فمن أجل ذلك لا تفترُ لي هِمَّةٌ، ولا يهدأُ لي بال.. فصببت اهتمامي في اتِّباع سبل السَّلام للنَّجاة من هول العقاب، أتلمَّس رحمة ربِّي وأساله الثَّبات، والعون على حسن الخاتمة.. وأشجِّع نفسي على ذلك الطُّموح، بأن أتخيَّل أنَّ أهل الجنَّة دخلوها، وأُغلِقَ بابُها دوني! وأتخيَّل نفسي؛ وأنا أجلس حزينةً مخذولةً، نادمةً في وقتٍ لا ينفع فيه النَّدم! وتتفجَّر الأحزان، فأجد مقلتي تسكب دموعاً؛ أغدقها النَّدم، والهوان.. دموعاً تطفئ حُرْقَةَ الذُّنوب، والعصيان، وتخفِّف مرارة البعد،

والحرمان ، وتشعر بالأمان ، والحنان ، دموع تائب تعزف لحناً عذباً على الخدَّين. . فهل لأمَتِكَ التَّائبة يا إلهي أن تتقبَّل توبتها ، وتعيذها من شر نفسها؟!

وهاأنذا أعاهدُكَ ربي ألا أعود إلى معصيتك ما أحييتني! فأنا تائبةٌ ، فلا تتخلَّ عنِّي.

ثم أتخيل نفسي آكل من ثمارها ، وأشرب من أنهارها ، وألبس حليَّها ، وأشتري من أسواقها ، وأتلذَّذ بنفائسها ، وحورها ، وقصورها! لقد كنت سأحرم نفسي لولا أن تداركتني رحمة ربي! فأشعر بشُحنةٍ محفِّزةٍ لعمل دائبٍ لا يحتمل تباطؤاً ، ولا يستكين لفتورٍ! كي أشتري بطاقة الدُّخول برحمة ربِّي إلى ما لا عينٌ رأت ، ولا أُذُنٌ سمعت ، ولا خَطَرَ على قلب بشرٍ من النَّعيم ، فثمنها غالٍ ، غالٍ جداً! ودخولُها يستأهل عبادة العمر بأكمله. . وأعملُ بقولٍ رائعٍ قرأته: اعمل يا أخي للجنَّة على قَدْرِ بقائكَ فيها ، واعمل للنَّار على قدرِ صبرِكَ عليها ، واعمل للدُّنيا على قدر مُكثِكَ فيها ، واعمل لله على قدرِ حاجتِكَ إليه.

وقولٍ آخرَ: بقدر ثبات الإنسان على الحقِّ ، وسرعتِه إلى الطَّاعات يكون ثباتُهُ ، وسرعتُهُ على الصِّراط ، فاليَقَظَةُ أعادتني إلى رحاب الله ، أحبَبتُ الله ، فحبَّبَ لي عبادته ، وأحبَّني ، فيسَّر لي توبةً نصوحاً. . لا رجعةَ فيها إلى تلك الجهالة بعونه ، وهداه. .

يا سلعةَ الرَّحمٰنِ لَسْتِ رخيصةً ... بلْ أنتِ غاليةٌ على الكَسلان

يا سلعةَ الرَّحمٰنِ ليس ينالُها ... بالألفِ إلا واحدٌ لا اثنان

وعلمتُ بأنَّ الجنَّة لا ينالها العبد إلا بمخالفة الهوى ، ثم: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٦] ،

اللّٰهُمَّ اجعلني ممَّن قُلْتَ فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾!
[العنكبوت: ٦٩].

المهمُّ أن نجاهد النَّفس على ترك المعاصي بكلِّ عزمٍ، فلم يَعُد يهمُّني شيءٌ من أحوال هذه الدُّنيا الفانية، ولم تعد تعني لي شيئاً، إلا التزوَّدَ فيها بما يجعلُني أهلاً لرحمة ربي في الآخرة.. نَذَرْتُ نفسي لله، فأعانني على أن أُبدِّلَ بجميع أعمالي السَّيئة أعمالاً صالحةً، وبدأتْ نفسي المتمرِّدة تستمع لنداء العقل، وتأنس لتوجيهاته.. بفضل أرحم الرَّاحمين.

بعد أن أسلمت وجهي لله.. فتح عليَّ سبحانه باب فضله، فأنار بصيرتي، وأزال عن قلبي الرَّان، وأذهب الأكِنَّة، فبتُّ أفقه كلام مولاي، حيث وجَّهني لاختيار الصَّحيح في إنقاذ نفسي من التَّهلكة.. فصرت كلَّما فتحت المصحف الشريف؛ كي أتلو آياته، وأتبصَّر عظمتها؛ أشعر بأنَّ كلَّ آيةِ عقابٍ فيه موجهةٌ إليَّ.. تخاطبني، أو تتحدَّث عنِّي.. فأرتعد خوفاً، وأبكي بكاء مرّاً، وممَّا قرأت، وتأثَّرت بها جدّاً آيات كثيرة، تلك الآيات التي تعلن عن هلاكٍ قائم، لا يسعني ذكرها جميعاً، سأذكر منها أشدَّها تأثيراً عليَّ: ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

نعم، لقد كنت ميتةً، فأحياني الله بمنته، ولقد كنت في غاية الخوف عندما قرأت أكثر آيةٍ اقتراناً مع حالتي: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٠]، لأنني كنت قد تُبت إلى ربي، والتزمت بديني قبل عقودٍ من الزَّمن، ولكن شاء الله أن يطردني من رحمته بسبب جهلي لأصول التَّوبة، والطَّاعة.. وجهل مَنْ كانوا حولي، فنقضت عهدي مع مولاي، ورجعت أسوأ حالاً بكثيرٍ

عمّا كنت عليه قبل التَّوبة!! وظننت أن لن يقبل الله توبتي هذه المرَّة، بمدلول تلك الآية التي تطابق فعلتي السَّابقة.. وظللت أبكي، وأتلوَّع خوفاً، وحسرةً على نفسي إلى أن أذن الله لي بأن أحظى برحمةٍ منه بلقاءٍ مع ابني، حيث شرحت له حالتي البائسة التي تكاد تُيَئِّسُني من قبول ربي لتوبتي، فهدَّأ من روعي، ونبَّهني لعدم القنوط من رحمة الله التَّواب، والغفار لمن أخلص له النِّيَّة.. وذكر لي الحديث الشريف المطمئن: «**لو لا أنكم تذنبون؛ لخَلَقَ اللهُ قوماً يُذْنبون فيغفر لهم**»[1]؛ فأنار قلبي بأشعة الأمل. ومن تلك الآيات المخيفة أيضاً وأشدِّها تخويفاً: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر: ٣٦-٣٧]! إلهي! إنِّي أعوذ بك أن أكون ممَّن قلت فيهم: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

ولا ممَّن قلت فيهم في هذه الآية الأكثر صدىً في رأسي: ﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧].

* * *

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤١٤) ومسلم (٢٧٤٨) والترمذي (٣٥٣٩) عن أبي أيوب الأنصاري.

أمنيـة

إنَّني الآن أُعِدُّ نفسي ، وأتزوَّد لسفرٍ طويل ، وكم أحمَدُ الله؛ لأنَّه أبقاني على قيد الحياة حتى أستطيع تعويض ما فاتني من عبادته ، وأراد لي التَّوبة ، ولم يُمِتني على ضلالتي ، ومنحني فرصةً عظيمةً؛ كي أكفِّر عن سيِّئاتي ، ولكنْ أنَّى لي أن أَبْلُغَ مُرادي ، ولم يبقَ في العمر أكثرُ ممَّا مضى! والزادُ من العلم ، والعمل يحتاج إلى أضعاف ما مضى. . فاليوم عملٌ ، وغداً حساب!.

إنَّ ندمي من كثرة ذنوبي قد أورثني عزماً ، وقصداً ، لقد صحوت من غفلتي متأخِّرةً. . وكم بَكيتُ حسرةً ، ولوعةً على كلِّ ثانيةٍ أضعتها من عمري بعيدةً عن الله.

وقد تحوَّل نهمي الكبيرُ في تحصيل مُتَع الحياة إلى نَهَمٍ في تحصيل كلِّ العبادات ، وأنا أَجري جَرياً مُضْطَرباً. . فأنا في عجالةٍ من أمري ، أتسابقُ الآن مع الزَّمن لتعويض كلّ ما فاتني من العبادة ، لا أعرف من أين أبدأُ. . ولا كيف أَهدأ. . ما عرفت كثيرٌ ، وما ينقصني ويلزمني أكثرُ. . كلُّ شيءٍ من علومٍ دينيَّةٍ جديدٌ عليَّ ، وحاجتي إليها ماسَّةٌ. . أتخبَّط بين كلِّ الجهات. . أريدُ أن أُحَصِّل من كلِّ الخيرات؛ كي أعوِّض ما فات ، ولأنَّها كلُّها تلزم الإنسانَ في الحياة ، وبعد الممات ، وهي من أهمِّ الضرورات ،

وإنَّ أداء أهمِّ عملٍ بعد فريضة الصلاة هو حضورُ مجالس العلم؛ لأنه لا عبادةَ سليمة، وصحيحة دون علمٍ، وكم أرجو المولى عزَّ وجل أن يمنَحني فرصةً كافيةً لتحصيل أكبرِ قَدْرٍ من الزَّاد.

أعلم: أنَّ أحداً منا لن يدخل الجنة إلا برحمته، ولكن أعمالنا تبلِّغنا المنازل.. فتقبَّل يا إلهي عملي! واجعل خير عمري آخره! وأسعدَ أيَّامي يوم ألقاك؛ وأنت راضٍ عني يا إلهي! إلهي! اكتب لي زيارةً إلى بيتك الحرام؛ لكي تمنحني مغفرةً تجعلني أهلاً لذاك اللِّقاء.. ولكي أتخلَّص من غمِّ الذُّنوب، وهمِّ قبول المغفرة! وأعتقد: أنه لا خلاص لي إلا بزيارة بيتك المشرَّف، وأحيِني ما دامت الحياة خيراً لي! وهذا غاية ما أتمنى عليك يا إلهي! يا كريم! وأنا أسألُ اللهَ آناءَ اللَّيل، وأطراف النَّهار أن يُبلِّغَني المراتب العالية في الآخرة! نعم.. المراتب العالية، ومن دون حساب!! وذلك مطمع كلِّ مؤمن.. ألم يعد العبادَ سبحانه في هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٧ـ١٠٨] ؟!.

وبما أنَّني امرأةٌ طموحةٌ في حياتي.. فذلك بالغ ما أرجوه الآن، وأسعى إليه، وأطلبه من ربٍّ كريم.. معطاء عظيم، أرجو اللهَ أن يُبلِّغَه لكل متمنٍّ له، ويعينَه على الوصول إليه! ولن يكونَ ذلك إلا بعملٍ دائبٍ في مرضاة الله؛ لأنَّ ثمنه غالٍ، وباهظٌ جداً، واللهُ وحدَه الهادي، والموفقُ، والمعينُ.. فلم يَعُد هناك أيُّ مجالٍ لتضييع لحظةٍ من العمر سدىً، ودون استثمار رابحٍ مفيد.

كيف لا أطمع في طلبي هذا؛ وقد كان دأبي فيما مضى ألاَّ ألبسَ إلا أغلى الملابس، ولا آكلَ إلا أطايبَ الطَّعام، ولا أدخلَ إلاَّ أفخَمَ

الأماكن ، ولا أتعاملَ إلا مع كبراء النَّاس ، وكلُّ هذا في دنيا فانيةٍ زائلةٍ لا محالة ، فكيف أقْبَلُ من أجل حياةٍ أبديةٍ بالقليل اليسير من إله عظيمٍ قدير؟! هل يقبلُ أحدنا أن يدعوَه ملكٌ إلى وليمةٍ فاخرة ، وعندما يحضُر ، ويدخُل قصرَه يقدِّم الملك لغيره من المدعوين أطايبَ الطَّعام ، ويقدِّم له هو طَبَقاً من أدنى أنواع الطعام ، كم سيحسُّ عندئذٍ بالانكسار ، والإهانة؟! فمن كان يطلب العلا في حياةٍ زائلةٍ ، فالأجدر به أن يسعى إليه من أجل . . الحَيَوان[1] الدَّائم أبداً . . مع العلم بأنَّه ما من بشرٍ يُدخِله الله تعالى الجنة بعمله فقط ، لأنَّنا مهما أكثرنا من العبادات ، و الطَّاعات لا نوفي الله العظيم ذرَّةً من حقِّ أفْضاله علينا .

ولكنْ عبادتُنا لخالقنا ليست إلا تعبيراً عن إيماننا ، وخالص حبِّنا ، وخضوعنا لما يأمرنا به ، والعبوديةِ المطلقةِ له سبحانه؛ كي نستأهل أن ينظر إلينا بعين الرَّحمة ، وقتها نحظى برضوانه ، ونفوزُ بنعيم جِنانه ، راجين جلَّ فضله العظيم بوعده ، وهذا مطمع كلِّ مؤمنٍ عاقلٍ . . ومرتهن بالعمل المخلص ، إنَّ الله يريدنا أن نتَّبع منهجه في الدُّنيا؛ كي يعطينا الحياة المنعمة الطَّيبة؛ الَّتي أعدَّها للمؤمنين ، وجعل الحياة الدُّنيا فترة اختبارٍ للنَّفس البشرية لتقودها إلى الحياة الحقيقية الخالدة ، بما وصفها سبحانه : ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤] .

أي : أن الله يريد أن يُلْفتنا إلى أنَّ الحياة التي يعمل الإنسان لها لو أوتي العلم ، والذَّكاء هي الحياة الآخرة التي هي حياة خلودٍ ، ونعيمٍ ،

---

(١) «الحيوان» : أي : الحياة. قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٤].

فالتَّكليف ليس تكييفاً ، ولا هي بالمهمَّة السَّهلة ، ولا الهيِّنة ، بل هي مهمَّةٌ شاقَّةٌ ، وصعبةٌ ، واختبارٌ دقيقٌ بين مغريات الحياة ومطالب الإيمان ، وهي : امتحانٌ لا ينتهي في كلِّ دقيقة . اللّٰهم أسألك برضاك الفوز العظيم! يا برُّ يا رحيم!

* * *

من عالم الأزياء والموضة
إلى عالم الكتب والعبادة

بعدما عرفْتُ: أنَّ الطَّريق إلى الله هو معرفتُه ، وأنَّ الوصول إلى حُبِّهِ لا يتمُّ إلا بالعلم ، والمعرفة. . بل تيقَّنتُ بأنَّ للعلم أثره البالغ في جلاء الصَّدأ عن العقل الجاهل ، فينيره ، ويصقل شخصية صاحبه بالمعرفة ، فتحثُّه على الحماس ، والإقدام ، والاستمرار في تنفيذ أوامر الله سبحانه ، وتعالى. .

فحجبْتُ نفسي عن النَّاس في عزلةٍ لوجه الله ، بعد أن علمت بأن الاعتزال ضروريٌّ في طريق التوبة ، أقفلت على نفسي باب غرفتي ، اعتزلت حياةً جاهليةً من حولي ، وتفرَّغت للعبادة ، هجرت الدُّنيا ، وحياة اللَّهو ، والفساد ، وسهرات الضَّلال. . حقاً. . نبذتُها ، وجعلتُها وراء ظهري. . عندما تكشَّفت لي حقيقتُها ، وقذارةُ أعمالي ، وبعت نفسي لله ، ورحت في غيبوبةٍ عنها. . فغيَّرْتُ نواياي ، واختفَتْ من نفسي تلك الآثام ، ورسمت لنفسي طريقاً جديدةً برعاية إلهٍ منَّان ، بقلبٍ جديدٍ ، وفكرٍ جديدٍ سرْتُ في رحلة العودة إلى طريق الصَّواب. . اخترت طريق الآخرة.

وبدأت مسيرةً مغايِرةً لكلِّ ما مضى من حياتي مع كتب الله ، حتَّى

مشاهدةُ برامج التلفاز الفَنيَّة لم أَعد أَجدُ لها معنىً ، ولا وقتاً ، بل كرَّستُ وقتي لتعلُّم أمور ديني؛ كي أتعرف على عظمته ، وأوامره ، ونواهيه ، ولتجريد همَّتي لعبادة مولاي ، من أجل تحقيق رغبتي في تحصيل المراتب العلا في الجنَّة ، كنت أنفق السَّاعات الطويلة في حجرتي في عزلةٍ دامت سنتين ، أفادتني أجلَّ فائدة.

وجعلت من الكتب خير جليسٍ ، وأحضرت كتب ابن كثير ، وغيره من كتب الدِّين. . انكببت على مراجعاتٍ فقهيَّةٍ ، أقرأ بشوقٍ ، وشغف ، وأضحيت كتلةَ اهتمامٍ ، ومتابعةٍ ، وتعمُّقٍ ، أنهل من بحر العلوم الدِّينيَّة ، ونور كنوزها. . وأغرف من نبعه الَّذي لا ينضب؛ لأروي عطش القلب؛ الذي خلَّفه جفافُ السنين ، قرأت كثيراً ، وبكلِّ جوارحي؛ كي أشبع نهمي لمعرفة أصول العبادة في ديني القويم ، أثمرت في بناء شخصيةٍ جديدةٍ ، وإسلاميَّةٍ بكلِّ مقوِّماتها. . وفي التخلُّص من الشَّخصية الجاهلة بكلِّ ملامحها. . وأن أنفض عن كاهلي غبار الماضي ، وما ألمَّ بي منه؛ كي أصبح مثلاً صالحاً يحتذى به ، ومع إعجاز القرآن اللغوي ، والتصوير العلميِّ ، والفلكيِّ و ، و ، و. .

ومع كلمات ابن القيِّم ، وغيره عدت إلى الله ، ندمت على كلِّ لحظةٍ ضيَّعتُها ، أقلِّب فيها ناظري في كتبٍ هابطةٍ. . كانت معجزة الأمان هي القرآن الذي أذهلني بعظمة تصريف آياته ، وأسباب نزوله! وعلمْتُ بتوفيق الله ، وبما يَسَّره لي من حفظ القرآن الَّذي استصعبت. . أنَّ الله لا يخيِّبُ من استعان به أبداً ، ولقد عشقت هذا التكليف لدرجة أنَّني أصبحت أتمنَّى أن يطول عمري كيلا أتوقف عن تنفيذه ، فصرت أقوم بتأديته بحبٍّ كبيرٍ ، ورغبةٍ عاليةٍ ، أتحايل بهما على الوقت ، والظرف ، وأصبح من أولويات

اهتماماتي على الإطلاق ، فأكبر همومي صارت ماذا أعمل ، وكيف عملت ، وأتحدَّى كلَّ العوائق ، فأقهرها بعزيمةٍ فائقةٍ؛ كي أنجح . . فكان حبّاً فعّالاً بفضل الله ، وعونه .

وداومتُ على منهاجي هذا معتمِدةً على نظرتي الجديدة للحياة . . تعلَّمْتُ القرآنَ الكريم ، وحَفِظْتُ سوره ، ولم أكن أحلُمُ بذلك ، ولشدَّة فرحتي ، كنت كلَّما حفظت سورةً؛ أسجد شكراً لله على فضله ، أَحمده عليها بكلِّ كلمات الحمد الَّتي تعلَّمتُها ، تعبيراً عن امتناني لفضله ، ومعونته ، وأسأله أن يَزِيدني فضلاً ، ويُتِمَّ نعمته علي بحفظي القرآن كاملاً ، وأدخَلْتُ في ذاكرتي آياتِ الله ، بدلاً من كلمات الأغاني الرَّخيصة التي كنتُ أحفَظُها ، وأمارسُ بها هوايتي في الغناءِ ، فعندما خرج اللَّحن من قلبي؛ وجدت حلاوة الشَّهد تنبع مع القرآن ، وكلَّما رجَعْتُ إلى قراءته أجد فيه شيئاً جديداً يختلف عمَّا فهمْتُه من قَبلُ ، فأَحسُّ بأنَّ اللهَ ينير لي بصيرتي في كلِّ مرَّةٍ على نحوٍ أفضلَ من سابقتها ، وأعلمُ بأنَّ المعرفة الحَقَّ تأتي تدريجيّاً ، فأخذت أتدبَّر آياتِه ، وأجوِّد به جميع أعمالي تحقيقاً لسبب نزوله ، ولا يسعني إلا أن أبذُلَ قُصارى جهدي في أن أنفِّذ ما عرفت؛ حتَّى لا أكون في نفاقٍ مع الآمر جلَّ جلاله ، ويكون علمي حجَّةً لي ، لا حجَّةً عليَّ . . ! ولم أعد أشعر بالطمأنينة إلا في الصَّلاة ، وقراءة القرآن ، وعظم حبِّي لله .

واستحوذ على فؤادي كلامُ الله العظيم ، تستوقفني آياتُه ، ويُدهشُني كيفية تصريفها ، بحكمةٍ إلهيةٍ عاليةٍ!! أتعمَّقُ في كشف مضمونها ، وأتلمَّس روعتَها . . فأشعر بروحي تهتزُّ داخل جسمي ، وكانت فترةُ ما بينَ صلاة الفجر ، وصلاة الضُّحى من أمتع ما أَشعر به طوال وقت عباداتي

المتنوعة ، إنَّه الوقت الأمثل للتعلُّم ، وحفظ القرآن؛ لأنَّ الهدوء المتوافر في ذلك الوقت يجعل الفكر في صفاءٍ تامٍّ ، يعين على الاستيعاب؛ حيث لا يُسمع إلا زقزقة العصافير؛ وهي تسبح بحمد ربها باللغة الَّتي فطرها عليها خالقنا ، فاطرُ السَّموات والأرض ، ربُّ العرش العظيم ، وذلك ممَّا يشرح الصُّدور للعبادة؛ التي رَغِبْتُ الاستزادةَ منها بعد أن ذُقْتُ حلاوتَها ، وكلُّ ذلك يستوجبُ صبراً ، ووقتاً ، ولديَّ منهما الكثير الآن ، بعد أن كرهتْ نفسي الدُّنيا ، وعافت زينتها ، فطلَّقتها ثلاثاً . . بلا رجعةٍ ، وبتصميمٍ لا يعرف الأفول ! فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ذكر الدُّنيا ، وجعلها ثلاثة أجزاء : جزء للمؤمن ، وجزء للمنافق ، وجزء للكافر . فالمؤمن يتزوَّد ، والمنافق يتزيَّن ، والكافر يجمع . . وقد شبهوا الدُّنيا ، والآخرة كمثل ضَرَّتين ، إن أرضيْتَ إحداهما؛ أسخطتَ الأخرى! . .

انقطعتُ في عزلتي حتَّى عن أولادي الأعزاء الَّذين عادوا إليَّ بعد سفرٍ طويل . . وأحفادي الذين فاقت عندي محبَّتهم محبة آبائهم ، حيث كنت أعتني بنفسيَّاتهم جدَّاً ، وأتعامل معهم بموضوعيَّةٍ ، وبأسلوبٍ متحضِّر ، وكنت أقرأ لهم من قصص الأطفال الَّتي يعشقونها ، وألعب معهم ، وكأني أماثلهم عمراً ، وأركِّز على إغناء مداركهم بما ينفع مستقبلهم ، أنزل إلى مستوى تفكيرهم الخياليِّ بطريقةٍ مرحةٍ ، تجعلهم يسمحون لي بالدُّخول إلى عالمهم الجميل النَّقيِّ بسرورٍ ، فهم متعلِّقين بي جدَّاً ، ويرفضون البعد عنِّي إلا قسراً من أهاليهم ، وكنت أمتِّعهم باصطحابهم إلى الحدائق العامَّة ، والمسارح المختصَّة بالأطفال ، وأرافقهم إلى المَسابح ، والتَّجوال في السَّيارة ، أسمعهم الأغاني؛ الَّتي يرغبونها ، فيكونوا في قمَّة الفرح ، والسرور .

وبعد أن عرفت الله استغلَّيت محبَّتهم الكبيرة لي ، ولأنَّهم حقاً

أحبابي، وأعزَّائي.. فعلَّمتهم الصَّلاة، وحفظ بعض السُّور من القرآن.. وعملت لهم مسابقاتٍ لخلق روح التَّنافس المفيدِ بينهم، وشجَّعتُهم على ما يحفظونه بهديةٍ.. من مشوارٍ، أو أيِّ شيءٍ يرغبونه، وأصبحت أقرأ لهم من قصص الأنبياء، وأخبار الجنَّة، وسعادة الآخرة في محبَّة الله، وما أشدَّ شوق الأطفال لمثل هذه الحكايات! وما أبلغ أثرها، وفوائدها لتنمية عقيدتهم! ومن يرد لأولاده، ولنفسه منهم خيراً؛ فليفقِّههم في الدِّين؛ ليحصد الخير الوفير في الحياة وبعد الممات، ورغم ذلك، فلم أعد أتمكن من التَّفرُّغ لهم إلا نادراً، فأحثهم على الاستمرار في الصَّلاة، والمزيد من حفظ القرآن الكريم، فكيف أُضَيِّع لحظةً من عمري، وأَهدرُ ثانيةً من حياتي دون أن أستزيد علماً يفيدني في آخِرَتي، وأفيد به أحبَّائي من حولي، كي أجني ثمرة ما زرعت في حياتي.

ومن المضحك من أمري قبل أن أتبيَّن تأويل كتاب الله الحكيم الخبير، وعظمة الخالق بشؤون خلقه، فلم أكن قد اقتنعت بعدُ: أنَّ هذا القرآن هو من عند الإله العظيم؛ لاعتقادي بأنَّه سبحانه أعظم من أن يكون بهذا الحِلْم بالوعد، والوعيد في آياته، وبأنَّه يجب على كلِّ عبدٍ أن يخضع له من دون هذا التَّساهل، والإمهال.

كنت أظنُّ بأنَّني أدافع بذلك عن خالقٍ عظيمٍ، يجب طاعتُه، وتصديقه دون تبيان، فهو قادرٌ أن يبطش بمن يخالف أمره دون الصبرعليهم بإنذارهم، فظننت بسبب الجهل الكريه بأنَّ أحداً من الملائكة يجلُّ الله كثيراً فكتب ذلك عنه، لينبِّه الخلق على عظمة الخالق حباً منه لمولاه، ولمَّا ذكرت ذلك أمام ابني، كان استغرابي شديداً لهدوء ردَّة الفعل عنده، فعبَّر عنها بابتسامة الواثق المتيقِّن من حدوث أمرٍ لم أتبيَّنه حينَها، ودون

أيِّ تعليقٍ يبدِّد به خوفي الخفيَّ من أن أكون آثمةً بتفكيري على هذا النَّحو ، ولم ينفعل لعظيم جهلي هذا ، وإنكاري لشيءٍ هو في صلب العقيدة ، والإيمان . . وبعد فترةٍ وجيزةٍ أدركت مدى فداحة خطئي في هذا الرأي ، من خلال قراءة أحد الكتب القيِّمة الَّتي كان قد أَهدانيها ، والتي اطلعت فيها على معجزات القرآن الكثيرة ، والعظيمة ، وفطنت بعدها إلى سبب سكوت ابني عن جَوابي ، لقد كان مدركاً لمدى شغفي ، وانكبابي على مطالعة الكتب؛ الَّتي اختارها لي لتقوِّي عقيدتي ، فكانت ثقتُه عاليةً بأنَّ الله سيهديني بمعرفته ، وبعد جهدٍ ، وقلقٍ في بحثي عن الحقيقة إلى أن هداني ربي إلى قراءة آياتٍ كثيرةٍ دلَّت على إثبات أنَّه كتاب الله وحدَه ، فعلمت بأنَّه سبحانه جعل جلال عظمته في رحمته بعباده ، وأنزل ذلك التبيان المنير ، وجعله طريق الهدى لخلقه ، ومنقذاً من نيران الآخرة إلى جنانها ، ومن شقاء الدُّنيا إلى نعيم السَّعادة بقربه ، وممَّا قرأت ما أقنعني ، وأخجلني من جهلي : تشبيه كتاب الله الكريم؛ الَّذي جعله سبيل الرَّشاد لخلقه الذي يحبُّ ، تماماً كما يجعل صانع أيِّ جهازٍ من صنع البشر ، يجعل له كتيباً يشرح طريقة الاستعمال ، ويرشد به مستعمل الجهاز؛ منعاً لخطأ يتسبَّب بخسارته ، ولولاه لتحوَّلت الحياة على الأرض إلى غابةٍ . . وذلك تفسير قوله سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴾ [النساء: ١٧٤ - ١٧٥] .

وقد يقول قائلٌ : ما العمل؟ وَمَنْ أفصح ، وأصدق من القرآن ليجيب عن التساؤل موضحاً : ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] ، فلم يدَع الله سبحانه عبادَه في جهالتهم يعمَهون ، حتى لا يكون للإنسان على ربه حجَّة الجهل ، والظلم ، فيقول

كما بيّن لنا تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤] .

وبيّن لنا الخير من الشَّرِّ ، والحلال من الحرام ، وما فرَّط بالكتاب من شيءٍ سبحانه . . ثمَّ وهبنا حرِّيّة الخيار في التكليف ، وجعل لنا ديناً يضمن لمن يعمل بمنهجه سعادة الدَّارين ، حيث إنه سبحانه قد فصَّل كل شيء تفصيلاً ، وقال: ﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ٣٧] .

وانتهيت إلى يقينٍ بأنَّ القرآن هو الحصانة الإلهية الرَّفيعة لصيانة العباد أجمعين ، وأنَّه بعظمته لا بدَّ أن يكون تنزيلاً من لدن حكيمٍ حميدٍ: ﴿ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [القلم: ٥٢] ﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨] ! والأهمُّ من ذلك كلِّه أنِّي تيقَّنت: أنَّ الجهل يضلُّ صاحبه ، ويؤدي به إلى الجحيم المقيم . . أسأل الله العافية !

* * *

معركة النفس على التحجُّب

لقد توصَّلتُ في قراءتي للقرآن: أنَّه يتوجبُ عليَّ الحجابُ الَّذي أكره، الأمر الذي لم يخطر لي على بالٍ.. فاستوقفني ما قرأته أياماً طويلةً بعد أن تأكَّد لي ما علمتُه من عدَّة مصادر، بأنَّه أمرٌ من الله تعالى في كتابه المبين، وأنَّه فرضٌ على نساء المؤمنين كافةً، وليس كما كنت أعتقد، بتأثير ممَّا سمعته من الجاهلين في أمور الدِّين، والمغرضين، بأنَّ والدي رحمه الله وأمثاله فرضوا على نسائهم التحجُّب عبر فهمٍ متعصِّب خاطئ للدِّين، وتزمُّتٍ شديدٍ، وأنَّ الله أمر بالحجاب أمهاتِ المؤمنين نساء النَّبي ﷺ.. خاصَّةً لعظمة مكانته عند الله..

وكم كنت أسمع من يقول: إنَّ الحجاب أصبح من العادات، والتقاليد الاجتماعية؛ الَّتي أكل الدَّهر عليها، وشرب، ونحن الآن في عصر الانفتاح والمساواة بين المرأة، والرَّجل.. فأقنعني رأيهم، وأرضاني؛ لأنَّه كان يتناسب مع رغبتي في التفلُّت، والخلاص من ارتدائه، أمَّا الآن فأنا على يقينٍ من أنَّ ارتداءَه حقيقةٌ عرفتها من كتاب الله، ولكنَّها صعبة التنفيذ، ولا عذر للمسلم أمام أوامر خالقه.. ماذا؟!! هل أستطيع تنفيذ أمر الله في هذا الذي عملتُ المستحيل حتَّى خلعتُه منذ عشرات السِّنين

لاعتقادي: أنَّه من التقاليد البالية؟ فعلاً صعقني هذا الأمر الإلهيُّ؛ حيث أدركتُ أن كلَّ ما كنت أفعلُه من صلاةٍ، وقيامٍ في اللَّيل، ودعاءٍ، وأعمال البرِّ سيذهب هباءً منثوراً! صُعِقْتُ لأنَّني كنتُ أظنُّ أنَّني توصَّلتُ إلى إرضاء ربِّي بما أقوم به من عباداتي، فعلمتُ: أنَّه ينقصني اتباعُ أمرين مهمَّين بيَّنَهما اللهُ في كتابه العزيز، وهما الحجاب، وعدم إظهار الزِّينة إلا على المحارم، حيث قال تعالى آمراً رسوله ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩].. وجعلني ذلك في حالة ذهولٍ، ممَّا قرأت، وعلمت.

ما العملُ يا ربي؟! كيف السبيلُ يا إلهي؛ وأنا الَّتي لا تُطيق اسم الحجاب؛ فكيف ارتداؤه؟! وأنا التي لا، ولم، ولن أستطيعَ أن أتخيَّلَ منظري مرتديةً لباساً شرعياً، وأنا الَّتي كنتُ أقولُ في كلِّ مناسبةٍ يُذكَرُ فيها الحجابُ: لو رأيتُ جهنَّمَ بأمِّ عيني ما أنا بواضعتِهِ على رأسي، ولو أحرقوني بها مئة مرَّةٍ، وحجَّتي في ذلك طيبة قلبي، وأنني لا أؤذي أحداً، وأنَّ الله غفورٌ رحيمٌ.. ما العمل الآن؟ ما العملُ وقد عَلِمتُ بأنَّه أمرٌ من اللهِ الَّذي أحببته، وأبتغي الآن رضاه!! وعاهدته بأن أقوم بكلِّ أوامره، والأمر بالحجاب كالأمر بالصَّلاة، والزَّكاة، وسائر الفرائض تماماً.. وقد أشار إلى ذلك القرآن في هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]، وعلى المؤمن أن يقول: سمعنا، وأطعنا! كيف أتجرَّأ على الله بمخالفة ما أَلممت بعلمه حيث تحقُّ حُجَّة الله تعالى عليَّ بقوله في كتابه الكريم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾؟! [البقرة: ٨٥].

يا إلهي! إنَّ رأسي يكاد ينفجر من شدَّة التفكير الواهم بأنَّني إنسانةٌ

متفرِّدةٌ بميِّزةٍ جامعةٍ لكلِّ الصفات الحميدة.. طِيْبَةُ قَلبي اللامتناهيةُ، وحُبِّي للنَّاس، ومساعدةُ المحتاجين، بالإضافة إلى صلاتي، وقيامي، وصيامي؛ الَّذي أصبحت أصومُه مستَغِلَّةً كلَّ طاقتي لوفاء ديوني لله، والاستغفارِ الدَّائمِ مع الدُّعاء.. توهَّمتُ بأنَّ كل ذلك سيُنجيني من العقاب؛ لأن اللهَ يعلمُ بأنِّي لا أُطيق الحجابَ، وحتماً سيسامِحُني، ويُعفيني منه، خاصَّةً وأنِّي أقلعت عن كل ما علمت بأنَّه يغضب ربي.

بَقيتُ عدة أسابيع على هذه الحال.. تارةً أُوهم نفسي برحمة ربي مع هذه المعصية.. وتارةً أحاول إقناعها بقَبولِ ما قرأتُ، وتنفيذِ ما أُمِرْتُ، وبأن الأمر بالحجاب يَشْمَلُني إن كنتُ مؤمنةً حقاً، وليس وقفاً على نساء النَّبيِّ ﷺ، وفي تركه مخالفةٌ لأوامر الله الَّذي أبتغي رضاه في طاعته، فما هذا التناقض؟! ثم أتذكَّر قولَه تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

فأشفق على حالي من هذا التعنُّت، والعناد؛ الَّذي سيدفع بي إلى الجنون في الدُّنيا، وإلى جهنَّم في الآخرة، بسبب نفسي العنيدة!! فسلطتُ أناتي عليها، فحبستها في البيت مدَّةً طويلة.. تجعلني أجول في أنحاء البيت جيئةً، وذهاباً، ولا تدعني أجلس ولو لبرهةٍ، وتركتُها تصرخ في داخلي تكبُّراً، وإباءً، وتقول: لا! لا يمكن! كيف ذلك؟! هذا أمرٌ صعب عليَّ!! إنَّ احتماله يفوق طاقتي، واللهُ لا يكلِّف نفساً إلا وسعها! وتنظر ماذا بعد الاستجداء والعويل؟! تحاول تفريغ شحنة العناد بأناة ورويَّةٍ، كي تمنحها فرصة الاقتناع، والتَّجاوب، وتنجينا من عذابٍ واقعٍ لا محالة.

يا إلهي! كيف الوصولُ إلى اللِّينِ ، والرُّضوخِ لأمرِك؟ إلهي! بغيرِ عنايتك بي ، ورأفتك بحالي ، وعونك ، وإلهامك القَبولَ به لن يحصلَ هذا ، ولو اجتمعت الإنسُ والجنُّ على إقناعي به ! إلهي إذا كانت هذه مخالفة تودي بي إلى الهلاك ، فأعنِّي على ارتدائه! ومن رحمة ربي بي؛ ليُخلِّصَني من هذا التردُّد المُضني ، هيَّأ لي الأسباب بأن أَرسَل ابني من بلاد الغرب؛ ليقيم في بلده بعد انتهاء دراسته ، وعمله فيها؛ تعظيماً لانتمائه إلى وطنه ، وغيرةً عليه ، ورغبةً في خدمته. . كي يساهم في إفادته ، وإنمائه بالأساليب المتحضِّرة الَّتي تعلَّمها هناك ،وقد جاءني بأجمل ، وأثمن هديَّةٍ ، ألا وهي زوجتُه العزيزةُ على قلبي ، والَّتي تحملُ طباعي الحميدةَ ، وعاداتي الحسنةَ؛ التي تعلَّمَتْها من زوجها؛ حتَّى بَدَت؛ وكأنّي أنجَبْتُها أنا ، وربَّيتُها معي ، تلك الأجنبيةُ المسلمة! وطبعاً كنا نجتمع باستمرارٍ ، ولأنَّه إنسانٌ راجح العقل ، يعي ما يفعلُ ، ويَعلمُ أمورَ دينه ، الَّذي يحبُّه جيداً ، ويؤمن بقول الله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص: ٥٦] . . الذين يريدون الهداية لأنفسهم. . وقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ، فقد كان حيادياً إلى أبعدِ الحدود في أمور الدِّين مع كلِّ الناس. . لم أَعهَدْ منه إحراجاً يُربِكُ به أحداً ، ولكنَّه كان فقَط في كلِّ اجتماعٍ مع أفراد العائلة يشرح لنا أموراً من أساس العقيدة الإسلاميَّة ، لم نكن على درايةٍ بها ، ويجعلُ ـ وبدون تَـكَلُّفٍ منه ـ الجلسةَ كلَّها شوقاً ، وانبهاراً ، وشغفاً إلى سماع المزيد من قِبَلِ الجميع .

وقد وهبه الله الحكمة اللازمة في أمور الدَّعوة إلى الله. . فكان يَتَعَمَّد ألا يُسهبَ في حديثٍ إلا بإلحاحٍ من الجميع ، ويَقْطَعُ الجلسة والكُلُّ آذانٌ صاغيةٌ إلى ما يقول ، ويبيِّنُ أموراً جديدةً على أسماعهم ، من جمال ديننا

وحكمته في أحكامه ، ويَدَعُنا في شوقٍ كبيرٍ إلى لقاءٍ آخر. . ما جَعلَنا نتحيَّنُ الفُرَصَ ، ونختلقُ الدَّعوات حتَّى نجتمع معه ، ويتسنَّى لنا مزيدٌ من علمه النَّيِّرِ ، والآسرِ للألباب ، والذي يُلَيِّن أكبرَ رأسٍ متحجِّرٍ ، ويَجلي الصَّدأ من رؤوس الجَهَلَةِ المتعنِّتين أمثالي ، كلُّ ذلك في تبسيطٍ واعٍ بليغٍ ، وتسهيلٍ حكيمٍ ، وأسلوبٍ هادئ ، ومُرَغِّبٍ ، يجعل السَّامع يتشوَّق لسماع المزيد من حديثه المفيد ، الواضح الهدف ، والمقصود.

وبحمد الله ، ومِنَّتِهِ ، وفضله جعل قَبَسَ النُّورِ الإلهي على لسان ابني يشعُّ في نفسي ، فكانت الشرارةَ الملهِمةَ لجميع قناعاتي. . أنَّ من عَرف الله ؛ أحبَّه ، ومن أسكَن حبَّ الله في قلبه ؛ انصاع لأوامره ، وانتهى بنواهيه ؛ حتَّى ولو كانت على غير مزاجه ، وأهوائه ، وهذا هو الحبُّ الحقيقيُّ الكامل ، فكيف أدّعي حبّاً كبيراً لخالقي ؛ وطاعتي له مازالت ناقصةٌ؟! ومن جانبٍ آخر كان مَظْهَرُ زوجته الأجنبية بالحجاب يُشعر بالخَجَل لي ، ولكلِّ مسلمةٍ اعتادَتْه تقليداً ، ولم تضعه إيماناً ، واحتساباً لله ! كيف أتوهَّمُ صعوبَتَه ، وتلك الأجنبيةُ كانت لا تحتمل حتَّى فكرة لبسه في بيئتها الغربيَّة ، فها هي تضعه إيماناً بالله ، واحتساباً لمرضاته. . وكيف أتوهَّمُ من حَرِّهِ في الصَّيف ، وأتناسى أنَّ جهنمَ أشدُّ حرّاً ، كيف أتوهَّم الضِّيق منه ، وضيق القبر ويوم الحساب أشدُّ ضيقاً ، ولا يقارن بأيِّ ضيق ، وقد قرأت قوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥].

فلا بدَّ من خطوةٍ للتقرُّب إلى اللهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ بإطاعة أوامره ، هاأنا قد عزمت على الاستسلام لأمر ربي ، ولكن كيف السَّبيل؟ إنَّ قلبي يَخفِق بشدَّةٍ لمشقَّةِ هذا الأمرعلى نفسي ، لابدَّ من قَسْرها على طاعة خالقها في

تنفيذ أوامره، وبالقمع المطلق! لأنها هي الَّتي تُهلكُ صاحبها الذي ينقاد لتنفيذ أوامرها بطواعية.

فعقدتُ العزم، وذهبت بتشجيع من ابنتي الشَّابة إلى السُّوق بعد انقطاعي عنه شهوراً عديدةً عاكفةً على عبادة الله.. ذهبتُ إليه الآن لكي أشتريَ ثيابَ الطَّاعةِ، والحِشمةِ، وأنا مُشَتَّتة الفكر ما بين عقلي، ونفسي.. قلبي يكادُ ينخلعُ من مكانه لشدَّة فرحي بتلك الخطوة، ونفسي تُهوِّل عليَّ مقدرتي على احتماله، ربِّي! هل أستطيعُ ذلك؟ يا ربِّي! أعِنِّي على طاعتك في ارتدائه.. واشتريتُه.. اختارَتْه لي ابنتي من أجود الأنواع، تعبيراً عن فرحتها بما مَنَّ اللهُ من فضْلِه على والدتها من الهداية.

أمَّا أنا؛ فلم يعد يهمُّني جمالُ ونوعُ الكمِّ في أمور الدُّنيا.. بل أفكِّر بالكيف الصَّحيح فقط.. اشتريتُ الملابس الشَّرعية، ووضعتُها في الخزانة، أمَّا التَّنفيذُ، فما أحوجَني إلى قوَّةٍ إلهيَّةٍ تعينُني عليه، فها أنا أتحيَّنُ فرصةَ المَقْدِرَةِ على مقاومة إيحاءات الشَّيطان؛ الَّذي يوهمني بعدم المقدرة؛ وأنا في بيتي هذا، ويحثُّني على التَّسويف والتَّريُّث حتى أُغَيِّر منزلي إلى مكانٍ آخر، لأنني لا أرغب أن يراني جيراني بمظهري الجديد، بعد أنِ اعتادوا مشاهدتي كعارضات الأزياء.. ومن ثَمَّ أبدأُ مرحلةَ التَّغيير هذه.

وكم وسوس لي ذلك اللَّعينُ: أنَّه لا مانع من الانتظار إلى ما بعدَ الحجِّ؛ الذي أتمنَّاه على ربِّي، فتكونُ خطوةً مقنعةً لي، ولجميع مَنْ حولي ـ وكأنِّي ضامنة أجلي بيدي ـ وبهذا حجبني ما بين «سوف» و«حتى» عن تحقيق خطوةٍ مهمَّة جداً.

* * *

على طريق الهداية

واستمرَّت لقاءاتي مع ابني ، وأحاديثِه الدِّينيَّة ، وأنا أشعر بقلبي يشتعل غيظاً ، ورَهَباً من عنادي في هذا ، وممَّا سيوصلني إليه بعد قناعتي التامَّةِ بوجوب الحجاب ، وأنني لم أَعُد مقصرةً في شيءٍ من عبادتي إلا ارتداءه ، وعرفت من خلال أحاديث ابني: أنَّ هذا الأمرَ من تلبيسِ إبليس. . ولمَّا كان التردُّد في لبس الحجاب لا يزال يملأ مساحةً كبيرةً في عقلي ، ورغبتي ، بقانون المدِّ ، والجزر الشَّهوانيِّ إلى عشق مباهج الدُّنيا. . وهداني تفكيري لأن أستعين بخالقي ، يخلِّصني من هذا التَّمرد المهلك للإنسان ، فأنا بحاجة كبيرة لرعاية ربي ، وهداه؛ كي يدلني على الصواب في مسيرتي الجديدة ، فطلبت منه سبحانه أن يمدَّ لي يد العون للتغلُّب على أوهامي ، وتردُّدي ، وأن أضع حداً لعذاباتي. . ودعوت: اللهم! أرني الحق حقاً ، وارزقني اتباعه ، والباطلَ باطلاً وارزقني اجتنابه ، واجعلني ممَّن يستمعون القول ، فيتَّبعون أحسنه؛ كي يستقر حالي على ما يرضيك عني. . فألهمني أن أتقدَّم بين يدي جلالته في جلسة رَحْمانيَّةٍ رائعةٍ ، ومذهلة. . ولقاءٍ مباشرٍ بين قلبي وبين الله جلَّ في علاه ، ليس معي أحدٌ سواه ! وسأحدِّثكم بما جال في خاطري من رهبةٍ جعلتني أتخلَّى

عن عنادي ، وأرمي سلاحي ـ وما كنت لأرميه ـ وأستسلم بالتَّوبة النصوح ، وما كان أحدٌ ممَّن يعرفني يتخيَّل أبداً أن أتنازل عن غروري ، وكبريائي ، وعنادي . ولكن هي حقيقةٌ واحدةٌ جعلتني خاشعةً ساجدةً لربي ، في خلوةٍ عظيمةٍ ، سأذكرها لكم ، وسأبوح بها من أجلكم . واللهِ حباً بكم ، وخوفاً عليكم .

أمسكت في ليلةٍ مباركة في وقت السَّحر بأحبِّ شيءٍ إلى قلبي بعد أن عرفت ربي . . كتاب الله المقدس ، واستحضرت هيبة المولى المتعالية ، وذلِّي في حضرته ، وحاجتي الماسَّة إلى عونه ، وإرشاده . . فأخذت يدي تفتح صفحات المصحف لا على التعيين ، وأقرأ بشكل استجداءٍ . . أتَّكل به على ربي ؛ كي يجعلني أقرأ ما يلزمني ؛ لأنه تعالى خالقي ، ويعلم بلا ريبٍ صالح عباده .

وشرعت أبحث عن آياتٍ تخاطب عقلي ، وتتناسب مع أحوالي ؛ لأن نفسي العنيدة تحتاج إلى الخوف والرَّهبة كي ترتدع . . فكان أن وقعت عيني على هذه الآية الواعظة : ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢] .

ثمَّ هذه الآية العاصفة : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [هود : ١٥-١٦] .

فتسارعت دقَّات قلبي ، واقشعرَّ بدني ، ولكن نفسي هدَّأت من رُوعي ، وأوهمتني بأنني لم أعد كذلك ، فقط يلزمني بعض الوقت كي ألتزم كما يجب ! بالتأجيل إلى ما بعد أن أحجَّ ، أو حتَّى أنتقل من بيتي إلى آخر ، أو . . أو ، المهمُّ أنَّني كنت أسوِّف كما ذكرت آنفاً . . ولكنَّ عقلي

لم يقنع بذلك، فأوحى إلى نفسي بأنَّها لا تضمن البقاء إلى ما تَعِد، وتتمنى! فأغلقت المصحف، ثم فتحت صفحات غيرها.. فإذا بي أمام آيات أشدَّ هولاً: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُواْ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [الجاثية: ٧ ـ ١٠].

ثمَّ سردتْ بقيَّة الصفحة أحوال أهل الجنَّة مع مَنْ صلح من أحبابهم بشكل لا يشتهي معه أيُّ عاقل شيئاً إلا الفوز بها.. فحدَّثتني نفسي: هل يعقل ألا أكون من أهلها، وقد تحسَّنت حالي عمَّا قبل بفارقٍ كبير، ولم يبق عليَّ إلا لبسُ الحجاب؟ ثمَّ شاء لي سبحانه أن أقرأ: ﴿ وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ۝ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٧ ـ ٧٨]، ثمَّ هذه الآية الأشدّ نكالاً: ﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ.. ﴾ [الرحمن: ٣١] فتخيَّلت: أنه تعالى لنا بالمرصاد.. متربصٌ للأشرار العاصين من خلقه، فخشع قلبي، وسرحت مخيِّلتي، تصوَّر لي أنَّني أقترب من جهنم، ويلفح وجهي لظاها، وظلامُها المخيف يشلُّ قواي؛ وأنا أصطرخ فيها، فارتجفت أوصالي تحت وطأة الخوف من تلك المعاني المرعبة جداً، فلا طاقة لمخلوق على تحمُّل ذرةٍ من حرِّها! فكاد قلبي ينخلع من مكانه، ويهرب من تحت قدميَّ خوفاً وهلعاً.. فأطبقت المصحف، وجلستُ أفكِّر.

ثمَّ بحثت في صفحات أخرى لعلِّي أجد ما يهدِّئ رُوعي، فإذا بي أمام آية أفظع هولاً، وأعظم بأساً، وأكبر دليلاً على أشد العذاب: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ

رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَـٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ١٩-٢٢] . . ثم: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] !

ماذا؟! إلهي ما أشدَّ بأسك على من يعصي أمرك. . وما أخوَفني من نارك!! كيف النَّجاة من وعيدك؛ وأنت الذي أثبتَّه في كتابك مئات المرَّات؟! ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾؟! [النساء: ١٢٢] إلهي ألهمني آية يركن إليها فؤادي، وإلا سيسكت قلبي، ويدركُني الموت من هول نُذُرك، ثم فتحت صفحةً غيرها، فبدت لي آية: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ لغاية قوله: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَـٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الفرقان: ١٣-١٦].

فأشفقت على نفسي ممَّا انتابها من معرفتي بأنَّ مولاي ينذرني، وأمثالي بهذه الآيات المخيفة، والمفعمة بالوعيد ليكشف لي عن مصيرٍ أسود إن لم أتَّعظ بما يقوله الرَّحمن الرَّحيم: ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى: ٤٧].

إلهي أتوسَّل إليك أن تُطَمْئن قلبي الهلع بآيةٍ تعيده إلى مكانه؛ كيلا يجعلني على شفا الموت من الرَّهبة، والهلع.. وسرحت مع روحي، فأخذتني بعيداً عن وجودي، وصدى ما قرأت يدور في رأسي، تلاءمت مع قولٍ مهيبٍ في فحواه كنت قد قرأته موضحاً لحالي: يا من يعدّ غداً لتوبته.. أعلى يقينٍ من بلوغ غد؟! أيّام عمرك كلُّها عَدد.. ولعلّ يومك آخر العدد! وأفقت من شرودي؛ وكتاب الله مفتوحٌ بين يديَّ أقلِّب صفحاته، وتبحث عيني عن آية تريحني، فإذا بي أقرأ هذا الأمر الصَّارم

في هذه الآية المعنِّفة: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ [الحديد: ١٦] .

فأصابتني قشعريرةٌ وكأنَّ زلزالاً اجتاحني ، فارتجف منه جسمي. . وأسقط في يدي. . وراجعت حساباتي بعقل سليم ، فلمست مدى توافق وعيد ربي وإلهامه لي مع عنادي ، وأوهامي ، وتكاسلي في تنفيذ أمره الواضح، وكأنَّ الله أراد أن يقوِّي عقيدتي قبل لبس الحجاب ، كيلا يهون عليَّ خلعه ، كما فعلت من قبل !! فإذا بي أشعر ببريق الأمل يلمع في قلبي. . وبلمسة لطفٍ ، وحنانٍ يشعُّ فيه ، وبقربي الشديد من القناعة ، والاستجابة لأمر ربي.

وكان شعوراً رائعاً جعلني أستسلم أمامه للأمر ، وأستصغر نفسي الضعيفة كي أخلِّصها من عنادها ، وكبريائها ، واهتمامها بالمخلوقين إلى حدِّ تأجيل الانصياع لأوامر الخالق. . ولكي تخضع لإمرة مولاها ، وتستجيب لتحذيراته.

وأحسست بأنَّ قلبي سيخرج من صدري ليسجد لله خوفاً ، وطمعاً ، وثناءً لما ينبغي لجلال وجهه ، ولعظيم سلطانه ، فخضعت نفسي لمولاي الذي يدعو عباده بمنتهى الرَّحمة ، والمحبَّة إلى الإيمان الخالص ، وقالت: اللهم نعم ، وألف نعم! بينما دموعي أخذت تحرق وجنتي ، فخررت ساجدةً لمولاي الحليم الرَّحيم ، وأعلنت توبتي بنيةٍ خالصةٍ ، وصادقةٍ ، سجدت لله نادمةً ، وبكيت بكاءً مراً ، بكيت بحرقةٍ وألم ، وكلُّ قطرةٍ منها كانت جمرةً تسقط في قلبي ، فينزف دماً ، فحَرُّ المعصية تأجَّج ناراً فيه ، أريد أن أخرج دمعاً ينجيني من عذاب الله الأليم ، من ظلمة الليل

الحزين، وظلام السِّنين.. وذكرياتٍ، وأحزانٍ، وأشجان، أنتحب نفسي وأيامي الضائعة بدموع عبد ذليل خان سيده، ووليَّ نعمته، فظلم نفسه، وعاد تائباً من خطاياه، معترفاً بما جناه، معتذراً إلى مولاه؛ إذ عصيتُه؛ وهو يراني، فكيف ألقاه؛ وقد نهاني، أذرف الدموع الغزيرة من قلب انفطر يعشق السَّحر، هل يا ترى ربِّي غفر؟ أبكي على ما مضى من عمري من التفريط في حقِّ الله.. ومن تعنُّتي حتَّى بعد أن عرفته، وقرأت في كتابه آيات أخرى؛ ولم أخشع، أتبتل حالي، وضعفي، وغروري، وأدفع الدموع مهراً لتوبةٍ تعلن فكَّ أسري، وبقيت أدعو، وأتضرَّع دعاء مشفوعاً برهبة ساجد، من مقلةٍ مكسورةٍ فيها من العبرات أصدق شاهد، أتوب، وأستغفر، وأسألك يا مهيمن! العون، والمدد، أخطأتُ يا ذا العفو فأنت السَّند!

ثمَّ قمت من سجودي مبلَّلةً بدموع الندم بعد مدة لا يعلمها إلا الله!! متسلحةً بحماس ربَّانيٍّ، وبدأ قلبي ينبض، وكل جوارحي تناديني: اقتلي الشيطان، والهوى، ما مصيرك لو متِّ قبل أن تعرفي ربَّ العِزَّة؟! ومن ثمَّ هدأ حالي، وسلمت سلاحي لإتمام طاعتي له قولاً، وعملاً، حامدةً الله الذي نَجَّاني من آثامي؛ ليدخلني في نعيمه برحمةٍ بالغةٍ بقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا..﴾ [الإسراء: ٥٩].

الخوف: تلك النعمة العالية التي أودعها فينا خالقنا؛ ليبعدنا من خلالها عن ظلم أنفسنا.. ولولا هذه النِّعمة؛ لكان كلُّ إنسانٍ من أهل جهنَّم؛ بتجرئه على ارتكاب المعاصي المهلكة.. دون ما رادع من خوف، وبهذا التَّخويف الرَّاحم من الحكيم العليم أحسست بما سألاقيه من العذاب الأليم، وقلت له: سمعاً، وطاعةً يا إلهي! فمَدَّني بإرادةٍ

صلبةٍ ، وعزيمةٍ قويةٍ هزمت أوهامي الشَّيطانية كلَّها ، ومن يومها تبدَّلت حالتي رأساً على عقبٍ! فسبحان مغيِّر الأحوال ، ولن أنسى ما حييت بأنَّ ذاك اليوم هو الأعظم ، والأجمل ، والأعزُّ في أيام عمري كلِّه! بحمد الله ذي الفضل العظيم؛ الذي قال: ﴿ فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨]. . ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٤].

أخرجتُ الحجاب ، والجلباب من خزانتي ؛ الَّتي وضعتُهما فيها مترددةً كيف ألبسهما؟ عندما كان التَّسويف ، والتَّخوف ، والوهم يتلاعبون بي أنتظرحتى يأتيني نور الهادي ليلهمني الصَّواب في الأمر الأهم والأصعب بالنسبة لي. . وَها قد جاءني الدَّافع الرَّحمانيُّ مُحمِّساً ، ومبدِّداً للوهم ولكلِّ مانعٍ ، فلبستُهما ، وكأنَّني تعوَّدْت عليهما منذ سنواتٍ ، لبست الحجاب الإسلاميَّ الصَّحيح بخشوعٍ ، وطمأنينةٍ ، واقتناع ، ارتديت ثياب التَّقوى ، والإخلاص؛ وأستشعر رضا الله عنِّي. . فأحسست شعوراً غريباً ، ولكنَّه كان رائعاً بحمد الله. . أحسست وكأني كنت بلا روح ، فرُدَّتْ إلي مع هذا اللباس روحي!! أو كأنني كنت تائهةً عن حقيقتي فدلَّني عليها ارتداؤه. . أو كنت في صحراءَ ذاتِ بردٍ قارسٍ ، فجاءني ما يدفئ أَوصالي المتجمِّدة من شدَّة صقيع العناد ، فهدأت أَوصالي المرتعدة. . وكنت فعلاً مبعثرة الأهداف ، والنَّوايا ، فلمَّني لبس الحجاب واحتوى ضياعي ، وأحسستُ باحترامٍ كبير لنفسي ، لأنَّها أطاعت روحانيَّتها الجديدة ، وتجاوبت معها على إنقاذنا من ذاك الوهم الشَّيطانيِّ. . فارتسمت على وجهي ملامح الأمل ، وعلت شفتاي بسمةٌ رقيقةٌ ، أسفرت عن سعادتي ، وبالغ شكري لله أن منحني فرصة العودة إليه.

ما أروعك ياإلهي ، وما أكرمك! فعلى الرَّغم من إعراضي الكبير ، وظلمي لنفسي ، مع ذلك لم تغلق في وجهي أبواب الحبِّ ، والهداية ، وظلَّلتني برحمةٍ فائقةٍ . . بل أراني من أكثر الناس حظاً ، وعنايةً.

وقفت أمام المرآة ولسان حالي يقول: ربّاه! هل حقاً ما أرى؟ أهذه أنا؟ من كان يصدق أنَّني أغلب الوهم ، وأرتدي الحجاب! هل أنا في يقظةٍ ، أم في منام؟! ولكنَّها الحقيقة ، وهذه أنا أنعم بها. . رفرف القلب مغرِّداً ، وعلَت في داخلي زغاريد أناتي المزهوَّة بالانتصار ، حرضتُ بها مآقِيَّ لتشاركنا إعلان القرار العظيم ، فعبَّرتْ عن فرحتها بدموعٍ عذبةٍ صادقةٍ ، وبتنهيدةٍ عطرةٍ ملأت اللِّسان بكلمات الحمد ، والامتنان العظيم لهذا الإله الكريم ؛ الَّذي غمرني بالحنان. . وكأنَّها تزفُّني إلى مأمني في بيت الله الَّذي شردتْ عنه نفسي طويلاً ، فيكون لي سكناً آمناً مع روحي. . فلمعت عيوني ، وتلألأت ببريق قطرات النَّدى مؤيدةً شعاع الفرح الذي ينسكب في أعماقي ، فينعش قلبي ، وأسكُبُها على وجنتي تدغدغها في حبٍّ ، واحترام كبيرين مبارِكةً هذا الانتصار ، دموعاً تسري على الخدَّين ، تعيد الدفء للرَّاجعين. . وكم يسعد دموعُ الرَّجعة العينَ. . تغمرني لذة الانتصار الكبير من ربِّي المعين.

أحببت ذلك اللباس جداً. . إلا أنني لم أُتْقِنْ وضْعَ الحجاب بما يرضي العارفين فيه؛ لأنه لم يَعُد يَهمُّني حُسنُ المظهر ، إلا بما يُرضي الله ، تشفياً من نفسي ، وهواني السَّابق عليها. . فجاءَتِ ابنتي وأَصْلَحَتْ لي من شأنه ، ولله الحمد. . فقد أكسبني فيه هيبةً ونورانيَّةً ، بشهادة كل من رآني على هيئتي الجديدة فيه ، وقالوا: إنَّه قد صارت تكسو وجهي لمسات رَحْمانيَّـةٌ ، علاوةً على الاحترام الرَّاقي بيني وبين الآخرين ، وغدوت لا أبغي حولاً عن حالي السَّامي هذا ، وخرجتُ من البيت ، وأوَّل ما ذهبتُ

مرتديةً الحجاب إلى أحد المساجد لتلقّي العلم من مؤلف الكتاب الرائع؛ الَّذي أهدانيه ابني، ذاك الكتاب المنير؛ الَّذي انبثقت شرارة الإلهام الإلهيِّ الأولى لهدايتي من خلاله.. جزى الله ذلكَ الشيخَ الكبيرَ، والمؤلِّفَ القديرَ كلَّ الخير، وأكثَرَ اللهُ من أمثاله لفائدة عباده، ولابني الَّذي أهداني ذلك الكتاب، وأهداني من بعده كتباً أشملَ، وأغنى.

ومن ذلك اليوم، سكن حبُّ المساجد قلبي.. وانتفى غرامي في المسارح، وصالات العرض بجميع أنواعها، بحمد الله المجيد.. كبيرةً جداً كانَتْ فَرْحَةُ عائلتي بلبسي الحجابَ.. وتلقَّوا الخبر في احتفاليةٍ رائعةٍ.. فكلُّهم كانوا يعلمون مدى رفضي له، وبما أنَّهم يحبُّونني ويتمنَّون لي الخيرَ؛ فرحوا لرعاية الله لي، ومنَّته الرائعة عَليَّ، وكانت ردةُ فعلهم واحدةً، حيث قالوا لي: إنكِ تستأهلينَ هذه الهدايةَ الإلهيَّةَ؛ لأن طيبتَكِ، ورحمتَكِ بالناس، وحُبَّكِ للخير لا حدود لها ولم يكن ينقصك إلا طاعةُ اللهِ، وكلُّهم كانوا يدعون لي بالهداية خُفيةً عنِّي، كما أخبروني، وأكثر مَن كان يدعو لي لنيل هذا الخير هو ابني الغالي؛ الذي لم يكن يوجِّهُ لي كلمةً مباشرةً حول ما كنت عليه من ضلالةٍ، احتراماً منه لوالدته، ولعلمه الأكيد بأنِّي لا أسمحُ لأيٍّ كان أن يتَدخَّل في شأني الخاص، وكنتُ حينذاك محقِّقة قوله تعالى: ﴿ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴾ [المدثر: ٥٠-٥١].

وابني أول من كان يسمع عمَّنْ حاول موعظتي، ولم أُعِرْ أيّاً منهم أذناً صاغيةً، فلا حياة لمن ينادوا، والقرآن يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]، والمعرض عن الله.. فما له من هاد! ذلك قانون السَّماء.. فالله لا يهدي إلا من أراد أن يهتدي.. وأنا الإنسانُ الأعزُّ عند ابني في الوجود، وهو يعلَمُ المصيرَ المنتَظَرَ لحالي هذه،

فيدعو اللهَ لهدايتي بينه وبين نفسه ، بحرقة العارف ، ورجاء الخائف على مَن يُكِنُّ له الحبَّ ، ومع فرحته لم تسعه أرضٌ ، ولا سماء ، ومن أغلى من الأمِّ ؟! عرفتُ ذلك بعد أن صارَتْ هذه حالي اليومَ ، فأنا أدعو الله من كلِّ قلبي لهداية كل مَن تأخذه تياراتُ أعوان الشَّيطان الخبيث ، ولا يُريد أن يسمعَ نداءَ إنسانٍ عرفَ اللهَ ، فيا ليته يصغي ؛ ولو لدقائق إلى مَنْ يتمنَّى له الخير ، كي ينير قلبه ، وعقله منه ، ثم بلا شك سيدعو بدوره إلى ما لمس من هناءٍ . ولم تكن فرحةُ زوجةِ ابني بأقلَّ من فرحتِهِ هو بي ، فقد طفح البشر في وجهها ، وهي التي أحبَّتْني بكلِّ كيانها .

والحمد لله! مع الصبر ، والدُّعاء الدؤوب فرض الإسلام نفسه على بيتي ، وهدى الله ابنتي للالتزام في التديُّن . . وما أعظم سروري عندما اتبعتني بلبس الحجاب ، فعملت لها حفلةً لائقةً بمقام هذه المناسبة المشرِّفة ، والرَّائعة . . وشاركتني منهجي في العبادة من قيامٍ في الليل ، والصَّوم معاً ، وقراءة الكتب الدِّينية ، ومتابعة تلقي العلوم المفيدة في تقوية العقيدة من التلفاز ، والكمبيوتر ، وحضور مجالس العلم ، وكلُّ ذلك من الضروريات الآكدة لابتناء شخصيةٍ مسلمةٍ حَقَّة .

وبعد أن كنَّا نتبادل المعلومات الدُّنيوية عن الزِّينة ، والموضات ، صرنا نتبادل المعلومات الفقهية ، والشَّرعية ، إلى جانب حفظ القرآن ، ويالها من سعادةٍ عظيمةٍ ونحن نتبادلُ تسميع ما يحفظُهُ كلٌّ منا . . وصارت الآن أحسن منِّي كداعيةٍ مخلصةٍ إلى دينها . . أحسبها كذلك ، ولا أزكِّي على الله أحداً! والفرح الأكبر كان بالتحاق بقية أخَواتي بهذه المسيرة ، مسيرة طاعة الله ، فالمؤمن عندما يلمس خيراً يتمنَّاه لكلِّ حبيبٍ له .

وأما عن جيراني ومَن حولي ، فلم أعد أنظر إلى أحدٍ منهم بعيوني . .

ولكن أنظر إليهم بقلبي المفعم بالخوف من الله.. والإيمان بأوامره، ولم أعد أشعر بشيءٍ من الحرج لارتدائي اللباس الشرعي.. بل زادني فخراً بدين الله سبحانه؛ إذ كنت في زيارة أحد أبنائي في الغرب، وشاهدني رجلٌ غربي بلباسي الشَّرعيِّ، وكان الوقت ظهراً في الصَّيف الحارِّ، فقال لي وهو ينتفض مشمئزاً من لباسي: ألا تشعرين بالحرارة من تلك الملابس؟ فقلت له: أبداً! وكنت ساعتئذ أشعر بفخر عالٍ بها، وأحمد الله عليها في سرِّي.. فقد صار لبسها من أحبِّ الطاعات إلى قلبي، طاعةً أشتهيها لكلِّ أختٍ مسلمة.. وهذا يؤكد بأن كل ما كان ينتابني من موانع في ارتدائه هو من عمل الشَّيطان بأوليائه.. ويؤكِّد بأنَّ الله يتمُّ نعمته كيفما يشاء على من أراد منه الهدى، ومن يهديه الله فلا مضلَّ له، اللَّهمَّ لا سهل إلا ما جعلته سهلاً.. سُبحانك اللَّهمَّ!

ومن بين المواضيع التي طرحها علينا ابني أيضاً موضوع الصلاة، وياله من موضوعٍ كنت في أَمسِّ الحاجة لمعرفته.. لم أكن أَدري بأنَّها مفتاحُ الوصول إلى باب الحقِّ، وأنَّه من خلالها فقط يستطيع الإنسانُ أن يناجي ربَّه في صلاةٍ حقيقيةٍ خاشعةٍ.. ثم ينال مَطْلبَه، لقد اكتشفتُ من خلال الحديث عن الصَّلاة الصَّحيحة بجميع أركانها، وواجباتها، وسُنَنها، أنني لا أعرفُ منها إلا حركاتٍ تقليديةً متوارَثةً مع الخطأ، والجهل.. وأحسست أنَّني بحاجةٍ إلى هذا الدَّرس.. فوقعُ كلماته عليَّ كوقع الماء البارد على الظمآن، لم أكن أَعلم أنَّ الدُّخول في الصلاة وَقْفَةٌ بين يدي الله، الَّذي يرانا، ويسمع تلاوتنا للقرآن، ويرى حركاتِنا فيها، ويعلم ما يَجولُ في خواطرنا.

كنت أَعتقد: أنَّ الصَّلاة مجرَّدُ فرضٍ يجب علينا أداؤه، كما يحلو لنا، وبالوقت الذي يفرضه مزاجنا للقيام به! وكم كنتُ أُؤخرُ صلاةَ الظُّهر إلى

قرب موعد صلاة العصر حتَّى أصليَهما بوقتٍ واحدٍ تقريباً ، وكذلك صلاةَ المغرب إلى صلاة العشاء. . وكلٌّ ظنِّي أنَّني على صوابٍ ، المُهِمُّ عندي أنني أُصلي كلَّ وقت في وقته ، وهو قبل دخول الوقت للصلاة التالية ، وعدت تلميذةً صغيرةً أنهل من علمٍ لا ينضب.

وشتَّان ! شتانَ بين ما كنتُ أفعلُ وبين ما تعلَّمتُ بأنَّ وقت الصلاة الحقيقيّ هو عقب انتهاء الأذان مباشرةً؛ لأن إقامة الصَّلاة تعبيرٌ صادقٌ عن ترك كلِّ ما لنا من أمور الدُّنيا ، لنلبِّي نداء «الله أكبر» فما الحياة إلا بالصلة بالله في هذا الموقف العالي بين يدي بارئ الكون. . علمت كيفية الوقوف بخشوعٍ خالصٍ ، وأنا أتخيَّل قُربَ الله منِّي ، وأنَّه يرانا من حيث لا نراه ، حتى إذًا وقفتُ للصلاة وقفة إجلالٍ وإكبارٍ. . لمن أذن لي أن أتشرف بهذه المقابلة الإلهيَّة ، بدأتُ أولاً باستشعار هيبته ، وعظمته في قلبي وفي ذهني ، وأذكّر نفسي بما أنوي صلاته سرَّاً دون التلفُّظ بالنِّيَّة. . تأدباً مع الذي يعلم السِّرَّ ، وأخفى ، سبحانه ! فأستغفر ، وأتوب لي ولكلِّ المسلمين بامتنانٍ وحبٍّ كبيرين لمن هداني إلى هذه المتعة ، وأذاقني حلاوة عبادته ، ثمَّ أبدأ جامعةً نفسي على الحق ! كي تنعم بنفائس الإقبال على الله. . وبشهود جلاله بقربها من الجناب العالي ، جاهدةً في تركيز فكري حول معاني ما أحاوره سبحانه بكلماته المقدسة. . وأستمع إلى أوامره ، ونواهيه كي أحقِّق الهدف من الصَّلاة. . راجيةً ، وخائفة.

وعلمتُ : أنَّ لقراءة القرآن أسلوباً مميَّزاً اسمه : التَّرتيل ، ويلزمه تعلم قواعد خاصَّة هي جزءٌ من علم التَّجويد ، كي نَقَرَأ بأسلم لفظٍ ، فمثلاً هناك شَدَّات يجب التلفظ بها ، ومن دون ذلك لا تصحُّ التلاوة ، ولا تُقبل ! ! ولم أكن أعلم أنَّ في سورة الفاتحة وحدها أربع عشرة شدَّة. . كما فهمت من تدبر معاني آياتها الشيء العظيم . . فحمدت الله : أنَّه هداني إلى

صراطه المستقيم.. وعرفت كيفيةَ الرُّكوع الصَّحيح، ومعناهُ: أنَّني في موضع أعظم خضوع لخالقنا العظيم، والسُّجود المستكين، ومعناه: أنَّ في هيبة الله رهبة، فأضع أشرف عضوٍ من أعضائي بين يدي مولاي تعالى، والجلوس بين السجدتين والدُّعاء بينهما، بما فيه من فوائد الـدَّاريـن الشـيء الكثيـر: ربِّ اغفـر لـي، وارحمنـي، وارزقنـي، واهدني... إلخ، وتكونُ الجِلسةُ بين السَّجدتين قريبةً من مُدَّةِ السُّجود، والجلسة الخفيفة قبل القيام إلى الركعة الثانية، والاطمئنان قبل كلِّ انتقالٍ إلى وضعيةٍ جديدةٍ في الصَّلاة.. وعرفت منه: أنَّ الصلاة لها هيئات معينة، وشروط تحدَّثتْ عنها السُّنة النبوية، وبيَّنها الفقهاء والعلماء في مُصَنَّفاتهم، وكلها يدلُّ على عظمة هذه الفريضة، وأهميتها القصوى في حياة كل مسلم ومسلمة.

وكان سيدنا محمد ﷺ يفرِّج بين أصابع يديه في الرُّكوع، ويضمُّها في السُّجود، وأرجو الانتباه إلى قُرب الكاحلين ببعض أثناء السجود، فكثيرون هم الذين يباعدون بين الرجلين في ذلك الموضع وبمسافة مبالغ فيها! ثم يعكسون الصحيح بضمهما عند الوقوف ـ ولا فرق كبير في أوضاع الصلاة بين المرأة والرجل؛ لأنَّه ﷺ قال: «**صلّوا كما رأيتموني أصلي**»[1] ـ ومن ثمَّ الدعاءُ قبل التسليم بما كان النَّبي ﷺ يدعو به ويعلِّمه للنَّاس، وكان كل ذلك جوابَ ابني لسؤالي عن كيفية الصلاة المطمئنة، فدعوت لابني في ظهر الغيب بكلِّ الخير لما أفادني به.

آه.. ثم آه.. ما أَروعه من شعور لا يصفه كلام، شعور صلة الإنسان بربِّه في صلاة تؤدَّىٰ عن علمٍ.. صلاةٍ خاليةٍ من الأخطاء، أيُّ هناءٍ هذا؟!

---

(١) رواه البخاري (٦٠٠٨) ومسلم (٦٧٤).

وأي حبور أعيش؟! لقد ذُقْتُ طَعْمَ الصلاة الخاشعة ، فصرت أهيج ببكاءٍ حادٍّ يخنق التلاوة في حلقي ، أبكي بين يدي ربِّي بدمعٍ حارقٍ ، خجلاً مما اقترفتُ في جنب الله ، إنَّ في دموعي لذَّة الخائف من ربِّه لقساوة قلبه . . فكنت محرومةً من كلِّ هذا بسبب جهلي بالصَّلاة الصَّحيحة ، وأحسستُ بزيادة القرب والمحبَّة من الله ، وبالسَّعادة ، والاطمئنان ، وأنا أقرأُ آيات الله وفيها الأَملُ برحمته لمن يطيعه ويأتمر بأمر رسوله ، وبعفوه عمَّن تاب عن معصيته . . وأيقنتُ عَظَمتَه ، وقدرته ، وشدةَ عقابه للغافلين عن عبادته ، والعاصينَ لأمره ، فصارت الصَّلاة هي سعادتي الَّتي أعيشها ، والَّتي أتمنَّى ألا تنتهي بالتسليم الذي لا بدَّ منه للتحلُّل من كلِّ صلاة . . والذي يشعرني ، وكأني أنسلخ عن جلدي ، وعن متعتي الغالية في تأديتها ، ولولا المسؤوليات الحياتيَّة ، والاجتماعيَّة ؛ لأطلت ، وأكثرت ؛ حبّاً ، والتماساً لتحقيق حديث رسول الله ﷺ: «**ما من امرئٍ مسلم تَحْضُرُهُ صلاةٌ مكتوبةٌ ، فيُحسنُ وضوءَها ، وخشوعَها وركوعَها ، إلا كانَت كفارةً لما قبلَها من الذنوب ما لم يأتِ كبيرةً ، وذلك العمرَ كلَّه**»(١) .

وصرت أنتظر الصلاة بعد الصَّلاة بشوق المحبِّ . . وحيثما كنت أؤدِّيها في أول الوقت ، ولو كنت في الشَّارع . . مستفيدةً من كثرة بيوت الله في بلدنا الخيِّر . . وأنعم بالحرِّيَّة المتاحة لكلِّ إنسانٍ في بلدي الحرِّ .

الآن فقط عرفت سبب تكاسلي ، وأوهامي ، وسبب سيطرةِ الشَّيطان اللَّعين على هِمَّتي ؛ ليحبط رغبتي في طاعة أوامر ربِّي ، وتنفيذها . . وسبب معاناتي من صراع الملَكات مع الأنا!عرفت: أن انعدام الصلة بين العبد وربه سبب كلِّ هذا ، والصَّلاة الخاشعة هي أهمُّ صلةٍ ، وأقواها بين

(١) رواه مسلم (٢٢٨) .

العبد، وربّه.. وكيف تكونُ صلةٌ من غيرِ خشوعٍ، ومن غيرِ علمٍ تامٍّ بكَيفيتها، وصحَّتها؟ كيف تأتينا رحمةُ الله ما لم تَخشعْ قلوبُنا لذكره، ونحن بين يديه؟ وأكون في غاية السُّرور عندما أجتمع، وأولادي، وزوجاتهم في صلاةٍ جامعة، يكون إمامنا أحد أبنائي، وتكون زوجتُه المسلمة حديثاً واقفةً عن يميني، وزوجة ابني الآخر عن يساري، وابنتي بمُحاذاتهم.. أكتافنا ملتصقةٌ بعضها ببعض في وقوفٍ رائع بين يدي الله.. فأشعر بحبٍّ لأولادي، وزوجاتهم أقوى ممَّا كان؛ لأنَّني كما ذكرت آنفاً، لم أعد أحبُّ، ولا أكره إلا في الله.. حتَّى ولو كان أقرب الناس إليَّ، ويا له من شعورٍ رائعٍ، أتمنَّاه لكلِّ عائلةٍ مسلمةٍ تريد أن تتآزر في طاعة الله، وسَوف يَرون كَم ينالون من النِّعم في عبادة المنعم، وللعلم ممَّا قرأت: أنَّ الصلاة تقوي جهاز المناعة في الجسم، وأنَّ لكلِّ حركةٍ فيها فائدةً أكيدةً لكلِّ عضوٍ منه، وتشفي بكلِّ تأكيدٍ من مرض البعد عن الله تعالى.. والحمد لله ذي الجود، والكرم.. على عظيم تلك النعم.

وهكذا انقلبت الموازين في عقلي، وعدتُ إلى رشدي، ولمستُ فعلاً: أنَّ مرض القلوب من الذُّنوب، وأنَّ أصل العافية أن نتوب، وغيَّرت التوبة منحى حياتي، وخالطتْ بشاشة الإيمان قلبي، فاستقمتُ على أمر الله.. وجعلتُ مراد نفسي إلى مراد الله، فكفَّت عن شهواتها.. وقهر عقلي هواي، وسلكتُ سبل الدَّعوة إلى الله بإذنه.. وتفرَّغتُ تماماً لنشر الحقِّ والإرشاد، انطلاقاً من منهج لا يعرف الخطأ أبداً.. يحكمني مبدأٌ إيمانيٌّ سليمٌ وفق كتاب الله، وسنَّته، ولا أحيد، وصرت بعد سنوات من تحصيل معرفة الحقِّ، والصَّواب من الدَّاعيات المخلصات لله، وابتدأتُ بدايةً قويَّةً، ومشرِّفة.. فاعتنَقتُ رسالة التكليف مع التواؤم بين العلم، والعمل في جوانب عدَّةٍ، فالعلم بلا عمل كشجر بلا ثمر..

ومن ثمرة العلوم العمل بالمعلوم ، لكي أبيّن للأخريات حلاوة التَّوبة ، والطاعة ، ولذَّة العبادة في إطار ذلك ، آخذة بأيديهنَّ لأدعوهنَّ إلى معرفة الله ؛ الذي أحببت ، وأعينهنَّ على التمسُّك بالفضيلة ، ونبذ التبرُّج ، والرَّذيلة ، جاعلةً حجَّتي من الذكر الحكيم ، والرَّسول الكريم ، مؤتمرةً بقوله سبحانه : ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ ، تكمن في داخلي ثورةٌ ، بل بركانٌ مكبوت ، تفجَّر رغبة في سحق الجهل ، والتظالم بين الناس ؛ لأنهما المُسبِّبان الأكيدان لكل بلاءات الدُّنيا! وليظهر الحق المغيَّب ، فمن عرف الحق ؛ عزَّ عليه أن يراه مهضوماً . . ويوقظ الضَّمائر النَّائمة ، فيعين المظلوم على الظالم . . ويبطل الباطل الشائع بين العباد ما استطعنا إليه سبيلاً ، فأبليت في ذلك بلاءً حسناً ، وما أروع تفعيل العلم والإيمان بالعمل ، وكما اهتديت إلى الله أسعى في هداية أحبابه . . أعتصر ما تبقَّىٰ من عمري في إرضاء من أحببت . . فأكون هاديةً مهديَّةً ، وصالحةً مُصلِحةً ، تحت مظلَّة الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر ؛ لأدعو كلَّ أخواتي في الإسلام إلى الاستسلام لأمر الله مليك السَّمٰوات والأرض ، والله وليُّ التَّوفيق .

❊ ❊ ❊

مرحلة العبادة وتقوية العقيدة

الحمد لله الذي جعل لنا التَّوبةَ ، والاستغفارَ ؛ ليُطهِّرَنا من الذُّنوب ، والمعاصي . . الحمد لله على هذه الرَّحمة العظيمة من مولاي الرَّحيم الكريم ، الَّذي طمأننا بقوله : ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ [هود : ٩٠] .

ها قد منَّ الله المولى عليَّ بها ، وجاءني القَبولُ ، جاءني قبس النور الإلهيِّ ؛ الذي لا يقف في طريقه عائقٌ ، ويالها من استجابةٍ إلهيةٍ كريمةٍ ! إذ منَّ عليَّ بنعمة التوقُّف عن الذُّنوب . . إنَّها الجائزة الكبرى ؛ الَّتي سأعضُّ عليها بالنَّواجذ . إلهي ! لا مانع لما أعطيْتَ ، ولا مُعطي لما منَعْتَ ، سبْحانَك ، إنَّك نِعْمَ المَولى ، ونعمَ المجيب !

هذه التوبة التي فجَّرَتْ في داخلي نَهَماً كبيراً ، وتعطُّشاً هائلاً للعبادة بكلِّ أنواعها ، وعلى أحسن وجه ، فلم أعد أهوى إلا التَّعرُّفَ على هذا الدِّين العظيم ، ومَثَلي كمثلِ مريضٍ أُصيب بمرضٍ عُضالٍ ، فشفاهُ اللهُ ، بعد أن حُرِم بسبب هذا المرض من كلِّ ما تشتهي نفسه سنواتٍ عديدةً ، وفعلاً كنتُ محرومةً من هذه السَّعادة الحقيقيَّة الَّتي أعيشُها الآن ، وذلك

التَّوتُّر بسبب النَّدم الذي يسكنني ، ويجعلني في حاجةٍ دائمةٍ إلى عبادة ربي .

وعرفت معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]! في سكناتي ، وحركاتي ، وطعامي ، وشرابي ، أستشعر معناها العظيم ، فيجعلني لا أشتهي شيئاً سوى غفرانه ، حين وُلِدَتْ في داخلي تلك القناعة ، وراحت تنمو بسرعةٍ مدهشةٍ ؛ حتَّى تجاوزت الأوهام تحت تأثير النُّور الإلهيِّ . . فلم يعُد لساني يَفْتُر عن ذكر الله ، من تسبيحٍ ، واستغفارٍ ، ودعاءٍ من صِيَغ ما ورد في السنة الشَّريفة لجميع الأوقات ، والأحوال ، وأثابر على قراءة أوراد الصَّباح ، والمساء ، وما قبل النَّوم ، ومراجعة ما أحفَظ من القرآن الكريم في صلواتي ، وأثناء تأدية أعمالي المنزلية ، أو استماع لمقرئٍ يتلو ما يلزمني تعلمه من أصول التلاوة ؛ لأتلو ما حفظت كما ينبغي ، المهمُّ عندي هو عدم ضياع أثمن ما أملك هدراً دون تحصيل فائدةٍ ، ألا وهو الوقت ! ولا يهدأُ تفكيري في عظَمَةِ الخالقِ في أيِّ شيءٍ أقرؤه ، أو أشاهده . . بل صار دأبي التفكُّر في مظاهر عظمة الله في آياته ؛ الَّتي يحار لها العقل . . سماءً ، وأرضاً ، وبحاراً ، فيدهشني إتقان صنعه في كلِّ شيءٍ من مخلوقاته . . في أشكالها ، وألوانها ، وأحجامها . . ابتداءً بما تناهى في عظيم كبره ، وثقله ، وما عظم في دقَّة صغره ، وخفَّة وزنه! ومروراً بكمالاته في خلقه . . كأعضاء الإنسان ، وكالزَّرع ؛ الَّذي يحمل بداخله الماء ، وبجانبه آخر ينبت جافاً ، وبشكلٍ ، وطعمٍ مختلف! وألوان قشوره المتنوعة كيف لا تصبغ ما بداخلها؟! وانتهاءً في حيثيات انسجام كلِّ خلقٍ في بيئته ، وتكاليفه التي فُطِرَ عليها ، وإنجازها على أكمل وجه ، وعظمات كثيرةٍ لا تحصى ! أنظر ، وأفكِّر في كلِّ شيءٍ بشعور التطلُّع إلى الحقِّ من خلال ما في هذا

الكون من عظمـة. . في الجمـاد، والبشر، والحيـوان. . وكلُّها تنـطق بالبيان، فلا يسعني بعد التفكُّر إلا أن أقول: تبارك الخلاق فيما خلق!. . تبارك الله أحسن الخالقين !. .

وقضيت فترةً طويلة في رحلةٍ دينيَّةٍ بين الرَّهبة، والذُّهول. . بين الأمان، والحبور، أحاول أن أروِّض جسمي على العبادة، والطَّاعة، وترك المعاصي، والأوزار، فالعبادة بأنواعها هي درعنا السِّريُّ؛ الذي يحمي الإيمان من سهام الشَّيطان.

وكلَّما صليت فرضاً، أو نافلةً، أو وفِّقت إلى عمل صالح؛ أعدُّه هديةً غاليةً من خير الأكرمين جلَّ عطاؤه، فأحمده عليها بغبطةٍ عاليةٍ، فلم أَعُدْ أتوانىعن أداء أيِّ نوعٍ من العبادات، بشوق المحروم؛ الَّذي لا يعدله شوق، ولم يعد يكفيني الكثيرُ، بل أرغب بالأكثر.

إنَّ في قلبي حسراتٍ لا يطفئها إلا كثرة العبادة المخلصة لله الرؤوف الرَّحيم، فكلَّما رجعتُ بذاكرتي إلى الوراء، وتذكرتُ آثامي من عثراتي، وزَلّاتي. . تصيبني قشعريرةٌ تملأ جسدي، فتؤرِّقني، وينفث صدري آهاتٍ ملتهبةً كلَّما مررت من أمام الأمكنة التي كنت أنتهك فيها الذُّنوب، والآثام. . وتنهمر من مقلتي دموع الحسرة، والنَّدم. . يتَعاظَمني ذنبي، فتُكَدِّرُني ذكراه، ويخيفني مداه. . فكلُّ مباهج الدُّنيا التي كنتُ أتمتَّع بها صارت أوزاراً تُكبِّلني.

تطالعني أعمالي؛ الَّتي أحاطت بي، وتوضَّعَت كالأغلال في عنقي. . وكأن خطاياي تحولت حبالاً تخنقني، وسياطاً تلسعني، فترتجف منها أَوصالي، وحيث بلغ من أمر جهالتي أنَّني كنت أجهض نفسي كثيراً. . ثمَّ ألغيت نسلي نهائياً بعمليةٍ جراحيةٍ متعمَّدة !! بحجَّة الحفاظ على

رشاقتي ، وعدم الاستقرار الزَّوجي !! كدأب الكثيرات اللاَّتي لا يعلمن مدى حرمتها ـ وذلك من الكبائر التي يجب على كلِّ امرأة الحذر منه حيث تعطِّل مهمَّتها الطَّبيعية لسنَّة الكون في الإنجاب ـ ممَّا يجعلني الآن أذوب خشيةً ، وحياءً من الله . . كيف تجرَّأت بتلك المعاصي على ربِّي؟ ترى هل سيغفر الله لي ذلك؟! إنَّ إحساسي بالذَّنب أسقمني ، وطغى على كياني ، حيث يُعْـرَضُ ملفُّ ذكراه أمام مخيلتي في كلِّ لمحةٍ ، ونفَس ، ويمرُّ متراقصاً كشريطٍ سينمائيٍّ يطلُّ من شاشة ذاكرتي ، يستعرض حياتي . . فيتمثل لي الماضي الذي صنعته بأعمالي الفظيعة شبحاً مخيفاً يحاصرني ، فيقضُّ مضجعي في ليلي ، ونهاري ، وفي صحوتي ، ومنامي حتَّى غادر النَّوم مقلتي ، تنتابني الوساوس ، فتجعلني أتماوج واهنةً بين سالبٍ وموجبٍ ، تارةً أشعر بلمسة حنان رحمانيَّةٍ ، فأتفاءل بأنَّ الله سيغفر لي ، وأخرى بالخوف الشَّديد من عقابه . . فتثير في قلبي الوجل والرُّعب ممَّا سألاقيه من عقاب ، وما سيحلُّ بي من ذلٍّ ، وعذاب ، فأنتفض كمن وَكَزَهُ أحدٌ بقطعةٍ من نار . .

إلهي . . . ! كيف سأقف بين يديك يوم تختم على لساني ، وتنطق جوارحي؟! وماذا لو لم أحسن توبةً ولا عملاً فيسْوَدُّ وجهي أمام مولاي يوم تسوَدُّ وجوه المذنبين؟! ماذا لو أصابني اليأس؟! ماذا ، ماذا . . طافت بي كلُّ هذه التساؤلات ، وغيرها عندما قرأت هذه الآية : ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٠٦] ! .

ولأنَّ أحد الحكماء قال : ربما فتح لك باب الطاعة ، وما فتح لك باب القبول ! وربما قضى عليك بالذَّنب فكان سبباً للوصول ! لأنَّه ليس للعبد عند الله أمر متيقَّن ! فإنه قد لا يفطن إلى بعض ذنوبه التي لم يحسن التوبة منها ، ولا التوبة عنها . . فأتحرَّى في أعمالي قول سيدنا أبي بكر ـ رضي

الله عنه ـ: «إنني لا آمن على نفسي أن أضع قدمي اليمنى في الجنة حتى أضع الأخرى ؛ خوفاً من مكر الله أن أكون قد اقترفت ذنباً ، لم أفطن أن أكفِّر عنه» .

وحالي هذا أكَّدته تلك الآية الدَّالَّة : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ [المعارج: ٢٧] .

كنت أظنُّ : أنَّ شعوري بالذَّنب سيتلاشى بعد التوبة ، وبأنني سأعيش بسلامٍ هادئة مطمئنة مع نفسي ، ففرحت بذلك فرحاً لا يوصف ، ولكنِّي ويا أَسفاه! لم أحظَ بذلك أبداً ، بل على العكس . . فكلَّما تقرَّبت إلى ربي ، وازدادت معرفتي به أكثر كَبُرت وطأة ذنوبي عليَّ ، وعَظُمَ أثرها على نفسي ، واشتدَّ ندمي ، وتأسُّفي ، وخجلي . . وتأبى إلا اقتحامها على فكري حتى غدت توءماً ملازماً لحياتي ، ولا يبرح أثرها يؤلمني ، وكثرتها تقلقني ، فلم تورِّثني إلا شعور الخِزْي ، والاشمئزاز من نفسي ، والنَّدم على تفريطي ، فمن كان بالله أعرَفَ ؛ كان لله أخوفَ ، فأعود أكثر مقتاً لنفسي : التي سبَّبت إيذائي ، ويشمئزُّ قلبي من فعلها ، وتبيَّن لي بأنَّ مقترفَ الذُّنوب يستعصي عليه الفكاك من آلام ذكراها ، وثقلها على كاهله ، لقد تيقَّنت بأن عمل الإنسان يلازمه مثل ظلِّه ، فيبقى سجين ذكراه ، ويخلِّف في القلب ندبةً مؤلمةً ترافقه مدى الحياة ، فقد صرت أحتقر نفسي أضعاف ما كنت معجبةً بها ، وبكلِّ ما كنت فخورةً به ، أمَّا الذي ذهب عنِّي حقاً فهو إحساسي بكل ما كنت أظنُّه سعادة ، فصار وكأنه شيئاً لم يكن ـ تماماً كموقف كلِّ إنسان بعد الرَّحيل الأبدي؛ مهما طال عمره ، سيتلاشى كلُّ شعورٍ ؛ سعادةً كان ، أو حزناً من الرَّهبة أمام سؤال ملك الموت له عن مسيرة حياته ـ فصرت أضع ذلك في بالي دائماً ، وكُلَّما شعرت بضيق الرَّهبة؛ أتوضأ ، وأصلِّي ركعتين توبةً لله ، فأشعر بعدهما

وكأنِّي اغتسلت، فسقطت عنِّي بعض الذُّنوب، وتلمس قلبي رقةٌ كبيرةٌ، ورغبةٌ في أعمالٍ تقرِّبني إلى الله الحليم الغفور علَّه يقبلني، وحرصاً على نفسي من أن يطردني من رحمته بذنب أقترِفُهُ بجهالةٍ؛ لأنَّ الله لا يحبُّ الجاهلين. وحيث لا يأمنُ مكرَ الله إلا القومُ الخاسرون.

وجلٌّ ما أخشاه في عملي العجبُ، والرِّياء كيلا يشملني قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]، فأتيقن من نيَّة الإخلاص لله في كلِّ عملٍ أقوم به، خوفاً من أن تحدِّثني نفسي بشيءٍ قد يفسد عليَّ عملي.. فيا غِياثَ المستغيثين! ها أنذا أسير إليك في توبةٍ صادقةٍ، منكسرةٍ متضرعةٍ بقلبٍ وجلٍ عسى أن ترحمني! وأجهد في فكاك أسري من الذنوب بالدُّعاء.. اللَّهم! مغفرتك أوسع من ذنوبي.. ورحمتُك أرجى عندي من عملي.. فاقبل اللَّهم توبتي، وعملي يا خير التوابين!.. «**اللهمَّ إنِّي أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلبٍ لا يخشع، ونفسٍ لا تشبع، ودعاءٍ لا يسمع**»[1].

ثمَّ تنتابني السَّكينة، ويتراءى لي جلياً: أنَّ هذا الشعور بالذَّنب هو من عظيم فضلِ الله؛ كيلا أتهاون بعد إذْ مَنَّ عليَّ بالهداية، والتي أرجو اللهَ أن يُزحزِحَني بسببها عن النَّار، ويضعَني على طريق الجنة، هذا الطريق الذي يتطلَّب منِّي المثابرة على الطَّاعة، والعمل الصَّالح؛ لأنه سبحانه هداني ليرى ماذا سأفعل بهذا العطاء الإلهيِّ العظيم.

هل سأختارُ سبيلَ مرضاته، وأساعدُ نفسي لنيل الفوز العظيم؟ أم سأبقى على مفترق الطُّرق؟ والله أحمدُ أنَّني لا أحبُّ الوقوف وقفة الحائر،

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٧١) ومسلم (٢٧٢٢) والنسائي (٨/ ٢٦٠ و٢٨٥) عن زيد بن أرقم.

بل أسعى للوصول لما يرضي قناعتي على النَّحو الأفضل. . وبما أنني كنتُ أتحرَّى طريق الكمال طوال مسيرة حياتي في كلٍّ أموري الدُّنيوية. . فكيف وأنا أمامَ خيارٍ هو حُلمُ ورجاءُ كلِّ مسلمٍ عاقلٍ؟! فهل يُعقَل أن أستكين بسلبيَّة؟! كلا . . بل صار لا يبارح مخيِّلتي عظمة اليوم الآخر، ومنظر النُّشور، وطوله مع جميع أصناف الخلق! وحصاد يوم كان مقداره خمسين ألف سنة! وفيما قرأت عن أهواله المفزعة، في آياتٍ كثيرةٍ ومفصَّلةٍ من كتاب الله: ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ﴾ [إبراهيم: ٤٨-٥١]. . ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية: ٢٨].

فأتخيَّل ذلك الموقف العصيب، والبشر يومئذ كلُّهم أتوه داخرين. . جاثمين على ركبهم ينتظرون مصيرهم! وكنت قد قرأت أن لعظمة هذا الأمر أنزل تعالى سورةً، وسمَّاها: (الجاثية) ولقد حمدت المولى كثيراً لقوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ [مريم: ٧٢]. . فحَسُنَ ظنِّي بالله البرِّ الرَّحيم، وهدأت نفسي قليلاً طامعةً برحمته، ومتَّكلةً على صدق وعده لعباده التَّائبين. . تعلَّمْتُ الدُّعاء، وعشقته، بت أنتظر اللَّيل بشوقٍ إلى مناجاة الحبيب، أدعوه، وأرجوه قَبولي عنده، وأن يَرزُقَني حُبَّه، وعفوه، ومغفرته، ولله الحمد والمنة على نعمة الدُّعاء! . . .

والحقَّ أقول: ما من شيءٍ في الوجود أروع من مناجاة المولى تعالى في سكون اللَّيل، ممَّا يجعلني أعيش على رصيدٍ من الأمل، لقد غُرِس في قلبي حنانٌ غيبيٌّ، وعطفٌ غيبيٌّ، إنَّ حبَّ الله، وخضوعي لأمره أطفأ من

أجيج قلبي الخائف من مغبة العصيان. اللَّهمَّ أسألك الحنان! وأعوذ بك من النيران! والله أسألُ الدَّوامَ، والثبات على هذا الدِّين، فإنَّه بلا ريبٍ نِعْمَ المولى، وخير معين.. اللَّهُمَّ آمين!

من أجل هذا إنَّ غاية ما أتمنَّاه لكلِّ إنسانٍ.. الحؤول دون تلك المأساة النَّفسيَّة الَّتي سيعايشها من جراء اقترافه الذُّنوب، فالرُّجوع إلى ذكرى المعاصي شيءٌ مؤلمٌ، يظلُّ يَخِزُك من الداخل، ويلازمك.. حتَّى يأتي عليك بطريقةٍ، أو بأخرى.. فيا له من شعورٍ مضنٍ يستأهل من الإنسان أن يُقْسِرَ نفسه على التزام السُّلوك القويم، وأن يستعين على ذلك بمولاه.

ولن يخيِّب الله عبداً اتَّخذه ولياً، فعند هذا التفكير البعيد المدى في أوامر الله سلباً، وإيجاباً، والمتكرِّرة في بياناته، تتساقط عن الإنسان الآفات اللاَّحقة بالنَّفس، ويَحيا القلب بنور العرفان، والصفاء، وهكذا دواليك، أعيش هذه المتعة منذ أكثر من خمس سنوات، وكلَّما زادت معرفتي بربي؛ زادت همَّتي، ورغبتي في عبادتي، فَمَنْ جرَّب مثل تجربتي؛ عرف مثل معرفتي.

وهذه بشرى عظيمة: لقد أكَّد العلم الحديث قول النَّبي ﷺ: «**عليكم بقيام الليل؛ فإنَّهُ دأبُ الصَّالحين قبلكم. وإنَّ قيامَ الليل قربةٌ إلى الله، ومنهاةٌ عن الإثم، وتكفير للسيئات، ومطردةٌ للداء من الجسد**»[(1)].

وأثبت العلم احتمال الموت بالتجلُّط الدُّموي، بسبب النَّوم المستمرِّ ساعاتٍ طوال، وبيَّن أنَّ من مصلحة الإنسان أن يرغم نفسه على الاستيقاظ بعد كلِّ أربع ساعات نوم، ويلعب الرِّياضة؛ لتجنُّب ذلك، فسبحان من

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٤٩) عن بلال. وبنحوه رواه الطبراني في الكبير (٦١٥٤) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ٢٥١).

علَّم الإنسان ما لم يعلم ! وفرض علينا الخيرات من حيث لا نعلم ، وجعل لنا من كلِّ العبادات فوائد جسديةً ، ونفسيةً ، وروحيةً عظيمةً وأجراً أعظم ، ولذلك يقال في أذان الفجر : الصَّلاة خير من النَّوم . . وما الصَّلاة للجسم إلا عبادةٌ مأجورةٌ في رياضةٍ مفيدةٍ !! فأدخلوها في دائرة معلوماتكم .

فرحةٌ أنا . . أحمد الله الذي منَّ عليَّ فأفضلَ ، وأعطاني ، فأجزلَ . . وأعتزُّ بلحظات الصَّحو فعلاً حينما تتراءى لي الحقيقة من خلف سراب الوهم ، والضَّلال ، ولامستْ روحي السِّر من وراء لثام الواقع ، فرأيت الحياة على ماهيَ عليه حقاً ، وليس كما توهَّمْتُها . . وقد بانت لي مخالبُها السامَّة .

فرحة بعطاء ربي الذي لم أكن أستحقُّ ، ولكنَّه العزيز الوهَّاب ، وخير المعطين ، وأنا عن عطائه هذا لا أغفل عن شكره ، ولا أنسى ذكره . . كيف ؛ وهو الذي وفَّقني لطاعته ، والإنابة إليه ، وأكرمني بالاستقامة على منهجه؟! وكيف أنساه ، وهو القائل : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] . . ثم : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾؟! [الزمر : ٢٢] ، وصار لساني الَّذي كثيراً ما ردَّد الأغاني ، لا يفتر عن الذِّكر ، ما جعلني أردُّ على الهاتف أحياناً بكلمة : الله أكبر بدل كلمة : ألو ! وطبعاً ليس الذكر باللِّسان وحده أبداً ، بل يجب أن تترجمه الأفعالُ ، كي يتحقَّق مقامُ الإحسان ، الذي أشار إليه سفير الأنبياء جبريل ـ عليه السَّلام ـ بقوله : «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه ؛ فإنَّه يراك**»(١) ، ولا يصلُ أحدٌ إلى معرفة الله إلا بدوام الذِّكر له في كلِّ حال ، وقبل كلِّ

(١) رواه البخاري (٥٠) ومسلم (٩) عن أبي هريرة .

عمل ، ومع الذِّكر: ورعٌ ، وزهدٌ ، ورعٌ عن كلِّ حرام ، أو شبهة ، وزهدٌ بأن يملك الذَّاكرُ الورعُ الدُّنيا؛ ولكنَّها لا تَملكه ، فالزُّهد عملٌ من أعمال القلب ، وليس فقراً ، وليس مسكنةً ، وخضوعاً ، وخنوعاً.

وقد لمست فعلياً أنَّ ذكر الله هو مفتاح السُّرور ، والفرح ، كما أنَّ الغفلة عنه مفتاحُ الحَزَن ، والكَدَر ، وما أحيا قلبي من بعد موته إلا ذكرُ الله ، وصدق ﷺ إذ قال: **«مثل الذي يذكر ربه ، والذي لا يذكر ربَّه مثل الحيِّ ، والميِّت»**[1]. أبعد كلِّ هذه النعم أنسى المنعم؟!.

وأمَّا يوم الجمعة.. وما أدراك ما يوم الجمعة! فإنَّه ذو شأنٍ عظيمٍ عند المولى سبحانه ، فهو سيِّد الأيَّام ، وهو اليوم الذي يستحبُّ أن يتفرغ فيه كلُّ مسلم للعبادة بأنواعها.. فهو يوم تكفير السَّيئات ، وقد عظَّمه الله تعالى بأمور منها: أنَّه خير يومٍ طلعت عليه الشَّمس ، فيه خلق الله آدم ، وفيه أُدخِل الجنةَ ، وفيه أُخرِجَ منها ، ولا تقوم السَّاعة إلا فيه[2].

فمن المؤسف ، والمخيف حقاً أن يشيع بين المسلمين اتِّخاذ يوم الجمعة الفَضيل عيداً دنيوياً لهم ، فينتشرون في المتنزهات ، والملاهي ، والخلاء ، ويذهبون إلى شواطئ البحار وضفاف الأنهار ، يتمتَّعون بملذَّاتهم ، ويُشبعون شهواتِهم ، ويملؤون بطونَهم ، ويلبَسون أفخرَ الثياب ، ويتزيَّنون بأجمل الزِّينات ، ويظهرون عوراتهم ، ويلعبون ، ويلهون بمخالفات تغضب الله.. مستهترين بضوابط الشَّرع في التَّسلية؛ وقد نَسُوا فضل هذا اليوم! وضيَّعوا خصوصيَّته التَّعبُّديَّة.

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٧) ومسلم (٧٧٩) عن أبي موسى الأشعري.
(٢) رواه مسلم (٨٥٤/١٧و١٨) وأبو داود (١٠٤٦) والترمذي (٤٨٨و٤٩١) والنسائي (٣/٨٩-٩٠) عن أبي هريرة.

وبعد مَعرفتي بفضل يوم الجمعة على باقي الأيام ، و بأنَّه عيدٌ دينيٌّ للمسلمين الحق ، وإذ كنت فيما سبق أجعل منه عيداً دنيوياً بطقوسٍ مختلفةٍ ، ومخالفةٍ لأوامر الله . . كدأب النَّاس الجاهلين .

أَحرص الآن بحمد الله على أن أعطيه حقَّه من الاهتمام ، وأستقبله بعظيم الرَّغبة . . فأحضِّر له قبل النوم ما أرغب عمله في ليلته وحتى آخر النهار . . وأعتكف يومه في غرفتي ، ولا أدعو أحداً لزيارتي ، ولا أتشاغل عن عبادتي ، وإذا لزم الأمر فلوجه الله فقط أقدِّم مساعدتي .

وهكذا اعتادَ كلٌّ من حولي ، والتزم بما علم ، فأغتنم القيام بتنفيذ ما رسمت له من برنامج تعبُّديٍّ منوَّع . . كي أتبع سيدي وحبيبي نبينا محمد ﷺ وأنا أعشق اتِّباعه ، فيما كان يخصُّ هذا اليوم العظيم من أعمال ، وتلاوات خاصَّةٍ من كتاب الله الكريم . . وفي صلواته في السُّنن ، والفرائض . . فلا شُغلَ لدي يومَ الجمعة إلا تحصيلُ المراد من عبادتي ، ألا وهو تحرِّي ساعة الإجابة !! وهي السَّاعة الَّتي لا يَسأل أحدٌ اللهَ فيها شيئاً إلا أعطاه[1] . . ولهذا أُكثر فيه من العبادة . . والاستغفار الدَّؤوب في جميع صيغه العديدة .

وأمَّا التوبة من الذُّنوب ، والرُّجوع إلى ستَّار العيوب ، وعلاَّم الغيوب ، وتجديد العهد مع الله . . فذلك واجب كلِّ إنسان أن يفعله على الفور ، والدوام ، حتى يصل إلى دار السلام بسلام ، برحمةٍ من الله وإكرام .

وكنت أجعل أناقتي ، ونظافتي من أجل إرضاء نفسي والنَّاس ، فعوَّدتُ نفسي أن أجعلَ جميع ما أقوم به من أعمالٍ خالصةً لوجه الله ،

(١) رواه البخاري (٩٣٥) ومسلم (٨٥٢) بلفظ: «فيها ساعة لا يوافقها عبدٌ مسلم وهو قائم يصلي، ويسأل اللهَ شيئاً إلا أعطاه».

مهما كان هذا العمل شخصياً. . وفي جميع أمور النَّظافة، فمثلاً: كلُّنا يُنَظِّفُ أسنانَه صحيَّاً، واجتماعياً. وأنا أحقِّق ذلك ضمن الفائدة الأكبر في سياق نيَّة الائتمار بتوجيه رسول الله ﷺ، الَّذي حثَّنا على النظافة حياءً من الله وتقديراً لوجوده معنا في جميع طرق مناجاته. . واحتراماً لملائكته الذين يتأذّون من كل رائحةٍ كريهةٍ ـ ويشمل ذلك رائحة آفة التَّدخين ـ! كي نذكره ونحن في شكلٍ لائق. . فالله نظيف يحبُّ النَّظافة. . فأكتسب بذلك ثلاث فوائد معاً! وكذلك أظافري. . كنت أتباهى بطولهم المبالغ فيه. وأجعل منهم عنواناً لأناقتي، فاستغنيتُ عنهم، وصرت أقلِّمهم مرضاةً لله.

وأنَّ طلاء الأظافر لا يجوز لأنَّه يحجب ماء الوضوء، وأصبحتُ أعجب من نساءٍ ملتزماتٍ، ويصلِّين بها؟!

وهكذا بتُّ أرقب الله في جميع أعمالي، وأستحضر النِّيَّة التعبُّدية، كي تكتَب لي عبادة، حيث لا شيء مع الله إلا بحسب النِّيَّة، فكلُّ عملٍ مباحٍ يقوم به المؤمن يدخل في عنصر النِّية الخالصة لله تعالى تحيله من عادةٍ إلى عبادةٍ، ولا أزكِّي نفسي، ولكنَّ الله تعالى يقول: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ١١] فأنا أشعر بالسعادة تغمر قلبي، وأقول بأنَّه يستحيل أن يكون هناك من هو أسعد منِّي، وهو أقلُّ مني التزاماً بدين الله، حتَّى ولو ملك الدُّنيا بما فيها.

فأنا في أسعد حالٍ من رحمة ربي لهذا التبدُّل الرَّائع في أحوالي. . ولا يسعني إلا أن أحمد إلهي الغفور لعبده المذنب؛ لأنَّه اختار لي عظيم فخر التَّوبة، ثمَّ سخَّرني لإعلاء كلمته.

* * *

مِنْ مآسي الجهل

يا لهول ما لمسته بين المسلمين من غفلة !! ويا عجباً لمسلم لا يغذِّي عقله بمعرفة أمور دينه ، فقد كنت فيما مضى لا أفقه شيئاً عنه ، وعندما أسمع أحداً يتكلَّم في أمور الدين؛ أعتبره موسوعة فقه يُحسد عليها نسبةً لجهلي ، فيبهرني الكم الهائل من المعلومات الَّتي يعرفها !! ولكن بعد أن اطَّلعت على أنواع العبادات المتعدِّدة ، وقصدت كلَّ جهةٍ تفيدني في المعرفة ، وتزيدني علماً؛ بانت لي حقيقةٌ مرَّةٌ ! وهي أنَّه شتان بين الحقيقة وبين ما يتكلَّمون تقليداً ، وتوارثاً .

وعلمت بأنَّ الخير في العلم بالكيف الصَّحيح ، وليس بالكمِّ الجاهل ، فبت أدهش ممَّن ينتمي إلى دين لا يفقه عنه شيئاً ، ولا يحاول التَّعرُّف على أصوله القويمة ، ومن منابعه السليمة ، وذلك من أهم الضَّروريات ، وإليكم ما حصل معي يوماً حول هذا الأمر عندما تحدثتُ مع قريبةٍ لي كنت أحسبها عالمةً ، وفقيهةً في أمر دينها ، لكثرة فتاواها للناس مِنْ حولها ، ولقدمها في التزام الدين ، فقد قلت جواباً لسؤال طرحه ابنها ، بأنَّ هناك اختلافاً بين الأئَّمة حول قضاء فريضة الصلاة ، فمنهم من أوجب القضاء ، ومنهم من أفتى بالاستعاضة عنه بالتزام صلاة النَّوافل مع ضرورة قيام اللَّيل ، وكثرة الاستغفار والتوبة الخالصة لله . . هذا ومع شرح مفصل حول

الموضوع، فاحتدَّت قائلةً بعد أن حدقت بعينيها؛ وكأني استبحت عقيدتها، أو جرَّدتها من دينها: لا يصح أن تقولي ذلك، هذا حرام!! وأخذت ترتجف خوفاً من خالقها سبحانه، أن يسخط عليها إن لم تتمسك بما ورثته من علم، بغض النظر عن مدى صحَّته.. قلت: أين الحرام في ذلك؟ قالت: كيف هذا وقد علمنا بأنَّ الله سبحانه وتعالى يخرج من عباده غير المصلين لجميع الفرائض من الجنَّة، كي يؤدُّوا ما تركوا من الصلاة، فيصلونها سبعين مرة عن كل صلاة على بلاط جهنَّم، ثم يعيدهم إلى الجنة، وهكذا حتى يقضي كلٌّ ما في ذمَّته لمولاه من دَين.

قلت مستنكرة: أهذا ظنُّك بربك العظيم؟؟ أيخرج من أكرمهم بنعيم جنته إلى قسوة جحيمه!! ثمَّ يعيدهم إليها! وتذكرت الآية الموضحة لذلك الموقف: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾! [الأنعام: ١١٩].

هل يعقل أن يتناقض تعالى بقوله لأهل الجنة وهو أصدق القائلين: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨].

ألم تقرئي قوله سبحانه: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ۝٤٦ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ۝٤٧ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٦-٤٨].. لأنَّ كل من يدخلها يعيش في نعيم أبديٍّ كما قال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦]!

فإن كان هناك ما يستوجب العقاب، فإنه سبحانه سيُطهِّر العاصي قبل دخوله جنة الخلد، كلاً حسب ذنبه، نسأل الله العافية.. أرجو أن تقرئي ذلك في الكتب المخصَّصة لتفسير كتاب الله، لتتبيَّني، وتعلمي قبل أن تتكلَّمي! وهنا آزرها ابنها مستهجناً قولي، وقائلاً: ولكن الله تعالى قال:

﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣١].

قلت: يا سبحان الله! أَهكذا فهمت معنى الآية الشريفة؟ أوَهكذا تفسر كتاب الله العظيم بهذه السذاجة؟! وشرحت لهما معنى الآية التي لا أظن أن معناها الواضح يخفى على من أمضى عمره في العبادة.. وأنَّ كلمة (صلوه) لا يقصد بها الصَّلاة، والحق تعالى قد وضح لنا العذاب المعد للمتهاونين في أداء الصلوات في آيات كثيرة منها: ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم: ٤٢-٤٣].

ولمَّا حاولت أن أبيِّن لها بأن الدين علم.. بدت كالمغشيِّ عليه من الموت وقالت بتهكُّمٍ: قال المثل: (كم له بالقصر، قالوا من امبارِح العصر)! إلى الله المشتكى من هذا التشنُّج، والتعصُّب الضارِّ! وتمثَّلْتُ قول العزيز الحكيم: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ [غافر: ٣٥]، قلت لها بعاطفةٍ إسلاميَّةٍ شديدةٍ: ولكن بهذا الوقت الضئيل بعون الله الفضيل تعلَّمتُ بكبير اهتمامي لما أعتنق، ومتابعتي لمعرفة كلِّ ما يتعلَّق به، أفضل ممَّا تعلمتِهِ أنت، وأمثالك منذ عشرات السِّنين من أخطاءٍ بتقليد الجهلة من هنا، وهناك، وتكرَّر ذلك النقاش في كلِّ زيارةٍ، دون جدوى في تحسين ظنِّهم في الله، وإلغاء ظن السَّوء من أفكارهم، فخفت أن يحق عليهم قوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠].!.

وهنا يكمن سرُّ عظمة العلم، وجماله، وضرورته.. ويتفوَّق الإنسان

في الدِّين لا بحجم ثقافته الدِّينيَّة ، ولا بحجم عواطفه الجيَّاشة نحو الإسلام والمسلمين ، ولا بحجم المظاهر الدِّينية التي يحيط بها نفسه ، ولكن يتفوَّق بمدى استقامته على منهج ربِّه ، وبحجم علمه ، وعمله الصَّالح اللذين يعود نفعهما على المسلمين خاصَّةً ، وعلى الإنسانيَّة عامَّةً.

وهذه الاستقامة ، وهذا العمل الصَّالح لا يُقبلان عند الله في الآخرة إلا إذا بُنيا على معرفةٍ بالله صحيحةٍ ، ومتينةٍ بالتعلُّم ، قبَّح الله الجهل.. ما أقبح الجهل ، والجهلة المعاندين ! ولا شيء أعظم من الجهل إلا الإصرار عليه ، حيث يتركونه راسخاً في أذهانهم ، فآفة الدُّنيا كلِّها من الجهل الذي يجزم بأمور على أنَّها حقائق ، وهي باطلةٌ وخاضعةٌ للأهواء ، ومن هنا ينشأ الفساد في الدِّين والدُّنيا ! وأنا أجهد في تحقيق هذه الآية الكريمة : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ .

إنَّ هذا لهو بعض ما أستطيع ذكره من كثير الأخطاء الَّتي صحَّحت لها ، ولابنها ، ممَّا استفزَّ غيرتي الدِّينية.. فأصابني حنقٌ كبيرٌ على الجهل ، فثارت غيرتي الدِّينيَّة وغلا الدَّم في عروقي ، وطبعاً كنت أكتم غيظي ، وأتحاور معهما بلطفٍ كبير تطبيقاً لحكمة الدَّعوة إلى طريق الحق ، وتوقَّفت عن النقاش ، والتَّحاور عندما حوَّلا الجلسة إلى جدالٍ جاهل ! على الرَّغم من اعتقادي بأنَّهما من تلك النماذج الجاهلة التي تكثر في نواحي المجتمع.

وكالَّتي تدَّعي العلم بشرع الله ، فكانت نصيحتها لي عن كيفية حفظ القرآن بأن أحفظ السُّورة ، ولا حرج إن نسيتها من أجل حفظ غيرها ، على مبدأ احفظ ، وانس ، وحجَّتها هي المداومة على فتح المصحف! لأن الله سخَّر لنا ملكاً يذكرنا بما نسينا يوم القيامة عند «اقرأ وارقَ»؟! أما كان

حسبها القول: أنَّ النظر إلى كتاب الله عبادة؟ وعملت بنصيحتها سنوات.. أحصل فيها حفظ أكبر عدداً من السُّور، بهذه الطريقة الخاطئة! أسابق الزمن قبل أن يُدركني الموت.. إلى أن حفظت نصفه! حتى منَّ الله علي بأن أسمع من عالم الفقه: أنَّ ذلك من الكبائر حيث قال: كبر مقتاً عند الله من حفظ آيةً أن ينساها! فألمَّ بي حزنٌ شديدٌ على تضييعها لوقتي الثَّمين.. ولتعريضها لي لمقت الله سبحانه، لقد أضلّتني عن الصَّواب.. فتوقَّفت عن حفظ المزيد، وعدت أدراجي أكرِّر، وأعيد كل ما نُسّيته؛ كي أتيقن من استرجاعهم إلى ذاكرتي بالمداومة على تلاوتهم بالتسلسل على مدى الأسبوع لتثبيتهم في ذهني، ولا زلت أعاني من تلك النَّصيحة الجاهلة!

كما أخذت إحداهنَّ تغالي في التَّرهيب من السَّيئات، وتبالغ في التُّرغيب في الحسنات، مستشهدةً بروايات خرافيَّةٍ مفتعلةٍ لا يصدِّقها عاقل؟! وقالت لي إحداهنَّ: لا تقرئي سورة المسد أبداً، فإنَّ أحد الشيوخ نهاني عن قراءتها وقال لي: إن ذلك مكروه! والعياذ بالله من الكثيرين الَّذين أصبحوا يفتون بأهوائهم! اللّٰهمَّ أعذنا من آفات الجهل، ومن كثرة أخطاء الجاهلين، وأعذنا بك أن نَضِلَّ أو نُضَلَّ!

لماذا يرتاب بعض الناس ممَّن أعلن توبته لله؟! وتراهم قد ذهبت عقولهم بعيداً تبحث لهم عن أشياء وهميَّةٍ مبالغٍ فيها ألجأت التائب إلى الهروب منها.. فتأتيهم بتخيُّلاتٍ ترضي فضولهم السَّفيه.. فيغرسون أعينهم فيه بنظراتٍ خبيثةٍ يخفونها وراء ابتسامةٍ تستنكر توبته برؤيا ظنِّيَّةٍ بحتة!! ليت هؤلاء يعلمون بأنَّ من عرف الله حقّاً؛ كبرت عليه أخطاؤه مهما صغرت! وقد سمعت لغطاً من إحداهنَّ تعيِّرني بالماضي بعد أن

بيَّنت لها خطأً تعبُّدياً ارتكبَتْـهُ. . وغلطةُ العارف بألف. . فهي من المشرفات على أمور الدِّين ! فقالت عنِّي : تائبةٌ حديثاً وتريد أن تعلِّم الدِّين لأهله. . هل نسِيَتْ ما كانت عليه قبل أن تلتزم بالدِّين؟! وذلك من كبرى مآسي الجهل ! فهي إذاً قدوةٌ جاهلةٌ. . اسمحوا لي إذاً بأن أردَّ عليها على صفحات هذا الكتاب؛ كي تشاركوني الرأي. . ولكي يتنبه الجهلة. . وما أكثرهم ! ويحذر الجميع من الوقوع في ذلك الخطأ ، ورداً على استنكارها لفضل الله على عباده ـ الذي إذا أعطى؛ أدهش ـ أقول: وما الضَّرر في ذلك يا عزيزتي؟! ألم تعلمي بأنَّ التائب عن ذنبه توبة نصوحاً كمن لا ذنب له ، ويصبح من أحباب الله ؟!

ألم تقرئي في كتاب الله على مدى عهدك مع من تنسبين نفسك إلى أهله ، بأنَّ الله يحب التَّوابين. . وجعلهم خير الخطائين. . بأن يعينهم على رضاه من خلال أعمالٍ صالحةٍ يوفِّقهم إليها ، وقال لأمثالك : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٤] ؟! وأنَّه يبدِّل لمن حسنت توبته كلَّ سيئاتهم حسناتٍ.

ومن بين آياته العديدة التي يعرِّف فيها عن التائبين في مقام ذلك بقوله : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٧٠] ، وقد: ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام: ٥٤] ، فإذا كانت المغفرة من الرَّحمٰن ، فما دخل الإنسان؟! لأنَّه سبحانه هو الذي خلق الإنسان ضعيفاً ، فلماذا التَّرفُّع ، وكل ابن آدم خطَّاء. . مثلك الآن ، سامحك الله! أنصحك بأن تتوبي إلى بارئك؛ لأنك ممن يُيَئِّسون الناس ، ويُقَنِّطوهُم من رحمة مولاهم ، وستصبحين من

أعدائه إن لم تفعلي، حيث اتَّضح عدم فائدة التزامك لمن انتسبت إلى أهله سنواتٍ طوال، وأنت تترجمين خطورة توارث الجهل بأقوالك، وتجسِّدينها بوجهة نظرك الخاطئة في تقييم الناس، وتظنِّين نفسك قمَّةً في العلم.. إنَّك بغرورك هذا تثبِّطين العزائم، وتطفئين جمرة الأمل في القلوب؟! ألم يُهْدَ لك أن نبينا ﷺ قال: «**بلِّغوا عنِّي ولو آيةً**»[1]؟! ألم يُهْدَ لك أنَّ نور الله إذا أتى لا يحدُّه وقتٌ، ولا زمان، وأنَّ من يعمل بنور الله لا يتقيَّد بظرفٍ، أو شرط؟ ألم تقرئي ما قيل عن سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ: خيركم في الجاهلية، خيركم في الإسلام[2]؟؟ ألم تتفكري بمعانٍ أشمل سورةٍ للكتاب المنير: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾...؟

ألا ترين معي أنَّني وأمثالي يجب أن يقوموا على تنوير عقول من هم أمثالك، كي نخلِّصهم من صدئها، ونخرجهم من قوقعتهم مع جهلهم، وأخطائهم الَّتي ألفوها على مدى السِّنين، ونحمي ديننا، ورايته التي يحملونها بجهالةٍ؛ لأنَّ مَنْ عاش في ذنبٍ، ثمَّ تاب يكون أحرص ممَّن لم يعش فيه على حماية غيره من الوقوع فيه، وأصدق شعوراً في التبليغ.. ولولا ظلمة الخطأ، ما أشرق نور الصَّواب في القلوب، وبضدِّها تعرف النِّعم، أيريدون أن يدفعوا بعجلة دفاعي عن ديني الذي عشقت إلى الخلف، كلَّا، وألف كلا! تلك الشَّخصيات المتشنِّجة التي تفهم، وتطبق أحكام الله من خلال عُقَدِها، وتعنُّتها، واستكبارها بجهالتها، وتعصبها الأعمى، ولأنَّه كان لي عندهم فيما مضى مظلمةٌ عظيمةٌ بسبب جهلهم، سيحاسبهم عليها بعدله سبحانه.. كلَّما تذكَّرتُها أشعر بعمق جرحها في داخلي لا يزال يئنُّ بالحسرات، وذلك حين كنت في مقتبل

---

(١) رواه أحمد (٢/١٥٨) والبخاري (٣٦٤١) والترمذي (٢٦٦٩).

(٢) رواه أحمد (٢/٤٨٥) والبخاري (٣٣٥٣) مرفوعاً من حديث أبي هريرة.

العمر ، وأحسست رغبةً صادقة في الالتزام بديني ، ووقتها كنت أصحب أولادي الصِّغار إلى المسجد - كما ذكرت مسبقاً - كي أحبِّبهم بما كنت أحبُّ ، ولم تكن لديَّ خلفيَّةٌ أستند إليها ، فقطع علي مشوار التَّديُّن من بدايته تهكماتُ أمثالك الخطيرة ، خلَّفتْ في نفسي ردَّة فعلٍ خطيرة ، فكرهت أمثالك كرهاً بالغاً ، ناهيك عن كرهي للدِّين برمَّته ردحاً من الزَّمن.

هل ترضون أن تكونوا أعداءً لله في دينه ، حيث تنفِّرون منه عباده ، وأقسم بالله! بأنَّني لا . . ولن أنسى ذلك ما حييت؛ لأنَّه كان من واجب مَنْ تحمل لواءه أن ترعى أمثالي ، برحمة العارف ، وأنا الفتية الرَّاغبة بدخول الدِّين بشفافيةٍ ، فما كان منهنَّ إلا أن سددن لي الطَّريق بجهلهنَّ الموروث!! ولكنَّني سأفيد نفسي أيماً فائدة متسلحةً بنور الله في قوله: ﴿ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ [الشورى: ١٥].

وبسبب ذلك أريد أن أكون منارة هدايةٍ لمن حولي . . فأخذت أنهل من العلم الشَّرعيِّ ، وتنوَّعتْ معلوماتي منه ، كي أبتني شخصيةً يشتهون منها مبادى هذا الدِّين العظيم ، الَّذي يسموا بالإنسان إلى الكمال الإنسانيِّ . . بدلاً عمَّا كانوا من قبل يشتهون منِّي مغريات الحياة المفسدة!! وأصبحت في وقتٍ قصيرٍ مرجعاً لهم فيما يستشكل عليهم من أمور الدِّين ، وإذا جهلت أمراً لا أجيب عليه طبعاً إلا بعد سؤال أهل العلم ، آملةً بركة ما أشار به القرآن: ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١] ، وما توفيقي إلا بالله الحبيب ، عليه توكلت ، وإليه أنيب .

ومن مآسي الجهل أيضاً هذه المأساة الَّتي حصلت مع ابن لي في سفره: تزوَّج من فتاة غربيَّةٍ ، وقد أحبَّته تلك الفتاة ، ومن ثمَّ أحبَّت دينه

من خلال أخلاقه ، وأفعاله التي جسَّد بها شخصية الرَّجل المسلم . . حيث رأتها تنمُّ عن الصِّدق ، والإخلاص ، والأمانة ، وهي من البَديهيَّات ؛ الَّتي يجب أن تتوافر في شخصية كلِّ مسلمٍ حق . . ولم تكن تعلم عن دين الإسلام أيَّ شيءٍ ، فعرفته من جراء معاشرتها لزوجها المسلم ، فقد كان يوحي إليها في كلِّ فرصةٍ مناسبةٍ شيئاً عن دينه القيِّم ، إلى أن تسلَّل قبس النور الإلهيِّ إلى وجدانها ، وبلغ غايته في دخولها في دين الله سبحانه ، وتحقَّق أمله الذي طالما انتظر ، وقد أعطاها فرصةً من أجل اللِّباس الشَّرعيِّ غير مقيَّدةٍ بزمنٍ ، لا بل وحذَّرها أن ترتديه قبل تشكُّل القناعة الَّتي تجعلها تحبُّه ، ثم تحافظ عليه ، وتتمسَّك به ، ومن ثمَّ تدعو إليه . . فذلك هو شرعنا ، يدعو إلى الخير ، ويحارب الشرَّ ، ولا يعترف بالأنانية .

وتعلمتِ الآداب الإسلاميَّة ، ومنها الحشمة ، والحياء إلى جانب كلِّ العبادات ، وتركت عملها لأنها كانت تعمل في مجال السِّباحة ، والإنقاذ ، بعد أن علمت بأنَّ لباسه فيه من كشف العورات ما يتعارض مع شرع دين الإسلام ! وتعلَّمت الصَّلاة في وقتها ، وجلست تمضي السَّاعات كلَّ يوم في مطالعة الكتب الدِّينية التي اختارها لها زوجها ، وكنت أرى السعادة تنبع من بريق عينيها عندما كنت في زيارتهم . . ولكن وللأسف الشَّديد !! كلُّ ذلك ذهب أدراج الرياح . . لأن اليد الجاهلة تتنافر مع الأصول ، وتأبى الصَّواب ، فتلعب دور التخريب في كلِّ مجال ! لقد أخذت نساء الجالية العربية هناك يلحُّون عليها ، ويزنُّون على آذانها ، ويضغطون على تفكيرها من أجل الحجاب ، فاستشارت زوجها في هذا الأمر ، فخيَّرها ، وأشار عليها بألا تتسرَّع باتِّخاذ هكذا قرار ، لأنَّه يخصُّ العقيدة الإسلاميَّة خوفاً من حصول ردة . . ولأن هذا دينٌ ، وليس بالأمر

السهل أن يتراجع فيه الإنسان بعد أيِّ خطوةٍ.. والردَّة عنه من الخطورة بمكانٍ.. ولكن النِّسوة طفقن يَحثُثْنَها على لبسه رغم تحذيرات زوجها لهنَّ، حتَّى انصاعت لهنَّ، ولبسته خجلاً منهنَّ! فلم يعطينها فرصة حرِّيَّة الاختيار عن قناعةٍ ذاتيَّةٍ.

ولم تمض شهورٌ حتَّى حصل المحذور! وارتدَّت عمَّا لم تستطع عليه صبراً.. وما كان من زوجها إلا أن طلَّقها ائتماراً لدينه، لأنَّها لم تعد تحل له بعد الردَّة! فقد خرجت من الدِّين كلِّه، تحقيقاً لرغبة أهلها الذين أنكروا عليها ذلك مسبقاً، ولكنَّها لم تعرهم أذناً صاغيةً وقتها، واتَّبعت زوجها الَّذي أحبَّت. وكلُّ ذلك كان سببه الجهل في طريقة الدَّعوة الصحيحة من أولئك النِّسوة، ولكيلا يتحوَّل الإصلاح إلى تخريب، والتَّرغيب إلى تنفير.. يجب الأخذ بالشُّروط السليمة للدَّعوة؛ لأنَّ لكلِّ شيءٍ قواعد وأصول؛ لتجنب الوقوع في مثل هذه المأساة، ومن أجل كلِّ هذا.. أركِّز، وأكرِّر، وألحُّ في الحثِّ على طلب العلم؛ لأنه فعلاً سلاح، وأيُّما سلاحٍ.. بل هو حصننا الحصين الَّذي يحمي الدِّين من أعدائه الجهلة.

فيا أختي المحتجَّة عليَّ شروعي في الدَّعوة مباشرةً، يجب أن تعلمي بأنَّ من المفروض على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ أن يكون داعيةً، ائتماراً بقوله تعالى لحضرة النبي ﷺ في تبليغ الدَّعوة: وذلك بشرط أن يتمتَّع بالحكمة واللِّين.. وكم يؤثِّر في النفس مشهد سيدنا عمر ـ رضي الله عنه ـ عندما طُعِنَ، ودخل عليه شابٌّ، وقال لعمر قولاً حسناً، فلمَّا أدبر الشابُّ ليخرج، إذا بإزاره يمسُّ الأرض، فدعاه عمر، وقال له: (يا بن أخي!

ارفع ثوبك ، فإنَّه أنقى لثوبك ، وأتقى لربِّك)[1] ولم يمنعه الموت الَّذي نزل به من أن يرشد ذلك الرَّجل إلى أمرٍ يعدُّه الناس اليوم من القشور ، الَّتي لا يجوز أن يعنى بها ، وذلك من كثرة تسيُّب النَّاس في أمور الدِّين القيِّم. . فأصبح الدَّاعي يتجنَّب الخوض في المهمِّ؛ لتحصيل الأهمِّ.

ويا حول الله. . ممَّن يدسون أنوفهم فيما لا يعنيهم ، وما أكثر مَنْ هم في أمور الإصلاح يقولون: لا دخل لنا. . وفي أمور التَّخريب ، والإفساد يضعون أصابعهم العشرة ، ويُمعنون في الخوض فيما لا يعنيهم !! وذلك من مآسي الجهل العظمى. . ! إذ تدخَّلت هذه الشريحة من شياطين الإنس. . بيني ، وبين كنَّتي الغربيَّة الَّتي أحبَّتني جدّاً ، وتركت بلدها لأجل البقاء بقربي ، فأوهموها بعدم وجود حماة مثل الأم على الإطلاق ، ونقلوا لها معاناتهم من حمواتهم ، ونفثوا سمومهم في نفسها. . وأوغروا في صدرها التشكيك في حسن معاملتي ، ونزاهتي معها ، ومن محبَّتي الكبيرة لها كابنةٍ . . وأوحوا لها بأن كلَّ ذلك لغايةٍ ما في نفسي ، ولا بدَّ أنَّ فيهم تمثيل يضمر العكس ! وبما أنَّها لا تعرف المداهنة ، أو اللف ، والدوران ، وبما أنَّ الشَّيطان قد تحالف مع شياطين الأنس ، فوجدها فرصةً يمارس فيها مهمته العزيزة عليه ، ألا وهي التَّفريق بين الأحبَّة ! فدخل في نفسها بشرِّهِ ، وزرع فيها الريبة من علاقة الحماة مع الكنَّة ، حيث إنَّها قد لمست صدق ما سمعت في عدَّة حمواتٍ شاهدت سوء تصرفاتهنَّ مع زوجات الأبناء ، وعاشت في دوَّامتها تذرف دموع الحيرة بين حينٍ ، وآخر ، ومن شدَّة محبَّتها ، واحترامها لي أخفت عنِّي عذابها النَّفسيِّ خوفاً منها على مشاعري ، خاصةً وأنَّها لا تلمس مني إلا حناناً خالصاً من أيِّ شائبةٍ

(١) منحة المعبود (١٨٠٤) وكنز العمال (٤١١٩٢).

تربيها ، فتشعر بأنَّها ظلمتني ، ممَّا جعل كيلها يطفح ، وتصارحني بما آلت إليه من تباينٍ في إحساسها ، وقناعاتها ، ومن انعكاس ظنونها بي على نفسها ، فأصابني استياءٌ شديدٌ وامتعاضٌ كريهٌ لجهالة أولئك النِّسوة البهيميَّة ، وكيدهن ! إلا أنَّني بفضلٍ من الله ، ورحمةٍ . . استطعت بعد جهدٍ جهيدٍ أن أكشف لها عوارهم ، وأسترجع ثقتها بي ، ونصحتها بالابتعاد عن أولئك الحسَّاد ، وأرجعت المحبة بيننا تسود . . بحمد الله !

ذلك . . وأحبُّ أن أذكر أيضاً ذلك النَّموذج السَّاذج ، الَّذي كان يقول بعد أن ارتكب معصيةً من الكبائر ، يقول متبجحاً ودون أدنى خجلٍ : نحن أمة محمَّد مدلَّلون ، وذنبنا مغفورٌ من أجله !! يقولها هكذا بتجرُّدٍ من الأدب والحياء من الله العليِّ الأعلى ، ومن الموجودين ، وبلا احترامٍ لمن يزعم الانتساب إلى أمَّته ، وحتَّى لم يكلِّف نفسه بالصَّلاة عليه ! ألف صلاةٍ وسلامٍ عليه . . تخيَّلوا هذا الجهل المريع ! تخيَّلوا هذا الافتراء على سيد كائنات الكون ﷺ ! وهو الذي قال لابنته : « أعينيني على نفسك بكثرة السجود ، فلا يأتيني الناس يوم القيامة بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم » ، وهذا لمن؟؟ لابنته !! ﷺ ، بينما ذاك الفاسق الفاجر يجاهر بمعصيته . . بمنتهى قلَّة الحياء ، والجهالة . . حيث يأمل المغفرة بتغافلٍ مغرورٍ من غير توبةٍ ، ولا إقلاعٍ عن الذنب ، ولا الإحساس به أصلاً ! ومن أعظم الاغترار عند ابن معاذ . . التَّمادي في الذنوب مع رجاء العفو من غير ندامةٍ ، وتوقُّع القرب من الله بغير طاعةٍ ، وانتظارُ زرع الجنَّة ببذر النَّار ، وطلب دار المطيعين بالمعاصي ؛ فلا يطمع في الخلاص مع عدم الإخلاص في الطاعات ، ولا يؤملنَّ النَّجاة مَنْ هو مقيمٌ على الموبقات . . مع انتظار الجزاء بغير عملٍ ، والتمنِّي على الله ـ عزَّ وجل ـ مع الإفراط ! ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ [الانفطار : ١٩] ! وقد أكَّد الله تعالى توعُّده في ذلك بقوله :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣]. . وتمعَّنوا في هذه الآية العظيمة: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وصدق أحد الحكماء؛ إذ قال: ليت شعري أيُّ شيء أدركَ من فاته العلم؟! وأيُّ شيء فات من أدرك العلم؟! وما أهون الخلق على الله؛ إذا هم تركوا أمره.

وقال أبو الدَّرداء: لأنَّ دارنا هناك، وإليها لها نرجع. . وليس الخير في أن يكثر مالك. . ولكن الخير أن يعظم عملك! ولن يكون العلم جميلاً حتى تكون به عاملاً، ولا يكون أحدكم تقياً حتى يكون عالماً. . ولنقرأ هذه الآية الدَّالة: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴾ [محمد: ١٤].

وأسأل الله العافية ممَّا توصل إليه أفراد الأمَّة المحمَّدية من غرورٍ بربِّهم مخيفٍ، وقال الحسن: إنَّ قوماً ألهتهم أماني المغفرة، حتَّى خرجوا من الدُّنيا بغير توبةٍ! ويقول أحدهم: إنِّي أحسن الظنَّ بربِّي. وكذب، لو أحسن الظنَّ؛ لأحسن العمل!! فيا أيُّها الإنسان الغافل المتأمِّل الزَّائل الظالم لنفسه ما غرَّك بربك الكريم الذي قال في القرآن: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان: ٧٧]؟؟ ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ [الروم: ٥٧]، وهذا دعاء سيد الخلق ﷺ: «اللَّهُمَّ! أعذنا من الشِّقاق، والنِّفاق، وسوء الأخلاق»[1]. اللَّهُمَّ آمين!

---

(١) رواه أبو داود (١٥٤٦) والنسائي (٨/ ٢٦٤) عن أبي هريرة.

أرجوكِ أختي المؤمنة! ألا تكوني واحدةً من اللاتي لا يعرفْنَ من دينِهنَّ غيرَ المظاهر. . وهنَّ يُمثِّلنَ شريحةً رديئةً بسلوكهنَّ السَّيِّئ مع الآخرين. . فلن ننالَ رضا ربِّنا البتَّة إلا بحسن أخلاقنا في تعاملنا مع الآخرين. . مقتدين بسلوك، وأخلاق نبيِّنا محمَّدٍ، سيدِ الخلْق، والخلُق. . وكثيراً ما أسمع تعليقاتٍ سيِّئةً تَذُمُّ سلوكَ هؤلاء الَّذين يتظاهرون بأنَّهم من أهل الدين، نساءً، ورجالاً، يتعبَّدون الله، ويؤذون خلقه بتصرُّفاتٍ جاهلةٍ حمقاءَ، يتبرَّأ منها دينُنا القويم، دينُ الإسلام الَّذي ينادي بالاستقامة على نبل الأخلاق، ويحُثُّ على الرَّحمة، والمحبَّة، والأمانة، والصَّبر، والمساعدةِ لكلِّ محتاجٍ، وحسنِ النَّوايا، وأهمُّها الصدقُ. خُلِقَ الظلم؛ أمُّه قلَّة الدِّين، وسوء الخلق أبوه.

كم تؤلمني تلك التَّعليقاتُ! لأنها تَمَسُّ المسلم الحقَّ. . فتشمل الصَّالح، والطَّالح. . وكثيراً ما أسمع من يقول: نحن أفضل من أولئك بكثير! صحيح أنَّنا غير ملتزمين بالعبادة، ولكن يكفي أنَّنا لا نؤذي أحداً!! كلاَّ. . إنَّ هذا لا يكفي أبداً. . وهذا جهلٌ خطير! فلا ينال عبدٌ رضا ربه إلا إذا أتمَّ ما فَرَض عليه؛ لأنَّ الله أمرنا بعبادته، والتي تتضمَّن الخلق الحسن، فلنكن جميعاً مثالاً محموداً للأخلاق الإسلاميَّة الحق. . وتعالوا نبتهل إلى الله بأن يجعلنا للمتَّقين إماماً، كي يُسَرَّ بنا حضرة رسولنا المتَّبع يوم القيامة.

وحريٌّ بالإنسان المسلم أن يكون كذلك، متحلِّياً بمكارم الأخلاق، وأسمى الصِّفات، ممتثلاً أمر الله سبحانه، مزكِّياً نفسه حتَّى يفوز بالفلاح الأبديِّ. . بنصِّ الآية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩]. . فيجب التحلِّي بالأخلاق الحسنة، والتخلِّي عن البغضاء، والظلم؛ كي يعتدَّ بنا مولانا

سبحانه ، ويباهي بنا ملائكته . . ومن ثَمَّ يكرمنا بالجنَّة ، فالأخلاق وعاء الدِّين .

لذلك فهو شيءٌ أساسيٌّ في ديننا بين الناس ، كلِّ الناس . . مستفيدين من قول المصطفى ﷺ: «**ليس في الميزان أثقل من حُسْن الخلق**»[1] ، وذلك لا يتمُّ إلا إذا فتَّش كلُّ إنسانٍ عن عيوبه ، وعالجها بمراقبة النَّفس ، وتغاضى عن عيوب غيره ، وتحاشاها.

وقد قيل : «حقٌّ على العاقل أن يتَّخذ مرآتين : ينظر في إحداهما إلى مساوئ نفسه ، فيتصاغر بها ، ويصلح ما استطاع ، وينظر في الأخرى إلى محاسن النَّاس ، فيَحتَذيَ بهم فيها ، ويأخذ منها ما استطاع ، فكيف بنا ننظر إلى عيوب الناس وننسى ، أو نتناسى عيوبنا؟! اللَّهُمَّ! كما أحسنت خَلْقَنا؛ أحسِنْ خُلُقَنا ، وخلِّقنا بأخلاق حبيبنا محمَّد ﷺ أجمعين . . آمين يا رب العالمين!

أرى كلَّ إنسانٍ يرى عَيْبَ غيرِه ... ويَعمىٰ عن العَيْبِ الَّذي هو فِيْهِ
وما خَيْرُ مَنْ كفَّ عَنْهُ عيوبَه ... ويبدو له العَيْبُ الَّذي بأخِيْهِ
وكيف عيباً وعيبي ظاهرٌ ... وما يَعْرفُ السَّوءاتِ غَيْرُ سَفِيْهِ

أختي في الله! لا تكوني ممَّن يتمسَّكْنَ ، بل يَتَعَصَّبْنَ للتقاليد ، والأعراف الاجتماعية المُضِرَّة ، ويتسيَّبن في أحكام الشَّريعة الضَّرورية .

مثال : أغلب الناس إن لم يكن الجميع يتمسَّكون بالأمور المتعلِّقة بالأحزان . . والمؤسف حقاً أنَّنا نتمسَّك بالأمور الدُّنيويَّة ، ونعضُّ عليها بالنَّواجذ! وكلٌّ يضيف شيئاً جديداً ، من مزاجه ، وخواطره ، فيزيد الطِّين بلَّةً ، فنراهم يتفوَّقون برعاية المظاهر ، ويتبنَّون كلَّ مستلزماتها من

(١) رواه أحمد (٦/ ٤٤٢ ، ٤٤٦) والترمذي (٢٠٠٢).

المراسم، و(الإتِكيت) على حساب اعتباراتٍ، ومسائل أخرى بالغة الأهمِّيَّة! ألا وهي أخذ العبرة من الموت.. كالملابس الَّتي يجب أن تكون موحَّدةً، يهرعون لشرائها في أوقاتٍ، وظروف غير ملائمةٍ، تتَّصف بالمضحك المبكي، يتكلَّفون فيها المشقَّة، والمال.. والأطعمة الذي يجعلونها هبةً لروح الميِّت، ولم يعد يأكل منها إلا الغنيُّ الشبعان، وحَرَموا منها الفقير الجوعان.. لقد كثرت البدع في زماننا هذا، وهي لا تزال تزداد، وتتوالد ما دام المسلمون بعيدين عن تعاليم دينهم، فإنَّ انتشار البدع يهدِّد الأمَّة الإسلاميَّة، فتنبهوا!! والذي دفعني للتحدُّث في هذا الموضوع، والخوض في حيثيَّاته؛ هو أنَّه له علاقة بالعقيدة، والشَّرع اللَّذين أصبحا يعلوهما التُّراب بسبب تركهما! فهم يتخبَّطون مع الخطأ، والمعصية، حيث يتَّخذون كلام الله رمزاً لشعائرهم البالية، فيضعون (الكاسيت) الَّذي يحتوي على التلاوات القرآنيَّة، وهو يصدح بصوته في المسجِّل، والكلُّ حولَه لاهون، لكلٍّ منهم شأنٌ يغنيه.. ويلهيه عن سماع آيات الله، وهي تُتلى؛ وقد هجرها المستمعون، يعصون كلام الله؛ وقد أمرنا بحكمةٍ بالغة: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤].

كان جواب إحدى قريباتي المتكلِّفات بحرص شديد في هذه الأمور عندما لفتُّ نظرها حول هذا الأمر: أنَّها قالت: ليس ذنبنا ألَّا أحد يستمع إليه! يجب أن يكون القرآن «شغَّال» هكذا طوال الوقت، كيف يستدلُّ المعزِّين إلى عنوان البيت إن لم يسمعوا التِّلاوة!! كيف رخَّص هؤلاء الجُهَّال لعظمة كتاب الله هذه الوظيفة المفتعلة؟ هل صار القرآن العظيم منادياً للنَّاس.. ودليلاً معرِّفاً على مكان التَّعزية؟! إلهي غفرانك!!

فأين هم من إدراك الواجب الصَّحيح في زحمة أداء الواجبات

التَّقليديَّـة ، فيما يسمُّونه : عصرية ، و(إخدان بالخاطر) والخميس . . و ، و . . إلى آخر ما ابتدعه النَّاس في تلك اللوازم وكان سبباً للغيبة ، والانتقادات !! ثمَّ سرعان ما ينسون موتاهم حتَّى من الدُّعاء المعين . . بل وتطوي على ذكراهم السنين؟! في اعتقادي : أنَّ المثل لا يزال حياً أمامهم . . ويكفي أن نتعمَّق قليلاً في الأمر؛ لنعرف نهاية المطاف المنتظرة ، ونعتبر منها بالعمل لها قدر وسعنا ، وهذه الآية حديثة العهد؛ أي : موت الميِّت ، تؤكِّد تلك النِّهاية . . وتقول . . ألا فاعتبروا يا أولي الأبصار من خطبة سيد الخلق ﷺ هذه : «كأنَّ الموت على غيرنا كتب ، وكأنَّ الحقَّ فيها على غيرنا وجب ، وكأنَّ الذي نشيِّع من الأموات سَفَرٌ عمَّا قليل إلينا راجعون ، بيوتهم أَجْداثُهم ، ونأكل تراثهم ، كأننا مخَلَّدون بعدهم ، قد أمِنَّا كلَّ جائحةٍ ـ مصيبة ـ ونسينا كلَّ موعظةٍ» ، ونتحب على الميت ، وننسى أنفسنا!! .

وبسبب مشاهداتي المؤسفة من أخطاء ، ومخالفات النَّاس للشَّرع؛ حتَّى في المناسبة الحكيمة التي تذكِّرنا بعودتنا إلى بارئنا ؛ أسرعت في تحذير أولادي ، وعائلتي من اتِّباع هذه الأخطاء الفادحة ! وأنقذت نفسي من وزرها بإجراء بيانٍ مفصَّل جعلته مسجلاً في وصيَّتي لأولادي . . ونبَّهتهم أنْ يتحاشوا المساهمة في استمرار هذه الأخطاء عند وفاتي . . كي أبتدئ علاج بعض المهازل التي تتخلَّل الأفراح ، والأتراح في نفسي علَّني أكون قدوةً مفيدةً في الحياة ، والممات بإذن المولى جلَّ ، وعلا . والله! إنَّ قلب المؤمن ليتفطَّر ألماً وحسرة لما آل عليه حال كتاب الله بين أهله!! وما أنزله الله إلا للتعبُّد؛ أي : لتدبُّر آياته في السَّموات والأرض ، وبيان عظمة خلقه ، وإثبات وحدانيته ـ تقدَّست أسماؤه ـ وتوضيح التَّشريع القويم ، والهادي إلى السُّلوك السَّويِّ ، فهو نور الحقِّ المبين ، وهو

الدُّستور الجليل. . وهو حجَّة المولى على عباده في تِبيانه لأحكام التكليف، والتي هي: افعل، ولا تفعل.

تلك الأحكام التي يثاب عليها الإنسان؛ إن فعلها، ويعاقب؛ إن تركها وهي أساس العبادة، أنزلها الله كمنهجٍ لحياة البشر على الأرض. . فمتى، وكيف اتُّخذ رمزاً للموت، والأحزان عند غالبية البشر؟! إنَّ هذا يزرع في نفوس الأجيال ما لا تحمد عقباه.

ومتى كانت هذه التلاوات تفيد الميت بشيءٍ؟ إلا عند النَّزع الأخير قبل خروج الرُّوح من جسدها لتلقى بارئها بما أحضرت. . فإنَّ أمر وصول ثواب قراءة القرآن للميِّت غير ثابتٍ في السُّنَّة الشَّريفة، وأمَّا الأعمال الصَّالحة؛ فمن الثَّابت: أنَّها تبقى مع العبد بعد وفاته. . أما بعد ذلك؛ فلا شيء يفيده إلا الدُّعاء المستمرُّ بالمغفرة، والرَّحمة، ومن خطورة هذا الاعتقاد: أنَّني سمعت من أناسٍ جهلةٍ أنَّهم متَّكلون على تلك التلاوات بعد وفاتهم؛ لأن فيها خلاصهم من الذُّنوب، وتضمن لهم المغفرة دون عملٍ؟! وأمرٌ خطيرٌ آخر.

لقد سمعت من يقول بغبطة مطمئنَّة: إنَّ هناك من يدفع المال لأشخاصٍ معيَّنين؛ ليقضوا عن الميت صلواته الَّتي تكاسل عن أدائها في حياته! فانظروا إلى ماذا سيوصلنا الجهل. . !

وفي تفاسير القرآن العظيم اختلافٌ بين العلماء في فهم أهدافه ومراميه، التي هي دنيويةٌ قبل أن تكون أخرويةً! فهو كتابٌ ما أنزل على القبور! أو في محافل الموتى؛ الَّذين ضيَّعوا معانيه . وتطبيقه في حياتهم! بل هو منهج عملٍ لإسعاد الأحياء: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وهكذا ضاع القرآن بين من لا يعرفه،

وبين عارفٍ له ، لا يملك حيويَّة الدَّعوة إليه ، وزيارة قبر الميت بين حين وآخر هو المطلوب من أجل تذكير النَّفس بما هو آتٍ لا ريب ، وليس في السَّنة مرَّةً ، كدأب غالبية النَّاس ، حيث صار من الأعراف ألَّا يزوروا موتاهم إلا في الأعياد؟! مع العلم بأنَّ الله جعل الأعياد للفرح ، والناس تخالف أوامره ، وتجعلها مناسبة لزيارة الأموات ، واستحضار الأحزان في غير وقتها ، مع العلم بأنَّ تكرار الزِّيارة ، والدُّعاء للأموات هي أعلى درجات المحبَّة الحقيقيَّة ، والواعية . وعلاوةً على هذا تجديد العهد مع خالقنا من أخذ العبرة في ذلك من قوله ﷺ: «**كفى بالموت واعظاً !**»[1] .

ومن المُضحك حقَّاً تلاوة آيات العذاب المخيفة الَّتي تقرأ على قبرالمتوفى دونما تمييز ، وانتباه لسوء الاختيار ، والَّتي تجعله يتمنَّى الهرب من قبره خوفاً ، وهلعاً؟ أما آن لنا أن نفهم بأنَّ كل إنسانٍ لا ينفعه مع مولاه إلا عملُه؟ أما كفانا أوهاماً أكل الدَّهر عليها وشرب ، إلى جانب سلبياتها الخطيرة؛ حيث يقترن معها تفكير الجُهَّال ، ويخشى أن تتَّكل عليها الأجيال! يا إلهي! حتَّى الموت جَعَلوا له (أتِكيت) و(بروتوكول). . فإنَّ القرآن الكريم لأكبرُ ، وأعظمُ من أن يُتَّخذ غرضاً لأهوائنا الشَّخصية . . فإنَّنا نكتسب بذلك مقت الله ، ونحن نحسب أنَّنا نُحْسِن صنعاً .

وهاهي آية عظيمة من علامات الله في كونه ، آية كسوف الشَّمس؛ التي حصلت في عام (١٩٩٩ م) قد جسَّدت عظمة ، وجلال الخالق ، ودقَّته الهائلة في تنظيم الكون جلَّت قدرته ، فحتَّى هذه أسفرت عن أخطاءٍ دينيَّةٍ

---

(١) رواه أحمد بن حنبل في الزهد (ص٢١٩) وابن أبي الدنيا في كتاب: اليقين (٣١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/٣٠٨) وعزاه للطبراني.

ودنيويَّةٍ. . فكثيرٌ من الناس يومها تقيَّد بتعاليم ، وتحذير الأطباء للمحافظة على عيونهم من الضَّرر ، وكثيرٌ منهم اعتبر نصائح الأطباء فيها مبالغة ، وفضَّلوا المعاندة ، ومعاينة الحدث العظيم في الفَلاة ، وتحدَّوا العلم بجهلهم على حساب صحَّة أعينهم ، على الرَّغم من شدَّة ، وتكرار التَّحذيرات!! ولكن المحزن حقاً أنَّ أقلَّ القليل من النَّاس مَن أمَّ المساجد ، ليصلِّي صلاة الكسوف ، كما ورد عن نبينا ﷺ: أنه أقامها. وعظيمٌ جداً أن يلتزم الإنسان باحترام العلم الطبِّي ، ورأي أهله. . ولكن الأعظم منه أن نعتبر من تلك الآية العظيمة الدَّالة على عظمة الخالق ، وإعجازه في كونه ، والَّتي شاهدناها بأمِّ أعيننا على شاشة التِّلفاز ، وقد كانت تصديقاً لقول العليم القيوم: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

فينبغي أن نحترم ، ونلتزم تعاليمه من باب أولى! ونخشى على صحَّة إيماننا ، كما خشينا على صحة أعيننا ، ونحرص عليها كما حرص النَّاس على شراء المؤونة الغذائيَّة ، تخوفاً من حدوث شيءٍ يمنعهم من الأطعمة! ويا ليتهم يحرصون على تحصيل المؤونة من الحسنات؛ الَّتي ستفيدهم بلا ريبٍ وقت حدوث الشَّيء المؤكَّد؛ الذي لا بدَّ من حدوثه. . ألا وهو الموت؟! فيا لها من عبرة! وما أوضحها من عظمة! وما أبلغها من بيانٍ وضَّاح ، يخشع له أولو الألباب! ولكنَّ أكثر الناس - وأسفاه - هم كما قال الخبير بعباده سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥].

وعلام يذهب المرء بعيداً ، بعيداً ، ونفسه التي بين جنبيه أعجوبةٌ من أعاجيب التَّقدير الإلهيِّ ، وتركيبٌ من بدائع الصُّنع الرَّبانيِّ ، كما بيَّنت

الآية المتقدِّم ذكرها أعلاه، فهم لن ينالوا الإيمان بالاسم، وإنَّما ينالونه بالالتزام بمنهج السَّماء، وعجباً من أناس لا يعتبرون! فهل يعتبر المعتبرون؟.

* * *

حان أوان ترجمة العلم إلى عمل

صرت الآن بحمد الله وفضله لا يُؤَخّرُني شيءٌ عن تنفيذ أمر ربِّي ، فلم أعد أكرهُ إلا ذنبي ، ولا أهابُ إلا ربِّي . . فسبحان من أعانني على تبديل أحوالي كلِّها!

١ ـ بعد أن كان كلُّ همِّي هو الاعتناء بمظهري؛ حتَّى أبدوَ في مرحلة الخامسة والعشرين من العمر ، وذلك ما كنت أسمعه ممَّن حولي ، وأنا فعلياً على أبواب العقد الخامس ، فَرِحَةً بهذه الميِّزة الَّتي بدَّدتُ من أجلها كلَّ وقتي ، وفكري ، ومالي؛ حتى لا أَخْسَرَ المديح ، والإعجاب الَّذي لم أَحصُدْ منه إلا الغيرةَ ، والحسَدَ ، والكَيد من هؤلاء الناس ، وبالتالي احتقارَ الذَّات ، والمعاناة من غمِّ الآثام كلَّما خَلوتُ بنفسي .

تركت معارفي القدامى (شلة الفساد) بعد أن سألت نفسي : هل يغنون عنِّي من الله شيئاً؟! هل يدفعون عني شيئاً من العذاب يوم يقوم النَّاس لربِّ العالمين؟! فعلمت بأنَّهم لن يحصِّنونني من مقت الله آنذاك! فبدَّلتهم بأهل العلم ، وأولياء الله الصَّالحين ، لقد تعلَّمت من تجربتي الأولى في التَّحجُّب : أنَّ الخطأَ كان بعدم تجنب رفقاء السُّوء ، وبدأت أتعرَّف على أخواتِ صالحاتٍ ، وانخرطت بينهم كي أحمي نفسي من الجاهلات ،

والبعيدات عن التَّديُّن، وذانك أوَّل نعمتين أكرمني بهما ربِّي في التَّغيير بعد التَّوبة.. جلَّت قدرته! ـ كما ذكرت آنفاً ـ وما أجملهم من معارف جدد، يتشرَّف بهم مَنْ يتقرَّب إليهم، ويصيب من محاسنهم خيراً، فلمست: أنَّ في مصاحبة أهل الخير غنيمةً.. وسلاحاً ضدَّ الجهل والحيرة فيه، ومن ثَمَّ الضياع.. إنَّهم حقاً حصانةٌ للنفس من اقتراف الآثام.. وبهم تجلو عن النَّفس صدأ الذنوب، فاللواذ بأهل العلم يحفز على مجاراتهم به، وليس في هذا إلا هجر المعاصي المؤدِّي إلى تناسيها.. فهم رفقاء الدُّنيا، والآخرة، ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، وفي ذلك أمرنا القرآن، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ﴾ [الأنعام: ٩٠].. و: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود: ١١٣]، كما أنَّ نبيَّنا محمداً ﷺ قال: «**مثل الجليس الصَّالح، والجليس السَّوْء، كمَثَلِ صاحب المسك وكير الحدَّاد، لا يَعْدَمُكَ من صاحب المسك، إما تشتريه.. أو تجدُ ريحَه، وكيرُ الحداد يُحرِقُ بيَتكَ، أو ثوبك.. أو تجدُ منه ريحاً خبيثةً**»(١) ولله درُّ الشَّاعر الَّذي عبَّر عن حالي تماماً في هذه المرحلة؛ إذ قال:

أحبُّ الصَّالحين ولستُ منهم ... عسى أن أنالَ بهم شفاعةْ
وأكرَهُ مَنْ بضاعتُه المعاصي ... وإنْ كنَّا سواءً في البضاعةْ

ولم أعد أختلط بالرِّجال غيرالمحارم من الأقارب، وغيرهم، وجعلتُ زياراتي كلَّها لنقل ما أتعلَّمُ من أمور ديني، وتطبيقه مع الأهل، والمعارف، وإبلاغهم ما أقرأ من أحكامٍ فقهيَّةٍ نحتاج إليها في حياتنا اليوميَّة، وما يلزَمُ كلَّ إنسان الدِّرايةَ بها، وتطبيقها على الشكل الصَّحيح.

---

(١) رواه البخاري (٢١٠١) ومسلم (٢٦٢٨) عن أبي موسى.

وكلُّ همِّي ينصَبُّ في تقوية العقيدة في عقول الصِّغار قبل الكبار ، بعد أن كنتُ لهم مثالاً في ابتكار الأزياء ، والموضة ، وأنواع اللَّهوِ؛ التي لم تعد تسترعي انتباهي ، بل أصبح ذكرها يثير نفوري ، وحنقي ! فأحاولُ تبديلَ تلك الشَّخصية العالقة في أذهانهم عنِّي ، وإصلاحَ ما أفسدته السنون من الجهل المتوارَثِ بسبب التقليد الأعمى في الدِّين ، ومن الانجراف وراء تيَّار الأهواء ، واتِّباع الشَّيطان وأوليائه ، حتَّى انعدمَتْ عند بعض العائلات عبادةُ الله ، فأصبحوا يعبدون التِّلفاز ، ويُؤَلِّهون مُصممي الأزياء ، ويضيِّع أولادهم الوقت في الملهيات (الإلكترونية)؛ التي يجلسون أمامها ساعاتٍ طويلةً ، فتضلِّل العقل ، وتُضني الجسم . . فأحاولُ قُصارى جُهدي أن أبيِّن لهم مساوئَ ذلك ، وأذكِّرَهم بخالقهم؛ الَّذي نَسُوا فضله عليهم ، وأحثُّهم على استعمال ما وهبنا الله من نعمة الجسم الصحيح والأعضاء السليمة في طاعة أوامره بتسخير كلِّ عضوٍ لما خُلِقَ من أجله .

٢ ـ وبعد أن كنت أعتني ببيتي ، و(بديكوراته) وتزيينه بأغلى ، وأثمن التُّحف؛ صرت أعتني بآخرتي ، وأتزيَّن للموت ، وأزيِّن صلاتي ، وعبادتي بالعلم ، وأتوِّجهما بتدبُّر القرآن ، والعمل بهَديه ، والسَّير على هدي سيد الخلق في حركاتي ، وسكناتي ، وأعمل بما أسمع ، وأقرأ في كتب السُّنَّة الشَّريفة ، كي أصقل شخصيتي الإسلاميَّة فأكون بذلك امرأةً مسلمةً حقَّاً ، ولكي أكون قدوةً محبوبةً ، ومثلاً صحيحاً لمن تريد الاقتداء بي .

وصرت أخاف على نفسي من عذاب القبر المستَحَقِّ من آثام الأموال ، وغيرها ، فوهبتُ الكثير منها ، ومن مقتنياتي للمحتاجين؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ

قال إنَّه شاهَدَ يوم عُرِجَ به إلى السَّماء: أنَّ أكثر أهل النَّار كانوا من النِّساء، فأَمَرَهُنَّ بالإكثار من الصَّدقات[1]، ولأنَّه كانت لديَّ خادماتٌ، وكنت أتعامل معهنَّ بعصبيةٍ أحياناً، ولم أعد أدري أين مكانهنَّ الآن كي أسْتَمِيْحُهُنَّ، فأفتى لي أهل العلم بأنْ أُكثِرَ من الصَّدقات، والاستغفار؛ لتكون كفارةً تنوب عمّا قدَّمَت يداي، بديلاً عادلاً يستوفون به حقَّهم يوم القيامة من حسناتي، لعلَّ الله يتقبَّل منِّي، ويريحني من تبعية وزر حقِّ الغير، فيعفوَ عنِّي، إنَّه عفوٌّ غفور.

وكما أحصِّن بيتي، وأموالي بالأقفال تحفظاً من السَّرقة؛ صرت أحصن قبري سكنَ المستقبل الذي سأنتقل إليه بعد موتي تخوُّفاً من أنواع العذاب، ومن وجود الحنش الأقرع المسخَّر لتعذيب المذنبين فيه، وإذا قوَّاه عمل السُّوء؛ يصبح تنِّيناً.. كي أجعل جواري لربي جواراً مرضياً، ومرحوماً بروضةٍ من رياضه.. وليس بحفرةٍ من النَّار.. حيث سأبقى فيه إلى ما شاء الله من آلاف السنين! فأكون إلى يوم البعث في نعيمٍ مقيمٍ، بإذن الرَّحيم الكريم.. وذلك بمتابعة ما يوفِّقني به ربِّي من الأعمال الصَّالحة، وبالتعوُّذ بكلِّ ما تعلَّمْتُه من دعاءٍ، وأوَّل ما وفَّقني إليه ربي من حفظ القرآن الكريم.. المنجيات السبع، ومنهنَّ سورة تبارك المنجية من عذاب القبر[2] ـ كما ورد في الأثر ـ لكي ينجيني من الرُّسوب في الامتحان الأوَّل، حيث يُعَدُّ سؤال القبر كالامتحان في نصف السَّنة الدِّراسية، فمنه يؤهَّل الإنسان للامتحان الأخير يوم القيامة، ومنه تباشير الرِّضا في نهاية المطاف! فالموادُّ كثيرةٌ، ويَجبُرُ الله بعضَها من بعض.. وعلى رأسها

---

(١) بلفظ: «يا معشر النساء! تَصدَّقْنَ، وأكثرنَ الاستغفار؛ فإني رأيتكنَّ أكثر أهل النار». رواه أحمد (٢/ ٦٦ ـ ٦٧) ومسلم (٧٩) وابن ماجه (٤٠٠٣) عن ابن عمر.
(٢) رواه الترمذي (٢٨٩٠).

مادَّة الصَّلاة ، ومن ثَـمَّ باقي المواد ، كالصَّـوم ، والزَّكـاة ، والحـجِّ ، والذِّكر ، والصَّدقات ، وأعمال البرِّ والإحسان ، فإمَّا النَّجاح ، وإمَّا الرُّسوب لعدم تعاهدها!

وأضرب لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ لتقريب الفكرة لا غير: مَثَلُ العبد أمام الله يوم القيامة كمثله في الحياة الدُّنيا أمام أستاذه في المدرسة ، فكم يبذل من الجهد للتفوُّق ، والنَّجاح . . وللحصول على أعلى العلامات في جميع المواد الدِّراسيَّة . . ويتخوَّف من الرُّسوب فيها ، ويسعى لكسب رضا أستاذه ، فيَقْسِر نفسه على ترك كلِّ متاع الحياة ، ويعمل حساباً دقيقاً لاستثمار وقته في سهرٍ طويل ، وكدٍّ ، وقلقٍ لاينتهي إلا بعد الامتحان ، وبلوغ المراد ، فإن بلغ مناه بالنَّجاح؛ فإذا به ينسى كلَّ كدِّه ، ومعاناته! وكذلك كلُّ إنسان إذا بدأ المسير في طاعة الله ، بانياً أعماله على الإيمان ، متحلِّياً بالتُّقى ، متنقلاً من صفٍّ إلى صفٍّ في هذه الجامعة العليا ، ومتنقِّلاً من حالٍ إلى حالٍ حتَّى ينتهي به المطاف إلى الصَّفِّ النِّهائيِّ ، ثمَّ ينال أعظم شهادة (دكتوراه) يطمع إليها إنسان عاقلٌ ، ثم يغدو أستاذاً في تلك الجامعة ، وقد حصل على أسمى مراتب التَّقوى ، وينال ما هو أهلاً لنواله للثَّمرة المطلوبة بفوزٍ عظيمٍ في سعادةٍ خالدةٍ ، وأين نجاحٌ مِنْ نجاح . . وظفرٌ من ظفر في سعادةٍ أبديَّةٍ لا نهاية لنعيمها من شبه سعادةٍ آنيَّةٍ ، لا يدوم نعيمها ، ولا تطول فرحُتها؟ نسأل الله العافية من الرُّسوب يوم الامتحان الأعظم! وأجارنا الله من سوء العاقبة يوم تَبْيَضُّ وجوهٌ ، وتَسْوَدُّ وجوه ! يومَ لا ينفع مالٌ ولا بنونَ ، ولا عِزٌّ ، ولا جاهٌ ! يوم يفتدي المرءُ نفسَهُ بأخيه ، وصاحبته ، وبنيه! ومن في الأرض جميعاً علَّ الله ينجيه ، يا إلهي! عافنا ، واعفُ عنَّا وأنت خير العافين .

٣ ـ بعد أن عرفت شدَّة حرمة التَّماثيل ، سارعت إلى التخلُّص منها غير مباليةٍ بقيمتها المادِّيَّـة ؛ كسباً لرضاء الله . . وببالغ الحزن أقول : مذ عرفت ديني ما رأيت بيتاً من بيوت المسلمين خالياً من الأخطاء! منها الصَّغير ، ومنها الكبير ! وبينهما ما فيه شبهة ، تلك الأمور الخفيَّة الَّتي غابت أهمِّيَّتها عن أذهان المسلمين في خِضَمِّ الفوضى الدِّينيَّة الَّتي أصبحنا عليها ، على الرَّغم من أنَّهم متديِّنون لدرجة التَّعصُّب . . ألا وهي التَّماثيل ، والصُّور ! ! وما يسمَّى : الصَّمدِيّات . . والَّتي تُقتنى بأثمانٍ باهظةٍ ، حوَّلت البيوت إلى معارض فقط للزُّهوِّ ، والتَّباهي ! حتَّى صار بعضها أشبه بالمعابد ، أعاذنا الله . . والإسلام يرفض أن تكون الزِّينة مظهر ترفٍ ، وبذخٍ ، وإسرافٍ ، وتهدف إلى التفاخر ، والتَّباهي ، والاستعلاء على الآخرين ، ومظهر تبعيَّةٍ مطلقةٍ ، وتقليدٍ أعمى تذوب فيه شخصية المسلم ، وتضيع هويَّته ، وأيضاً جاهلين ، أو متجاهلين الحكم الإسلاميَّ فيها ! وموقف الشَّرع منها . . وأنَّ هناك أحاديث صحيحةً في حقِّها ، تقول بأنَّ الملائكة لا تدخل بيتاً فيه تماثيل ، ولعمري! لنحن بأشدِّ الحاجة لتلك المكرمة العظيمة في دخول الملائكة المكرَّمين إلى بيوتنا ؛ لتباركنا ، وتستغفر لنا عند مولانا ، وخالقنا سبحانه ، وتعالى . . ولا أخفيكم شعوري بأنَّ الناس يبدون لي غرباء عنِّي ، وهم كذلك . . لا هم يريدون الاقتناع مع الحجَّة القويَّة على ضوء الكتاب والسُّنَّة . . لمجرد العناد ، والتعوُّد على التَّسيُّب لا غير ! ولا أنا أستطيع السكوت عن الغلط ، وهذا كان دأبي كلَّ حياتي ، فما بالهم ينفرون الآن . . ولديَّ أمر الله في إزالة المنكر . . أفضِّل أن أعيش في غربتي عنهم طالما أنَّني على حقٍّ في ديني . . أصطبر على هؤلاء بالحديث

الشريف الذي قال: «**إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء**»[1].

٤ ـ بدَّلت مواد أشرطةِ (الكاسيت) المحشوةَ بالأغاني العابثةِ. . العابثة بعواطفِ الضُّعفاءِ السُّفهاء، بعد أن علمت بأنَّ سماع الموسيقا، والأغاني المثيرة لشهوات النَّفس؛ الَّتي يهيِّجها الشَّيطان عن طريق هذه الأغاني محرَّمةٌ، حرَّمها الشرع الذي يتميز بالحفاظ على اتِّزان الإنسان؛ لأنَّ في هذا الغناء مَفسدةً للقلب، ومَتلفةً للوقت، ومَهلَكةً للأعراض.

فعندما علمت بحرمة الغناء؛ سجَّلتُ بدلاً من مادة الفسق، والنِّفاق تلاواتٍ قرآنيةً، ودروساً دينيَّةً، وفقهيَّةً، تُعينُني على معرفة ما ينقصني منها، وجعلتها رفيقة دربي في السَّيارة، وفي المنزل، أستعين بها على مراجعة ما حفظت من القرآن الكريم، كي أثبِّته في ذهني، وأنا في الطَّريق، وفي أي وقتٍ كيلا يَتَفلَّت منِّي. . وهو والله! كما قال الصَّادق الأمين ﷺ: «**تَعاهدوا هذا القرآن، والذي نفس محمد بيده! لَهُوَ أشدُّ تفلُّتاً من الإبل في عُقُلها**»[2]، وأُساعد بها كلَّ مَنْ يرغبُ في تعلُّم أمور الدِّين من أخواتي، وجاراتي، ومعارفي، فجعلْتُ منها سبيل خيرٍ، ومادةً لحديثٍ مفيدٍ نَتَداوَله بيننا، ونتناقَشُ حول مضمونه، فيغنينا عن اللَّغو بالباطل؛ الَّذي نهانا عنه مولانا.

٥ ـ وأشرطة (الفيديو) الَّتي تحتوي على حفلاتِ أعراسٍ للأهل، والمعارف، والتي كانت تُقام في الفنادق، وصالاتِ الأفراح، والتي كنتُ أمارسُ هوايتي في تصوير نفسي مع بعض فقراتها، بدَّلتُ بها أيضاً

---

(١) رواه مسلم (١٤٥) وابن ماجه (٣٩٨٦) عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري (٥٠٣٣) ومسلم (٧٩١) عن أبي موسى.

تسجيل المواد؛ الَّتي تتعلَّقُ بأمور الدِّين، من علوم فقهيَّةٍ، ودراساتٍ قرآنيَّةٍ، وتفاسيرَ. كي يستفيد منها مَنْ ليس لديهم قناةٌ فضائيَّةٌ، أو فاتهم برنامجٌ مفيد كانوا يتابعون وقت بثِّه الملهيات منها.

وهنا لابدَّ من لفت نظر كلِّ أختٍ مسلمةٍ إلى قضيَّةٍ مهمَّةٍ، وهي ألا تتهاون في مسألة التَّصوير في المناسبات العامَّة، ومع الأغراب عنها، إن كان (بكاميرا الفيديو) أو (الكاميرا) العادية؛ لأنَّها لا بد ستعاني الأمرين في استرداد النُّسخ للتَّخلص ممَّا قد لا يكون لائقاً أن يطلع عليه النَّاس، إن أرادت ذلك بعد أن تصطلح مع خالقها سبحانه، فتصاب عندئذٍ بالحسرة والنَّدم. وستعاني من انتشار النُّسخ هنا، وهناك، ولكثرة معاناتي من ذلك الأمر أنصح كلَّ أخواتي العزيزات هذه النَّصيحة.. حتى لا يَذُقْنَ تلك المرارة، كما ذقتها أثناء محاولاتي اليائسة في استرجاع هذه المواد، والَّتي باءت بالفشل لعدم قناعة أصحاب العلاقة بأهمِّيَّة ذلك في تحقيق توبةٍ تامَّةٍ، فقليلٌ هم الذين يقدِّرون موقف التَّائب من المولى، ومعاناته من أخطائه.

٦ - وأيضاً هوايتي في مطالعة المجلات الفنِّية، والرِّوايات المتنوِّعة، وقراءتي لكتب الفلسفات؛ الَّتي لا تقدِّم، ولا تؤخِّر.. استعضتُ عنها بقراءة الكتب الفقهيَّة، والعلميَّة؛ الَّتي تعرِّف الناس على قدرة مالك الملك. وعظمته في خلقه، وأصبح تفسير كتاب الله، من أحبِّ الأمور إلى قلبي.. فبه أنير عَقلي، حيث ينقلني من زمانٍ، ومكانٍ معين؛ فأنظر كيف يتعاطف مع هذا النَّبيِّ، وينعي حالَ آخرَ، بسبب إيذاء المشركين له، فإذا بي ألمسُ مدى صعوبة مهمَّة الأنبياء، والرُّسل في نشر دين الله، فلا أستطيع حبس دموعي إكباراً، وإجلالاً لهم، وأُحسُّ بضآلة حجم

الإنسان المتعالي، وبتفاهة أعماله مهما عَظُمَتْ بنظره، مقارنةً بأعمال الأنبياء، ومعاناتهم من معانَدَة خصومهم، ومقارنةً ببطولة الصَّحابة الأجِلاَّء، والأولياء الصَّالحين.

ومن قصص الصَّحابة، نعلم كم تعدَّدت أشكال عذاباتهم، والأنبياء من أجل تطبيق شرع الله، وإثبات وحدانيته، فعاشوا معاناةً كبيرةً؛ لنحصد نحن إيجابيَّاتها.. بما نحن عليه الآن من نعمة الإسلام؛ لذا يتوجب علينا العضُّ عليه بالنَّواجذ؛ اعترافاً منا بجميل هذا السَّيد العظيم ﷺ الذي كان دليلنا إلى الله، فنجعله في أنفسنا سراجاً منيراً، وهو النُّور الذي انبثق من مكَّة، وجاءنا بالدِّين القويم، فعمَّ الإنسانيَّة، ونترجم حبَّنا لهذا الحبيب الأعظم في اتِّباعنا لسنَّته على الأقلِّ؛ حتَّى لا نضيِّع كلَّ معاناته، وحِمله الثقيل من مشاق الدَّعوة سدىً، حيث عادت بالفائدة الكبرى على البشرية.. وتحصيل رضا خالقنا بمعيَّته، وإنني أتخيَّله ﷺ حزيناً على ما آلت إليه أمَّته من تراجعٍ في الدين، وهو الذي كان يحزن على الكفار لعدم إسلامهم! فقال له ربنا سبحانه: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦].. كما وصفه الله بأنَّه يتألَّم لمعصية العباد، ويرأف لحال المؤمنين: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ويَرثي الإنسانُ حالَه أمام تهديد الله، ووعيده للعُصاة، ويتعرَّف على رحمة الله للمطيعين بتحذيرات من خالق عليمٍ بخلقه، شاملةٍ لكلِّ توقُّع، ولكلِّ ما يلزم للعبد، كلُّ ذلك من خلال قراءة القرآن بتدبُّر، فيبدأ بمحاسبة نفسه. ماذا يفعل بالتَّكليف الذي كلَّفه الله به في هذه الحياة؟ هل

وُجد لكي يأكلَ ، ويتسلَّى ، وينامَ ، ثمَّ يمضي به العمرُ ، فيوافيه الأجلُ ، وكأنَّه شيءٌ لم يكن؟ أم وُجد ليتعرفَ على عظمة الخالق ، ويؤمنَ بوحدانيَّته ، ومن ثَمَّ إعلاء كلمته بنشر دينه ، والانصياع لأمره ، ومن بعد ذلك النِّهايةُ الحتميةُ ، فإمَّا جزاءٌ بالجنان ، وإمَّا عقابٌ بجهنَّم؟ وعرفتُ بأنَّ الصبر عبادةٌ ، وانتظار الفرج عبادةٌ ، حتَّى الوضوء لم أكن أدرك بأنَّه عبادةٌ لها أجر ، وبأنَّ أبواب السماء الثَّمانية تفتح للمتوضئ ، حيث كنت أستطيع أداء الصَّلوات الخمس بوضوءٍ واحدٍ ، وخاصَّة في أيام الشتاء لقصر نهاره ، ولقلَّة العطش فيه . . مبتدئةً من صلاة الضُّحى الَّتي لا أفرِّط بأدائها أبداً بعون الله ، لأنَّها أفضل زكاةٍ يوميَّةٍ لأعضاء الإنسان ، فتحميها من الأذى ، وتعينها على الطَّاعة.

ثمَّ أصلِّي الظَّهيرة في أوَّل الوقت تيمناً بالحبيب ﷺ حيث قال بأنَّ أول ساعة فيها بعد أذان الظهيرة ترفع الأعمال لربِّ العرش الرَّحيم .

وكثيراً ما كنت أصلي الصُّبح بوضوء العشاء ـ قبل أن يعافيني ربي من ابتلائي بحبِّ السَّهر ، الَّذي تحوَّل بعد معرفة الحقِّ إلى تأنيب ضميرٍ مؤرِّقٍ ، حرمني نعمة النَّوم طويلاً ، فأستثمر وقتي بالعبادة ـ.

وكنت أتباهى بذلك ، وأفرح ، وكلُّ ظنِّي بأنَّني أحسن صنعاً ، وكم حزنت على كثرة خسارتي من حسنات الوضوء بعد معرفتي الأصحَّ ، الله . . الله ما أروع العلم ، وما أحلاه! وما أجمل منه إلا العمل بمقتضى فحواه!

٧ ـ تغيَّرَتْ مكالماتي الهاتفيَّةُ الَّتي كانت تستغرق ساعاتٍ ، وتزخرُ بأحاديث القيل ، والقال ، وأخبار الموضة ، وأحاديث أخرى جانبية . . فصارت الآن وسيلةً للأسئلة ، والاستفسار من أهل العلم ، والخبرة في

الأمور الفقهيَّة ، والشَّرعية ، ونقل ما أتعلَّمه يومياً للأهل ، والأقارب ، والاطمئنان على صحَّة تأدية العبادات عندهم ، والحثِّ على أفضلها ، وشحذ الهمَّة على تنفيذها ، وكنوعٍ من صلة الرَّحم توفيراً للوقت ، وتعويداً للنفس على التزام البيت ولو قسراً؛ لأن له عدَّة فوائد . . منها : التفرُّغ لتحصيل العلم؛ كي أتحصَّن بعلم يمنعني من الوقوع بالمشاركة في نجوى لا خير فيها ، والابتعاد عن اللَّهو ، وتضييع الوقت ، واجتناب المنكرات التي يتعرَّض لها الإنسان غالباً بالمخالطة ، التزاماً بقوله تعالى بعد أن قرأت : ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤] . . ريثما يتسلَّح من سلك مثلَ طريقي بمستوى من العلم مقبول فلا يكون ـ وهو الحديث العهد بالعلم الشَّرعيِّ ـ سبباً لوقوع سامعيه في الإثم لكثرة اعتراضاتهم؛ وهم ما هم عليه من الجهل .

فما أصعب أن يسلِّموا لصوت الحقِّ ، ويقنعوا فيه دون جدالٍ عنيد! وما أسهل أن تسيطر عليهم آفات اللِّسان المهلكة ، والتهكُّمات!

وقد أصبح من عادة الناس هذه الأيام إهدار الوقت ، وترخيصه في التَّمضمض بانتقاد الغير ، والتفكُّه بالغيبة ، والتشفِّي بالسُّخرية! .

٨ ـ بعد أن كان النَّوم مبلغَ همِّي للحفاظ على حَيويَّتي ، ونضارةِ وجهي؛ أصبح هدفاً للتَّقَوِّي على عبادة الله ، فتكفيني منه ساعاتٌ قليلةٌ ، أنشُطُ بعدها لمناجاة ربِّي ، وممارسةِ كلِّ ما يجعلُهُ راضياً عني ، فقد قيل لي : من قام الليل إيماناً ، واحتساباً أربعين ليلة متتاليةً لا يحرِمُهُ الله من قيامها طوال حياته ، إلاّ بذنبٍ يصيبه ، فآثرت على نفسي عدم الاهتمام بالجمال المؤقَّت الظاهر على الوجوه بفعل مستحضراته ، واهتممت

بتجميل باطني بالعلم ، وتقوى الله ، و والله ما زادني إلا رونقاً؛ لأنَّ الجمال الباطن هو المحبوب عند الله . . ومحل نظره من عبده ، كما جاء في الحديث الشريف: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، وأعمالكم**»(١) ، وكذلك بالنسبة للطعام ، كنت أُرضي بالتهام أطايبه ذوقي الرَّفيع.

ولمَّا قرأتُ قول نبيِّنا ـ عليه الصلاة والسَّلام ـ: «**ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شراً من بطنه**»(٢) . . أصبح طعامي لا يهمني إلا لسدِّ حاجتي منه ، أَقْبَلُه كيفما كان ، المهم ألا أُضيِّع وقتاً طويلاً في إعداد أصنافه ، فكيف أُضيِّعُ وقتي بطهي الأطعمة ، وأبدِّدُه بنومٍ طويل . . ويلزمُني منه الكثير لتعويض ما فرَّطْتُ في جنْبِ الله من حقوقٍ ، وما فاتني من العبادات! وقد عرفتُ: أنَّ أمامي واجباتٍ تجاه الأهل ، والناس الذين يحتاجون هذا الوقت الثمين لمساعدتهم . . ذلك بعد أن تعلَّمت من أستاذي الفاضل الذي أتلقى منه علوم الدِّين في المسجد ، حيث قال: إذا كنت تريد أن تعرف قدرك عند ربك ، فانظر بماذا استعملك.

المهم: أنِّي أخالف الهوى؛ لأنال بمخالفته جنَّة المأوى ، التي اقتضت حكمة المولى سبحانه ألاّ تصل النفس إليها إلاّ من طريقٍ محفوفٍ بالْمَكاره ، ولا تعبُر إليها إلاّ على جسر من المشقة ، والتَّعب ، فإنَّ نعيم الله في الجنَّة لن يأتي سهلاً ميسوراً ، فيجب أن نتبِّه أنفسنا ، ونروِّضها ، وندرِّبها على تحمُّل الْمَكاره ، ونوطِّنها على الصَّبر على تلك المشاقِّ ، كما

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٨٠) وابن ماجه (٣٣٤٩) وابن حبان (٥٢١٣) والحاكم (٤/ ١٢١) عن المقدام بن معديكرب.

قال رسول الله ﷺ: «**حُفَّت الجنَّة بالْمَكاره، وحفَّت النَّار بالشَّهوات**»[1].

«**إنَّ عمل الجنَّة حزن بربوةٍ.. وعمل النار سهل بسَهوةٍ**»[2] وكيف يهدأ لي بالٌ وقد علمتُ: أنَّ على كلِّ إنسانٍ وُجِد على وجه الأرضِ أداءَ رسالةٍ تُحَقِّقُ غاية وجوده بتكليفٍ من ربه.. وعندما تفوتني نافلةٌ، أو أُخفِق في إنجاز عملٍ أردت به وجه ربي الكريم؛ يئنُّ قلبي بحزن المحروم، فالإخفاق علقمٌ، وأخشى من غضب ربي؛ لأنِّي علمت بأنَّ الله تعالى لا يحرم عبده من خير إلا بذنبٍ، ولا يصيبه مكروهٌ إلا بذنبٍ، فأستغفر ربي، وأسأله أن يهديني لمعرفة ذنبي؛ كي أنتبه، وأقلع عنه، وأتوب منه، فيكرمني مولاي الرَّحيم بمعرفة خطئي بعد بحثٍ، وتمحيصٍ في جميع تصرُّفاتي، فأسجد شاكرةً فضله بأنَّه أرشدني إلى الصَّواب ـ جلَّ في عُلاه ـ فإنَّ معرفة الحقِّ، والاستقامة عليه نعمةٌ عظيمة.

٩ ـ كنت أتنافس مع بعض أفراد عائلتي على لبس أحدث صيحات الموضة، وأحدث تسريحات الشَّعر، وألوان الأصبغَة المستحدثة كل فترة والتي كنا نتسابقُ في متابعتها، فأصبحنا اليومَ ـ وبحمد الله ـ نتسابقُ على حفظ القرآن، ونتنافسُ على مداومة العبادات، جاهدين في العمل على تلك الآية المُحَفِّزة: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ومن منَّا لا يشتهي دخول الجنَّة؟!

وكنتُ أشعرُ بالغيرة الشديدة عندما أعلمُ بأنَّ أختي، أو ابنتي سبقتني في حفظ سورةٍ من القرآن، فأُضاعفُ مجهودي لألحق بهما، فبدلاً من

---

(١) رواه أحمد (٣/ ١٥٣) ومسلم (٢٨٢٢) والترمذي (٢٥٥٩) عن أنس.
(٢) رواه أحمد (١/ ٣٢٧) عن ابن عباس.

حفظ صفحتين في اليوم أحفظ أربع صفحاتٍ ، حتَّى وفقني الله لحفظ سورة البقرة في خمسة وعشرين يوماً ، وأنا أدعو الله من كلِّ قلبي أن يساعدني حتَّى أَلْحَقَ بهما . . فأجد نفسي؛ وقد سبقتُهما أحياناً ، وهناك مثل شعبي يقول: من له رأسٌ عند الرَّواس لا ينام اللَّيل . . فمن طلب العلا سهر الليالي . . وأنا الآن كذلك حالي ؛ كي أستطيع التَّمكُّن ممَّا حفظت من أجل حفظ الجديد من السُّور ، فكنت أستغل كلَّ وقتٍ يُمَكِّنني من غايتي ، وما أوفر الوقت إذا استخدم بوعيٍ وحكمةٍ . . فاتخذت فترة بعد صلاة الصُّبح للحفظ ، وجعلت وقت المراجعة عند القيام بأعمال المنزل ، وهي من أكثر ما يأخذ من وقت ربَّات البيوت . . لم أحسَّ ذلك إلا الآن ، حيث أصبح للوقت عندي قيمةٌ كبيرةٌ جداً ، فاكتشفت كم نحن نهدر من الوقت الذي هو عمرنا دونَما إدراكٍ منَّا لذلك ، فكم وكم استفدت من وقت إعداد الأطعمة ، فمثلاً تحضير ورق العنب ، وما شابه ، وتقطيع الخضار وغيره يستغرق ساعاتٍ ، ممَّا يجعل لديَّ فسحةً من الوقت أستفيد منها . . حتى صلاتي جعلت منها أكبر فرصة للمراجعات القرآنيَّة . . وألغيت الزِّيارات ، واختصرت المكالمات الهاتفيَّة ، فانتفعت بذلك جلَّ المنفعة ، حيث تسنَّى لي أن أسبقَ بدوري مَنْ سبقني ، ولله جزيل الشكر على تنفيذ طاعته ، حيثُ قال: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] جعَلَنا الله منهم أجمعين .

١٠ ـ حيث كنت مغرمة بالتفنُّن بلباسي ، ومظهري كي أبدو متميِّزةً على مَنْ حولي كافة ، فأخصِّص لكل زيارةٍ لباساً مناسباً ، وأنسِّق لكلِّ لباسٍ (إكسسوارات) تزيِّنه ، وتزيده جمالاً ، وأناقةً بقصد التنويع ، والتَّجديد . وتحصيل الألقاب المغرِّرة . . أصبحت الآن أعشق التفنُّن في التَّغيير ، والتنسيق في ممارسة أحبِّ وأغلى شيءٍ عليَّ ، ألا وهي الصَّلاة !

فصرت أضاعف مجهودي كي أحفظ مزيداً من القرآن ، حتَّى يكون لديّ الكثير من السُّور ، فأقرأها في صلاتي؛ ليكون فيها التَّنويع المحَفِّز للهمَّة. . ويؤكِّد حضورالذِّهن لمتابعة التلاوة بحذرٍ وتمعُّنٍ. . خوفاً من الخطأ. . وتعايشاً مع معانٍ جديدة ، وطبعي الملول ، وحبِّي للتغيير أكسبني المزيد من حفظ الكثير من الجديد ، ليحفِّزَني على نشاطٍ أكيد ، ومن إيجابيات ذلك أيضاً عدم الشرود في الصَّلاة. . ويساعد على حضور القلب؛ لأنَّ العمل يصبح (ميكانيكياً) لكثرة التكرار ، فإذا به يتحرَّك به اللِّسان ، ولكن يشرد منه الذِّهن ، ويفتر القلب. . وكلُّ ذلك لاستنهاض الهمَّة. . ولشحذ الرَّغبة ، والنَّشاط إلى طاعة الله. . حيث لا أنشط إلى الصَّلاة فرحةً كما أكون عليه عندما أحفظ سوراً جديدةً ، كي أتلو بين يدي الله تعالى كلَّ يوم بشيءٍ جديد ، وما أروعَه من تجديدٍ ممتعٍ توافقَ مع طبعي ، وعاداتي ، وأتمنَّاه لكلِّ إنسانٍ. . فتجعلني في سعادة لا توازيها سعادة ، وحقَّقت ذلك في صلواتٍ متنوعةٍ ، أمَّا صلاةُ الفريضة ، فأطيل فيها التلاوة ، لأنَّ أجرها في الصَّلاة مضاعفٌ ، وأيضاً أُكثر فيها من التَّسابيح ، والنَّوافل ، أتقرب بها إلى الله تعويضاً عمَّا فاتني من فرائض لا تحصى على مدى فتراتٍ طويلةٍ من عمري.

وبعون الله لا أتوانى عن أداء أيٍّ منها وخاصَّة صلاة التَّهجُّد ، التي تجعلني أنسلخ عن فراشي متكاسلةً لأنَّني لم أعتدْ بعدُ على إنقاص ساعات نومي المحدَّدة ، وقطع متعة النَّوم. . فأُقسر نفسي على الجلوس بعد رنين المنبه مباشرةً. . حيث صار لي من أعزِّ مقتنياتي ، وأستعين بالدُّعاء راجيةً المولى أن يزيدني همَّةً ، ورغبةً ، وحبّاً لطاعته ، فَورَبِّي العظيم! ما أن أتوضأ ، وأقف باتجاه القبلة حتَّى أشعر بشهيَّةٍ عظيمةٍ ، وحماسٍ شديدٍ للصَّلاة ، وبفرحٍ بالغٍ يجتاحني؛ وكأنني مقبلةٌ على طعام دسمٍ بعد جوعٍ

عظيم ، فأصلِّي ، وأطلب من ربِّي العون على دوام هذا الفضل العظيم لتلك السَّعادة؛ التي يعجز القلم عن وصفها ، فصارَتْ هي وصلاة الفجر مع الوقت من أحبِّ الأعمال إلى نفسي.

واستعذبت مشاقَّ القيام ، فصرت أتمنَّى أن تكون العبادة كلُّها في الليل ، بعد أن علمت بأنَّها ـ وصلاة العصر ـ يشهدهما ملائكة الليل والنَّهار ، ولم يعينني على تحصيل ذلك الفضل إلا إلغاء السَّهر الطَّويل بالنَّوم الباكر ، وأنوِّع في الصَّلوات من أدعية الافتتاح ، وأهيئ لكلِّ صلاة نوعاً من الأذكار ، والسُّور التي سأقرؤها أحضرها قبل وقوفي للصَّلاة ، لتلافي الحيرة أثناءها فيما سأقرأ.

ثمَّ عملت جدولاً وزَّعت فيه كلَّ ما أحفظ ، وزَّعته على مدار الأسبوع على جميع صلواتي. . تسهيلاً وحفظاً من النِّسيان ، وأدعية ما بعد الركوع ، وبين السَّجدتين ، وقبل التسليم وبعده. . وأزيِّنها بأوراد ما بعد كلِّ فريضة ، وأَنهل من نبع السُّنَّة المطهَّرة ما يرضي نهمي لتقليد رسول الهدى ، وأنا أجهد في تقليده ، وأميِّز ، وأهتمُّ بصلاة الليل أَكثر من صلاة النَّهار ، حيث أطيل فيها سجودي ، وأُكثِرُ من الدُّعاء. . لأنَّه أفضل وسيلةٍ لأعظم غايةٍ ـ وخذوا علماً ممَّا قرأت من كتابٍ طبيٍّ هذه المعلومة القيِّمة: ـ إنَّ السجود الصَّحيح ، والطَّويل نوعاً ما فيه شفاءٌ أكيدٌ لبعض آلام الرَّأس ـ وقد حصل هذا لي فعلاً بإذن ربِّ العزَّةِ سبحانه ، الفعَّالِ لما يريد؛ حيث شفاني من آلام رأسي التي كنت أعاني منها الأَمَرَّين ، ما لم يكن ينفعني دواءٌ مع الآلام الشديدة الَّتي لا تطاق ، فأغناني الله عن تعاطي الدَّواء إلا ما ندر! وتأكَّدَ لي بأنَّه لا شفاء إلا بإذن ربِّ الأرباب. . مع الأخذ بالأسباب.

١١ ـ بَدَّلْتُ هوايتي في كتابة مذكَّراتي ، ومعاناتي في الحياة ، وكتابة

القصص الواقعيَّة والخياليَّة ، واستعضت عنها بنَسخ وتلخيص كلِّ ما أقرأ من كتابٍ دينيٍّ قيِّمٍ أجد فيه ما يساعدني ، ومَنْ حولي في القضاء على جهلنا ، في كتيِّبٍ صغيرٍ يكونُ عوناً لي على سرعة التذكُّر ، وأخيراً هداني اللهُ أن أسخِّر ملكة الكتابة التي أتمتَّع بها لكتابة قصَّة توبتي ، ورجوعي إلى خالقي ، وما اعتراني في ذلك من صراعاتٍ ، ومن مدٍّ ، وجَزر بين نفسي ، وعقلي. . بين التَّسامي ، والتَّردِّي ، والإقبالِ ، والإدبار. . إلى أن مدَّني المولى بنوره ، وكشف عن بصيرتي غشاوة الجهل والضَّلال ، وهيَّأ لي أسباب الخروج من الظلمة؛ حتَّى توصَّلتُ بعون الله إلى القرار السَّليم. . الَّذي أتمنَّى أن أوصل كلَّ أمثالي إليه.

وحيث أحببت ديني؛ صرت من أغْيَر الناس على مصلحته ، فنذرت لله مجهودي. . على أن أستعين بموهبتي في حسن التَّعامل مع الآخرين ، والتي صقلتها بمراجعة المصادر العلميَّة قدر الإمكان وبإخلاصٍ شديدٍ؛ كي أستطيع إبراز صور مؤلمة من أخطاء باتت عادة سائدة في المجتمع الإسلاميِّ ككلٍّ ، وبين نسائه خاصَّةً ، وكم سمعت منهنَّ سخافاتٍ ، ومتاهاتٍ لا تمتُّ للدِّين بأيِّ صلةٍ ، ويجعلونها في صلب الدِّين!! فلعلَّ وعسى أستطيع أن أنير عقولاً كستها ظلمة الجهل ، فأقدِّم لهم جرعة تنويرٍ ، علَّها تبعث فيها صحوةً تفيد أصحابها.

وجعلت ريع كتابي هذا هبةً لوجه الله سبحانه ، وجُلُّ أملي ، ورجائي من الله تعالى أن يجعل من قصَّتي هذه عبرةً ، وضياء يستفيدُ منهما كلُّ مَنْ كان على شاكلتي ، وهنَّ كثيرات. . وأكثرهن من الملتزمات بلواء الدِّين. . ولكنَّهن مسلماتٍ من غير إسلام ، لتجافيهنَّ عن أصول الشَّريعة ، والأخلاق الإسلاميَّة الرَّائعة ، وكم تفطَّر قلبي أسىً لما بدا لي من أمور لم أتوقعها من مسلمةٍ ، ولا أتمنى لها أن تتصف بها. . ومن ثَمَّ

يعيِّرها بها المغرضون ! ونصيحتي لكلِّ مَنْ يقرأ كتابي أن يبحث بنفسه عن الأمور الَّتي سلطت عليها الضَّوء كلٌّ في حينه ، وموضعه ، بقصد التَّحذير المخلص ، ليستنبط القارئ مدى الفوضى الدِّينيَّة الَّتي صرنا إليها ، ولكي يساهم بدوره في الدِّفاع عن أسمى شيءٍ في الوجود ، ألا وهو ديننا الغالي! راجيةً أن يهتمَّ لما يقرأ. . ويعمل به؛ لينال رضا المولى تعالى ، ويهديه إلى الَّذي هداني إلى ما صرتُ إليه من الاطمئنان ، واحترام الذَّات ، واحترام الناس لي.

وأقولُ وبكلِّ صدقٍ: إنَّ شخصية المرأة المسلمة الحق تفرض على الآخرين احترامها ، وهيبتها ، وتجعلها قويةً في سبيل إعلاء كلمة الله ، وإرضائه ، والله ولي التَّوفيق. . إلهي! ما أجملَ السعادة في طاعة أمرك ! إلهي! ما أجملَ حبك لعبادك! ما هذا الهناءُ الَّذي أعيشُه؟ ما هذا العزُّ الَّذي أشعرُ به؟ ما هذا التَّوفيقُ الذي أَلْمَسُه ، في أيِّ أمرٍ أفَوِّضُه إليك؟! جلَّ ثناؤك يا إلهي! إنَّك على كل شيءٍ قديرٍ ، وإنَّك حقاً نعم السَّميعُ ، ونعم المجيب!

١٢ ـ بعد أن لبست الحجاب الساتر. . وهبْتُ كلَّ ما كنت أملك من ثياب الموضة للمحتاجين من العرائس ، وغيرهنَّ ، لأنَّني لم أعد أرغب إلا في الملابس المحتشمة ، تغمرني سعادةٌ لا أستطيع وصفها؛ وأنا أحسُّ بأنَّني أسبب يسراً ، وفرحاً لمن كُنَّ بأمسِّ الحاجة لها. . فكم من عروسٍ علمتُ بأنَّها أجَّلت زواجها إلى ما شاء الله لعدم توفر ما يلزم لتجهيزها من الكساء. . والأهمُّ من ذلك كلِّه هو شعوري بالتخلُّص من أوزاري المرتبطة بتلك الملابس الَّتي أهمَّتني ردحاً من الزَّمن ! فضلاً عن إفادة النَّاس بها. .

ولا أخفيكم أن أنانيتي كانت تشعرني في الوقت ذاته بأنَّني أفارق

عزيزاً ، وغالياً على نفسي ، ولكن لا بدَّ من التخلُّص من هذه الملابس؛ التي تكتظُّ بها خزانتي ، والتي عندما شاهدتها زوجة ابني الغربيَّة لمَّا زارتني في بيتي ، قالت له أمامي بلهجة لطيفة مازحةٍ: ما هذه الملابس؟ ! أتشتري والدتك كل يوم لباساً جديداً؟ ولماذا كلُّ هذا. . وهذه الملابس تكفي لمئتي سنة؟! ولا زال صدى كلماتها يرنُّ في أذني. . صحيح أنَّ تعليقها هذا أضحكني يومئذٍ ، ولكنَّني بعد أن عرفت سموَّ أهداف ديني المتوازنة ، استشعرت عظم ذنبي من الشِّراء النَّهم لتلك الأكداس من الملابس ، وما يلزم لها من توابع الزينة ، فتبيَّنت تفاهة الإنسان ، وشقاءه عندما يكون بعيداً عن دينه ، ويعيش بلا هدفٍ ، إلا أن يأكل ، ويشرب ، ويشتري ما هبَّ ودبَّ ، ومن ثَمَّ يلهو ، وينام.

وهذه كانت حالتي التي انتقدتها هذه الشابة الغربية ، وهي التي نشأت على عدم الاهتمام بالمظاهر التَّافهة ، حيث يقوِّمون الإنسان في تلك البلاد من خلال جوهره ، ومعدنه ، ويتعاملون معه على أساس مركزه الثَّقافي ، ومكانته في المجتمع.

ونحن أهل الإسلام الَّذين سلّمناهم سلاحنا عندما تخلينا عن مبادئنا الرَّاقية تلك ، ووهبناها لأعداء ديننا ليحصدوا من خلالها حياةً هادئةً ، وسمعةً عاليةً ، وأخلاقاً رفيعةً. . ووجهنا اهتمامنا لتوافههم ، الَّتي استطاعوا عن طريقها إبعادنا عن ديننا أكثر فأكثر ، وتفكيك أواصر المحبَّة ، والرَّوابط بيننا بإلهائنا بمتابعة ما يستحدثونه من السِّلع ، والابتكارات في جميع المجالات. على كلِّ حال أصبح تبرعي بملابسي الجديدة والغالية على قلبي سهلاً بفضلٍ من الله ومنَّةٍ ، وخاصَّةً بعد أن علمت أنَّ في الجنة ما لا عينٌ رأت ، ولا أذنٌ سمعت ، ولا خطر على

قلب بشر من اللِّباس ، والجمال ، والزِّينة ، والأسواق ، والزيارات ، والفرح الدائم ، وذلك من أحب الأشياء إلى قلبي ، فصرت كلَّما اشتهت نفسي شراء شيءٍ من الملابس يزيد عن حاجتي ، أمتنع عن شرائها ، وأقول ألبسها في الآخرة أفضل ، وصارت هذه عادتي في أي شيءٍ يزيد عن حاجتي حتى في الأطعمة ، كي أخفف عن نفسي السؤال عنهم في الآخرة . . ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر: ٨].

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [المزمل: ١٩] .

ومن إيجابيات هـذا التبدُّل الَّذي أجريتـه على حياتـي أيضاً ، أنَّني لم أعد أصافح الذُّكور غير المحارم؛ لأنَّه حكم الشَّرع ، وفيه كسرٌ قويٌّ للعادات ، والتَّقاليد الدّارجة في مجتمعنا ، وقد صمَّمت أن تكون أولى خطواتي في الإيمان ، هي الاستسلام لله تعالى ، وأن يكون الله ورسوله أحبَّ إليَّ ممَّا سواهما . . وصرت أعجب كلَّ العجب من المسلمات الملتزمات الآتـي يصافحن الرِّجال دونمـا حرج ، وهذا ممَّا طغت فيه بعض الأعراف الاجتماعية على شريعة الله في المجتمع ، وعلا فيه باطل عادات الناس وتقاليدهم على حكم الله ، وصارت المصافحة أسهل في مجتمعنا من شرب الماء . . ولا شـكَّ في أنَّ هـذا من زنى اليد . . وهل هناك أطهر قلباً من قلب محمَّدٍ ﷺ ، ومع ذلك قال: «**إنِّي لا أصافح النساء**»(١) .

ألا فليتق الله إذاً أناسٌ يهدِّدون زوجاتهم الصَّالحات بالطَّلاق إذا لم يصافحن إخوانهم ، ومعارفهم ، ويتَّهمونهنَّ بالرَّجعية ، والتعقيد ، وقطع

---

(١) رواه الترمذي (١٥٩٧) والنسائي في عشرة النساء (٣٥٧) وابن ماجه (٢٨٧٤) وأحمد (٦/ ٣٥٧) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٨٢ ـ ٩٨٣).

الرَّحم، والتشكيك بالنوايا الحسنة... إلخ، فباتت غالبية النساء يخجلن أن يقال ذلك فيهنَّ، فوقعن في المحظور، مع علمهنَّ بلا شكٍّ بأنَّ ذلك محرَّم بهذا الحديث الصَّحيح عن النَّبيِّ المعصوم ﷺ: **«لَئِن يُطعَنَ في رأس أحدِكم بمِخْيَطٍ من حديد، خيرٌ له من أن يمسَّ امرأة لا تَحِلُّ له»**[1].

وقال بعد أن عرضت عليه بعض الصَّحابيات المصافحة تأييداً لمبايعته: «إنِّي لا أصافح النساء».

وليكن لنا في رسولنا أسوةٌ حسنةٌ! فنرى: أنَّ هؤلاء يفضِّلن التقليد الأعمى للناس على الالتزام بأمر الله في التقيُّد بسنة رسوله الشَّريفة.

وينبغي العلم: أنَّ وضع حائلٍ كالقفَّاز مثلاً لا يغني شيئاً؛ لأن مجرد مصافحة الرِّجال الأغراب للنساء منهيٌّ عنها في ديننا، وقد قال لنا مولانا سبحانه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

فعليك يا أختاه! إلزام نفسك بالتمسُّك بأهداب الشَّرع الشَّريف.. باتباع سنة الرَّسول الكريم.. كي تركبي سفينة نوح المنجية للبشرية جمعاء، فحسبنا قول مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ: (السُّنَّة سفينة نوحٍ مَنْ ركبها؛ نجا، ومن تخلَّف عنها؛ غرق).

وقال عمر بن عبد العزيز: (من اهتدى بها؛ فهو المهتدي، ومن استنصر بها؛ فهو منصور، ومن خالفها، واتَّبع غير سبيل المسلمين، وصار العبد في شقٍّ، والشَّرع في شق عن عَمْدٍ منه، بعدما تبيَّن له الحق؛ حقَّ عليه قول مولاه سبحانه: ﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].. لأنهم: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢٠/٢١١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٤/٣٢٦).

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [التوبة: ٧٠].

فمن خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى؛ فإن الجنة هي المأوى، وذلك جزاء من تزكى، وتربَّى على هدي إمام المتَّقين وقدوة النَّاس أجمعين، والفضل لمن سبق. صلوات الله تعالى عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.. عدد حبَّات المطر.

* * *

أنماط من الناس تثير العجب

وبعد أن عرفتُ الهدفَ الحقيقيَّ من التَّحجب ، وتذوَّقتُ جمال ، وسموَّ هذا الهدف ، صار يؤسفني جداً أن أراه يُلبس بطريقةٍ غير لائقةٍ ، ولا شرعيَّةٍ ، اتبعتها الكثير من النساء ، تيمُّناً ببعض النِّسوة اللاَّتي منهنَّ مَنْ لَبِسَتْهُ تأثراً بظرفٍ ما . . أو تقليداً جاهلاً لغيرها ، تريد أن تجاريَها لمصلحةٍ خاصَّةٍ .

ومنهن أيضاً من لبسته اندفاعاً بعاطفةٍ أثارتها كارثة محزنة لعائلة مات أفرادها بحادثٍ مروِّع ، وأخرى على أثر مصاب أليمٍ من موت مفاجىءٍ لشاب من أهلها كان يتمتع بوافر الصِّحَّة ، والحيويَّة . . وهذا ما نسمع به على مدار الأيام ، والسَّاعات .

وهذا بلا شك يدعو للخوف والحذر من هاذمِ اللذات ، ومُفَرِّق الجماعات ، وكثيراً ما نسمع بأن شخصاً طلب حاجة بسيطة ، ثم جاءه ملك الموت قبل أن ينالها ، وقُبضتْ روحُه بدقائق؟! وما كنا نراه في الذَّاهبين ، سيراه الأحياء فينا ، فنحن نسير إلى آجالنا ، وكم هو سريعٌ ، وأضحى قريباً منا هذا الموت ، والفوات ، وحلول البليات والآفات!! ولكن عجبي ممَّن هابت نهاية الحياة ، وتيقَّنت من أنَّ الموت حقٌّ لا يتقيَّد

بزمنٍ ولا بسنٍّ، ولا تهاب خالقَ الموت الحيَّ القيوم سبحانه؛ إذ هي تتحجَّب بدافعٍ منقوصٍ، وبطريقةٍ خاطئةٍ، وإيمانٍ ضعيف، فتَراها تحجبت عن الرِّجال دون الشَّباب، أو الصِّبية، أو الأطفال الواعين.. أو تتحجَّب من الرِّجال الأغراب، وتراها تسفر أمام الأقارب منهم.. كأخ الزَّوج، ونبينا ﷺ قال فيه: «**الحَمْوُ الموتُ**»[1].. ثلاث مرَّات، لشدَّة خطورة ذلك، ولو كان على خُلُقٍ.. فليس في هذا اتِّهام له! ولكنَّه أمرٌ الله، وعلمه لما يصلح لخلقه.. وأبناء الأقارب من غير المحارم.. وهذا كثيراً ما يحصل! فكيف يخافون الله؛ وهم يخالفون ما حَرَّم الله العظيم القيوم؟!

وإن تَعجَبْ فعَجَبٌ.. ممَّن شاهدَتْ، وسمعتْ عن هاذمِ اللَّذات، فخافت منه، ثمَّ لم تستعدَّ له على الشَّكل الصَّحيح الَّذي يُرضي الله، فوضعت على رأسها قطعة قماشٍ، تكشف نصف رأسها.. مع لباس بكمٍّ قصيرٍ، وسيقانٍ عاريةٍ، وكثيراً ما نشاهد ذلك في فصل الصَّيف.. وكأنَّ لطاعة الله مواسم، أو أماكن، أو مواقيت! وهي تعتبر نفسها ـ بكلِّ ثقةٍ، واطمئنان ـ متحجِّبةً.. وعجبي ممَّن تحجَّبتْ بالشَّكل الصَّحيح، ولكنَّها تطلق للسانها العِنان، فلا توفِّر غيبةً، أو نميمةً في جلسةٍ من اجتماعاتها.. ومن الَّتي ملأ قلبَها الحسدُ، والبغضاءُ، والأذى للنَّاس! أتعَجَّبُ كيف لا ينتبه هؤلاء إلى أنَّ الحجاب وحدَه لا يحميهِنَّ من غضب الله.

وكل ذلك آفات شأنها أن تتحكَّم بالنفس، وتعمل عملها الهدَّام في باطن الإنسان، على الرَّغم ممَّا قد يتحلَّى به ظاهره من الأعمال الصَّالحة،

---

(١) رواه البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢/ ٢٠و٢١).

والعبادة المبرورة؛ لأنَّ الالتزام بدين الله يجب أن يكون متكاملاً ، وفي كلِّ زمانٍ ، ومكانٍ ، بل عليهن وزرٌ مضاعفٌ ، لأنَّهن جعلن من أعمالهن السيئة سبباً لنفور الكثير من النِّسوة من التَّحجُّب ، كرهاً لذلك المثال الرديء ، الذي يشاهِدْنَهُ ، ويسمعْنَ عنه ، ونفوراً من التشبُّهِ بهنَّ ، وبذا يشوِّهْنَ صورةَ المرأة المسلمة حقَّاً؛ التي يجب أن تكون مثالاً محترماً يشجِّع على الاقتداء به ، في مكارم الأخلاق الإسلاميَّة الرَّائعة .

وإنَّك لتعجبين؛ إذ ترين هؤلاء الفتيات اللَّواتي يلبَسن مع غطاء الرأس بنطلون الجينز ، والكُمَّ القصير ، والصَّدرَ المكشوف ، والمكياجَ الصَّارخ ، ويَضعْن تلك القطعةَ من القماش ذات الألوان الزَّاهية اللافتة للنظر على رؤوسهنَّ ، وبطريقةٍ تَزيدُهُنَّ تبرُّجاً ، وكأنهنَّ يتحدَّين بذلك أولئك السَّافرات ، ويتنافسْن معَهنَّ على إبراز ما لديهنَّ من جمالٍ ، وأناقة ، وفتنة ! ! والله ، ثمَّ والله ! لأشدُّ ما يغيظني أنهنَّ يُسَمِّينه حجاباً ، مع أنَّ اسمَ الحجاب دليلٌ واضحٌ على معناه ، بأنَّه يحجبُ مفاتن المرأَة عن أعين الرِّجال ، وألاَّ يكون زينةً في نفسه . . فما الذي حَجَبه ذلك الذي يسمينه حجاباً ، وهو في الواقع تقليعة! فهل ترانا يا أختي المسلمة قد أُمرنا بالحجاب؛ لتغطي به النساء شعورهن فقط عن الأنظار؟! وبطريقةٍ بعيدةٍ كلّ البعد عن الشَّرع . . ويُطلقن باقي أجزاء الجسم مفصَّلاً للعيان ، كلُّ عضوٍ على حدةٍ بشكلٍ مخزٍ . . هل يقتَرِنُ الخيرُ مع الشرِّ؟ وهل يُعقل أن يمتزج الصَّواب مع الخطأ؟ وهل يمكن أن نرضي الله بما يغضبه؟! أليس تعالى هو القائل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت : ٤٠] .

لماذا؟ وكيف تفَشَّى هذا بين المسلمات؟! وكيف يَشْرَعْن لتنفيذ ،

واتِّباع كل ما يُرمىٰ إليهنَّ دون التمعُّن في الأمر، ومعرفة المبْتَدِع، ومحاربتهِ باستنكار بِدْعَته بَدَلَ تبنِّيها، وترويجها، وكلَّما وجَّهْتُ ملاحظةً، أو نصيحةً لإحداهنَّ في هذا الأمر؛ أسمع جواباً واحداً: ـ (كلُّه صار يلبس هيك.. يلاّ، أحسن من بلا) ـ ما هو الَّذي (أحسن من بلا)؟! ما الشَّرع في نفوسهنَّ!! أيكون الخطأ حجَّة؟ أين الهدف من ذلك اللباس..؟ أين إرضاء الله في التزام تشريعه؟ أين حبُّ الله؟ أين الخوف من الله تعالى؟ أين أمرُ الله في لبس الجلابيب، وهو الَّذي أمرنا بأن ندلي بجلابيبنا على أجسامنا؟![1] أم أن الدافع هو إرضاء الناس وإخراسُ ألسنتهم بشكل يُرضي الجِهَتَين؟ أم هو التقليد الأعمى، والاتباع الجاهل المذموم؟! إذا كان الأمر كذلك، فأَرجوهنَّ رجاءً حاراً بألا يشوِّهْنَ دينَ الله لإسكات عباده على حساب دينه.

لا أحد على وجه الأرض يستأهل أن نرضِيَه قبل الله؛ لأن جزاءنا، وعقابنا منه، ورجوعَنا إليه جلَّ جلاله، فكيف نُرضي بشراً مخلوقاً، ونستهين بإرضاء الخالق.. وكيف نرضي هوى نفسٍ تجمح إلى الفسوق؟!

وكيف الوصول إلى إرضاء الله لرفع مَقْتِهِ، وغضبه، مع هذا الاستهتار.. وقد عمَّت البلوى بذلك، خاصةً بين الأهل المتديِّنين الَّذين أُحسُّ بفَرَحِهم، ورضاهُم، وقناعتهم بأن بناتِهم، ونساءَهم ملتزماتٌ بدينهنَّ وعلى أحسن ما يُرام بهذا الشكل البعيد كلَّ البعد عن أمر الله؟! ولذلك كلَّما أشاهد هذا الذي أصبح (كله هيك) متفشياً، أَشعر بقلبي يتفطَّر أسىً، وأغتاظ من التَّسيُّب، والاستهانة، وعدم الالتزام بما فرض الله.. وكيف يكون (أحسن من بلا) وهو في منتهى الإغراء، وإظهار

(١) قال تعالى: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾.

جميع أَجزاء الجسم وبشكلٍ أشدَّ فتنةً ، ولفتاً للنظر ، وتشبُّهاً بالرِّجال؟ ألا يعلَمْن: أنَّ اللهَ لعن المتشبهاتِ من النِّساء بالرِّجال على لسان نبيِّه في حديثٍ شريف: «**لعن الله الرَّجل يلبس لبس المرأة ، والمرأة تلبس لبس الرَّجل**»(١) .

على من يضحكن؟ وممَّن يسخرن؟! وبمَ يستهترن؟ ألا يقرأْنَ قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [التوبة: ٦٣] ؟! .

لَيَنْتَهُنَّ ينتهين عن مخالفة أمر الله كيلا يحقَّ عليهنَّ قول الله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠] . . فهلا رأفتِ بنفسِكِ يا أختي! وأقلعت عن تلك البدعة السَّيئة ، وعن كلِّ ما يغضب ربك من البدع ، والآثام . . وهلا وضعت يدك في يدي ، وضممت صوتك إلى صوتي؛ كي نقضي عليها؛ لأنَّها بدعةٌ سيئةٌ ، وتجرُّؤٌ على الله ، ولأنَّ البدعة تدفع عجلة الإسلام إلى الوراء ، وتعمي الأبصار عن تدبُّر كلام الله في كتابه الكريم .

وأشدُّ ما يُحزنُني أيضاً: أنَّ أغلَب فتياتنا ، وبعضَ نسائِنا المسلمات يلبَسون الحجابَ مقروناً مع أحدث الأزياء ، (والإكسسوارات والماكياج) ، ويتفننون في طريقة وضعه . . كلُّ فترةٍ بشكلٍ جديدٍ ، وكأنهنَّ يَمَلُّنَّ من شيءٍ فرضه عليهنَّ إنسانٌ ، مع أنَّه فُرِض عليهن من ربِّهنَ لغرض الحشمة ، والعفاف . . فرضاً اجتماعياً لحكمةٍ بالغةٍ ، ولهدفٍ عظيم!! ألا وهو صيانة المجتمع من الفساد؛ إذ لا بدَّ من تحصين كرامة المرأة من الامتهان ،

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٢٥) وأبو داود (٤٠٩٨) والنسائي في عشرة النساء (٣٧١) وابن حبان (٥٧٢٢) والحاكم (٤/ ١٩٤) عن أبي هريرة .

ورفعِ شأنها عن الابتذال ، والتزييف. . فكيف يتلاعب هؤلاء بالحجاب حسبَ الهوى وهو فرض الله على إمائه!! وكنت فيما مضى أغبطهنَّ على استطاعتهنَّ ارتداء ما لم أستطع عليه ، وفعلاً لم تَمضِ فترةٌ قصيرةٌ من الزَّمن حتى تهافتت عليه الفتيات تهافت الفراش على النَّار ، وصارت هذه البدعة السيئة ظاهرةً متفشيةً عمَّت أغلبَ البلدان ، ولا يمكنُ حَصْرُها والقضاءُ عليها إلا برحمةٍ من الله ، وهداه.

فقومي يا أختي المسلمة! بتنفيذ ما أمرك الله به واعيةً لهدف تشريعه ، واعترافاً بجميل الإسلام على المرأة ، الذي رفع عنها المظالم ، وأعاد لها اعتبارها في الإنسانيَّة ، فقد كانت من قبله تدفن حيَّةً تحت التراب! أو تترك لتعيش حياة الذلِّ ، والمهانة ، وكانت أيضاً محرومة الميراث ، بل وكانت تورَّث عن زوجها الميت ، كما تورَّث أموالُه ، ومتاعه ، ومواشيه! فيا له من عزٍّ ، وصيانةٍ للكرامة نالتها المرأة ، وحقَّقها لها دين الإسلام القويم ، وجعلها وارثة لا موروثة!! لن تنالي عزَّك إلا في وسط هذا الدِّين يا أَمَةَ الله! فاستمسكي به ، وافعلي الفعل لمولاك ، لا لحظِّك وهواك.

أسأل الله أن يردَّ الصواب لمن فقد صوابه وتاه عنه ، فجرَّه إلى بحر الأهواء والفجور. . أمثال أولاء اللاتي لا يفوتُهنَّ نوعٌ من أنواع السَّمَر العديدةِ ، حتَّى النوادي الليليةُ ، والملاهي يَؤُمُّنَّها ، وبعضهن يَضَعْن على رؤوسهن بدلاً من الحجاب قبعةً قماشيَّةً مُزَيَّنَةً بأنواع اللؤلؤ ، والألماس الباهظ الثَّمن ، يَبرقُ ، ويلمع ، وكأنَّه ينادي؛ وبصوتٍ عالٍ: نحن هنا ، انظروا إلينا. . ويسمِّين مثل هذه القبعة حجاباً ، باعتبارها سترت الشَّعر على حدِّ زعمهن ، مع أنَّها زينةٌ بحدِّ ذاتها ، وهذا منهيٌّ عنه في القرآن الكريم. . وأحياناً يضعن فوقها كطرحة العروس ليلةَ زفافها. . فيَزيدَهنَّ

ذلك رونَقاً وأناقةً يُرضين بها شهوتَهن في اتباع التَّقليعات ، ولكن في عيون الآخرين لا يَزيدُهنَّ هذا إلا مقتاً ، واستغراباً ، ومثاراً للنَّقد السَّيِّئ من المغرضين ، وحجةً للرَّاغبات عن الحجاب . . فكيف بالذي لا يُرضي عبداً؛ أيُعقَلُ أن يُـرضيَ ربـاً؟!

وشيءٌ آخر يؤلمني جـداً ، هو استسهال كثيرٍ من المحجَّبات في موضوع الوجود في أماكن المعصية ، والفساد ، أجِدُهـنَّ يَـؤُمُّـنَّ صالات الحفلات العامة للرَّقص ، والغناء ، يتمايلن ، ويُصفِّقن إعجاباً ، وتأييداً منافقاً مهما تدنَّى المستوى . . بلا أدنى حياءٍ ، واحترامٍ لما يَحمِلْن من رمزٍ للإسلام ، ومنهنَّ من يُهيِّج الشيطان أوصالَهن ويُدِبُّ فيهن الحماس فيشاركن في الرَّقص! ومنهنَّ من نسين قولة الحقِّ ، ويستغربن مِنْ قائلها . . وذلك عندما كنت ألومهنَّ على هذا! وأظنُّني أوَّل من شعر بذلك ، وانتقـدتُهنَّ عليه بازدراء . . عندما كنت من قبلِ أن يعافيَني الله أرتاد النَّوادي الليليةَ ، وقد شاهدتُ تلك المناظرَ المُؤلمةَ ، وكنت أقول في نفسي : ما الَّذي أتى بمثلِ هؤلاء لهذا المكان ، المسلمة الحقيقيةُ سفيرة دينها . . إنَّ هؤلاء لا يحترمْنَ الشِّعار الَّذي يحمِلْنَه على رؤوسِهن؟! وكؤوسُ الخمر مصفوفةٌ على طاولة الطَّعام أمامَهنَّ ، ولا مانع عند بعضهن من مجاراة الجُلساء ببعض الرَّشفات من الخمر ، أو البيرة التي يَزعُمْنَ : أنَّها ليسَتْ محرَّمةً!! بانيات اعتقادَهن على دسائس أعداء الإسلام الَّذين يُفتون بأنَّ كلَّ قليلٍ ليس بحرام!!

فلتعلم من تؤمن بهذا الهراء بأنَّها بعيدةٌ كلَّ البعد عن الصَّواب . . كيف ذلك ، والله سبحانه جعل حرمته في مجرد الاقتراب منه ، وقال :

﴿ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾! ونبيُّنا ﷺ قال: «ما أسكر كثيرُه، فقليلُه حرام»[1].. فأنظرُ إليهنَّ بمقتٍ، ونفورٍ؛ لأنَّهُنَّ سيصبحْنَ قدوةً لكثيرٍ غيرهنَّ، وتنتشرُ هذه البدعةُ السَّيئةُ ممَّا أحرجني أمام كنَّتي الأجنبية المسلمة، الَّتي سألتني، وقد تورَّدت خدودها خجلاً عنهنَّ بعد أن شاهَدَتْهم مراراً على شاشة التِّلفزيون: أَهؤلاءِ مسلماتٌ؟ كيف يفعلْنَ ذلك؟ ألا يعرفن دينَهنَّ؟ ولماذا يضعن الحجابَ إذا رغبن بهذا الفعل؟! وتمنَّيت لو أجد لهنَّ عذراً أمامها، وقالتْ لي أيضاً قولاً جعلني أتمزَّق خجلاً، وحزناً.. قالت: لقد أتيتُ إلى بلدٍ إسلامي فَرِحةً بأنَّني تركْت بلدي، بلدَ التَّحرُّر، والتَّفلُّت، وظننْتُ بأنني سأعيشُ في وسَطٍ دينيٍّ وبيئةٍ إسلاميَّةٍ بحتةٍ، ولكن صُدِمْتُ بأجواءَ ومشاهدَ، لم أكن أتوقَّع مشاهدتها في هذا البلد الإسلاميِّ إطلاقاً، حتى أنَّ أهل بلدي يتميَّزون ببعض مَيِّزاتٍ جيدةٍ عنهنَّ، فأنا قلقةٌ على مستقبل أولادي من تلك الأجواء المكتسبة ممَّن لا يعرفون الله، والَّتي تركتُ بلدي الجميلة المتحضِّرة في كلِّ أمور الحياة، والعيش الرغد، خوفاً على مستقبلهم الدِّينيِّ.

ماذا أسمعُ يا إلهي؟! رُحماك، ومِمَّن؟! يا إلهي عَفوَك.. وعن مَن؟! يا إلهي غفرانك! أعن أخواتي المسلمات أسمع؟! مِنَ التي جاءت كي تستعين بهنَّ على ما تحتاجه لتكملة دينها.. وهي التي لو شاهدت سلوكها النِّساءُ المقصِّراتُ بحقوق دينهنَّ؛ لأخذن منها الدروس، والعبر، ولشعرن بالخجل من أنفسهنَّ، لم ترها عيني إلا في كامل حشمتها في اللباس.. وفي جلِّ أدبها، واحترامها للصَّغير قبل الكبير في المعاملة.. إنَّها لترتدي الحجاب حتَّى أمام الأطفال الواعين.. وتَحتَشم بلباسها بين

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٤٣) وأبو داود (٣٦٨١) والترمذي (١٨٦٥) وابن ماجه (٣٣٩٣) عن جابر.

النِّسوة حتى أمامي. . لأنَّها تعلمت تنفيذ أوامر دينها الَّذي ينكر هذه المعصية المتداولة بشكلٍ خطيرٍ بين المسلمات!

هذه الحقيقة صارت مغيَّبةً في مجتمعهنَّ لبعدهنَّ عن الشريعة ، والَّتي تجعل الواحدة منهنَّ في استغرابٍ ، ودهشة عندما أحدِّثهنَّ عن ذلك ، ويقلن لي: ماذا تقولين؟ أبين النِّساء عوراتٌ؟ أمن أختي ، وابنتي تريدين أن أحجب عورتي؟أسأل الله لهنَّ الصَّحوة من هذه الكبوة ، والعافية من هذا البلاء.

ولو ترى عينٌ إذا رأت. . خشوعها في صلاتها؛ لاشتهت منها الصَّلاة. . وطول مكوثها في سجودها. . ورفع يديها للدُّعاء؛ وهي تناجي الله بعد كلِّ صلاة؛ لاقشعرت لها الأبدان ، ومحاولاتها المضنية في تعلُّم قراءة القرآن ، وطربها من سماعه ، والأحاديث الشَّريفة ، ومتابعتها ، وماذا أصف لكم من قوَّة إيمانها ، وتمسكها بشريعة دينها الَّذي اعتنقت. . وورعها عن سماع المنكرات ، وهروبها من المجلس إذا دارت به أحاديث الغيبة ، أو النَّميمة من بعض الأخوات هداهنَّ الله ، ومن آدابها. . من بين الكثير أذكر: حسن تعاملها مع أولادها ، واحترامها لرأي زوجها ، وشغفها لمساعدة الآخرين ، حيث لا تتوانى عن تقديم المساعدة مهما شقَّ عليها ذلك. . وتسبقها دمعة عينيها عطفاً ، ورحمةً على الأيتام ، والمحزونين.

والأجمل ، والأهمُّ من هذا كلِّه. . أنني لم تسمع أذني في بيتها يوماً إلا الأناشيد الدِّينية ، الهادفة إلى حبِّ الله ، وتبيان عظمته ، والحثِّ على طاعته ، أو تلاواتٍ قرآنيَّةً تحاول جاهدة أن تحفظ بعض الآيات من خلالها ، ولكي تكون هي السائدة في جوِّ البيت؛ لتغذي بها عقول أولادها ، وتنمي عقيدتهم ، آملةً حفظهم القرآن منذ الصِّغر ، تيمُّناً بإحدى

صديقاتها التي علَّمت أبناءها القرآن بطريقة التَّكرار من المسجلة. . حيث لا يُسْمَعُ في بيوت المسلمين تلاواتٌ قرآنيةٌ مع بالغ الأسف إلا في التَّعازي!! أمَّا التلفاز فإنَّها، وزوجها يأخذون منه إيجابياتِه من المعرفة للعلوم الضَّرورية، ولأوقاتٍ قليلةٍ؛ لأنَّهم يؤمنون بمتعة الحوار، وأهمِّيته بين أفراد الأسرة، وأنَّ متابعة كلِّ ما يُعرض فيه له سلبياتٌ خطيرةٌ، أدناها تفرقة التَّجمُّع الأسري.

هذه هي المرأة المسلمة الَّتي جاءت من بلد التَّسيُّب، والفجور، وقد تعلَّمت فيه حسن الخلق، الَّذي اقتبسوه من الإسلام، وهو أساس الإسلام. . وتبنَّوه بعد أن تخلَّينا عنه، ونسيناه في زحمة ملهيات الحياة. . وزادتها أدباً على أدب علومها الإسلاميَّة، فجعلت منها نموذجاً رائعاً للمرأة المسلمة.

فيا أيتها الأخوات المسلمات!. اسمعوا النَّصيحة، والعتاب من مخلصةٍ ترجو لكُنَّ حسن الثَّواب، وتخشى عليكنَّ من العذاب، فلا تغضبْن فالحقُّ أولى أن يجاب. . ويا أختي المسلمة!. أدعوكِ، وأدعو الكلَّ، وأدعو نفسي إلى تقوى الله تبارك وتعالى بقلبِ محبٍّ مشفقٍ، وكلام النَّاصح المنذر أن نقدِّم لأنفسنا أعمالاً صالحةً. . فإنَّ أفضل حياةٍ ما كانت تحت ظل العقيدة، والشَّريعة، فالحياة الحقيقيَّة هي ما كانت تحت ظل الإسلام؛ مَنْ عاش تحت ظلِّه عاش على الهدى، والنُّور، حتَّى نلقى الله بقلبٍ سليم، وتبيضَّ وجوهُنا يوم تبيضُّ وجوهٌ وتسوَدُّ وجوه!

فبالله عليكنَّ أيتها المسلمات! لا تجعلن الحجاب رمزاً مهيناً لدينكن العظيم، تصولُنَّ، وتجولُنَّ فيه بما يرضي أهواءكنَّ. . فهذا دين الله الذي

ينبغي علينا الالتزام بموجباته بأمانةٍ ، وصدقٍ ، بعيداً عن اتباع الأهواء ، فهناك الكتاب ، والسُّنَّة فقط . . وما دونهما فهو البدعة الَّتي حذرنا منها سيِّدنا ، وحبيبنا محمَّدٌ ﷺ ، أما قال : «**كلُّ محدثة بدعةٌ ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ ، وكلُّ ضلالةٍ في النَّار**»؟ ![1] ولنحرص على رضاء الله بأن يجدنا حيث أمرنا . . ويفقدنا حيث نهانا .

وإليكم ما أثار مقتي ، وغضبي لوجه الله من هذه البدعة الكريهة ، وجعلني أنشط لأمر الله في النَّهي عن هذا المنكر ، وما كان لي أن أطيل في تسليط الضَّوء على مسألة الحجاب هذه بذلك الحديث المفصَّل لولا كثرة شيوعه الَّذي يقتضي بيان عواره . . وأنَّه فتنةٌ ، ومفسدةٌ مستوردةٌ ، أروم لفت النَّظر إلى التخلُّص منها . . فلقد سمعت إحداهنَّ تقول لأخرى : ألم تتحجَّب ابنتُك بعد؟ أجابتها : (لا والله لسَّه) ، فقالت : قولي لها أن تتحجَّب مثل ابنة فلانة ، لقد تحجَّبت ، وقد رأيتها فيه ما شاء الله (شو لايق عليها . . بتاخد العقل) !! قالت : معقول ، وكيف؟ أجابتها : نعم إنَّها لا زالت على نفس أناقتها المعهودة ، ومكياجها الرَّائع ، وهي تلبس بنطلون ، وبلوزة جميلين جداً ، وما أجملهم عليها مع الحجاب! (والله اشتهيت الحجاب من عليها!!) انظروا على ماذا تحثُّها؟؟ انظروا إلى طريقة الدَّعوة الفارغة من العقيدة ، والإيمان لمن تدعو من أجله . . فهي تصبُّ اهتمامها في المظهر ، ولا دخل لها بالجوهر . . فهل أصبح الحجاب للتَّزيُّن وإبراز الجمال؟! وهل أصبح عنوانه الأناقة المغرية؟! وهل انضمَّ إلى عالم الأزياء ، والموضة المبتذلة . . ثمَّ تتبارى المتحجِّبات في اطِّرادٍ مع الحديث ، والأحدث ، فيصبح التَّسابق في ذلك شغلهنَّ

---

(١) رواه أحمد (٤/١٢٧) وأبو داود (٤٦٠٧) وابن حبان (٥) والترمذي (٢٦٧٦) وابن ماجه (٤٣).

الشَّاغل؟؟ كما أنَّ الصَّدَفة ليست بالجميلة ، ولكنَّها تحوي جوهرةً ، وتحميها من الأعداء! وكذلك الأصل في الحجاب. . فالحشمة + الأدب = الحياء!! وبما أنَّ الحياء من الإيمان. . فأين العقيدة ، وأين الخوف ، والحياء من حضرة الله؟! وهنا يكمن الخطر! وبهذا الجهل يتفشَّى الفساد!! نعم إنَّه الفساد بعينه.

ألم يَعْلَمْنَ بأن يداً خفيَّةً تلعبُ بعقيدتهنَّ الإسلاميَّة؟ ألم يلمَسْنَ بأنَّ هناك من يشوِّه أفكارَهنَّ ، ومعلوماتِهنّ عن دينهنَّ؟! ألم يُحسِسْنَ بأنهنَّ يساعِدْن ، ويناصرن أولئك المغرِضين ؟!

آه! ليتهنّ بَحثْنَ قليلاً مع أنفسهنَّ ، وحاولْنَ أن ينظرْن إلى أبعد من أنوفهنَّ ، فتنكشفَ لهنّ حقيقةٌ مُرَّةٌ ، غائبةٌ في سراديب جهلهنَّ. . ولو أنهنَّ يُقوِّين عقيدَتهنَّ ، وإيمانَهنَّ بربِّهنَّ ، ويتعرَّفنَ عليه جيداً؛ لَعَلِمْنَ: أنَّ هناك مَنْ أَعماهُنَّ عن صُلب دينِهنَّ الَّذي يجهلْنَ ، ولَعَلِمْن بأنَّ عليهنَّ اتِّباعَ دِيْن الله وحدَه لا شريك له ، وأنَّهنَّ لم يتَّبِعْنَ بهذا السُّلوك الخاطئ إلا أولياءَ الشَّيطان بكل خُطاهم ، ومخطَّطاتهم ، ألا هم ودعاة الفتنة مصمِّمو الأزياء ، ومُرَوّجو أنواع الزِّينة و(الماكياج) ، والمتبجِّحون باسم (الإتِكيت) و(البروتوكول) ، وتُجَّار الحفلات ، والسَّهر ، والمُجون ، كلُّ أولئك يشكِّلون أكبرَ عصابةِ تخريبٍ للأديان ، وللمجتمع ، وهاهم وقد صمَّموا لك أزياء خاصةً للمحجَّبات حسب مزاجهم ، وأهوائهم دعمتِها بإقبالك على شرائها ، ورضائك أن يجعلوا منك تابعاً سهلاً ، ومربحاً لسلعتهم ، ومحققَّةً لأهدافهم المغرضة ، ودعَوكِ إلى سهرةٍ بإعلان مغرٍ يسيلُ له لعابُ الضُّعفاءِ ، فتشتهي نفسُكِ بعد أن اشتريت لها تلك الأزياء و(الإكسسوار) البديع ، تشتهي أن تلبَسيها ، وتحضري تلك الحفلات المُعْلَنةِ بدهاءٍ ، تسيطر على إرادتك وتُفقِدك وعيك ، وتسلب لبَّك. . فلا

مانعَ عند ذلك من مشاركة الناس مجونَهم، وفجورَهم، فتكوني بذلك قد تجرَّدْتِ من دينك، وتخلَّيتِ عنه، وأسأتِ إليه شرَّ إساءة، وأنتِ تتوهمينَ انتماءك إليه بلبسِ شعاره، وقلبُك فارغٌ من خشية الله!! لأنَّ الشيطانَ قد زيَّن لك أعمالَك، وسلبك إرادتك، وأعمى قلبك، فأضعفَ خوفَ الله في فؤادك، وأوهَمَك برضا الله عنك وبأنَّك مسلمةٌ حقّاً، مادُمْتِ تُحافظين على حَمل شعار دينه فقط.

فاحذَري غضب الله يا أختي المسلمة! واقرئي أمر الله في هذه الآية الناهية: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ ـ أي معيناً لهم ـ [القصص: ٨٦]، وضرب الله تعالى لنا مثلاً في هذه الآية الشريفة: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

لعلَّ في هذا القول الواعظ عبرةً تفيدك: قيل للجاهل: أين تذهب؟ قال: معهم، قيل: فإلى أين يذهبون؟ قال: لا أدري! فلا تكوني عزيزتي كهؤلاء، وتَتَّبِعي تلك التقليعة الخاطئة، والمسيئة الَّتي اتَّبعتها الكثيرات، ويطلقون عليها اسم «حجاب».. وأرجو أن تَعْلَمْنَ بأنَّني لا أبتغي في نصيحتي «دروشة» المظهر، معاذ الله! ولكن اعتراضي على الابتذال.. والتَّبعيَّة لكلِّ هفوات الموضة رغبةً فيها فقط.

وإليك هذا الحوار الذي جرى بيني وبين فتاةٍ، اخترته من بين عدَّة لقاءاتٍ مع فتيات شاهدتُهُنَّ في الطريق، كن يلبسن الذي صار (كله هيك)!! و(الأحسن من بلا)! كانت فتاة وَضيئَة، وقد بدت مجوهراتها من صدرها المكشوف، والخواتم في أصابع يديها البضَّتين، اللاتي زادتهم زينةً بطلاء أظافر وهَّاجٍ، يتناسب بلونه مع بنطلونها الجينز، الذي يصف

جسمها وصفاً دقيقاً ، وكذلك أظافر قدميها ، وقد لبست حذاءً لا تلبسه إلا غانيةٌ! وكشفت ساعديها بطي الأكمام إلى منتصفهما ، تتباهى بأساور عديدة يسيل لها لعاب من تشتهي لبس الذَّهب . . وتغطِّي شعرها بتلك التقليعة . . ولا ضير ؛ إذ تركت خصلةً من شعرها تطلُّ من تحته تتلوَّى يمنةً ويسرةً على جبينها الأملس البرَّاق ، تتناغم بحركاتها مع نسيم الهواء الطَّلق . . ورائحة عطرها الشَّذيِّ عابقاً حولها ، وتتدفَّق فتنةً ، وجاذبيةً!

فإلى الله المُشْتكى من أمر العطور ذات الرَّوائح النَّفاذة ، والفاتنة التي تستعملها أكثر النِّساء قبل خروجهنَّ ، في الأسواق ، ومجتمعات الاختلاط ، وحتَّى في المساجد في ليالي رمضان ! وهذا ما تفشَّى في عصرنا ، نسأل الله ألا يمقتنا! وألا يؤاخذ الصَّالحين ، والصَّالحات بفعل السُّفهاء ، والسَّفيهات ، الذين لا يتورَّعون عن فعل ذلك رغم التَّحذير الشَّديد من رسولنا الكريم ﷺ بقوله : «**أيُّما امرأةٍ اسْتعطرت ، ثمَّ مرَّت على القوم ليجدوا ريحَها؛ فهي زانيةٌ**»[1] ، بل إنَّ الشريعة شدَّدت على من وضعت طيباً بأن تغتسل كغسل الجنابة إذا أرادت الخروج ولو إلى المسجد ، كيلا تعرض نفسها لهذا الذَّمِّ؛ لأنَّ ما عند الله من الرَّحمة ، والمغفرة ، والعتق من النَّار لا ينال بمعصيته!! وإنما ينال بالتَّقيُّد بأوامره .

وهذا حديث نبوي آخر : «**أيما امرأة تطيبت ثمَّ خرجت إلى المسجد ليوجد ريحُها لم يقبل منها صلاة حتى تغتسل اغتسالها من الجنابة**»[2] .

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٤١٤) وأبو داود (٤١٧٣) والترمذي (٢٧٨٦) والنسائي (٨/ ١٥٣) عن أبي موسى .

(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٤٤) وأبو داود (٤١٧٤) وابن ماجه (٤٠٠٢) والحميدي في مسنده (١٠٠١) .

إضافةً لكلٍّ هذا فقد يسَّرتْ تلك الفتاة للمغرضين ، ولنظرات العابثين كشف مفاتن جسمها تفصِّله لهم تلك الملابس ، فصار سهلاً عليهم تخيل شكل الشَّعر ، وأظن بأنَّ ذلك لم يعد مهمَّاً ، بعد مشاهدتهم للأهمِّ! ومن أراد ذلك؛ فلن يعجزه خياله ، وبما يتوافق مع قذارة أهدافه ، وهنا بدأ الانفعال الدَّاخلي يدفعني ، والبركان الإيمانيُّ يغلي . . فاقتربت منها يملأني الحزن من أجلها ، وأمثالها الكثُر ، الكُثر ، استوقفتها وقد رأيتها على ذلك الحال المؤسف . . وسألتُها بعد السَّلام ، والتَّحية : يا عزيزتي! هل تشكين من مشكلة في رأسك؟ قالت : لا أبداً ، قلت : الحمد لله . قلتُ : إذاً تشكين من مشكلة في شعرك؟ بحلقت عينيها ، وحدَّقت بي ، وظلُّ الغرابة يكسو وجهها ، وكأنها تظنُّ بي الجنون ـ لأنَّها لم تعتاد نصيحة الأخوَّة ، والمحبَّة ـ وقالت باستغرابٍ ، ولهفة شديدة : لا طبعاً ، ولماذا تسألين؟! قلت : عذراً لفضولي معك ، ولكن أرجوك يا عزيزتي! اشرحي لي ماذا تلبسين . . ولكن إيَّاك أن تلفظي اسم الحجاب!! فاحمرت الخدود الشَّابّة النَّضرة ، وتحلَّت بتورُّدٍ يانع ، وأسفرت شفتاها عن بسمةٍ خجلة ، وفي عينيها بدت نظرة حيرى . . وأجابت : ماذا أقول إذاً؟ قلت : قولي : ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ . . وقد قال الله تعالى في مثل هؤلاء : ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء : ١٤٣] .

احذري غاليتي : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء : ١٤٠ ـ ١٤٥] . . ثم : ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الصافات : ٣٣] ، فإيَّاك يا عزيزتي! أن تُكتبي مع المنافقين . . فمَثَلُك في هذا كَمَثل الصَّائم دون صلاةٍ ، ومثل الذي يمسك عن الطَّعام في رمضان ، ويطلق لسانه بالفحشاء ، أو يطلق لفسوقه العِنان .

وإلى الَّتي تلبس لباساً شرعيَّاً كلَّه ، ولكنَّها تزيِّن عينيها بـ(الماسْكرا) وشفتيها بـ(الرّوج) ، أقول: لماذا يا من عرفت الله ، وأطعت أمره في لباسك؟! لماذا الخلط ، والتَّشويه لكماله؟! ومنهنَّ من تطلق العِنان لقلَّة الحياء.. فتتكلم بألفاظ نابيةٍ ، وبأحاديث خاصَّةٍ جدَّاً ، وتضحك.. وكلُّ ذلك بصوتٍ مرتفعٍ ؛ وكأنَّها ومن معها يملكون الطَّريق ؛ فإنَّهم يلبسون الحجاب وسلوكياتهنَّ بعيدةٌ عن الأدب ، والحياء ، ممَّا يجعلني أخجل عنهم من المولى تعالى ، وقد أمرنا بقوله: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ [لُقمان:١٩]..

أمَّا التَّعامل الناعم المتغنِّج مع البائعين في الأسواق ، فكان لي هذا اللقاء مع تلك الفتيات اللَّواتي كنَّ قد جمعن كلَّ الصِّفات التي ذكرتها آنفاً.. وأرجو أن تستفيدي منه فتاتي المسلمة.. لقد التقيت بهنَّ في أحد الحوانيت ، وقد لبسن اللباس الشَّرعي؛ الَّذي يسرُّ العين المؤمنة ، ويُطَمئن القلبَ المحبَّ لدين الله ، ولكن يبدو أنَّهن قد نسين برقع الحياء في بيوتهنَّ ـ هذا إذا كان في بيوتهنَّ من يقوم ببثِّ الحياء فيهنَّ أثناء تربيتهنَّ ـ كنَّ يتمازحن مع البائعين بشكلٍ مخجلٍ في مساومتهم على الأسعار بدلَعٍ مبتذلٍ.. سبَّبَ تبادل النظرات الجريئة.. بل النَّظرات الوقحة.. ألا يكفي أنَّ الأسواق هي من شرِّ الأماكن عند المولى سبحانه.. فنزيد على ذلك الأسلوبَ التَّعامليَّ؛ الَّذي يزيده شرَّاً!

غلت في عروقي مشاعر الغيرة على ديني ، فانتظرتهنَّ خارج الحانوت ، إلى أن انتهين بعد فترة ليست بالقليلة.. فدنوت منهنَّ ، وألقيت السَّلام عليهنَّ ، فرددن على سلامي ، وكلُّهنَّ آذانٌ صاغِيَةٌ ، متلهِّفةٌ لمعرفة ما أريد.. قلت لهنَّ: كم سُرَّت عيني بلباسكنَّ الشَّرعيِّ ،

لولا هذه الزِّينة على وجوهكنَّ أولاً . . ثانياً: لَيْتكُنَّ تُخفِّفن من الأخذ والردِّ مع البائعين بهذا الشَّكل المُتناعِم؛ كيلا تنقصْنَ من احترامكنَّ ، وممَّا تلبسن شعاره ، وكلُّ ذلك من أجل توفير بعض الملاليم! فيالَيتكنَّ يا عزيزاتي تكمِّلنَّ التزامكن بما يرضي الله في القلب والقالب ، وتجعلون من حجابكنَّ عنواناً لسريرةٍ نقيَّةٍ ، ولخامةٍ رفيعة الخُلُق ، ولجملة فضائل ، فاحمرَّت الوجوه خجلاً ، واعترافاً بالذَّنب . . وقالت إحداهنَّ: معك حق والله! نحن كنَّا ثرثاراتٍ جداً ، ووعدنَني بأن ينتبهن إلى هذا الخطأ ، وشكرنَني على نصيحتي ، وودعتُهنَّ قائلة: اذكروا دائماً وأبداً: أنَّ عين الله ناظرةٌ إلينا في كلِّ حينٍ ، وآنٍ . . واتَّقوا أن يكون الله أهونَ النَّاظرين إليكم .

ولشدَّ ما ساءَني جواب إحدى النِّساء على سؤالي لها لمَّا خلعت جلبابها ، وارتدت البِنْطال مع الحجاب: لماذا هذا التَّراجع؟! قالت: بأنَّها سمعت من أحد العلماء على شاشة التلفاز ، بأنَّه قد أجاز هذا اللباس ، وأنا أعمل بمقتضى فتواه ! قلت لها مستهجنة جرأتها على الله: وهل يعقل أن تستغلي ما أباحه عالمٌ فاضلٌ لقصدٍ معيَّنٍ لمّا أفتى بجواز ذلك ، وتتخذينها ذريعةً كي ترضي هواك على حساب ذمَّته ، وسمعته؟! فجعلتِ فتوى الشيخ تخالف تقوى الله؟! إنَّه لم يقل لمن تلبس الجلباب اخلعيه ، واستبدلي به بنطلوناً . . وهو يعلم أوامر مولاه بقوله سبحانه: ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾؟! [آل عمران: ٨٠] .

ولكنه أشار إلى التَّيسير في لبس بنطلون عريض مع جاكيت طويلة تغطي الرُّكب ، وفي هذا مخالفةٌ لملابس الرجال . . وذلك لمن هنَّ مضطهدات في دينهنَّ في بعض البلدان الكافر حكَّامها ، رحمةً لظروفهنَّ الصَّعبة الَّتي يعشن! واللاتي يحسدنك على حرِّيَّتك في دينك ، وأنت في بلدٍ مسلمٍ

آمن . . ولكنَّ ضَعْفَ إيمانك وعقيدتك في الله جَعَل عبادتك على حرفٍ ! فأسرعتِ في التَّراجع ، ولبست البنْطال . . وألبست ابنتك الشَّابة بنطلون (الجينز) مع الحجاب . . على أنَّها لا زالت صغيرةً ، وتحسبين أنَّك لبيبةٌ في الانصياع لفتاوى العلماء الأفاضل ؛ وأنت تشوِّهين مقاصدهم السَّامية ، وتحرِّفين حكمتها . . بل ربما وَقَعْتِ في فخِّ الاستماع لوسوسة شياطين الإنس ، فتنبَّهي منهم ، واعلمي : أنَّ المؤمن الحقَّ إذا تعرض لمثل هذه الوَساوس ؛ تذكر عقاب الله وثوابه ، فانتهى عمَّا هو فيه ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت : ٤٦] .

فما آل إليه حالُك هذا إلا لتحوُّلك ، والتفاتك عن الشَّرع ، أو تجاهلك الشَّريعة وآدابها .

ومن لم يتأدَّب بآداب الشَّرع ، أدَّبته النَّار يوم القيامة ! ! والدُّنيا مكان اختبار ، ودار عبورٍ ، لا دار سرور . . وخالقنا العزيز الحكيم قد وضع لعباده قانوناً كلِّياً ، هو منهجه ليتعامل على أساسه كافَّة النَّاس . . فعزفتِ عنه ، وعكفتِ على العلوم الحياتيَّة ، والدُّنيويَّة ، حتَّى ملكتْ عليك مشاعرَك ، واستغرقتْ خالص وقتِكِ ، فأصبحت خلواً من آداب الشريعة ، وتعاليمها ، وتركت نفسك ألعوبةً في يد المغرضين . . وقد حذَّر منهم المولى تعالى الذي لم يدع صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها لنا في كتابه العظيم ، وقد توعَّدنا الحقُّ تعالى قائلاً : ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٣٨-١٣٩] .

فيا أيتها المسلمات ! اتَّقين الله في أنفسكنَّ وفي بناتكنَّ ، واخشين الَّذي

إن لم ترينه؛ فهو يراكِ، بل قد نبّهَ عباده بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢].

اتقي الله أيتها المسلمة! يا من آمنتِ بالله، ويا من سجدتِ لله، ويا من استترتِ بستر الله.

حذارِ حَذارِ من السُّقوط في أيدي المضللين! فإنَّه السقوط إلى النَّار وبئس القرار! حذار يابنة زينب، وعائشة، وسارة، وأسماء أن ينسيك أعداء الإسلام فخر الانتماء إلى تلك الجدَّات المؤمنات الصَّالحات وتغترِّي بزيف حضارة الغرب المادِّيَّة، فهي زَبَدٌ اكتووا هم بنارها! فاسمعي، واعتبري، واعرفي الشَّرَّ، لا لتعهُّده، ولكن لتوقِّيه، ومن لا يعرف الشَّرَّ يقعْ فيه ـ على مبدأ: اعرف عدوَّك ـ فمعرفة محبطات الأعمال أمرٌ من الأهمِّيَّة بمكان، لأنَّه يساعد المسلم على تجنُّبها، إنَّ نواقيس الخطر تدقُّ فاحذَري، وتنبهي.

رحم الله أسماء، لو رأت ما تصنع بعض نساء المسلمين اليوم، وما يلبسه بعض حفيدات أسماء، وخديجَة، وسميَّة، وصفيَّة ماذا يكون موقفها؟؟ إنَّني لأعجب والله من أذنٍ تسمع كلام رسول الله ﷺ: «نساءٌ كاسياتٌ عاريات»(١) . . . ، ثمَّ لا تفطن صاحبتها إلى أن هذه الصِّفة تنطبق عليها. . فإنَّ النِّساء يعتقدن أنَّ السُّفور هوكشف الشَّعر فقط. . لا، ذاك شيءٌ والحجاب المزعوم الذي يحتجُّون بأنَّه (كله هيك). . و(أحسن من بلا) هو أيضاً سفور!! ولبس الضَّيِّق أيضاً سفور.

---

(١) رواه أحمد (٢/٣٥٦) ومسلم (٢١٢٨) عن أبي هريرة.

وإنَّ من السُّفور لبس الألوان الزَّاهية الجذَّابة في منظرها. . السُّفور لبس القصير ، والرَّقيق ، والضَّيِّق من الملابس.

وكل ذلك نراه الآن شائعاً بين فتياتنا ، وكأنَّه شيءٌ عاديٌّ! فلا يغرُّك كثرة انتشاره ، هل يعقل أن تستري الزِّينة بزينةٍ أخرى؟! حكِّمي عقلك. . وهل شُرع الحجاب إلا لإخفاء الزِّينة؟!

إن كثرة الخبث قد تفتن المؤمنين ، وربما اهتز إيمانهم بخالقهم ، وبقوله: ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٠].

فلا يغرَّك كثرة الخبث لعلَّ الله يثبت فؤادك. . فالشيء الخبيث ينتقل بسرعةٍ ، ويظلُّ في المجتمع ، ويقلِّده النَّاس ! وإذا نظرنا إلى داءات البشريَّة الآن نجد: أنَّها تأتي من سننٍ مذمومةٍ ابتدعها بعض الناس الذين لا إيمان لهم. . ثمَّ بعد ذلك أثمرت البدعة ، وانتقلت إلى أنحاء الدُّنيا كلِّها كما نرى جميعنا ! أترضين أختي أن تخرجي عن القرآن ، والسُّنَّة ، وتتَّبعي أهواءك ، وما يمليه عليك أعوان الشَّيطان؟ أترضين أن تكون ابنتك ، أو أحدٌ من أقاربك من أهل النَّار.

وأنت أيتها الأمُّ المسلمة أين إيمانك؟ أين عقيدتك؟ أين حفاظك على دينك الَّذي تتبجحين بالانتماء إليه؟ ما هو عذرك؛ وأنت تسمعين نداءات رب السَّموات للإذعان لأمره ، وأنت تسيرين في الشارع بكامل حشمتك متحجبة بالطريقة الشرعية ، بينما تسير بجانبك ابنتك الشابة تُلبسينها البنْطال (الجينْز) مع (بلوزة) إما ضيقة وإما شفافة ، تضع على رأسها هذا الذي يسمُّونه: (أحسن من بلا) وهو والله بلاء بعينه ، هذه القطعة من القماش التي لا تتجاوز حجم الكف ، يزيدها جمالاً ألوانها التي تضاهي

ألوان قوس قزح.. تؤثرين نفسك بالخير، وتحرمينها منه، ثم تدَّعين محبتها! والله لقلبي يبكي ألماً، وحزناً، وإشفاقاً على مصير ديني، وهو يَتَفلَّت شيئاً فشيئاً!!

فيا أيتها المسلمة المصلِّية.. الساجدة! يا من خضع رأسُك للحيِّ القيوم.. وخشع له سمعُك، وبصرُك؛ كيف تَدْعين ابنتك إلى النار؟ ألا يكفيك زاجراً حديثُ رسول الله ﷺ: «**نساءٌ كاسياتٌ عارياتٌ.. لا يدخلن الجنَّـة، ولا يجدْنَ ريحها**»[1]... والله إنَّه لحديث عظيمٌ، لو صبَّ على الجبال الراسيات؛ لأذابها، فأيُّ شيءٍ بعد الحرمان من دار النَّعيم؟! فالدنيا ذات اشتغال، والآخرة ذات أهوال، ولا يزال العبد بين الأشغال، والأهوال؛ حتَّى يستقر القرار.. وهل هناك دارٌ إلا الجنَّة، أو النَّار!..

لا دارَ لِلمَرْءِ بعد الموت يسكنُها إلا التي كان قَبْلَ الموت يَبنيها
فـإنْ بنـاهـا بخيـرٍ طـابَ مسكنُـه وَإِنْ بنـاهـا بشـرٍّ خـابَ بـانيهـا

يا أخت الإسلام! أيتها الأم الفاضلة! أرجوك رجاء أختٍ تحبُّ دينها، وتحبُّك.. أن تقوِّي إيمانك، وعقيدتك؛ لتَدَرئي عنك، وعن بناتك خطر الجهل.. وذلك بتعلُّم علوم دينك.. ومن ثَمَّ العملِ بها؛ كي تنشئي لَبِناتٍ صالحةً، وتساعدي تلك الفئة المؤمنة، والتي يعيبها جهلها بالشَّرع.. فهي تتسبَّب بتعميم البلاء، والشرِّ من خلال ترويج هذه الظاهرة الكريهة؛ التي لا تمتُّ إلى الشَّريعة الإسلامية بصلةٍ.. وتساعدي أيضاً من يحملن لواء الإسلام بمظهرهنَّ.. ويشوهنَ حقيقته بأعمالهنَّ.. تحت شعار الدِّين.

إنَّ الإنسان ليألم حين يرى مَنْ تعلَّم الشَّرع، ولم يعمل به! وقلبي

---

(١) سبق تخريجه.

يتفطَّر حسرةً على فتياتٍ نشأن في أُسَرٍ تعرف دينها ، ولكنَّها تتسيب فيه ، فيا من تَدعين من تعتبرينهن أغلى ما في الوجود يتشبَّهن بالفاجرات في لبسهنَّ ، ومشيتهن ، وتبرجهنَّ ، ما هذا التراخي ، والاستمراء في تغييب أمر الله ؟! اعلمي بأنَّ كلَّ لباسٍ يصف الجسم هو العورة بعينها ، والزَّاهي الملفت للنَّظر منه هو العورة بعينها ، الشَّفاف منه عورة ، ولبس (التَنّورَة) الطويلة ، والضَّيقة ذات الفتحات التي تكشف عن السِّيقان مع كل خطوةٍ هو العورة بعينها ، والذي إذا لبسته الواحدة منهنَّ كانت به وكأنَّها تمشي في صالة عرض ، تبدي مفاتنها ، وتبرز محاسنها. . وهو يدلُّ على قلَّة الحياء. . وتعاقب في الآخرة بالعري على ذلك ! فأولئك كاسياتٌ في الدُّنيا ، عارياتٌ في الآخرة. . ولذلك حذّر منه النبيُّ محمد ﷺ. . وأنت تعتبرينه منتهى الحشمة! فالله يعلم بأنَّ المرأة أضرُّ فتنةً على الرِّجال !! وذلك من الفساد. . والله لا يحبُّ الفساد.

فبالله عليك يا أختي المسلمة! علِّميها الأدب قبل لبس الحجاب. . فالمسألة ليست زياً تلبسينه ، وانتهى الأمر! لا ، ليس بهذه البساطة ، بل هو مسؤولية فرض! هناك مراقبةٌ لكلِّ فعل ، وتسجيلٌ لكلِّ حركة ، ومحاسبةٌ عن كلِّ عمل! فأعطي دينك حقَّه أنت ، وأولادك جميعاً ، وإيَّاكم أن تنخدعوا بالمعايير الهابطة ، واغرسي فيهم الحياء ، فهو من الإيمان ، والذي أصبح مع تغيُّر أحوال الناس عُملةً نادرة هذه الأيام ، وتجمَّلي به سيدتي ، فأنت مرآتهم التي يجب أن تعكس لهم الخير ، والطَّيِّب من كلِّ شيءٍ ، فأنت قمَّة ، وأنت فضيلةٌ ، وأنت طهرٌ ، قمَّةٌ بالقرآن ، وفضيلة بالإيمان ، وطُهْرٌ بتمسُّكك بهذا الدِّين ، وأعينيهم على برِّك ؛ كي تضمني لهم ولذرِّيَّاتهم رضاء الله ، ومن ثم الفوز بالجنَّة.

وأحب أن أركِّز على ظاهرة خطيرة باتت متفشِّيةً بشكلٍ كبيرٍ في بيوت

غالبية العائلات! ألا وهو تعامل الأبناء مع أبويهم بتبرُّم جافٍ لئيمٍ، ومع الصَّوت العالي الخالي من أيِّ تأدُّبٍ، أو احترامٍ.. وحذّرهم سبحانه بأنَّ أنكر الأصوات لصوت الحمير!! وذلك من العقوق المحذور بمكانٍ؟ فأرجو أن تساعديهم على التَّعامل الخلوق البار الذي أمر الله تعالى به الأبناء مع آبائهم، وأيضاً الآباء مع أبنائهم! بالاحترام المتبادل بين الطرفين، وذلك من حقوق الأبناء على أبويهم.. التزاماً بقوله ﷺ: «**رحم الله امرأً أعان ولده على برِّه**»(١)، وجنبيهم ملاذ الشارع الذي ينهلون منه، ويتعلمون فنون الرَّذيلة، والإجرام، وقلة الأدب!

يعيشُ المرءُ ما استحى بخيرٍ ويبقى العودُ ما بقي اللِّحاءُ
فلا واللهِ ما في العَيْشِ خَيْرٌ ولا الدُّنيا إذا ذَهَبَ الحَيَاءُ

والله! إنَّ هذا لأمر خطير يا أيتها الأخوات الملتزمات بدينهن!. فانتَبِهْنَ، وأَعِدْنَّ له ما استطعتُنَّ من علمٍ، وتقوى.. وساهمْنَ وإيَّاي في القضاء على الجهل الذي يغضب الرَّبَّ، حتى لا يتطاول بعنقه، ورأسه، ويفرض نفسه على الدِّين، والمعرفة.. ولو كان مع حسن النِّيَّة! ولنكن هادين مهتدين؛ كي نفيد، ونستفيد، ولا يعاقبنا ربُّنا بجريرة الظالمين منا: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥].

ولنتذكر جوابه ﷺ لسؤال أمِّ المؤمنين زينب ـ رضي الله عنها ـ: أنهلك وفينا الصَّالحون؟ قال: «**نعم؛ إذا كثر الخَبَث**»(٢).

وليكن لدينا من الإصرار على محاربة كلِّ بدعةٍ مايرضي المولى؛ إذعاناً لأمره في التَّحلِّي بالشَّجاعة عند النهي عن المنكر: ﴿فَلَا تَخْشَوُا۟

(١) رواه أبو الشيخ في «الثواب» كما في: كشف الخفاء (١٣٧٦).
(٢) رواه البخاري (٣٣٤٦) ومسلم (٢٨٨٠).

﴿ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [المائدة: ٤٤].

وتعالي نقول لكلِّ فتاةٍ مسلمةٍ: بالله عليك يا فتاة الإسلام! تحجَّبي بما يرضي الله، ولا تسمعي كلام شياطين الإنس الَّذين لا يستندون إلى عقلٍ، أو دينٍ، ويبيحون جواز لبس الحجاب مع البنطال.. دون جلبابٍ يغطِّيه.. وكشفِ أجزاءَ من الجسم مع الزِّينة.. إنَّهم يجعلون منه زيَّ إغراءٍ، وفتنةٍ، على أقل حالٍ يفقدوه وظيفته الَّتي شرع لها، فيجعلون حجابك نقمةً عليك، ووبالاً يوم القيامة.. بدل أن يكون رفعةً عند الله، وقربةً منه! فالزَميه، كما شَرَعه الشَّارعُ، وتمسَّكي، وافخري به، ولا تلتفتي للدِّعايات المغرضة، فإنَّها تريد لك الشرَّ.. حيث نبَّهنا منها الله تفضلاً منه قائلاً: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٧-٢٨]، تحقيقاً لأمره تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُوٓاْ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥١ ـ ١٥٢].

فأنقذي نفسك.. واختلطي بالصَّالحات، واقتدي بهنَّ؛ تقوَ عزائِمُك، وتفوزي في الحياة، وبعد الممات، فاحسري عن رأسك قناع الغافلين، وانتبهي من رقدة الجاهلين، واعملي صالحاً، ثمَّ أخلصي العمل لله تعالى تتخلَّصي.. وتمسكي بالحياء، وتذكري قول نبينا ﷺ: «**الحياء والإيمان قرنا جميعاً، فإذا رفع أحدهما؛ رفع الآخر**»[1]..، وقوله: «**الحياء خيرٌ كلُّه**»[2].

---

(١) رواه الحاكم (١/ ٢٢) عن ابن عمر. وبنحوه رواه الطبراني في الأوسط (٨٣٠٩) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٩٢) عن ابن عباس.

(٢) رواه البخاري (٦١١٧) ومسلم (٣٧). واللفظ لمسلم.

إنَّك قدوة اليوم، وقدوةُ الغد، فإيَّاك، ثمَّ إيَّاك أن تكوني قدوة السُّوء! فتأتين يوم القيامة تحملين أوزارك، وأوزار من أضللتِ كاملةً، فتصبح جبالاً.. فيفوق حملك طاقتك، ويعيق تجاوزك للصراط.. ثم تهوين إلى جهنَّم.. ألا ساء ما تزرين!! وسيشهد عليك قول المولى سبحانه: ﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [العنكبوت: ١٣].

واقرئي هذا الحديث النبويَّ الشَّريف أيضاً: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذلك من أجورهم شيئاً.. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل من تبِعَهُ.. لا يَنْقُصُ ذلك من آثامهم شيئاً**»(١)، ولا تكوني كمن قَلْعُ الأحجار أهونُ عليه من ترك الذنوب، والأوزار! فلو أنَّك تستكثرين من الحسنات، فهي بلا ريب أخفُّ وزناً، وأعظم أجراً.. وإن تكوني قدوةً حسنة؛ فالعكس بالعكس، فيكون لك مثل أجور من اتَّبعك.. ثم إلى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣١].

لعلَّ مِنْ مستغرِبٍ لهجومي القاسي على ذلك الحجاب الجديد المبتدَع، والذي صار (كله هيك) وعمَّ بلاؤه بين المسلمات، فيقول: ماذا دهاكِ؟ ولماذا كلُّ هذا اللَّوم، وهذا النقد الحاد؟ ألسن أفضل من السَّافرات؟ فأجيب: كلا! لسن أفضل من السَّافرات؛ وهنَّ على ما هن عليه بهذا الفهم الخاطئ المشوَّه للشَّريعة، والمستخِف بأوامر الله!! وهنَّ في لباس مخالف للشَّرع.. وبهذا الإيمان الضَّعيف، حيث لا يمتنعن عن أعمال، و(مشاوير) يعلمن جيداً بأنَّها محرمة! لأنَّ المسلم يتميَّز عن غيره

---

(١) رواه أحمد (٢/٣٩٧) ومسلم (٢٦٤٧) وأبو داود (٤٦٠٩) والترمذي (٢٦٧٤).

بقوَّة عقيدته ، وسلامة تطبيقها ، ومن ثمَّ تصبح أهدافه وأفعاله شرعية كما أرادها الله ، لا كما قد يهيأ للبعض من أنَّ «شبه المحجَّبة» خيرٌ من السافرة. . فلعلَّ من السافرات من تتمنى أن تلقى من يقوِّي عقيدتها ، ويحيي في قلبها الإيمان ، ويذكِّرها بدينها ، فتصحو من غفلتها ، كما صحوت من غفلتي. . وييسر الله لها طريق الهداية بالانضباط والاستجابة ، كما هو حالي الآن. . ربما هي منغمسةٌ في الملهيات ، وقلبها يرتجف خوفاً من ربِّها سبحانه ، وتكون بحاجةٍ إلى يدٍ صالحةٍ ، وحنون تنتشلها من ضياعها ، وتردُّها إلى الصَّواب ، وتعود إلى خالقها؛ لتعلن توبتها لمن إليه المَتاب. . فتصبح كأحسنِ ما تكون عليه فتاةٌ مسلمةٌ. . أما تلك فهي مطمئنة إلى أعمالها السيئة ، ولباسها ذاك بجهالةٍ. . وتحسب أنَّها على صواب ، فتركن إلى الخطأ ، وتستكين!! وهنا يكمن الخطر الذي لا أفتأ أنوِّه عنه للتَّحذير منه. . والله وليُّ التَّوفيق.

* * *

أخطاء يجب تداركها

ولكثرة ما رأيت من أخطاء في الصلاة بين الناس أثناء اجتماعي بهم في المساجد، وغيرها؛ رأيت: أنه لا بد من ذكرها هنا.. وأهمُّها عدم الطُّمأنينة في صلاتهم.. فكان كلَّما نبهت أختاً مسلمةً على خطأ في صلاتها؛ شكرتني بفرحٍ، وقالت بتأسفٍ شديد: طول عمري أصلي كما أشاهد مَنْ هم حولي هكذا!! وهذا ما تعلَّمناه من أهالينا، فأُهَوِّنُ عليها بعطفٍ كبير، وأقول: هذا سببه الاتِّباع بالتقليد دون العلم، فأحثُّها على أن تعتمد على سؤال أهل العلم في أخذ المعلومات عن كلِّ خطوةٍ تتعلَّق بأمور الدِّين، وتحديداً الصَّلاة؛ لأنها من أهمِّها.. فالصَّلاة سيدة القُرُبات، وغرَّة الطَّاعات، وأساس البنيان.. فهي عماد الدِّين القويم، ومقياس إيمان كلِّ إنسان.. إنَّها بركة بركات الإسراء والمعراج! وبصلاحها تصلح عند الله بقيَّة الأعمال.. ومن ثَمَّ يُرفع الدُّعاءُ إلى السماء، فتحصل الإجابة بإذن الله تعالى؛ الَّذي قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾.

ولنعلم: أنَّ الخشوع ليس من فضائلها، ولكنَّه من فرائضها! وحيث قال رسولنا الكريم ﷺ: «**إنَّ أول ما يحاسَبُ به العبدُ يوم القيامة من عمله**

صلاته ، فإن صلحت؛ فقد أفلح ، وأَنْجَحَ ، وإن فسدت؛ فقد خاب ، وخسر»[1]. صدق رسول الله ﷺ ، والكثيرون يفعلون ، ولا يسألون. . إنَّ من أكبر جرائم السَّرقة أن يسرق المصلي من صلاته ، كما قرَّر سيدنا محمد ﷺ: «**أسوأ الناس سرقةً الذي يسرق من صلاته ، لا يُتمَّ ركوعها ، وسجودها**»[2].

وإنَّ ترْك الطمأنينة ، وعدم استقرار الظهر في الرُّكوع ، والسُّجود ، وعدم إقامته بعد الرفع من الركوع ، واستوائه في الجلسة بين السجدتين ، وكلٌّ ذلك مشهور ، ومشاهد في جماهير المصلين! وتالله! إنَّ هذا لشيء عجيب! إنَّه لا يكاد يخلو مسجد ، أو بيت من نماذج الذين لا يطمئنُّون في صلاتهم ، والطمأنينة ركنٌ ، والصَّلاة لا تصحُّ بدونها. . والأمرخطيرٌ؛ لأنَّ نبينا قال: «**لا تجزئ صلاة الرَّجل ، حتَّى يقيم ظهره في الرُّكوع والسُّجود**»[3] ، على سبيل التنبيه لا الحصر ، أذكر لكم مثالاً واحداً من الكثير:

كنت يوماً أصلي في المسجد الَّذي أتلقَّى فيه علوم الدِّين ، فشاهدت فتاةً بعمر الورود تصلِّي ـ وما أشدَّ فرحي ، وسروري بمشاهدة الفتيات والشُّبَّان يؤمُّون المساجد للصلاة ولتلقي علوم الدين! ـ وكانت بصلاتها وكأنَّها في سباقٍ مع الوقت. . لم تتمَّ قيامها ، ولا في أيِّ موضعٍ. . كانت

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٣٧٩٤) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ٢٩٢) عن أنس.
(٢) رواه أحمد (٥/ ٣١٠) والطبراني في المعجم الكبير (٣٢٨٣) والأوسط (٨١٧٥) وابن خزيمة (٦٦٣) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/ ١٢٠) عن أبي قتادة.
(٣) رواه أحمد (٤/ ١١٩ ، ١٢٢) وأبو داود (٨٥٥) والترمذي (٢٦٥) والنسائي (٢/ ١٨٣) وابن ماجه (٨٧٠).

لا تدع ظهرها يستقيم أبداً في القيام بعد الرُّكوع.. فتسرع إلى السُّجود! ولم ترفع برأسها بعد السُّجود مسافةً قصيرةً حتى تسجد السَّجدة الثانية، وهكذا في جميع حركات الصَّلاة، وحتى قراءتها كانت سريعةً، فكيف قرأت الفاتحة، وسورة في لحظات لا تكفي لقراءة الافتتاحية!! لا أدري.. فأخذت أراقب هذه المصلِّية، وقلبي يقطر ألماً من أجلها! حتى انتهت من صلاتها، فأقبلت عليها؛ كي أنبِّهها على أخطائها في صلاتها، والتي وصف مثلها رسول الله ﷺ بأنها كنقر الغراب!! ووصف فاعلها بالسَّارق الذي يسرق من صلاته! فوجدتها ولَّت مسرعةً نحو باب المسجد. فلحقت بها وبسرعةٍ تتوافق مع سرعتها، واستوقفتها بلباقةٍ، ثمَّ حيَّيتها بمودةٍ، وترحاب، وانتحيت بها جانباً، وبيَّنتُ لها خطأها في صلاتها، فقالت باستحياء: لأنني في عجلة من أمري، فقلت: ترى هل تصلِّين في بيتك باطمئنانٍ؟ فأطرقت قليلاً، وقالت بخجل: لا.. إنَّني بصراحة قد تعوَّدت أداء الصَّلاة على هذا النَّحو، فقلت: يا حبيبتي! إنَّها صلاة! فهي تعني صلة العبد بربِّه تعالى، فكيف نستطيع أن نقف بين يدي الله، نرجو رحمته، ونخشى غضبه، ونحن على هذه العجلة المخجلة أمام المولى سبحانه؟ وكأننا نتخلَّص من همٍّ ضقنا به ذرعاً، فنرمي به بلا تأدُّبٍ بين يدي جلالته، غير عابئين بهول النتيجة! مع العلم أنَّ الوقت المخصَّص للصَّلاة هو من حقِّ الله وحده، ومن ثَمَّ نُحَصِّل أجرنا منه سبحانه، كلٌّ على حسب كيفية أدائه لعبادته، والكمُّ في الإخلاص له فيها، فإمَّا القبول. والثَّواب، وإمَّا الرَّفض، والردُّ!!

وينبغي علينا رفع شأن العمل الصَّالح بالديمومة؛ لأنَّه سبحانه يحبُّ من العمل دوامه وإن قَلَّ.. فهل لنا أن نستهتر في تحصيل أجرٍ لنا نحن بأمَسِّ الحاجة إليه من ذلك الوقت القليل الذي نؤدي فيه الصَّلاة، أو أيِّ

نوع من أنواع العبادة؟ ونحن نملك من الوقت الكثيرَ الكثير.

وكيف نشكر ربَّنا على جزيل نِعَمِهِ، وفضله على عباده بمثل هذه اللامبالاة في التركيز على صحيح العبادة؟! والصَّلاة هي أبلغ تعبيرٍ عن شكرنا لله حيث تشمل العمل بأركان الإسلام الخمس.

سألت الفتاة: طبعاً بإيجاز كبير، وليس على هذا الشكل الذي أسهبت فيه هنا من أجل تعميم الفائدة بالتَّذكير، رحمةً، ومحبَّةً لكلٍّ من يلزمه ذلك ممَّن يقرؤون كتابي هذا، بإذن الله.. سألتها ببشاشةٍ: هل تُرانا نتوانى عن طهو صنف من الطَّعام بغير تؤدة وتأنٍّ، ولا نعطيه حقه من الوقت كي يحسن طهوه على أكمل وجه؟ أو أيِّ عملٍ آخر نريد أن نرضي به شخصاً يهمُّنا أمره، فترانا لا نتهاون في تحصيل إرضائه، ومن ثَمَّ نكسب مديحه، وثناءه علينا، فكيف بالله، وهو خالقنا؟!

فالأجدر بنا أن نعتني بما يفيدنا في الدَّارين، وبما يرجِّح لنا كفة الحسنات في ميزان إلهنا الدَّيَّان، فكانت ردة فعلها أن احتضنتني، وقبلت وجنتي، وشكرتني على هذه اللَّفتة المفيدة، والمهمَّة، والإيضاح الضَّروري، وقد سبقتها دمعةٌ من عينها، جعلت قلبي يخفق فرحاً، وتغمرني الغبطة، لأنَّني توصَّلت لمساعدة أختٍ لي في الإسلام على التخلُّص من خطأ فادحٍ، يقع فيه الكثير من الناس! كم هو شعور رائع أن نتلمس الخير من بعضنا البعض، والمحبة، والاهتمام، وتلك الفتاة.. لولا أنَّها أحست خوفي عليها، وبحبٍّ كبيرٍ؛ لما تفاعل إحساسها مع حناني وتجاوبت معي بعين دامعةٍ تعبيراً عن نبل الهدف.. وكم صار لي من الصَّديقات من جرَّاء تنبيهي لهنَّ على أخطائهنَّ، ولقد استفدت بالمقابل من علومهنَّ الدِّينيَّة التي كانت تنقصني، وصرنا نتبادل العلم،

والنُّصح ، ثمَّ تطورت علاقتنا إلى الأسمى ، حيث اتَّفقنا على توزيع نشاطٍ خيريٍّ بيننا يعتمد مساعدة الفقراء ، والمحتاجين ، كلٌّ واحدة حسب مقدرتها ، وظرفها ، وأنا سعيدة جداً بتلك الصَّداقة في حبِّ الله اللَّطيف الخبير ، أتوسَّم الخير مع (شلَّة) الخير.

غير أنَّ امرأة من هؤلاء كانت على عكس الأخريات . . فقد غلبت عليها مزاجيَّاتها ، وهواها ، فبدت مقتنعةً بخطئها ، ومصرَّةً عليه ، ولن أنسى شدَّة حدتها عليَّ عندما بادرتُ لتنبيهها عن واحدةٍ فقط من عدَّة أخطاءٍ في صلاتها! حيث بحلقت عينيها باستهجانٍ . . ثم لَوَت «بوزها» ، وانتهرتني ، وهي تشيح بوجهها عنِّي قائلةً: وما دخلك أنت ، دعيني وشأني؟! فذكرتني للحظة بمعاناة الأنبياء وكلٍّ من دعا إلى منهج الله سبحانه من صدٍّ ، ومعاندةٍ ، ورفض النُّصح في الدَّعوة . . والذي أثار حنقي من خطئها ، هو سرعة انتشار عدوى التقليد السَّاذج بين الناس ، فقد شرعت المصليات يماثلنها في فعلتها . . عن اليمين ، وعن الشمال ومن كنَّ في الصفِّ الخلفيِّ ، حيث كنا في المسجد في ليلة إحياءٍ فضيلةٍ ، فأخذت تطيل السُّجود وهي مأمومة في صلاة جامعة ، حتَّى كاد الإمام أن يفرغ من قراءة الفاتحة للرَّكعة التالية! يا إلهي كم شمل جهلها من أخطاء في هذه الحركة فقط !! بغضِّ النظر عن الباقي.

أولاً: عدم التزامها مع الإمام ، ومتابعته في الحركات.

ثانياً: خروجها عن متابعة جماعة المصلِّيات.

ثالثاً: تهاونها في أمر الله في الإنصات لسماع تلاوة الإمام ، وخشوع السَّامع للقرآن.

رابعاً: تسبُّبها في تشويش أذهان مَنْ حولها.

وخامساً وهو الأهم: حملها لأوزار من قلَّدنها في خطئها.. ثمَّ، لاتريد أن تقبلَ النَّصيحة!.

هذا... والجدير بالذِّكر أيضاً أَنْ ألفت النظر إلى مسألةٍ هامَّةٍ جداً: إلى كل من يجيلون النظر يمنةً ويسرةً أثناء صلاتهم، وكأنَّهم لا يريدون أن تفوتهم أدنى حركةٍ تحصل حولهم، فحالهم كحال من يبحث عن شيءٍ مهمٍّ فقده! والَّذين لا يتوقَّفون عن التلاوة وهم يتثاءبون دون إغلاق فمهم بأصابع يدهم اليسرى.. والَّذين يرفعون بأبصارهم إلى السَّماء، ألا يخشون أن تتخطف الملائكة أبصارهم..؟ وأن يختلس الشيطان من صلاتهم..؟ أقول لهؤلاء: انتبهوا.. واحذَروا! أنتم في مقابلة مع الله!! فتأدَّبوا، ودعوا الخلق للخالق.. واتركوا ما يدور من حولكم، وعيشوا مع إلهكم؛ وأنتم بين يديه، وأخلصوا له تلك الدَّقائق مع حضور القلب، والذِّهن، بعيداً عن متابعة أحوال الغير، حتى تبتعدوا عن النفاق مع إلهكم، فقد جعلتم ربكم هو الأكبر وقت دخولكم في الصَّلاة؛ أي: أنَّ الله أكبر من كلِّ شيءٍ يشغلكم عن الخشوع في صلاتكم، ولكن ما يحدث مع أغلب المصلين هو أنَّهم ما أن يكبِّروا الله، ويبدؤوا صلاتهم حتى تغيب أذهانهم، وعيونهم عمَّا وصفت ألسنتهم، فأولئك ناقلون لما يقرؤون من الكتاب، غيرعاقلين له، وهذا من النفاق الخفي!!

ونجد أنَّ أغلب المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء، والمنكر! بل إنَّ أحدهم ليفكِّر في صلاته ماذا سيرتكب بعد قليل من المنكر؟! فصلاته لم تنهه عنه؛ لأنَّها صلاةٌ ناقصة.. لم يتمَّ خشوعها، ولم يتدبرَّ الهدف منها، وربما لم ينل من أجرها شيئاً، فليس للإنسان من أجر صلاته إلا ما وعى منها.. ويجب أن تصلُّوا بقامةٍ مشدودةٍ، واجعلوا

الخشوع لله في قلوبكم. . لا في المظهر تحاشياً للرِّياء.

وقد قال عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ، عندما نظر إلى رجل وهو يُطأطى رقبته: «يا صاحب الرقبة! ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب! إنَّما الخشوع في القلوب».

فما زاد عن خشوع القلب فهو نفاق فوق نفاق!! ولذلك لا ينبغي أن نُظهِر وجْدَنا في العبادة للعيان. ومن دواعي الخشوع تصفية القلوب، وتنزيه الأفكار والنِّيات، وأن نتخيَّل أنفسنا ميتين، وجُثماننا مسجَّى بين أيدينا، ونحن نصلِّي على أنفسنا! أو نتخيل: أنَّ الكعبة الشريفة أمامنا، والجنة عن يميننا، والنار عن شمالنا، وملك الموت حاضراً يقف خلفنا بانتظارنا. . فتكون صلاتنا صلاة مودِّع خاشعٍ بلا شكٍّ. . وبعدها يشعر الإنسان بفرحٍ كبيرٍ؛ لأنه مازال أمره بيده، كي يرحم نفسه بعدم إغفال الأمر، ويتَّقيَ ربَّه، ويعمل للولادة الأبدية بعد الموت.

وإلى الذين يُدخلون حركاتٍ إضافيةً على الصَّلاة، منها: أنهم بعد قيامهم من الركوع يقولون: ربنا لك الحمد والشكر! وهم يرفعون أيديهم، ورؤوسهم، وأبصارهم إلى السَّماء، وكأنهم يطلبون عطاءً، وليس هنا محلُّه. . والمفروض هنا القول: سمع الله لمن حمده. . نردِّدها بعد سماعها من الإمام، حمداً لله على نعمه الَّتي يضيق العدُّ عن حصرها، وتفضيله لابن آدم على البهائم باعتدال قوامه، ووقوفه على اثنتين!

ونقول: اللَّهُمَّ ربنا ولك الحمد، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وعليهم تكملة هذا الدعاء من كتب الأدعية المأثورة كما ورد عن الأمين الصدوق ﷺ، فهو مُطَوَّل بما فيه الكفايةلإشباع نَهَم كلِّ مَنْ يرغب الاستزادة من الأجر، والخيرات، ولكن ليس بالزيادات الفردية، والاجتهادات

الشَّخصية ، وهوى النفس والتقليد الجاهل؛ لأن ﷺ لم يدَع حاجة لاجتهاد العوامّ؛ وقال: **«اتبعوا ، ولا تبتدعوا؛ فقد كفيتم»**[(١)] .

وإلى مثل التي شاهدتها تركع في صلاتها ، ورأسها يكاد يصل إلى ركبتيها ، وعندما لفتُّ نظرها إلى خطئها في وضعيّة الركوع المبالغ فيه ، حيث ينبغي أن يكون الرأس مستوياً على محاذاة الظهر. . فقالت لي: زيادة الخير خير ! فقلت لها: نِعمَ ما قلتِ! ولكنَّ الخير كلَّه في أن نزداد علماً في أمر الصَّلاة ، وأمور ديننا العظيم. . كما علَّمنا نورُ الهدى ﷺ ، وليس في الإضافات الدَّخيلة على الصَّلاة ، ولا في المبالغة في تأدية الهيئات. . وتسهيلاً لتعلُّم الوضع الصَّحيح هنا يمكن الاستعانة بالمرآة ، كما فعلت أنا عندما بدأ اهتمامي بتعلم الصَّلاة الصحيحة ، وهناك متفرِّقات لا مجال لذكرها.

كما ينبغي على جميع المصلِّين ، والمصلِّيات في المساجد الاهتمام البالغ في الاعتناء بتسوية الصُّفوف؛ لأنَّ: «تسوية الصفوف من تمام الصلاة». كما أمرنا المصطفى ﷺ ، وأذكِّر بذلك؛ لكثرة ما لمست من إهمال تطبيق هذا الحديث الشَّريف بشكلٍ مؤسفٍ على الرَّغم من تكرار لفت النظر إليه من قبل أئمَّة المساجد قبل كلِّ صلاة. . وتبقى بعد ذلك الفوضى قائمةً بين المصلِّين ، وشائعةً في المساجد ، فترى بين كلِّ مصلٍّ وآخر فجوةً تتَّسع لشخصين ، أو أكثر ، بينما المفروض أن تتراصَّ الأكتاف كالبنيان المرصوص ، لتحقيق هدفٍ رائعٍ من تأليف القلوب بين المسلمين. وعجبي لمن يقطعن الصفَّ بجلوسهنَّ على الكراسي بين

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨٧٧٠) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١/ ١٨١).

المصلِّيات. . ويرفضن الجلوس في صفٍّ خصِّص لهنَّ في آخر المسجد، واهمات بثوابٍ أكبر. ولمن تأتي بعد البدء في صلاة الجماعة، فتنزوي في أحد طرفي المسجد مع أنَّ صفَّ المصلِّيات في المنتصف لم يكتمل بعد! والصَّحيح أن نبدأ الصفَّ من الوسط خلف الإمام، ثمَّ تنضمُّ اللاتي يأتين متأخراتٍ واحدةٌ إلى اليمين وواحدةٌ إلى اليسار. . وهكذا حتى يكتمل الصفُّ متراصاً مستوياً.

أمَّا الأخت الَّتي تؤخِّر صلاتها حتى تنتهي من أعمالها، فإنَّني أنصحها بأن تجرِّب كما جرَّبتُ، بأن تؤدِّي الصَّلاة بعد الأذان مباشرةً؛ لتحصل على نعيمَين. . أولاهما أنَّها ستلمس كم يبارك الله في أوقاتها، وتشعر بالرَّاحة النَّفسيَّة، والاطمئنان في تحصيل عظيم الثَّواب لتلبية النِّداء في أوَّل الوقت، وثانيهما وهو الأهمُّ. . أن تؤدِّي حقَّ الله، فما من أحدٍ يضمن أن يعيش حتَّى ينتهي عمله، ثمَّ يؤدِّي فرضه، فعادة التَّسويف هي من الخطورة بمكان! فضلاً عن القلق خوفاً من تسرُّب الوقت الذي تحسُّ بأنه ينقضي بسرعةِ البرق، مع الإثم ! فحذارِ يا أختي أن تنسيَكِ مباهجُ الحياة، وزينتُها، وتكاليفُها لقاء خالقكِ، وتجرفَكِ بعيداً عن عبادته الحق، فلا تشتري الدُّنيا الغدَّارة بالآخرة، وتنبَّهي لتحذير مولاك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩] !!

وأما عن فوضى الأطفال في المسجد؛ فحدِّث، ولا حرج. . فأودُّ أن ألفت النَّظر إلى هذه القضية بالغة الأهمِّيَّة. . وأقول لكلِّ أختٍ مسلمةٍ تأتي بأولادها الصِّغار إلى المسجد، ليسرحوا، ويمرحوا !! يمارسون حقَّهم الطبيعي في غير مكانه. أقول لها: لو أنك تأخذين أطفالك إلى حديقة من

الحدائق العامة التي تزخر بها بلدنا ، يلعبون فيها بحرِّيَّةٍ؛ لكان لك أجرٌ ورضوانٌ من الله أكثر ، لأنَّك بجلبك إيَّاهم إلى المسجد ، وهم لم يدركوا بعد أنَّهم يشوِّشون على المصلِّين تأثمين عند مولاكِ. . فهل يرضيكِ أن تحملي وزراً عوضاً عن كسب الأجر؟! وعجبي منكِ أيَّتها الآثمة لجهلك ، وعنادك. . وإمام المسجد يناشدكِ ، وأمثالك مرَّاتٍ ، ومرَّات بأن تُخْلي المكان كي يسود الهدوء ، وتعمَّ الفائدة على من جاء ليستمع إلى الدَّرس ، ويتعلم أمور دينه. . وليس ليسمع صياح الأولاد ، وبكاء الرُّضَّع. . فإذا بك تتجاهلين الطَّلب ، ولا تعيرينه أذناً صاغية ، دون أدنى خجلٍ ، فلا رَحِمْتِ ولا رُحِمْتِ.

ويجب أن تعلمي: أنَّ ما تعلَّمتِ من علمٍ ، ولم تعملي به؛ فهو حجَّةٌ عليك أمام ربِّك سبحانه !! وأنصح هؤلاء بأن يستعِنَّ بأشرطة (الكاسيت) المخصَّصة لنشر علوم الدِّين بدل القدوم إلى المسجد مع صغارهنَّ. . هذا إن كان التعلُّم غايتهنَّ ! لأنَّني أشك ـ مع علمي بأن بعض الظنِّ إثم ـ أنهنَّ أتين لهذا الغرض ، وعذري عند ربي سبحانه حجَّتي في حثِّ نبيه ﷺ لنا على حسن الخلق ، وعدم الأذى ، فأين مثل هذه الأخت من ذلك؟! وإنصافاً: إن كانت فيهنَّ من تريد وجه الله في ذلك؛ حبَّذا لو تتَّفق مع بعض الأهل ، أو الصديقات على الاجتماع في أحد البيوت ، وتصلِّي معهم التَّراويح كلَّ ليلةٍ ، أو تتناوب واحدةٌ كلَّ يومٍ للجلوس مع الأولاد ، وتحضر الباقيات لصلاة الجماعة ، ففي ذلك فوائد جمَّة. . وسيكسبن كلُّهنَّ أجراً كبيراً.

وبعد. . . في إحدى المرَّات. . كانت قريبةٌ لي تحيي ليلة القدر في المسجد ، فحصل من الفوضى ما جعلها تكاد تتميَّز من الغيظ! فتركت

ومن معها الإحياء من أوَّله غضباً ممَّا عمَّ المسجد من الضَّوضاء؛ لأنه في تلك الليلة العظيمة يتوجَّب الهدوء؛ كي تخشع القلوب إلى بارئها، وإن نسيتُ فلن أنسى ما حصل أمامي في ليلة إحياءٍ، حيث تحوَّل المسجد بسبب أمَّهاتٍ مستهتراتٍ إلى حارةٍ من الأحياء المهملة! لكثرة المخلَّفات من الأطعمة الَّتي جلبنها لأطفالهنَّ! علاوةً على ضجيجهم، وإزعاجهم للمصلِّين، فتبرعتُ وبعض الأخوات لتنظيف المسجد، فجمعنا من المخلفات ما يشيب له الشَّعر، فماذا جنيتِ أيَّتها المسلمة من هذا الإيذاء غير مقت النَّاس، والأهم منه غضب الله بدلاً من كسب رضاه، وعقابه بدل ثوابه.

إذاً... أرجوكِ أيَّتها الأخت المؤمنة.. الحذر، والانتباه من اللَّغو في المساجد، ولو في أمر خطوبة! فأنت تؤمِّنها لكسب الحسنات.. فتحصدين السيئات، وما تزدادين في ذلك إلا خسارة! وهذه لعمري معصيةٌ خطيرةٌ في المساجد، وخاصَّةً في صلاة الجمعة.

وقد حدث مرَّةً: أنْ كان الخطيب على المنبر يتكلَّم بلهجةٍ حانقةٍ على الَّذين يهدرون المياه دون رادعٍ من ضميرٍ، ويحثُّهم على الحفاظ على نعم الله، فإذا ببعض الأخوات يشرعن بالحديث حول هذا الموضوع، وأخذت كلٌّ واحدةٍ تفيض بما عندها ـ كعادتهنَّ في أيِّ موضوعٍ! ـ فأحدثن دوياً حجب صوت الخطيب عن الأخريات، متجاهلاتٍ نظرات الاستياء منهنَّ، وكأنهنَّ لم يسمعن بأنَّ الهمسة المتعمدة أثناء خطبة الجمعة هي لغوٌ، فكيف بأحاديث طويلةٍ، وقصص تروى، والخطيب يخطب؟ وكم من الإثم سُجِّل في صحائف هؤلاء؟! ناهيكم عن عدم استماعهنَّ لما يقال على المنبر، كي يجنين الفائدة المبتغاة، بسبب عدم إصغائهنَّ، ومتابعتهنَّ للموضوع، فضلاً عن تشويشهنَّ على الغير.

وما عظم في نفسي أكثر هو أنَّني سمعت من تغتاب الناس وقت صلاة التَّراويح!! كم أشعر بالاشمئزاز من أولئك النِّسوة اللاَّتي لا يحتملن حبس ألسنتهن حتَّى في بيوت الله!! فيا أيتها المسلمة المصلِّية أفي هذا المكان أيَّتها الآثمة؟ كيف تجرئين؟! ألا تصبرين على بلواكِ السُّوء حتَّى تخرجي من المسجد؟ ليتكِ لزمت بيتك بدل أن تأتي بشيطانك إلى بيت الله.. يلهو بك، فينسيك آداب المسجد، حتَّى يصبح أشبه بصالة استقبال، فتُكثرن أنت، وأمثالُك فيه من اللَّغط، وتتوسعن في المعصية؛ ليفتح إبليس لكُنَّ باب جهنم!! فتنبَّهْنَ أيَّتها المسلمات من هذه الغفلة.. أسأل الله لي، ولكنَّ العون، والقدرة على انتزاع هذه الآفات العديدة، والكريهة من النفس، وأعاذنا، وعافانا منها جميعاً.. اللَّهُمَّ آمين!

وممَّا ساءني جدّاً.. تصادم النساء مع بعضهنَّ في جدالاتٍ متنوِّعةٍ وعقيمةٍ، كلٌّ تريد أن تحظى بالرُّضوخ إلى وجهة نظرها بصيغة الأمر! والَّتي رأيتها تفتي بجهالةٍ لمصلِّية كانت تصلي جالسةً، لا أدري ماذا أصابها منها، ودفعها لذلك الحنق عليها؛ إذ سمعتها تؤنِّبها على صلاتها بتلك الوضعيَّة، وبصفة التَّحريم! وتُيئِّسها من ثواب ربِّها لصلاة الجالس.. جاوبتها المسكينة: أنَّها مريضة، وتعبة، ردَّت عليها بقسوةٍ، وعنفٍ: لو أنك في البيت لقمت تركضين في أعمالك ركضاً، ولو كنت في الأسواق؛ لفعلت مثل ذلك، أمَّا في المسجد؛ فأنت ترتاحين في الصَّلاة على كيفك، والله! مالك ثواب عليها، ولن تقبل منك!!

ما هذا؟! يا إلهي! ماذا أسمع، وأرى؟! رغم أنِّي شممتُ من خلال تحاورهنَّ: أنَّه تصلهنَّ قرابةٌ، أو معرفةٌ، إلا أنَّني صعقتُ ممَّا يحصل أمامي، كيف نتجرَّأ هكذا بلا مبالاةٍ على الإفتاء بغير علمٍ؟ وكيف نتقلَّد

صفة الدَّاعي من غير تأهيلٍ؟ يا للعجب!! ولولا أنَّني تدخَّلت بينهنَّ لاشتبكت الأيادي من حدَّة جدالهنَّ! فقد شرحت لهنَّ حكم الشَّرع فيما اختلفن فيه.. بأنَّ للمصلي ملء الحرِّية بكيفية الوضع في أداء صلاته، وذلك يعود تبعاً لحالته الصحية، وأنَّ الثواب على قدر المشقَّة، أو الحال، فإن كان مريضاً فله كامل الثَّواب، وإن كان تعباً، فله نصف الأجر، ولكلِّ امرىء ما سعى، والله أعلم بعباده، وهنا خجلت الثائرة من نفسها، ولبدت، بعد أن هدأت من حدَّتها، وبيَّنت لها خطأها بلطفٍ بالغٍ، كي آمن على نفسي من صفعةٍ منها ترديني أرضاً.. ولكنَّ الله سلَّم!

ومنهنَّ من تتحدَّث خلال صلاة التَّراويح عن مشكلتها الكبرى في الشَّهر المبارك.. ألا وهي همُّها ماذا ستطهو من أنواع الأطعمة غداً، والكيفيَّة، والمقادير، وأخرى تشكو عدم نفاد أنواع الأطعمة العديدة الَّتي تعبت جداً في طهوها، بسبب طبق الفول الَّذي يكتفي به الصَّائم، فتفسد من بعده كلُّ الأطعمة! ولمَّا حاولت أن ألفت نظرها إلى خطورة اللَّغو في المساجد؛ شفعت لها سيدة لا تعرفها بعذرٍ أقبح من الذَّنب؛ إذ تقلَّدت دور المحامي الفضولي ـ وهنَّ كثر! كثر! ـ وقالت: لعلَّها لم ترها منذ مدة! قلت: إذاً فلتنتظر على الأقل حتى تخرج من المسجد؟! وإنَّني أتساءل هنا: هل المسجد المكان المناسب للقاء الثرثارات، والتحدُّث بأمور الدُّنيا أيَّتها المسلمات؟! عجبي من هذا الجهل المطبق.

ويلزمني هاهنا وقفةٌ ضروريةٌ جدّاً: غريبٌ هذا الأمر؛ الَّذي تشتكي منه غالبية ربَّات المنازل.. حتَّى صار شعار رمضان بالنِّسبة إلى النِّسوة! وعجباً كيف لا يغيِّرن هذا الشعار المسبب لغيظهنَّ طوال حياتهنَّ، وهاهي الواحدة منهنَّ تحمل غيظها لتبثَّه إلى قريبتها.. وأين؟ في بيت الله! هل باتت كلمة رمضان كريم إشعاراً بتنوُّع الأطعمة، والمشروبات؟ ومدٍّ

مائدة الإفطار، والسُّحور بكلِّ ما يخطر بالبال من أطباق الطعام؟! والكثيرات يضيِّعن فريضة الصَّلاة، أو يؤخرنها عن وقتها من أجل إعداد أنواع الأطعمة، خاصَّةً أيام الولائم!! وكيف يبارك الله في طعام ضُيِّع من أجله فريضةٌ.. إن لم تُضَيَّع فرائض؟؟ وللعجب العجاب: إنَّ هذه الأطعمة التي بذلت فيها المرأة أغلى وقتها لا يؤكل منها إلا اليسير، ثمَّ تلقى في أكياس النفايات!! ومتى كان معنى كلمة رمضان كريم هو التفنُّن في الموائد، وملء البطون، فنتخم بها معداتنا؟ أيعقل أن نملأ بطوننا، ثمَّ نلجأ للمُهَضِّمات الضارَّة.. فلا ينتهي الشَّهر إلا وأكثر الناس في إعياء.. فهم مرضى بسبب إرهاق المعدة بكثرة الطَّعام؟ فيجب علينا تطبيق حكم الإسلام، لا حكم العادات، والتقاليد الجاهلة، ولو أنهنَّ قسَّمن الأنواع الكثيرة إلى مدة أسبوع؛ لكان في ذلك راحةٌ لهنَّ، واستغلالٌ لوقتهنَّ بما ينفع في هذا الشَّهر، لأنه أهم شيءٍ في رمضان، وحفظاً للصحَّة، والمال؛ لأنهنَّ مسؤولاتٌ عن الإسراف في العائلة، ويجب استحضار النِّية لله؛ لكي يصبح عملهنَّ عبادةً، ولا تعتبر هذه الساعات هباءً، ويجب أداء الصَّلاة في أوَّل الوقت، واستغلال مدَّة تحضير الطَّعام بالتَّسبيح، أو سماع القرآن، والدروس من (الكاسيت) لأنَّ القائم على الصَّائم له أجرٌ كبيرٌ، فلا تضيعيه أختي المسلمة، كيلا يضيِّع الله أجرك.. وكذلك في طعام السُّحور، الله.. الله في استغلال السَّحر، فهو من أجَلِّ الأوقات؛ لأن فيه نزول المولى إلى السَّماء الأولى!! فأين أنت من ركعتين تناجين فيهما ربَّك.. وأن تثبتي على ذلك مدى الحياة، فكثيرٌ من الناس عن هذا غافلون، أو متهاونون، فاستغلِّي وقتك بكثرة الاستغفار تحصيلاً لعظمة: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٨]! عجباً كيف تتوارث الأخطاء، وتنتشر بين عامة النَّاس، حيث القبول بها،

والإقبال عليها. . والتَّمسُّك الشديد بها!! وكأنَّ الفرد منَّا يعيش في جوعٍ طوال السَّنة، فيأتي شهر رمضان له بالفرج؛ لكي يعوِّض ما فاته في العام كلِّه من المآكل بأنواعها، حسبهم بأنَّه شهر الكرم! متجاهلين بأنَّ كرمه إنَّما جعل ليكرم به الفقراء، والمساكين فقط، والنَّبي ﷺ كان أجود ما يكون على الفقراء في رمضان[1]، ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب: ٢١].

إنَّه شهر كريمٌ بجود الله على عباده المخلصين له في التعبُّد بمضاعفة الأجر، والثواب، بفضل القرآن الَّذي أنزله فيه الرحمن. . فجعله شهر الجود، والغفران! فياليتنا نكرم معداتنا بالرَّاحة، ولا نتخمها، بل نعطيها إجازةً هي فرصتها الوحيدة بعد تعبها من أنواع الطَّعام طوال العام.

وأمَّا بخصوص فضل التزاور بدعوى صلة الرَّحم. . فذلك من أسمى ما دعا له الشَّرع، وخصَّه في رمضان بعظيم الثَّواب في تفطير الصائم بمماثلته في الأجر، ولكن هذه الفائدة الكبيرة للأسف لا تشمل الذين لايملكون كبح زمام أنفسهم عن ممارسة عاداتهم السَّيئة في أيِّ زمانٍ ومكان!! وبما أنَّ صلة الرَّحم لم تكن يوماً وقفاً على هذا الشَّهر الفضيل، بل ذلك مفروضٌ على المسلم في أيِّ وقت. . فليحجِّم هؤلاء تلك الصِّلة العظيمة ضمن ضرورة تفقُّد الضَّعيف، والمحتاج منهم. . وتفقُّد أحوال الفقراء، وإغنائهم عن المسألة. . وهو الهدف الأساسي من الإحساس بالجوع ـ وهذا مطلوبٌ من كلِّ مقتدرٍ دائماً، وأبداً ـ يا ليتهم يدَعوا تلك العادات، والأعراف الَّتي صبغت بتلك الحجَّة الواهية. . حجَّة صلة الرَّحم، وتراهم بعد ذلك يضيِّعون ليالي رمضان العظيمة عند الله. .

---

(١) رواه البخاري (١٩٠٢) ومسلم (٢٣٠٨/ ٥٠).

بسهرات السَّمر ، والأحاديث الفارغة الَّتي لاتكاد تخلو من الغيبة ، وكأنه شهر التَّسالي واللهو! والاختلاط المحرَّم من بعض الأقارب.. فهذا حقٌّ أريد به باطلٌ! ناهيك عن ارتكاب المعاصي صغيرها ، وكبيرها ، مثل: تدخين السَّجائر ، والأراكيل المضرَّة - ويا ليتهم يستغلون هذا الشَّهر فرصةً للإقلاع عن هذا البلاء المهتك لصحَّتهم ، فلهم فيه فرصةٌ عظيمةٌ ، ولا يدعوا الشَّهوة تغلبهم ، فالنفوس مستعدَّة ، والأجواء مهيَّأة- ويمضون في المشاوير المتنوعة ، والأحاديث ، والثرثرة ، والجلوس في المطاعم ، والخيم الرَّمضانية إلى الفجر.. ومنهم بذلك من يؤخِّر الصَّلوات ، ولا يؤدِّيها مع الجماعة.. إن لم يكن تفويتها ، والتَّكاسل عن صلاة التَّراويح في الاسترخاء أمام التلفاز ، ومشاهدة المسلسلات ، الَّتي تتنافس بها القنوات الفضائية في ذلك الشَّهر العظيم خاصة.. والَّتي لا حصر لعددها!! وتبادل الآراء النَّاقدة ، أو المشجعة حول الأعمال الفنِّية ، والعاملين فيها ، فهم يضيِّعون الخيرات في تلك السَّهرات ، دون استشعارٍ لعظمة هذه الأيَّام ، ومتغافلين عن الفائدة العظيمة في استثمار الوقت الغالي في ذلك الشهر المبارك ، فإذا كان الأمر كذلك؛ فالأولى عدم التَّراحم على تلك الحال ! فلماذا يا وليَّ الأمر لا تأخذ وأهلك هدنةً مع وسائل الإعلام خلال هذا الشهر؛ وهو لتربية النُّفوس ، فلعلَّها بداية النِّهاية.. فإن لم تكن الآن فمتى إذاً؟! والموفَّق مَنْ وفقه الله ، وأبواب الخير فيه كثيرةٌ.. مثل جعل صندوق يجمع فيه المال في كلِّ اجتماع مع الأهل ، ثم يوزَّع على المحتاج ، وفي هذا الشهر فرص قد تذهب ، ولا ترجع ، فيجب استغلال كلِّ لحظةٍ من لحظاته ، وهو كضيف خفيف الإقامة ، متميِّز بالجود ، والكرم ، يزور عباد الله في السنة مرَّةً ، غير آبهين لعظيم عطائه لكلِّ عملٍ تعبُّديٍّ يقصد به وجه الله العزيز الكريم ، وغير

مستغلِّين لتصفيد الشَّياطين ، وفتح أبواب الجنة ، وإغلاق أبواب النَّار؛ لتصحيح الأخطاء ، والحرص على العمل الصَّالح ، وفي هذا الشهر فرصٌ قد تذهب ، ولا ترجع ، فكما تضاعف فيه الحسنات ، كذلك تتضاعف السَّيئات!! فكما الزَّمان له شرفٌ في الأعمال الصَّالحة ، فأيضاً له شرف في الخطأ ، والمعصية فيه ، فإنَّها تتضاعف فيه كما في الحجِّ تماماً ، فليس الصوم المفروض هو الإمساك عن الطَّعام فقط ، بل يفرض على الصَّائم أن تصوم جميع حواسِّه عن كلِّ ما حرم الله عليه؛ ليصبح صيامُه كاملاً وأجرُه تامَّاً من فضل الله الأعزِّ الأكرم.

أمَّا الموسيقا ، والغناء.. فآه.. ثمَّ آه ممَّا قيل فيه! لقد قال بعضهم محتجِّين على تنبيهي إيَّاهم بأنَّ ذلك الغناء الماجن حرامٌ في ديننا: إنَّ الموسيقا تنمِّي في الإنسان الإحساس المرهف ، والذَّوق الرَّفيع! وإنَّها غذاء الرُّوح! انظروا إلى هذا الجهل المطبق! هل الموسيقا هي غذاء الرُّوح ، أم ذكر الله الَّذي تطرب له الأذن ، فتسمو به الروح؟! ويا أسفاه! ماذا سيقول السُّفهاء إذاً؟!

ألم تسمعوا أيُّها المسلمون عن الأحاديث الكثيرة التي وردت بهذا الصَّدد؟ ألم يقل لكم أحدٌ خلال التزامكم بدينكم عن حديث الصَّادق المَصدوق: أنه قال: **«الغناء ينبت النِّفاق في القلب»**[1].. وقوله: «استماع الملاهي معصية والجلوس عليها فسقٌ» ، وهو بريد الزِّنى يحيي في النفس ذكرى أيام المعاصي ، والفجور في النِّساء ، والرِّجال لمن كان غارقاً منهم في الجهالة.. وإنَّه بلاء عظيم قد وقع فيه كثيرٌ من الناس!

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٤٣١٩) وانظره في كشف الخفاء (١٨٠٨) وتذكرة الموضوعات (ص١٩٧) والمقاصد الحسنة (٧٣١) والفوائد المجموعة (٧٥٧) والأسرار المرفوعة (٣١١).

وتسألون ، فيجيبكم القرآن : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [لقمان: ٦ - ٧].

وقد قال عن ذلك ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: هو واللهِ! الغناءُ ، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ: هو الغناء ، وأشباهه ، واقرؤوا قوله سبحانه : ﴿ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ ﴾ [الإسراء: ٦٤].

قال مجاهد ـ رضي الله عنه ـ: هو الغناء ، والمزامير .

وقال ابن القيِّم ، وغيره: بل إنَّ نشوة الموسيقا ، وسُكرَها أعظمُ من سُكْر الخمر .

وقال أيضاً: برئنا إلى الله من معشرٍ فيهم مرضٌ من سماع الغناء ، فعشنا على سنَّة المصطفى ، وعاشوا على دندنة ، دندنة!

وعلى وجه العموم صار موضوع الأغاني الهابطة ، والمُخدِشة للحياء ، والمثيرة للغرائز من أعظم الفتن في هذا الزَّمان! وقد قرأتُ في صدد ذلك : صحيحٌ بأنَّ الإسلام لم يقف في وجه كلِّ غناءٍ ، بل وقف في وجه المعاني السَّاقطة الماجنة ، وهي خطيرةٌ جداً في حياة كلِّ الأمم والشُّعوب. ولعظيم خطر الأغنية ، وعميق أثرها في المجتمع ، يقول دانيل أُكنل : «دعوني أكتب أغاني الأمَّة ، ولست أبالي بعد ذلك من يَسِنُّ شَرائِعَها» .

ولا غاية لهؤلاء إلا تشويه الحقائق ما دامت هناك آذانٌ صاغِيةٌ ، فلْيتحاشاها المسلمون ، ويتجنبوها ، فلا يتشبهون بشيءٍ من أعمال أعداء الله ، والفاسقين. . فلا جدال بوجود الدَّليل الصَّحيح ، الَّذي يؤكِّد على

أنَّها من المنكرات.. ومن حسن إيمان العبد أن يقلع عن الذَّنب من قريبٍ، وأنا أسألكم: بالله عليكم.. ما هو حال الغناء المصوَّر الذي نشاهده اليوم على الفضائيات.. وماذا نسمع من كل حدبٍ، وصوب؟! أجيبوني أرجوكم! وهناك الكثير من الصَّحابة الأجلاء الذين أكَّدوا تحريم ذلك الغناء، وتلك المعازف، ولكن لم يعد أكثر الناس يعيرون آذاناً صاغيةً.. كما جاء في آية لقمان: المذكورة سابقاً، ولكن.. على قلوبٍ أقفالُها؟! بل لعمري كما قال سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٞ وَرِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَأۡخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلۡأَدۡنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغۡفَرُ لَنَا وَإِن يَأۡتِهِمۡ عَرَضٞ مِّثۡلُهُۥ يَأۡخُذُوهُۚ أَلَمۡ يُؤۡخَذۡ عَلَيۡهِم مِّيثَٰقُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِۗ وَٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الأعراف:١٦٩]، يا الله ما أروع آيات القرآن، وما أشد انطباقها على الواقع..!!

وكم رأينا صوراً شَوهاء في الَّذين يرجعون من بلاد الغرب.. وهم عقولهم وقلوبهم غربيةٌ، يتنكَّرون لدينهم، ويخالفون الشَّريعة، وينشرون قيم الغرب المفسدة في بلدهم المسلم.. ولكن خاب أملهم بحمد الله.. فبينما كان أعداء الإسلام يتوقَّعون أن ينتهي الإسلام على أيدي أولئك الفجَّار المغرضين، وإذا بالإسلام ينهض من جديد.. والله من ورائهم محيط حيث قال: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [الصف: ٨].

ألا يعلمون أنَّهم بأنفسهم يمكرون وهم لا يشعرون..! فالله ينصر من يقوم بنصره، ويخذل من ينصر الشيطان، ولكن من المؤسف حقاً: أن الإعلام المتنوع من أعداء الإسلام قد نجح بأن يدير عقولهم ويُحَوِّلهم كي يصغوا إليه، ويلقوا بقيم دينهم وراء ظهورهم.. بأن يجعلوا الموسيقا،

والمحرَّمات في وصفة العلاج للشفاء من الأمراض العصبية النَّاجمة عن القلق؟! مع أنَّ علاجها من صيدلية الرَّحمن.. ومنهج الله يقول للمؤمن: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤].

نعم.. الشِّفاء في كلام الله.. حيث إنَّ كل مريض مؤمن يجد ضالَّته من العلاج النَّاجع، ووصفوا للأمراض النفسية الحاقدة احتياجها إلى الضَّحك، والتمويه لعلَّها تشفى.

إنَّ من يعرف الله، ويتخلَّص من الضَّغائن، ويؤمن بالقدر، ويقنع بما قسم له يشفيه المولى شفاءً دائماً، من غير أن يفتِّش عمَّا يضحكه؛ ليشفيه شفاءً آنياً غير مضمون.. ولا أقول بأنَّ المسلم المتديِّن يجب أن يكون مكفهرَّ الوجه، عبوساً، بائساً، ومتجهِّماً أبداً معاذ الله! لأنَّ الأصل في صفات المسلم الحق أن تظهر عليه لمحة الإسلام في القلب المفعم بالخير، والمطمئنِّ في حبِّ الله، والإشراق في الوجه المتبسِّم بسعادةٍ، المتفائل برحمة الله، والحبور الدَّائم مع الصَّفاء، والسموِّ الرُّوحيِّ، والتَّسامح مع الغير، وذلك هو المرتجى من الله أن يهبه لكلِّ مؤمنٍ حق يعمر قلبه الإيمان.. والله المستعان.

ويا لأسفي الشَّديد لما صار عليه حال المسلمين من جرَّاء استخفافهم بعقيدتهم السَّامية، وتسيُّبهم فيها؛ إذ قالت إحدى الفنانات التَّائبات توبةً منقوصةً.. حديثاً عن الغناء، وهي التي قد التزمت بأمر الله بلبس الحجاب فقط.. لأنَّها تتحدَّث بعقيدةٍ مفسدةٍ، فقالت: إنَّ الغناء يرضي الله!! وبأنَّه سبحانه وتعالى قد أمر بالتَّغنِّي بالقرآن الكريم؛ لأنه يحبُّ الغناء؟! والأدهى والأعظم من ذلك.. أنَّها تجرَّأت على مولاها الواحد الأحد، وقالت: إنَّ للغناء إله ! كما للحبِّ إله! فقد عدَّدت الآلهة،

وخصت بكلِّ مجالٍ إلهه؟؟ تعالى الله عمَّا يأفكون. . قاتل الله تلك السَّفيهة. . والله إن هي إلا امرأة افترت على الله كذباً! إذ تتفوَّه بهذا الشِّرك؛ وهي المسلمة. . على مسمعٍ من الملأ عبر قناة فضائيَّةٍ! فأتمنَّى على كلِّ من سمع لكلامها هذا أن يرمي به تحت قدمه؛ لأنَّه صدر من جاهلةٍ. . فبدت مثالاً خطيراً للجهلة، وضعاف الإيمان بفتواها الشَّيطانية!! فتوبتها على هذا النَّحو يلزمها توبة؛ لأنَّها كانت تتباهى بماضيها، ومعاصيها. . ولا زالت تجامل الناس بمهنتها. . بينما أخذت أخرى تتغنَّى بإنجازاتها، وبأمجاد ماضيها المخجل.

ومن شروط التَّوبة النَّصوح التوقُّف عن الذَّنب، والنَّدم على ما مضى من تفريط، مع العزم، والإصرار على عدم الرُّجوع إليه، ولو كان للمجاملة! وأُشْهِد الله على أنَّني لم أذكر هذا إلا حزناً، وشفقة على من أيَّد كلام الأولى، ثمَّ اتخذها إماماً يستشهد برأيها الكافر؟! وأقول من هدي القرآن: يا أيها النَّاس اتقوا ربكم الَّذي خلقكم، واعبدوه موحِّدين، ولا تتبعوا أهواء الشياطين، من الجنَّة، والنَّاس أجمعين، فهذا هراء المجانين.

والقرآن عنده سدُّ الذرائع، فسداً للذرائع، ودرءاً للمفاسد إليكم هذه الآيات: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]. . ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤].

وأصبح من المؤسف حقاً أنَّني لا أدخل بيتاً من بيوت المسلمين الملتزمين بدينهم، أو المنفلِتينَ منه. . إلا وبيوتهم تحتوي على كميَّةٍ هائلةٍ من مجموعات (كاسيتات) للأغاني العربيَّة والغربيَّة السَّامة!! فاقتناؤها أصبح من الضَّروريات، حتى عند الأطفال الأبرياء والبنات!

وغالباً ما تصدح بها مسجلاتها في البيوت والسَّيارات بلا حياءٍ ، ولا مسؤوليَّةٍ تجاه الآخرين! وعلى الأغلب لا يوجد في البيت شريط واحد للقرآن ، وعندما يكونوا في حاجةٍ ماسَّةٍ إلى القرآن عند وفاة أحد منهم . . يستعيرون شريطاً من عند الأقارب!!. ما هذا الجهل في الدِّين يا من تدَّعون التديُّن! يا من نأوا عن تعاليمه! هذه هي العقيدة التي هي سفينة النَّجاة للإنسان في بحر هذه الحياة تحذِّركم ذلك البحر الهائل : ﴿ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ إلى قوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فلا منجى من هذه الأهوال المتراكمة ، وما يحيط بالنَّاس في هذه الحياة من بؤسٍ ، وشقاءٍ بسبب انصرافهم عن دراسة علم الحديث الشَّريف ، والسنَّة المعطرة ! وانكبابهم على متابعة العلوم الماديَّة ، والعمل لجمع المال فقط ، فلا صلاح لهم إلا أن يركبوا سفينة نوح ، فيجدوا فيها المصباح المضيء؛ الَّذي ينير السَّبيل ، وهم بأمسِّ الحاجة لمعرفة تعاليم دينهم ، للحصول على شهادة الإيمان الكامل ، والرّاسخون في العلم هم أجدر الناس للقضاء على الجهل في التقليد الأعمى ، وما أصبح عليه أكثر الناس من العادات المكتسبة من أعداء دينهم القويم .

ابن آدم! الأقلام عليك تجري ، وأنت في غفلة لا تدري .

ابن آدم! دع المغاني ، والأوتار ، والمنازل والدِّيار ، والتنافس في هذه الدَّار ، حتى ترى ما فعلتْ في أمرك الأقدار .

* * *

إزعاجات

إنَّ الَّذي جعلني أذكر ذلك هو معاناتي ، والكثيرون من مزعجي هواة السَّماع للأغاني بصوتٍ عالٍ قد يصل أحياناً مسافة ميل!! والمحزن: أنَّ هذه العادة المزعجة ، والمخزية تكاد تصبح رمزاً مخجلاً لبيوت المسلمين!! أذكر منهم على سبيل المثال: جيراني الذين كثيراً ما تسبَّبوا في إشكاليَّاتٍ مع أولادي. . بسبب تلك العادة السَّيئة ـ علاوةً على عاداتٍ أسوأ ـ عندما كانوا يأتون من بلاد الغرب في إجازاتهم الصَّيفيَّة؛ حيث أذهلهم ما صار عليه الفارق المؤسف الَّذي صار بين المسلمين ، والغربيين! فلم يوفِّروا أسلوباً مؤدِّباً ، أو قاسياً إلا واتبعوه ، فأخبروا المسؤولين لمنع هؤلاء الجيران الظَّالمين من إزعاجاتهم الَّتي لا تحتمل. . ضمن إطار: «لا ضرر ولا ضرار»؛ لأنهم يستبيحون هذا السَّماع في أيِّ وقتٍ لا يخطر على بال عاقلٍ ، ولكن أنَّى للصمِّ ، وفاقدي الإحساس بالغير من استجابة؟! والاستهتار براحة ، ومصلحة الآخرين ، وتهميشها يجري مجرى الدَّم في عروقهم؟!

هذا. . وإنَّ من المحزن هو ما حصل معي عندما التقيت بربِّ أسرتهم في المصعد ، وكنت أحمل في يدي كتباً تحتوي على كل ما يلزم للمسلم

من تأديب ، ولمَّا حدَّق بعينيه إلى ما تحمل يدي بفضول؛ بَدَرتُه بقولي: هذه كتب دينية قيِّمة ، هل تحبُّ أن تستعيرها؛ لتقرأها ، وأهل بيتك؟ فعجبت أن يجيبني برفعةٍ ، وكبرياء بقوله: لا. . لا إنَّ عيالي كلُّهم يصلُّون (وآخر تمام!!) ولم لا أيُّها الأب الجاهل ، والاستزادة من العلم أمرٌ إلهيٌّ. . مجافياً مذكِّرات الحكيم الحميد سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ ، أترون معي مدى جهله؛ وهو يعتبر نفسه ، وأهله قمَّةً في العبادة؛ لأنهم فقط من المصلِّين!! انظروا إلى قناعته الجاهلة. ومفهومه للعبادة كيف تقتصر على أركان الإسلام ، وكأنَّ العلمَ في دين الله وقفٌ عليها. . أو كأنَّ الصَّلاة هي الدِّين كلُّه ! أولم يعلم بأنَّ الله تعالى أمر بإقامة الصَّلاة ، وقال: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه: ١٤] ، ولم يقل لعباده صلُّوا؟ ولكن أمَرَ بإقامة الصلاة الخاشعة الَّتي تذكر بأوامره؛ كي نتدبَّرها في أعمالنا ، الصَّلاة الحقيقية بالله. . وفي حديثٍ قدسيٍّ قال تعالى: «**ليس كلُّ مصلٍّ يصلِّي ، إنَّما أتقبَّل الصَّلاة ممَّن تواضع لعظمتي ، وكفَّ شهواتِه عن محارمي ، ولم يصرَّ على معصيتي. . .**»(١).

فالصَّلاة الخالصة تصب في القلب نوراً يفرق به بين الحقِّ والباطل ، إنَّه نورٌ إلهيٌّ يضيءُ للنفس طريق الحق ، ويريها الخير من الشر ، وأما الصلاة التي لا تنهي مؤدِّيها عن الأذى؛ فإنَّها لا تعدُّ صلاةً! ولكنَّها عادةٌ يمارسونها بسذاجةٍ ، وجفاءٍ ـ وقد أسقطوا صلاة الفجر من حساباتهم لطول سهرهم الضَّارِّ ـ وقال أحد الكتَّاب: عجبت لمن يقف بين يدي الله خمس مرات كلَّ يومٍ ، يرجوه أن يهديه صراط الَّذين أنعم عليهم ، ثمَّ يرى أهله ، أو مَنْ حوله منه غير مكارم الأخلاق ، بل الأعجب أن يحرم نفسه ،

---

(١) رواه الديلمي في مسند الفردوس (٤٤٨٥) وذكره الزبيدي في الإتحاف (٨/ ٣٥٢) عن حارثة بن وهب.

وعياله فرصة التَّحسين ، والرَّقيّ من هذه الكتب!! علماً بأنَّهم من الفئة المتمسِّكة بمظاهر التَّديُّن . . والنِّساء فيهنَّ أيضاً يلبسن ذلك الذي يسمُّونه : «أحسن من بلا!!» وأما عن أعمال تلك العائلة . . فهي خاليةٌ من آداب الإسلام ، وحيائه في المجتمع . . بل يغلِّفها الجهل ، والدِّين منها براءٌ ، خاصَّةً وهم يؤذون الجيران بسوء أخلاقهم الكريهة! وقد كانت لي محاولاتٌ عدَّةٌ معهم . . لكن لا وفاء لما يَعِدون ، ورسول الله ﷺ قال : **«والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن». قيل : مَنْ يا رسول الله! قال : «الَّذي لا يأمن جارُه بوائقَه»**[1] .

ولعمري كم كثر هؤلاء الذين لا يأمن جيرانهم بوائقهم بعد أن صار كلُّ واحد منهم إلهُهُ هَواه . . وقِبلتُهُ شهوتُه . . وكتابُه مصلحتُه !! وكأنِّي بهم يسكنون الأرض بمفردهم يستبيحون ما حرمت قيم دينهم الأمثل ، ضاربين به عرض الحائط ، ولا هم ينتبهون؟! فما فائدة التَّديُّن مع سوء الخلق! ولا يحلِّينا بالصبر ، ويثلج صدورنا بعد اليأس من تقويم هؤلاء ، وأمثالهم إلا قول الحسن البصريِّ : (ليس حسن الجوار أن تحسن لجارك ، ولكن حسن الجوار أن تصبر على أذاه) .

والنَّبيُّ ﷺ وصَّى المسلمين بجيرانهم ، ولو كانوا كفاراً.

زد على ذلك إزعاجات البقيَّة من الجوار الذين يستمتعون على الشُّرفات! مع زوَّارهم كلَّ ليلةٍ من ليالي الصَّيف الملهبات ، وحتَّى ساعةٍ متأخِّرةٍ من الليل تطول السَّهرات . . إن لم تكن حتَّى الصباح أكثر المرَّات ، فصارت عادة مألوفة من سيِّئ العادات! وأحاديثهم ، وضحكاتهم يفرضونها على مسامع الجيران بصوتٍ خالٍ من الأدب ،

---

(١) رواه البخاري (٦٠١٦) ومسلم (٤٦) عن أبي هريرة.

والمسؤوليات!! ومنهم من يرغب متابعة المسلسلات ، فيجعلون من تلفزيون هؤلاء نائباً عن جميع التلفزيونات ، وقد أسقطوا من اعتبارهم أنَّ غيرهم كاره لما قُسِروا عليه في تلك المشاركات. . وأنَّ منهم مرضى يشتهون تخفيف آلامهم بنعمة السُّبات؛ الَّذي حجبوه عن الجميع ظلماً ، وعدواناً وافتراءات! فجعلوهم يتقلَّبون في الفراش حتَّى الصباح ، وجعلوا نعمة النَّوم من سابع المستحيلات. . متناسين أيضاً: أنَّ هناك أطفالاً حرموا هذه النعمة بسبب تلك السُّلوكيات ، حتَّى عمَّن يريدون أن يضربوا في الأرض ، يبتغون من فضل الله. . عرقلوا لهم تأمين المعاشات. . وتحصيل الخيرات ، وما أسوأ هذا في أوقات الامتحانات. . وطلاب المدارس ، والجامعات . . يلزمهم الهدوء لاستيعاب الدِّراسات. . وهم يجهدون في تمحيص المعلومات ، كي يحصِّلوا أعلى العلامات ، يأملون أن يصلوا لأعلى الشَّهادات ، وقد احتججنا وكثير من الجيران مئات المرَّات. . ففشلت كلُّ السبل ، والمحاولات ، فلا حياة لمن تنادي مع أحياءٍ شبه الأموات!.

وتلك الظاهرة التي يتَّبعها الكثيرون ، في أفراحهم ، و أَتراحهم ، يُلزمون الناس بمشاركتهم فيها قسراً ، ويجعلونها صلةً مزعجةً ومؤذيةً (بالميكرفونات. .) من طبول ، وأهازيج في الأفراح ، وأنشودات. . ثمَّ طواف موكب العروسين أنحاء المدينة يوقظون النيام بزمور السَّيارات. . فيباركون لهم بالتبرُّم والزَّفرات ، ومن تلاوةٍ قرآنية في الأتراح ! تجعل كلَّ مَنْ حولَهم يكاد يتميَّز من الغيظ من تلك الإعلانات ، ومن الباعة الَّذين يعلنون عن بضاعتهم بمكبِّرات الأصوات. . وفي مختلف الأوقات!

وأوجِّه رجاءً خاصاً إلى الَّذين يزعجون النَّاس ولكن بشكلٍ آخر بالنِّداءات ، كالَّذين يتَّخذون من (زمُّور) السَّيارات وسيلةً لمن لهم عندهم

طلبات ، والذين يتلاعبون (بفرامل) السَّيارات ، فيحدثون أصواتاً هائلة آناء الليل . وأثناء قيلولة (النَّهار) يرعبون الأحياء ، والأموات بتلك (التشفيطات) غير آبهين لما يعتري أعصابهم الَّتي سيوافيها الانهيار من هول تلك المرعبات .

أقول لهؤلاء : بالله عليكم! كيف تنسون أيديكم على (الزَّمور) تلهبون به أعصاب العباد . . وإذا طال عليكم الوقت تبدِّدون ضجركم بالتفنن ، والتنوع في الإيقاعات ، بما يروق لمزاجكم ، وتعكِّرون به مزاج العباد ، وكيف أصبح التفكير براحة الغير من المغيّبات؟! فلطفاً ، وقليلاً من الأدب يا هؤلاء! واتَّقوا خالق الكائنات ، رحمةً بالإنسانية التي ظلمتها تلك الأفعال الصبيانية ، (والتزميرات) . والتي لا تَنِمُّ إلاعن قلَّة ذوقٍ ، وعظيم السَّخافات! آمل أن تُحَلَّ قريباً تلك المعضلات .

والأدهى من ذلك . . عن بعض الجيران الَّذين يقطنون في الطوابق العليا وبلا أيِّ حرجٍ ، أو خجلٍ يلقون نفايات المأكولات ، والمشروبات من الشُّرفات إلى الطرقات!! فيجلِّلون بها السَّيارات بغطاءٍ ملوَّن من تلك القاذورات!! ويستيقظ أصحابها في الصَّباح ليركبوها ، فتصدمهم تلك المشاهدات! وتدمي قلوبهم هذه المنكرات ، فيقلِّبون أكفهم حسرةً على ما فات ، وعلى ما هو آت من مصاريف غسيلها كلَّ يومٍ حيث صار من المسلَّمات . . لتكرار حدوث تلك الأذيَّات!! وإذا مرَّ إنسانٌ ذو حظٍّ تعس من تحت تلك الشُّرفات؛ ناله نصيب من أرذل الضِّيافات!! فإذا لامهم ، أو شتمهم؛ لم يعترفوا بفعلتهم ، واستنكروا هذه الاتِّهامات . . وعتبنا كبير على مسؤولي البلديات؛ لأنَّه لم يكلف هؤلاء بأعلى الغرامات ، ويجعلهم عبرةً لأمثال تلك العائلات . . وعلاوةً على كلِّ هذا . . ما يُحدثه الأولاد أثناء لعبهم ، وضجيجهم طوال اليوم من إزعاجات . . وقد نقلوا الملاعب

إلى مداخل البنايات. . يمارسون فيها كلَّ ما يخطر على البال من ألعاب يتنافسون فيها بالزَّعيق، والهتافات!! علاوةً على ما يطيب لهم من تكسيرٍ، وتقذيرٍ، وتشويهٍ لتلك السَّيارات. . ولمن سولت له نفسه من الجيران تعويض ما فاته من نوم ليلة أمسه؛ الَّذي فات. . سبَّبه زعيق أهاليهم، (والصراخات) فتاقت نفسه شوقاً إلى الرَّاحة بشيءٍ من (القيلولات) ولكن أنَّى له ذلك، وصراخ الأولاد يصدر القرارات، وتقول له: هيهات لك تحقيق رغبتك هيهات! ناهيك عن الَّذين فقدوا الإحساس بالذَّنب، وبأدنى حياءٍ، وهم يرمون بنفاياتهم من نوافذ سياراتهم إلى الشَّوارع، ذلك المنظر المؤلم، والمتكرِّر للعيان كلَّ يومٍ، وإليكم بالمناسبة أَحَدُ هذه المواقف.

هذا الموقف المضحك، والمؤسف مع أحد فاقدي الإحساس: لقد شاهدت شاباً يلقي أقذاراً في الشَّارع، وكانت حاوية القمامة قريبةً منه فاقتربت من الشَّاب، وأخجلتُه باستنكاري فعلته هذه مع أنيق هندامه، فقال وبكلِّ جِدِّيةٍ، واستغراب: هل أصبتُكِ منها بشيءٍ؟! قلت: لا، قال: ماذا إذاً؟! قلت: إنَّك لم تُصِب بها ثيابي، ولكنَّك أثرت اشمئزازي، وآذيت ناظري من استهتارك بنظافة شوارع بلدي، وبلدك، وآثرت نظافة مظهرك!! ويا ليت أهلك علَّموك بأنَّ النظافة تنبع من إيمانك، وعلمك بأخلاق دينك، وأنَّ الإنسان البعيد عن الدِّين يعيش كالبهائم، وأنَّ نظافة شوارع بلدك تماماً كنظافة بيتك، ولباسك.

* * *

من صميم القلب

غاليتي الحبيبة ! يا فتاة الإسلام ! يا أمة الله ! كم أتمنى أن تكوني قد توصَّلت إلى أعماقي ، ولمَستِ مدى شعوري بالحُزْن ، والخَجَل من الذُّنوب ، من أجل ذلك أخاف عليك يا غاليتي! وأتمنَّى لكِ ألا تتعذَّبي بذنوبك ، لا في الدُّنيا ، ولا في الآخرة ، ولا تألمي كما ألِمتُ. . فحرقة المعصية موجعةٌ جدًّا. . وإليك هذه المواعظ البليغة :

فإذا قاموا إلى فَصْلِ القضاءِ والسَّماءُ تمور
كشفوا الحِجَابَ المخفي وهُتِكَ المستور
ونُصِبَ الصِّراطُ فكم مِنْ قدمٍ عَثور
وظهرتْ عجائبُ الأفعالِ وحصِّل ما في الصُّدور
ودعا أهلُ الفجور بالوَيْلِ والثُّبور
ووُضِعَتْ كلالَيبُ لخطْفِ كلِّ مغرور
إنَّما يفرح بالدُّنيا جهولٌ أو كفور
وليس في الدُّنيا لِمَنْ آمن بالبعثِ سُرور
وجوهُ المُتَّقين تشرقُ كالبُدور
فباؤوا بتجارةٍ لن تبور

وأَصْبَحْت ولا يسعني إلا أن أرَغِّبَك ، وأُحبِّبَك بما أحببته لنفسي ، ورضيت به ، فجلب لي سعادةً تفوق كلَّ وصفٍ . . رحمةً بكِ ، وخوفاً عليكِ من مصيرٍ مخيفٍ . . لأنَّني تأكَّدت بنفسي بأنَّ السَّعادة كلَّها في طاعة الله . . والسَّعادة كلُّها في السَّير على منهاجه عملاً بقول الله في محكم آياته : ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٤ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام: ١٤-١٥] .

اجعلي حبَّ الله في قلبك أهمَّ من كلِّ شيء ، وستحصلين على أجمل النتائج ، ولتذوقي تلك الرَّاحة النَّفسيَّة ؛ التي صرتُ إليها ، مع انسجام مَلَكات نفسي حينما أذهب لأنام ، ولم تعد عندي مشكلة ما بيننا .

عندما أستعرض أفعال يومي قبل نومي في حوارٍ ذاتيٍّ مع نفسي كلَّ ليلةٍ كما هي عادتي ، فأشعر بسعادة لا تقدَّر بمال الدُّنيا ، بما أجد من صفاءٍ نفسيٍّ عالٍ . . فأرجو أن تتَّبعي سبيل السَّلامة في جميع أمورك ؛ لتعيشي عيشةً هنيئةً ، وتنامي قريرة العين بإذن الله . . فهناك البيئة من حولك من الأهل ، والمعارف ، وقلَّة الهداية الرَّاشدة دون التَّعرض للسُّخرية ، والغمز ، واللمز ، فاصبري على ما أصابك من ذلك ، واحتسبي الله ! وهناك البيئة من اللقاءات غير الهادفة والَّتي تكثر فيها الغيبة ، ويكثر فيها الحديث عن الدُّنيا ، والموضات ، والبيئة المملوءة بأنواع الحفلات ، والسَّهرات ، ومستلزماتها من الزينة ، والفخر ، والخيلاء ، وغشيان الأسواق بصورة مستمرَّة ، وبلا ضرورة ، وصرف الأموال الكثيرة في هذا السَّبيل. احذَري فتاتي من الرفيقات الفاسقات العاصيات اللاَّتي يفتحن لك أبواب المعصية ، ويغرينك بالدُّخول فيها ، ويزيِّنَّ لك ما يسخط الله

عليك من الأزياء، وأنماط السُّلوك، وينسينك الحساب، والعقاب.. ولا يزيدون قلبك إلا قسوةً فوق قسوة، ويقطعون عليك الطَّريق إلى الله.. اعتدلي في التعامل معهنَّ، ولا تجعليهن يطغين على حياتك، وحبِّك لله، وحاولي هدايتهنَّ.. وإلا فاحذريهنَّ، وأبعديهنَّ عنك غاليتي! واحرصي على استبدالهنَّ برفقةٍ صالحةٍ تدلُّك على الخير، وتداركي الغفلة بالإقبال على الله، واختلي بنفسك، وأعيدي حساباتك على ضوء الأمل من نور السَّموات والأرض علَّه ينير بصيرتك، وتتوجهي إلى رب العرش الكريم.. إنَّه حليمٌ رحيم، وتسلَّحي بتعاليم الشَّريعة، وتحصَّني بآدابها؛ لتنقذي نفسك من أن تضلَّك، ومن هول: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

حيث تقلَّب بك الزَّمان من فرحٍ إلى ترح، ومن غنىً إلى فقرٍ، ومن صحَّةٍ إلى مرض، فلا تَبْقَيْنَ على حالٍ، فسعادة الإيمان هي السَّعادة.. في الحياة معه سعادة، ومع توديع الحياة سعادة، في الاحتضار وبعد الموت سعادة، وأنت وحدك في القبر، ويوم العرض سعادة، وسرور أكبر، حفظني الله وإياك من سوء العاقبة، ونسأل المولى سعادة الدارين! يا ليتني أستطيع أن أوصل لك شعوري المفعم بالإكبار، والمحبَّة، والاحترام عندما أشاهد فتيات بعمر الورود المتفتِّحة، وهنَّ معنا في حلقة تعليم حفظ القرآن الكريم والتَّجويد.

ومن جانبٍ آخر ليتك تعلمين مدى ما أُحسُّ به من ارتباكٍ، وحسرةٍ وكراهية لنفسي التي دفعتني إلى الخلف عشرات السنين في مسيرة حياتي،

وقتما كنت كطفلةٍ لاهية ،أعجبتني لعبتي ، وأخذتني غفوتي ، إلى أن صرت على وشك النُّزول إلى حفرتي ، ما جعلتني أبتدئ العبادة والتَّعلم من أمور الدين ، وعمري آخذ بالعدِّ التنازلي ما سبقتني إليه تلك الحبيبات الغالِيات حفظهنَّ الله ، ورعاهنَّ . . وقد وعيتُ حقيقةً هامَّةً ، لم أتنبَّه لها من قبل . . وقد آلمتني جدَّاً حين استنتجتها ، وهي أنَّني أحفظ القرآن بسرعةٍ بحمد الله ، ولكن ذاكرتي تأبى أن تستبقي جديدها ، فتجعلني في معاناةٍ ومكابدةٍ شديدتين . . وذلك بسبب التأخُّر في التَّديُّن ومن ثمَّ الحفظ في سنٍّ متأخرة . . إلا أنَّ عجوزاً طاعنةً في السنِّ كانت مع الفتيات تجهد في الوصول إلى حفظه ، أثلجت صدري ، وبثَّت في قلبي الأمل ، فصبرت ، وتفاءلت بالعمل . . وفي ذلك قيل : العلم في الصِّغر كالنَّقش على الحجر ، لذلك أغبط أولئك الفتيات على تبكيرهنَّ في الحفظ ، وممَّا جعل سروري أكبر أنَّهن كن يلبسن الحجاب الشَّرعي كما يجب ، وقليلات العدد هنَّ بين الكم الهائل الَّذي اتبع تلك البدعة؛ التي صارت : (كله هيك) وحاد عن الصَّواب ! فيشعر الناظر إليهنَّ في احتشامهنَّ بأنَّهن أحباب الله ، فاللهَ أسألُ أن يكثر مثيلاتهنَّ . . اللَّهمَّ آمين .

يا فتاة الإسلام السافرة! لم أنساك من اهتمامي ، ودعائي . . كم أتمنَّى أن تقبليني يداً حانيةً عليك ، وددت أن تساعديني على نفسك ، كي أستطيع أن آخذ بيدك ، وأوصلك إلى ما صرتُ عليه من صوابٍ ، وهدىً ربَّانيٍّ رحمةً بك والله! وخوفاً عليك ، فإنَّ أعداءك كُثُر . . والمغرضون حولك من شياطين الإنس والجن كثر . . وإنَّ من يريد استغلالك لهدم الدِّين ، والحياء ، والفضيلة أكثر ! ! كلٌّ منهم متربِّصٌ بك يحاول أن ينتزع قطعة من إيمانك ، كلٌّ منهم يحاول أن يبعدك عن التزامك دينك في لبس الحجاب بشتَّى الطرق المغرية بكلِّ مكرٍ ، ودهاء ! وقد يكونون من بني

جلدتنا ، ويتكلّمون بلساننا ، ومن أطاع هواه؛ أعطى عدوّه مناه! يقول مغرض من الغرب: لا تستقيم حالة الشرق إلا إذا رفعت الفتاة حجابها عن وجهها ، وغطّت به القرآن الكريم!!

ويقول آخر: كأس ، وغانيةٌ تفعلان في الأمة المحمدية ما لم تفعله المدافع ، والقذائف ، فأغرِقوهم بالشّهوات ، والملذّات! لأنّه لو استقامتِ المرأة ، استقام المجتمع.. وذلك لشدّة ما يهلع عقولهم! فما موقفك من هؤلاء يا فتاتي؟! إنّ الموقف المنتظر منك هو الاعتصام بدين الله ، والوقوف عند حدود الله؛ الذي قال: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

قد كنتِ أولى أن تكوني قدوةً تدعو إلى إسلامها وتبشّر.. قد كنتِ أولى أن تكوني للتُّقى رمزاً يجلُّ به العفاف ، ويفخر ، إنّ التزامك بالحجاب تماسكٌ.. والسّعي في نزعه تدهورٌ ، إنّ التزامك بالحجاب تقدُّمٌ.. والسّعي في نزعه تأخُّرٌ ، ماذا نقول لكعبة الله الّتي بالثوب طول زمانها تستتر!! فاعتصمي بحبل الله واردعي النفس المتطلبة عن الهوى والتّبعية المضلّة.

يا فتاة الإسلام! يا جوهرة هذه الأمة المكنونة! يا قلعة هذه الدّعوة! لن ترضى عنكِ اليهود ، ولا النّصارى حتّى تتبعي ملّتهم! فانتبهي ، واحذَري ، ولا تُقِرّي أعين أعداء دين الله ، قاتلهم الله أنّى يؤفكون! إن كنت تريدين النّجاة؛ فإنّ النّجاة في تقوى الله تعالى لا غير ، وقد حذّرنا بقوله: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ [النساء: ٨٩] ، بل ، وقال أيضاً: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ۝٥٩ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٥٩ ـ ٦٠].

ثم أدعوك يا أخت الإسلام! إلى أن تحمدي الله تبارك ، وتعالى على نعمة الإيمان ، ونعمة القرآن ، مطهِّرك ، ورافعك أيّما رفعةٍ . . رفعة لم ترفع المرأة مثلها تحت أيِّ مظلَّةٍ ، إلا تحت مظلَّة الإسلام ، مظلة لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فاستقيمي كما أمرك القرآن ، ولا تتبعي طرقاً ملتويةً تؤدِّي إلى الضلال ، ثمَّ الهلاك .

يا أمَة الله! هل ترضين أن تلبسي لباساً تتعرَّين به ، تظنِّين الرجال بلا شعور؛ لأنك ربما لا تشعرين . . كأنَّ الثوبَ ظلٌّ في صباح يزيد تقلُّصاً حيناً فحيناً . . أهانَ عليكِ يا أختي المسلمة أن تلبسي ثياب أهل النَّار؟! أترضين أن تكوني من أهل النَّار؟! والحق تبارك وتعالى يحذر عباده في هذه الآيات العظيمة ، فيقول: ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٧] !! ثم: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [النحل: ٦٢] . . فـ: كلُّ نفس بما كسبت رهينة . . ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ [غافر: ٧٢] . . ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ [الكهف: ٥٨] .

أما قال رسولنا الحبيب ﷺ: «**نساءٌ كاسياتٌ ، عارياتٌ ، مائلاتٌ ، مميلاتٌ ، على رؤوسهنَّ مثلُ أسنمة البُخت المائلة ، لا يرَين الجنَّة ، ولا يجدن ريحَها**» (١) .

إنَّه وعيدٌ شديدٌ . . ماذا بعد الحرمان من ريح الجنَّة؟! ورائحتها الزَّكيَّة الَّتي تُشَمُّ من مسيرة ألف عامٍ ، وأكثر . . حين تلبسين تلك الثياب؛ لتحظَّي

(١) سبق تخريجه .

من قدرك في هذه الحياة، فلا عفاف ولا حياء.. ثم تتنازلي شيئاً، فشيئاً حتَّى تقعي فيما أسأل الله أن يجيرك منه، وبالطَّبع لا أحد.. حتَّى الفجرة يريدون رؤيتك بهذا المستوى الهابط، وتهميش كرامتك.. وإليك هذا القول:

إذا سقط الذبابُ على طعامٍ   رفعتُ يدي ونفسي تشتهيه
وتَجَنَّبَتِ الأُسودُ ورودَ ماءٍ   إذا كُنَّ الكلابُ وَلَغْنَ فيه

هل ترضين أن يقال هذا فيك؟ لا يا أخت الإسلام! لا يا غالية! لن ترضي أبداً بذلك... أنقذي نفسك ـ أختي ـ من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة: ٢٣].

فإذا كان الحال هكذا مع الأهل، والأقارب، فكيف العمل؛ وهناك ما هو أخطر في وصية لقمان لولده في قوله سبحانه: ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴾ [لقمان: ١٨].

فحبُّ الله هو رجاء كلِّ مؤمن.. فهلا أقبلت إلى مغفرةٍ من ربك؛ وهو يدعوك بعد كلِّ ذلك؛ وبرحمة عاليةٍ بقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ [النساء: ١٤٦]، لأنه تعالى يحب العبد التَّواب، وما أعظم مِنْ حبِّ الله لعبده!

إليك يا أختاه! هذه الكلمات الحكيمة؛ التي سمعتها من شيخٍ فاضلٍ: تفكَّري بالموت، وسكراته، وصعوبة شرب كأسه، ومرارته! واتَّبعي هذا الحديث الشَّريف: «**الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت،**

والعاجز من أَتْبَع نفسَه هواها، وتمنَّى على الله الأماني»[1]، فهلاَّ تفكرت يا أَمَةَ الله! ويا محمية هذا الدِّين! ويا مكنونة الإيمان! ويا من عمره كلَّما زاد؛ نقص! يا من يأمن ملك الموت؛ وقد اقترب! فانظري لنفسك، وانتظري قدوم الغائب.. يأتي بقهرٍ، ويرمي بسهمٍ صائب.. من قبل أن يقول الشيخ: واشيبَتاه! ويقول العاصي: واخَيبَتاه!! يوم ينفخ في الصُّور، ويظهر المستور! يوم تُبلى السَّرائر، وتُكشف الضَّمائر! ويتميَّز البَرُّ من الفاجر، قبل أن يُسقَط في يد المخدوعين.. ويتبرَّأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا، فيتبرأ الخادع من المخدوع، وشئنا أم أبينا ننتقل من الحياة الدُّنيا دار الاختيار إلى الحياة الآخرة دار القهر، فليس لنا خيار: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [غافر: ٥٢]، والخاسر الَّذي يسترسل فيها دون أن يتعرَّف فيها إلى ما وراءها، والمصير إلى القبر وما فيه من وحشةٍ، ورهبة، فيه ينحصر المستقبل، وتتصاغر الأماني، وتتلاشى الرَّغبات في ظلامٍ مطبقٍ، ألا تتفكرين أختي الحبيبة! بمن أخذه الموت؛ بأنَّه خلع له الأسباب، فترك الأحباب، والأصحاب، وسكن التُّراب، وواجه وحده الحساب! ألا فاعتبروا يا أولي الألباب من هذا الحديث النَّبويِّ: **«عش ما شئت؛ فإنك ميِّت، وأحبب ما شئت؛ فإنك مفارق، واعمل ما شئت؛ فإنك مجازى به»**[2].

لا شيء أعزُّ عليك من عمرك؛ وأنت تضيِّعينه، ولا أضر من نفسك عليك وأنت تصافينها، ولا عدو لك كالشيطان؛ وأنت تطيعينه، ومولاك

---

(١) رواه الترمذي (٢٤٦١) وابن ماجه (٤٢٦٠) والحاكم (٤/ ٢٥١) عن شداد بن أوس.

(٢) انظره في كشف الخفاء (١٧٣٤) وتذكرة الموضوعات (٢٠٠) والفوائد المجموعة (٧٧١) وإتحاف السادة المتقين (٨/ ١٦٩).

سبحانه قد حذَّرك منه لتتكون لديك المناعة ضدَّ موالاته: ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ﴾ [النور: ٢١].. وقد: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

والاعتبار من هذه العظة هو مفتاح الجنة.. وثمرتها النَّجاة من خزي الدُّنيا، وعذاب الآخرة.. وخصوصاً الفتيات اللاتي اغتررن بالمدنية الأوربية الزَّائفة..! يا فتاتي الحبيبة! الأيادي الماكرة الخبيثة تمتدُّ إليك بصورةِ مقالاتٍ ساحرةٍ، أو بصورة مجلاَّت خليعةٍ، أو بصورة مسلسلات فاتنةٍ، أو بصورة كلماتٍ أدبيَّةٍ في أعمدة الصحف مع بهارات إعلاميَّةٍ.. تريد إخراجك إلى الشَّقاء، والتعاسة، فكم من مقالةٍ تقول: إن الإيمان في القلوب لا في ستر الوجه، والجيوب، و﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]!

ستجدين من يقول: آن لك أن تمزِّقي حجابَك، وتمشي سافرةً، لأنَّهم أعداء الدين، وأعوان الشَّياطين.. الَّذين هم جاهِدون في أن يفرِّقونا أحزاباً، كلُّ حزب بما لديهم فرحون، وبه لاهون، ليتمكَّن العدوُّ من أن يتَّخذ من تلك الأحزاب غذاءً له، ولشهواته، حتَّى يغرس في جنوبِهِم أشواكه، وينشب في قلوبهم مخالبه، ويمتصَّ من عُصاراتِ حياتهم؛ ليقوى، ويأكل من أشلائهم؛ ليزداد تمكُّناً، أسأل الله أن ينجينا من أحقادهم على هذا الدِّين العظيم! يدعونكِ إلى جهنَّم، فإنْ أجبتِهم؛ قذفوك فيها.. فليكن جوابك: اخسؤوا؛ لأنني مولعةٌ بالحقِّ ليس لي سواه.. ولأنَّ القرآن أمرني بقوله: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ـ أي: تحبس

في جهنم!! ـ و: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦ـ٧٠]، وبيَّن لنا الصَّواب قائلاً: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥].

ولكي أصبح من أولياء الله.. فلن أكون مع مَنْ مالت بهم أهواؤهم إلى تقليد أعداء الدِّين، نعم.. احذَريهم أختاه!! إنَّهم يريدون منك الخطوة الأولى؛ وهي أصعب خطوة.. ورحلة الألف ميل تبدأ بخطوة، يريدون أن تكوني غربيةً، فاجرةً، سافرةً!! بأن تلبسي لباس الحضارة والرُّوح جاهلةٌ لأمر مولاها! حاشاك ذلك.. ينتظرون منك بفارغ الصَّبر أن تتخلصي من حشمتك في الحجاب، والحياء، والطهر.. وذلك من مستلزمات الإيمان، ويومها تقرُّ أعينهم، فيلعبون بك لعب الأطفال بالكرة، ويعبثون عبث الكلاب بالجيف، حفظك الله منهم! أغيظيهم بعدم الالتفات إليهم والسَّماع لهم.

اقتليهم حسرةً بالوفاء لحيائك، وملازمة حجابك، فإنَّما أطمعهم في الوصول إلى غاياتهم ما لاح لهم من النجاح في سماعٍ منك لمختلف الأغنيات، والمسلسلات، والأفلام الماجنات، وأغراهم بالوصول خروج بعض فتياتنا إلى الأسواق، والوقوف أمام الباعة من غير ما ضرورة، والتَّجوال في الشَّوارع في السَّيارة مع قرناء السُّوء، أو مشياً على الأقدام، ذلك التسكُّع؛ الَّذي أضحى ظاهرةً مشينةً، ومتفشِّيةً، ألست تؤمنين بالله، وباليوم الآخر؟

إذاً فالتجئي إلى مولاك وهو يحقِّق لك أمانيك بما ينفعك في الدَّارين؛ إن عُلِمَ هذا فاعلمي: أن الله حرَّم السُّفور، كما حرم الفسق والفجور،

وأمر بلسان نبيه ﷺ أن تمشي في حياءٍ، وأدبٍ، وتواضعٍ.. ألا رُبَّ مُكرِمٍ لنفسه اليوم مهينٌ لها غداً، وقد شبهوا النَّفس وقالوا:

إن النفس كالطفل إن تُهمِلْهُ شَبَّ على
حبِّ الرَّضاع وإن تَفْطِمْهُ ينفَطِمِ
فخالفِ النَّفسَ والشَّيطانَ واعصِهما
وإنْ هُما مَحَضاكَ النُّصْحَ فاتَّهِمِ

فالنَّفس تشبُّ على حبِّ الشَّهوات، وتغزُّها الجاهات إذا لم يقيدها وازعٌ دينيٌّ، وأخلاقيٌّ، وتنقاد إلى السُّقوط، والهلاك، فاتقين الله أيتها الأخوات! واحذرنَ مِن ترك المأمور، أو اقتراف المحظور، فلا تجعلن صدى مَن طفح الكيل بأقلامهم الحاقدة ـ حتَّى الفكر له لصوصٌ، ومختلسون ـ ليشوهوا صورة الإسلام بسمُومهم الضارَّة، تنعكس على عقيدتكنَّ، وتتبعن هواهم، تباً لهم! إنَّهم أعداء الله، وأعداؤكنَّ.. يريدون أن يخدِّروا قلوبكنَّ لينالوا من إيمانكنَّ، فاحذرنَهم.. وذلك يستوجب صبراً، ومشقَّةً على النَّفس؛ الَّتي لا ترغب إلا الرَّاحة، وتألف التَّسلية، والملهيات.. والاستغراق في النَّوم، وملذّات الحياة، إنكنَّ تصبرن على الجوع وعلى الضرِّ، ولا صبرَ لكُنَّ على النَّار، أجاركنَّ الله، وكلَّ مسلمٍ من النار! ولعلم خالق الكون بأنَّ الحياة الدُّنيا في ازديادٍ مستمرٍّ في زينتها، وإغراءاتها، ولأنَّنا في زمنٍ صعبٍ ضاعف الأجر، والثَّواب لمن يعفُّ نفسه عن ذلك، ويتمسَّك بأوامر الله، ونواهيه، وشبَّهه بأنه كالقابض بيده على جمرةٍ من النَّار، وجعل له مثل أجر عبادة العديد من أوليائه الصَّالحين، قال أبو مسعود: أنَّ النبي ﷺ قال: «من ورائكم أيَّام

صبرٍ ، **فالمتمسِّكُ بما أنتم عليه له أجرُ سبعين**» ، قالوا: يا رسول الله! منَّا ، أو منهم؟ قال: «**منكم**»[1].

ذلك من نعم ذي الفضل العظيم على عباده في زمن الفساد الشامل على أنحاء الأرض ، وخيَّرنا بدعوة عظيمةٍ في قوله: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ﴾ [النساء: ١٣٤].

والله أسأل أن يردَّكِ ، وكلَّ امرأةٍ سافرةٍ إلى طاعته مرداً جميلاً.. ويتولاكِ ، ويرعاكِ ، ويثبِّت على الحقِّ خطاكِ.

يا أختي المسلمة! لم نُخْلَقْ للَّهوِ ، والتَّسالي.. فلنكن على حذرٍ منها؛ كيلا ينطبق علينا قول المولى جلَّ وعلا: ﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ [الحجر: ٣].. وإرضاءُ النَّفسِ ، والنَّاسِ غايةٌ لا تُدرَك.. واعملي بنصيحة نبيك ﷺ: «**من أسخط النَّاس برضا الله؛ كفاه الله مؤنة النَّاس**»[2] ، وتذكَّري عندما تحقِّقين رضا من يهمُّك أمرهم.. كيف يكون مبلغ فرحك؟ وكل رضاً يصدر من مخلوقٍ ، فالخالق أولى أن نحصله منه ، فيجب علينا هجر المعاصي ، ومقاومة مألوفات النفس ، والتعوُّد على مجاهدتها كي نتحرَّر من الخضوع لأهوائها ، ونتَّقي غضب الله بمعنى التَّقوى الصَّادق؛ أي: طاعة الله في اقتران القول بالعمل في السرِّ والعلانية ، وما أكثر الناس الذين يقولون ، ولا يفعلون ، وقد.. ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣].. ونطبق منهاج الله القويم عن إيمانٍ ، وإخلاصٍ.. لنصبح في رعايته ، وكفالته فإن: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ

---

(١) بنحوه رواه الطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (١/ ١٧٢) وذكره الذهبي في الميزان (١/ ٥١٩) والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٢) وعزاه للطبراني والبيهقي.

(٢) رواه الترمذي (٢٤١٤) وابن المبارك في الزهد (٦٦).

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧] !

يـا مَـن تمتَّـع بـالـدُّنـيا وبهجتِهـا	لا تنـامُ عـنِ اللَّـذات عينـاهُ
أفنَيْتَ عمرك فيما لَسْتَ تُدركُه	تقـولُ للهِ مـاذا حيـن تلقـاهُ

ليتَكِ يا أختاه! تتوصَّلينَ إلى ما توصَّلتُ إليه من مُتعةٍ حقيقيةٍ ، وهناءٍ رائع ، وسرورٍ دائمٍ في قربي من خالقي . . لعلك تقولين : أخذت نصيبك وشَبِعْتِ ، ومللتِ من هذه الأمورِ الدُّنيوية ، بعد أن عشتها ردحاً من الزَّمن . . ولكثرة ما قيل لي ذلك أوضِّح لأخواتي المسلمات : أنَّني لم أَدَع أمورَ الدُّنيا ، ولم أسقطها من اعتباري زهداً فيها ، أو مَلَلاً منها ، بل على العكس ، كنت في أوج سعادتي الدُّنيوية الزَّائفة ، وموَلَعةً بها جدَّاً ، فالتكالب على متعها كان أكبرَ همِّي ، وذلك ما كان يدفعني لتحمُّل مساوئ من عاشرتهم ـ كما ذكرت سابقاً ـ ولكنِّي على الرَّغم مما كنت فيه من زخرف الحياة ورغدها إلا أنني لم أعرف السَّكينة ، ولا الطُّمأنينة ، فمللت عصيان الله ، وكثرة الذنوب . . إلا أنَّ أحلاماً كبيرةً في رأسي أريد تحقيقها . . منها رغبتي في مشروع زواج مميَّزٍ لا يزال قائماً ، وقد امتحنني المولى سبحانه بفرصةٍ ذهبيةٍ كانت أبلغ ما تمنَّيت ، وانتظرت قبل أن أعود إلى الصَّواب ، وألبس الحجاب . . فقدَّر سبحانه أن يجمعني بإنسانٍ مواصفاته ، وأحواله كما كنت أرغب تماماً . . وذلك بعد أن تحجَّبت بيومين فقط ! فاختصرت الطَّريق بالرفض؛ إذ دعوته إلى العزيز الغفار ، وأراد هو أن يدعوني إلى الشَّيطان الغرَّار! لا جَرَمَ أنَّه كان سيعيد مسيرتي الدُّنيوية لآثامها؛ لأنَّه كان معجب بأسلوب عهدي بالماضي الذي بات من أشدِّ ما أكره ، وأنا لن أفرط بالغالي من أجل الرَّخيص ، ولو كان كنوز

الدُّنيا بأسرها ! وأعانني ربي على نجاحي في هذا الامتحان ، فألغيت ذلك المشروع لوجه الله تعالى ، لا سلبيةً منِّي ولا ضعفاً ، ولكن لخبرتي في معادن ذلك النَّوع من الرجال ، فأنا في غنى عمَّن يدفع عجلة مسيرتي مع الله إلى الوراء وأنا حديثة العهد فيها؛ إذ لا زلت في أوجِ نشاطي لممارسةِ حياتي ، وما زالت عزيمتي غَضَّة ، ثم أسقطت فكرة الزَّواج نهائياً من حساباتي ، لا رهبانيةً مني . . بل لأتفرغ لقضيتي التعبُّدية ، ولا أريد أن يبعدني أحد عن سعادتي في الأنس مع الله تعالى وحده ، وكنتُ ـ وقتئذٍ ولا زلت ـ أجهد في تهذيب نفسي التي تملَّكَتْها العادات السَّيئةُ بأنواعها ، وتأصلت فيها ، فيجب أن أعطيها فسحةً كي تتنامى فيها بذور الإيمان لاكتساب العادات الفاضلة؛ لأن هناك عاداتٍ سيئةً عديدةً كنت قد عوَّدت نفسي عليها .

إنَّ العادات المكتسبة ترافق صاحبها إن كانت خيراً فخير ، وإن كانت شراً فيا لهول ما تعانيه في التغلُّب عليها ، وإن لم تستطع القضاء عليها بالكامل! من بينها إدماني على السَّهر ، وشغف الاختلاط بالناس . . وعادة التَّدخين التي تملَّكتْني ، وتمكَّنَتْ مني ربع قرن من الزَّمان ! ولم أكن أستطيع تركها ، رغم تحذيرات الأطباء الكثيرة ، ورغم أنَّني أعلم بأنَّ السهر مع التَّدخين من ألدِّ أعداء الجمال ، وأسرع مدمر للنَّضارة ، والشباب ، ورغم ما أخشاه على نضارتي ، ونقاءِ بشرة وجهي ، ودوامِ شبابي . . تلك الأشياء التي كانت شغلي الشَّاغل ، ومبلغ همي ، ومع كلٍّ هذا فشلت محاولاتي؛ لصعوبة المقاومة بسبب عدم توفر الإرادة في طبعي .

والذي هوَّن عليَّ ترك (السيجارة) وخلَّصني من بلاء التَّدخين هو

خجلي من ربي الذي يراني.. خاصَّة عندما كنت أدخنها بعد طعام السُّحور، وكنت قد علمت بأن الله العظيم مقبل على عباده يتجلَّى في الثلث الأخير من الليل، وأنا بكلٍّ وقاحة أمسكها بين أصابعي، أدمِّر بها صحتي التي ما خلقهـا الله إلا للعبادة، وأستشعر وجـود الله وعينُه ناظرةٌ إليَّ حيث يتجلَّى في علاه، فأتمنَّى لـو تنشق الأرض لأختبئ تحتها من شدَّة الخجل.. ولكن أنَّى لي هذا؛ وسبحانه يرى النَّملة السوداء في جحرها في اللَّيل المظلم!! فكان لا بدَّ من الإقلاع عن التَّدخين بقهر النفس، وإرغامها على الطاعة.. وكلُّ حركةٍ نقوم بها فيها مصلحةُ خير تكتب لنا عبادة، وحفاظنا على صحة أبداننا أيضاً عبادة؛ لأنَّ فيها طاعةً لأمر خالقها.

(والسيجارة) دخلت باب التَّحريم المؤكد طبياً بسبب هتكها لصحَّة أبدان البشر. فأتذكر كلام نبينا ﷺ: «**إن لجسدك عليك حقاً**...»[1]، لكن ما ولَّده حبُّ الله سبحانه مكَّنني من خرق عاداتي السَّيئة؛ لأن القلب المتصل مع الله لا يعيقه شيء مهما بلغ اتساع رقعة الذُّنوب، والخطايا عند العبد المسلم.. تبقى هناك مساحة من الخوف حتَّى على الآخرين.. ورغبةً في التَّوبة منها، والإقلاع عنها، وعندما يوفِّقه مولاه سبحانه إلى تحقيق التَّوبة يكفل لنفسه سعادةً، وراحةً، وتبعده عن الشقاء، والضياع وسط ركام الذُّنوب، والخطايا.. الَّتي لا منجى منها إلا بالعودة إلى الله تعالى، والاقتداء بهدي رسوله، فالأفضل أن نسدَّ الباب من أوَّل الأمر، ونمنع الاعتياد.. ونُقسر أنفسنا على تعوُّد النافع من العبادات، فممَّا لا شك فيه: أن العادة تقود إلى الاعتياد بحيث إذا مرَّ وقتٌ ولم يقم أحدنا

---

(١) رواه البخاري (١٩٧٥) ومسلم (١١٥٩).

بما تعود عليه يحدث له اضطرابٌ نفسيٌّ مزعج.. فسبحان الله ما يفعل الإيمان بصاحبه!

والله يا أعزائي إنَّ التَّضحيةَ إذا اصطبغت في إرضاءِ الله كلَّما صَعُبت؛ زادت مُتْعَتُها، ومن يستعِنْ بخالقه يَصنعِ العجائب.. ما أَعذب إلى نفسي الصَّبر؛ ما دمت أستمتع بحبِّ الله وهديه.. وقد ترعرعت في قلبي نبتة الإيمان، فأعانتني حتَّى تخلَّصْتُ من جميع تلك الممارسات، والعادات السَّيئة بمشقَّةٍ شديدةٍ! فالامتناع عن المعصية مع القدرة على فعلها يحتاج إلى مجاهدةٍ كبيرةٍ، ربَّما كانت أشقَّ على النفس من مجرَّد مجاهدة النفس على الطَّاعة، ولكنَّها هانت عَليَّ؛ لأنها في سبيل الله، فمن عرف الحقَّ هانت عنده التَّضحية.

وهناك الكثير ممَّن يجتهد، فيفعل الطّاعات، ولا يقوى على ترك المحرمات.. إلا من رحم الله، فكلُّ ذلك يؤكِّد قطعاً جهل كلِّ مَنْ يقول متوهِّماً أنني تركت زخرف الدُّنيا مللاً منها، بل هي والله عناية المولى الذي أعانني على تحطيم رغباتي الدُّنيوية كلِّها! فهذا نور الله، وضياء هداه، اختار لي الهداية، وهو الَّذي يهدي من يشاء برحمته.

إنَّكِ تعلمين جيِّداً بأنَّ شهواتِ النَّفسِ لا حدودَ لها، ولا نهاية، وكلَّما بلغَتْ غايةً تمنَّتْ أُخرى؛ وهي تقول: هل من مزيد، وجمال الدُّنيا، وزينتها.. من الجديد في المزيد! والسَّببُ معروفٌ؛ لأن أستاذ النَّفسِ الشَّهوانيَّة لم يَمُتْ.. ألا وهو إبليسُ اللَّعين!! ولكن من فضل الله العليم بعباده: أنَّه وهبنا العقل لردعه، وأودع فينا إرادةً قويةً تتصارع مع الرَّغبات الشَّيطانيَّة، فتُخمدها، وتنتصر عليها.. ولا أخفيك بأنَّ نفسي تراودني أحياناً أن أتجمل ببعض الماكياج، وتهفو للتزيُّن، ولبعض الألبسة

المخالفة للشَّرع؛ لأن النفس تأنس لما تهواه، وتعشق ما اعتادت عليه، فتحِنُّ، وتشتاق لممارسته، ويصعب عليها أن تستوعب التغيُّر الكلِّيَّ، والانقلاب الجذريَّ بسرعةٍ، حتَّى ولو تبينتْ: أنَّه الأفضل، أو توسَّمتْ: أنَّه الحق! وأسوأ ما في ذلك أن تجعل صاحبها في موقف الرَّفض للتفكير، واستعمال العقل.. فها هو ذا عقلي لها بالمرصاد؛ إن أرادت استرجاعي إلى أدنى عادةٍ سيّئة، وأخشى ما أخشاه أن تستَدرِجني نفسي إلى الماضي، وأن ينتابني أدنى حنينٍ إلى عاداتي السَّيِّئة، فأهبها مُبتَغاها، فأنا في تصارع دائمٍ معها حتى تبقى على ما روَّضتُها علىْ تركه، والتخلُّص منه، كيلا أغْبِن نفسي في تعجيل لذَّةٍ تافهةٍ، وزائلةٍ، فأحرم من ميراث جنة لا تَنفَدُ لذائِذها، فأنا لم أعد أرغب باستعادة متعةٍ، أو أهدهد حنيناً للعودة إلى صبوةٍ، وحيث صرت أراها اليوم مرضاً، وحماقة نفسٍ ضعيفةٍ.. فأقول لها: كلا، وألف كلا.. لن أخضع، ثمَّ أستعين عليها باللجوء إلى مولاي سبحانه، أسجد له.. وأنا في أسعد حالاتي وقت أكون ساجدةً لربِّ العالمين.. كيف لا، وفي كلِّ سجدة لله، ورفع رأس من السُّجود تُحَطُّ عن العبد سيئةٌ، وتُكتب له حسنةٌ، كيف لا.. وأنا أناجي خالقي الأحد الصَّمد؛ الذي وهبني الحياة؛ وأعطاني كلَّ مقوماتها العظيمة والرَّائعة، وأراد لي أن أكون من عباده المخلصين، ألا أُعِيْن سيِّدي، وحبيبي رسولَنا محمَّداً ﷺ على شفاعته لي يومَ القيامة بكَثرةِ السُّجود، كيف لا يكون ذلك.. وهو الذي قال للصَّحابي عندما سأله مرافقته في الجنَّة: «**أعِنِّي على نفسك بكثرة السجود**»(١).

فأضع ذلِّي بين يديه بوجهي الذي هو أكرم ما خلق الله في الإنسان،

---

(١) رواه أحمد (٤/٥٩) عن ربيعة بن كعب.

وأحجِّم نفسي أمام عظمته - إن جاز لي التَّعبير- فلا أجد لي حجماً ، فقد تلاشى أمام خالقي الكبير المتعال. . تقدَّس سرُّه ، ثمَّ أشعر وكأنَّني ألقي برأسي على صدرٍ حنونٍ رحيم. . أشكوه ضعفي ، وما آلت إليه نفسي ، وبذلك تتحقَّق سعادتي ، وكم أتمنى أن أبقى هكذا ساجدة لمولاي ، ومليكي . أناجيه كي يمدَّني بزيادة رحمته الواسعة ، ولا يكلني إلى نفسي هذه طرفة عين؛ لأنَّها خبيثةٌ ، وأخشى على حالي إن هي استكبرت مع صغر حجمها في هذا الكون ، ورغبت بزينة الحياة الآنية لتحرمني من نعيم حياةٍ أزليَّةٍ خالدةٍ ، فيملؤني الرُّعبُ مِن حرماني من فضل التَّوبة؛ التي أغرقتني في نعيمٍ عظيم ، والتي أرجو الله أن يُذيقها لكلِّ مسلمٍ ومسلمة ، فأَجِدُني أدعو اللهَ في كلِّ وقتٍ ، وحالٍ ، وأتوسَّلُ إليه بأن يُعينني على الثباتِ في هذا المآل.

ومن أجل هـذا ، ولصعوبة معاناتي في الانسلاخ والتخلُّص ممَّا اعتادت نفسي عليه؛ وضَّحتُ لك بإسهابٍ وتجرُّدٍ ، كي أوصلك إلى أعماقي الممزَّقة من الهمِّ ، ولكي تلمسي مدى خطورة التعوُّد على السُّلوك الخاطى ، الذي يورث احتقار النَّفس ، ويلازم التحسُّر والتندُّم على ما فات ، ويضطر الإنسانَ إلى بـذل أضعافٍ مضاعفةٍ من الجهد للتخلُّص مـن تلـك العـادات. . ولا شـك: أنَّ العـادات تتحكَّـم فـي الإنسان. . فالعـادة تأخـذ من النَّفس أيَّما مأخـذٍ ، وما أصعبَ الرُّجوع ، أو ترك عادةٍ تملَّكَتْ صاحبَها وأحاطتْ به! واكتساب عاداتٍ ، وصفاتٍ جديدةٍ؛ لأنَّ العادات المكتسبة ترافق صاحبها إن كانت خيراً؛ فخير ، وإن كانت شراً؛ فيا لهول ما تعانيه في التغلُّب عليها ، وإن لم تستطع القضاء عليها بالكامل ! فيكون كمن يريد أن يخرج من عنق الزُّجاجة!

ولـذا الحذر ، الحـذر من سلوك الطَّريـق الخـاطئ ، لتحظـي بخيـر

الحياة ، والممات. . ويعينك تحذيري على الاحتياط فيما هو آتٍ ، ولأنَّني قد استفدت فعلاً من بعض عاداتي الحسنة في أداء عبادتي ، مثل حب المطالعة ، وحب تحصيل الأفضل.

أناشدك أن تروِّضي نفسك على اكتساب العادات الحسنة حتَّى تستفيدي منها ، وتأخذي حذرك من الندم ، والله المستعان للتغلُّب على هوى النفس ، وشرِّ الشَّيطان. . لنكن معاً من عباد الرَّحمٰن الَّذين ميَّزهم بقوله: ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩] ، إنَّه نعمَ المولى ، ونعمَ الوكيل!

* * *

مصارحات عجيبة

وهنا يحضرني ما قالت لي إحداهُنَّ ، والَّتي لم يعد لديَّ الوقت لألبّي فيه دعواتها العديدة ، وقد اعتادت أن أمضيَ بصحبتها أوقاتاً طويلةً دون أن تكتفي؛ لأنَّها من اللاتي لا يملُّون مضيعة الوقت بالقيل ، والقال ، وتحصيل السَّيئات ، وهي تزعم بأنَّها تحبُّني ، ولا تحتمل البعد عنِّي . . انظروا ماذا قالت عن التزامي بما يرضي الله . . قالت لي : زَوَّدتيها ! ! قلت لها : زودتُها؟ ! قالت : نعم زَوّدتيها؛ لأنه لم نعد نراكِ إلا نادراً ، وعندما نجتمع بك تقلبين أحاديثنا إلى مواعظ ، وإذا تكلَّمنا بفَشّة خلق من الخَلْق تسكتيننا وتحذريننا من مغبَّة الغيبة . . ولم تدعينا منذ مدَّة طويلة إلى بيتك الذي حوَّلته إلى صومعةٍ ، ومعرض كتب ، وتلهثين وراء تتبُّع محاضرات الدِّين من كلِّ المصادر ، من تلفزيون ، وإذاعة ، وكتب ، ومساجد ، وفيديو ، ألا تملين؟ أَهكذا كنت؟ أين مرحك ، وأناقتك؟ أين حضورك ، وأحاديثك التي لا يملُّها جليسٌ مستمعٌ ، تخبريننا فيها عن مغامراتك ، وعجائبك؟ والله اشتقنا لكلِّ ذلك!

قلت : ما هذا الذي تقولينه؟ ما هذا الإحباط للعزائم؟ لماذا التَّضعيف للهمم . . هل تحالفتِ مع ذاك اللعين ، وسخَّرت له لسانك ، أم أتيت به معك لِتُثنياني عن عزمي ، وتبتلياني بردَّةٍ عن نعمة ربي ، كما حصل من

أمثالك الجاهلين في السَّابق؟ اللهمَّ لا! وألف لا! فأنا الآن على درايةٍ سليمةٍ من أمور ديني.. وأسير على منهج الله في قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٢٩ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ [النجم: ٢٩-٣٠]..

لقد صلب عودي بالعلم والمعرفة، وآمنت بأنَّ الدُّنيا دار عبور، لا دار سرور!! وصرت أكشف أهداف إبليس اللَّعين عن طريقكنَّ!! أستحلفكِ بالله! ألم تفرحي بسرِّك من رحمة الله سبحانه بك، وببقية الصَّديقات؛ لأنَّه حجبني عن أنظار أزواجكنَّ؟ فقد كنت أشعر بأنكنَّ ستموتُنَّ غيرةً، وحسداً من مظهري الملفت.. ووجودي الأنيق بينكنَّ.. فكنتن تتمزقنَ غيظاً من إعجاب أزواجكنَّ بي؟؟ ألم يضنينكنَّ يأسُكن من مجاراتي، وهم يعيِّرونكنَّ بمقارنتي؟ ويحثونكنَّ على مماثلتي؟ والله طالما حزنتُ من عدم مراعاتهم لشعوركنَّ، وتصرفاتهم الملغية لاحترامكنَّ!

أيتها المنافقة: آلآن وقد أكرمنا الله تعالى بفائدة.. عمَّت على الجميع، وخدمت كُلاًّ منا تقولين زوَّدتيها!! بدل أن تزغردي فرحاً، واطمئناناً بفضله سبحانه وتعالى علينا! والله لولا أنني أقرأ كلَّ يوم من سورة البقرة.. ولأنَّ الشيطان لا يدخل بيتاً تقرأ فيه هذه السُّورة الكريمة؛ لتيقَّنت من حضور اللَّعين معك! لم أتوقعْ منكِ أن تضَيِّقي عليَّ رزقي، وتستكثري نعمةَ أكرمِ الأكرمين، بل ظننتُ أنَّكِ ستفرحين من أجلي، وأنت لمحبتي تدَّعين!! قالت: صحيح والله كلامك، وأعترف بأنَّنا كنَّا لا نفتأ نتحدَّث عنك، ونتحرَّى أخبارك، وكان ذلك مبلغ همِّنا.. ولكن والحق يقال، كنا معجباتٍ بك، ونحب لقاءك، ولا أخفيك عذرنا لأزواجنا من إعجابهم بكلِّ جميل ـ فالله جميلٌ، ويحبُّ الجمال!! هنا قاطعتها بحدَّة: حاشا لله! لا تحشري اسم الله ـ جلَّ وعلا ـ مع أخطائنا..

تابعت حديثها: لأنَّنا نعرف عيوبنا، تكاسلنا في الاعتناء بأجسامنا، وتنمية عقولنا.

وهنا تذكَّرت ما قرأت من كتاب أستاذي في الدِّين: إن الإنسان يفتقر إلى ربِّه في كلِّ شيء، فجسمه مفتقرٌ إلى الطعام، والشَّراب حتَّى يبقى، وقلبه مفتقر إلى الذِّكر حتَّى يحيا، وعقله مفتقر إلى العلم حتَّى يرقى؛ أغذيةٌ ثلاثةٌ لا بدَّ منها حتى يحقِّق الإنسان وجوده.. قلت: يا ليت كل زوجةٍ تحافظ على سرور زوجها منها، ولا تدعه يبحث عمَّا يرغب فيه عند غيرها.. لتصونه ونفسَها عن الحرام، وأن تعلم بأنَّ ذلك فرضٌ عليها تجاهه.. قالت: ولكن كلُّنا مطمئناتٍ لك! فأنت مخلصةٌ، وطيِّبة القلب.. وهنا شردت عن حديثها، وتذكرت ما مضى، وأقول في ضمني: أيتها الغبيَّة الحمقاء.. لأنني لم أُشعر أيّاً منكنَّ يوماً كم عانيت من صدِّ أزواجكنَّ الكريهين عنِّي!! وكم بذلت من جهد لردعهن عن الزَّواج من غيركنَّ.. مساهمةً بإعمار بيوتكنَّ قدر استطاعتي، وتكفيراً عما سبَّبته لغيركنَّ عن غير قصدٍ منِّي، والذي لازالت تنبش ذكراه آلامي، وندمي.. صحوت من شرودي على صوتها يكاد أن يثقب أذني قائلة: ماذا قرَّرت الآن؟ الحمد لله، الله هداك، وتحجَّبت، وصرت تصلِّين، وماذا بعد.. قلت: لم أتحجَّب كي أحجب شعري بقطعة قماشٍ، ثمَّ أعود لحياة الجهالة! لقد عرفت ربي، وأحبُّ رضاه، والسَّهر المختلط محرَّمٌ خاصَّة على طريقتكم الخالية من الحياء.. ومن الخوف من الله.. حيث لا تفتر ألسنتكم عن اللَّغو، واغتياب بعضكم لبعض! وتعشقون الغناء، والرَّقص!! ولا مانع لديكم من رقص الشباب من أبنائكم مع بنات صديقاتكنَّ على أنغام عازف الموسيقا الذي يرافقكم كظلِّكم، ولا تحلو السَّهرة إلا بوجوده، ولله الحمد الذي قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ

﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥]!!

وكلُّ ذلك؛ وأنتنَّ تعتبرن أنفسكن من المسلمات حقيقةً ، وكأنَّ الدِّين كلَّه في غطاء الرأس!! ولكن أصبح حال أكثر المسلمين للأسف الشديد كما نبأتنا الآية المعبرة: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٧٥] .

بالله عليك أتتجرَّئين مع كل هذا على دعوتي إلى تلك المعاصي؟! أجابت: نحن لا نستطيع العيش دون السَّهر ، وما كنا عليه منذ عشرات السنين.. ولسنا نجد في ذلك أيَّ غلطٍ ، فلا تزوِّديها ، وتقولي: معصية!! أين المعصية إذا كنا نعبد ربَّنا ، ونسلي أنفسنا.. ولماذا مسكتيها حنبلية؟! هاأنذا أعبد ربي ، وزيادة ، والله غفور رحيم ـ وكم سمعت هذه العبارة يردِّدها أناسٌ وهم بعيدون بعداً كبيراً عن منهج الله ، راضين بضلالهم ، و مُتلفحين بغرورٍ شيطاني ـ قلت لها: ألم تقرئي قول المولى سبحانه: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا...﴾ [الأعراف: ١٦٩] .

ويجب أن تتنبهي أنت وكلُّ إنسان ، ولا تنسي ما يتناساه أكثر الناس ، بأنَّه سبحانه ابتدأ قوله بـ: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ ثمَّ عقب: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨] ، كي نتَّقيه ، ثمَّ نطمع في مغفرته ، وبما أنَّ النفس ترغب في الملهيات يجب أن نردعها بشديد الآيات ، وبكلِّ وقاحةٍ ، وجرأةٍ على الله قالت: أَنبقى طوال الوقت نثرثر بالذِّكر ، والتَّسبيح ، نريد أن نعيش حياتنا مع التَّسلية!! قلت لها: وهل حياتنا هي الزِّيارات ، وإضاعة الوقت الذي هو رأس مالنا في هذه الحياة الدُّنيا بالتَّلهي؟ أَلديكِ متَّسع من الوقت للسَّخافات والثرثرة بما يضرُّ ، ولا

ينفع ، وتضيقين ذرعاً من ذكر الله؟! تقولين ذلك و يجيبك القرآن: ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ولا تمنن تستكثر!! وما أخوفني من أن تحقَّ عليك ما أخبرتنا به هذه الآية: ﴿ وَإِخۡوَٰنُهُمۡ يَمُدُّونَهُمۡ فِي ٱلۡغَيِّ ثُمَّ لَا يُقۡصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢].

ولعلمك قال عمر بن عبد العزيز: إنَّ الليل ، والنهار يعملان فيك «أي: يقربانك من أجَلك» فاعمل فيهما الصَّالحات؛ ليكون الوقت مستثمراً ، وليس مستهلكاً ، فمن علامات المقت إضاعة الوقت! فهو يمرُّ مرَّ السَّحاب ، ويجري جري الرِّياح ، سواءٌ أكان زمن مسرَّةٍ ، وفرح. . أم كان زمن اكتئاب ، وترح! أتستبدلين الذي هو أدنى بالذي هو خير؟ قالت: نعم ألا يقولون: ساعة لك وساعة لربك ، قلت: إنهم يغالطونك؛ إذ يقولون ذلك. . من قال هذا الهراء؟ ألم تعلمي أنَّ كل لحظاتنا هي ملكٌ لله ، ألم تعلمي: أنَّ كلَّ حركاتنا ، وسَكَناتنا عبادةٌ له سبحانه ، إذا كانت نيتنا مخلصة له. . وذكَّرتني هذه بقول العليم الحليم على عباده سبحانه: ﴿ وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

أما عن السَّاعات التي ذكرتِ؛ فتعالي نَتحاسبها. . ونجتمع إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا في فهم العبادة. . كم تأخذ صلاتنا المطمئنة ، والخاشعة كأقصى مدَّةٍ من الوقت؟ وإن كان هناك من يقرأ القرآن الكريم. . ونزيد على ذلك من يلتزم بالأوراد اليوميَّة ، كم يستغرق هذا أيضاً. . فلن تكون النتيجة إلا ساعاتٍ قليلةً من أصل أربع وعشرين ساعة. . وإن لم تتعدَّى السَّاعة عند أكثر الناس!! تجاوزاً عمَّن يحفظ من القرآن الكريم. . فهذا له أوقاتٌ إضافيَّة. . فأين أنت من ذلك؟ إنَّ الذي تقولين عنه يسمَّى ساعة لك ، وساعة عليك؛ لأنَّها من عمل الشيطان العدو المضلِّل العباد ، طالما أنَّك تبغين اللَّغو ، وإضاعة الوقت في اقتراف الذُّنوب ، أمَّا إذا أردنا الأخذ

بحديث رسول الله ﷺ، الَّذي فسَّره الجُهَّال كما تقولين، فالصَّحيح أنه قال ساعة، فساعة.. وكذلك تفسير قول: «**أريحوا القلوب ساعة بعد ساعة**»[1] فإنَّ القلوب إذا تعبت؛ ملَّت، فلا ضير من بعض التسلّي، والتَّرويح عن النفس المضبوط داخل حدود الشَّرع.. لتهيئتها على تحمُّل طاعة خالقها.. وبعض الرَّاحة للتقوّي على التنوُّع في العبادة.. وتحصيل أمر الله في تأمين المعيشة على منهاجه، كلُّ ذلك من العبادة المطلوبة في هذه الآية: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الانشراح: ٧ ـ ٨]، كي نحقِّق: إنَّ نُسُكي، ومحيايَ لله، فهي تشمل كلَّ نشاط نقوم به، فالعمل، والعبادة مفهومان متلازمان في شريعة الإسلام، والقرآن.. فهل تراكِ تَمُنِّين على خالقك بقليلٍ من العبادة مهما كثرت.. وتقولين لي: زوّدتيها؟ أَزيادَة مع الله! وقد قال علماً بعباده: ﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٤]! أزيادة في عبادة المولى وطاعته، والعبد فقط المستفيد منها؟! فسبحان الله، وتعالى علواً كبيراً، وهو الَّذي أمرنا أن نتَّقيه حقَّ تُقاتِه؟ أتعدّين هذه زيادة، أم هي النقصان بعينه؟ وهل نوَفّي حقَّ الله علينا مهما أكثرنا من العبادة، ونحن ما خُلِقنا إلا لعبادته؟! هيهات! هَيهات ممَّا تظنُّون! وهيهات! هيهات ممَّا أنتم به واهمون! أنت وأمثالك الكثيرون، السَّابقون، واللاحقون.. وأنت أدرى بمن هم مَقصودونْ، والله الغني عمَّا تعبدون.

أتظنِّين أنَّنا لحقِّ تُقاتِه فاعلون.. لا بالله، بل نحن عن ذلك عاجزون، وفي شكره مقصِّرون، الله الله ممَّا تقولون.. ألا ساء ما تظنُّون.. وما الله

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٣١٨١) وانظره في كشف الخفاء (١٤٠٠) وإتحاف السادة المتقين (٦/٣٦٨) عن أنس.

بغافل عمَّا تعملون، ويُلفتنا المولى سبحانه بقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤١].

قال عثمان رضي الله عنه: لو أنَّ قلوبنا طهرت لم تملَّ من ذكر الله؛ الذي قال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٧]! لأنَّهم ما قدروا الله حقَّ قدره.. فهل يرعَوي هؤلاء المتساهلون فيما هم مفرطون؟ إنّا لله وإنّا إليه راجعون!

كما يحضرني ما جرى بيني وبين إحدى قريباتي من كلامٍ حول عبادتي الَّتي لم توافقْ مزاجَها، أو مفهومَها المنقوص، والجاهل لهدف وجودنا في هذه الحياة.. حيث هي ممَّن لا يذكرون الله إلا قليلاً، فزيَّن الشَّيطانُ لهم أعمالَهم، فحسبوا: أنَّهم يحسنون صنعاً.. قالت كلاماً سأنقله بعد قليلٍ، بعد أن اعتذرتُ عن زيارتها عدَّة مرَّاتٍ، أو تمضية الوقت معها في أمورٍ تافهةٍ كما كنَّا عليه سابقاً، ولأنَّني اعتذرتُ عن الحضور لمناسبات أفراح تقام بالفنادق، أو صالات الأفراح، وكنت قد حرَّمتها على نفسي بعد توبتي، تحاشياً منِّي لما يحدث في تلك المناسبات من معاصٍ، ومنكرات، ومخالفاتٍ للشَّرع منها: مظاهر البذخ، والإسراف!! ثمَّ سماع الأغاني والموسيقا الَّتي تصدح طوال السَّهرة، فتصمُّ الآذان، وتصيب رأس المدعو بالصُّداع؛ حتى لا يتسنَّى لأحدٍ سماع تقديم التَّهنئة، والتَّبريك، وكأنَّني بهذه المناسبات أصبح شعارها التنافس في عرض الأزياء، والتَّنافس في الرَّقص، واتخذت طابع التقليد للغير، فترى كلَّ حفلٍ نسخةً عن الذي قبله، وأنا لا أقصد مخالفة سيدي، وحبيبي نبي الله ﷺ وأنا أحفظ حديثه الذي قال فيه: «**إذا دعا أحدُكم أخاه فليُجِبْ، عُرساً**

كان ، **أو نحوَه**»[1] ، ولما يتوافَر فيه من أواصر المحبة بين المسلمين؛ لأنَّ أحب الأشياء إلى الله إدخال السرور على قلب المؤمن. . ولكن بشرط أن يكون عرساً إسلاميّاً بحتاً ، وليس فيه كشف العورات أمام العريس!! هذا إن لم تكن الحفلة مختلطةً أصلاً . . مع أنَّها ستصبح مختلطةً في نهاية السَّهرة في كلتا الحالتين. . حيث يدخل أقارب العروسَين من الرِّجال؛ ليباركوا للعروسَين ، فيشاركونهما الرَّقص إلى ما شاء لهم إبليسُهم ، وذلك كلُّه في عرس النِّساء؟؟ وحتَّى كشف العورة للنِّساء على بعضهنَّ فيه نهيٌ ، ولكنِّي لاحظت بأنَّ الكثير من النساء لا يهتم بتلك المعصية ، بل ومنهنَّ من لا يؤمن بها ، ويعتبرنها تزمُّتاً منِّي ، وهنَّ من الفئة المسلمة الملتزمة بمظاهر دينهنَّ للأسف !ناهيكم عمَّا هنالك من هدرٍ للأموال ، والتَّعالي المحرَّم في هذه المظاهر البالية ، والغيبة من قبل المدعوِّين على العروسَين وأحياناً على الحفل ، وعلى من أقامه! في انتقادات لاذعةٍ ، جاحدةٍ بنعمة داعيهم إلى الحفل ! وهذه ، وللأسف حال أفراحنا اليوم؟ فتنبهوا إلى إنذار المولى تعالى في هذه الآية: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] .

ولقد رأيت أنَّ الحاجة ماسةٌ هنا ، كي أقدِّم حبِّي لأخوتي في الله على طبق النَّصيحة البنَّاءة ، أحثُّهم فيها على اليقظة من غفلتهم ، وبعدهم عن التقاليد الإسلاميَّة الرحيمة ، والبعد عن العادات الغربيَّة والجاهلة ، التي شاركتنا عقولنا ، وسكنت بيوتنا والَّتي يمقتها الشَّرع. . فكيف أشارك بتلك المعصية بعد أن عرفت الله ، وأحببته ، وأخشى الآن غضبه؟! وهذه القريبة من قريباتي تريد الآن أن تخرجني من عزلتي في حبِّي لله ، لتودي

---

(١) رواه مسلم (١٤٢٩/ ١٠٠و١٠٤) وأبو داود (٣٧٣٨).

بي إلى جهنَّم رحمةً بي ، وخوفاً عليَّ!! حيث قالت: إيّاكِ أن تستمرِّي على هذا النَّحو! لأنك سوف تصابين بالجنون!! وأنا خائفةٌ عليك من تقوقعك ، وانعزالك عن النَّاس ، فأنا حزينةٌ من أجلك ، ويقلقني عدم مشاركتك لنا اجتماعاتنا وَمُناسَباتِنا . . إنَّك لم تلبِّي دعوة أحدٍ منذ سنوات! والله يا عزيزتي إذا بقيت على هذا الحال سوف تجنين . . قلت لها: أُجنُّ؟! من ماذا؟ من طاعتي لأوامر ربي!! وهل يُجنُّ عبدٌ من طاعة سيده ، ومن الامتثال لأمره؟! وهل سمعتِ عن أحدٍ قد جُنَّ من السَّعي لإثراء نفسه عن طريق تجارةٍ مؤكدة الرِّبح من طريق سويٍّ؟! بل هل جُنَّ إنسانٌ من عبادة ربِّه ، أم العكس هو الصحيح؟ أوَليس المجنون هو من لا يعرف الله خالقه؟! فسبحان الَّذي قال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ١٨] .

أليس الجنون بعينه أن نبدِّدَ رأسَ مالِنا الذي هو عمرنا في خسارةٍ أكيدةٍ مع المعاصي . . أليس الجنون بعينه أن أبيع صلحي مع مولاي؛ لأشتري به توافه الأمور . . ذلك وسام الشَّرف السَّامي الَّذي أصبح أغلى من روحي؟ بلى والله! ولكنَّ أكثرهم لا يعلمون . . فقد أخذتني العزَّة بديني ، ولم يعد يهمُّني أحدٌ ، كائناً مَن كان .

وعلى كلٍّ إذا أصابني مسٌّ من شيءٍ ، فإنَّ من قولِكِ هذا لا بدَّ سيصيبني الجنون ! فأنت والله التي تثيرين شفقتي ، وحزني من طريقة تفكيرك ، فأيٌّ منا المجنون؟ وإذا كنتُ مجنونةً بشيءٍ . . فأنا أهيم بالله حباً . . فقد زرعه في قلبي جلَّ في علاه ، وما أحلاه من جنونٍ ممتع؛ إن كان الأمر كذلك ، فاللهَ أسألُ أن يَزيدني هياماً في حبِّه و . . جنوناً! ويُذيقَكِ حلاوةَ هكذا جنون في حبِّ الله ، وللعباد أجمعين . . اللَّهمَّ آمين!

* * *

دعوة ونداء إلى سبيل الله

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [فصلت: ٣٣]، تعالوا أخواتي المسلمات؛ كي نحقِّق ما جاءنا في هذه الآية المرغِّبة، ونتَّقيَ يوماً نعود فيه إلى الله، فنتعاون على البرِّ والتَّقوى، ونشفق على أنفسنا، وعلى أخواتنا المسلمات، نؤازرُهنَّ ونساعدُهنَّ، نفتح لهنَّ باب الإصلاح بأيدينا، ونقوم بالنُّصح كلٌّ على قدْرِ وُسعِها، وننتهج التَّحلِّي بصفة حسن القول التي أسبغها الله تعالى على صنفٍ خاصٍّ من الناس.. نتواصى بالحقِّ، والصَّبرِ عليه، والله في عون العبد، ما دام العبد في عون أخيه، مبتدئين بأنفسنا، فلا نستهينُ بعملٍ في سبيل الله مهما صَغُرَ، وعلى ذلك فلكلِّ عملٍ ثوابه سلباً كان أم إيجاباً، آخذين بقول الله تعالى في أجمع آيةٍ شريفة: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧ـ٨]، ولأنه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].. لأنَّ الله سائلُنا عن أوقاتنا، ومُجازينا على أعمالنا.

والدِّين النَّصيحة كما بيَّن لنا سيدنا محمَّد ﷺ: «**من رأى منكم منكراً فليقوِّمه بيده، فإن لم يستطع؛ فبلسانه، فإن لم يستطع؛ فبقلبه، وذلك**

أضعف الإيمان»(١)، وليس في ديننا أبداً قول: لا دخل لنا في ذلك الشأن، أو تلك العبارة الكريهة: (كل واحد على دينه الله يعينه!!) فالتّناصُح واجب على كلٍّ مسلم.. والمؤمنون بعضُهم لبعضٍ نَصَحةٌ، وخالقنا قال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١] فالذكرى تنفع المسلمين، وأمور المسلمين يجب أن تهمَّ كل مسلمٍ، وهذا مطلوبٌ في كلِّ حين، ولكن في عصرنا ألزم، والحاجة إليه أوكد؛ لأنَّ كثيراً من النَّاس قد ضلَّ سواء السبيل.. ورحم الله امرأً عرف زمانه، وخاطب أهله بما يعرفون، وكثيرون هم الذين يحضرون مجالس العلم، ولكنَّهم لا يطبقون ما سمعوا، وكثيرٌ منهم يحتفظون لأنفسهم بما علموا، وبذلك لا يعمُّ فضل العلم كما يجب، وليست الدَّعوة وقفاً على العلماء كما يظنُّ أغلب النَّاس! فهذا شأن كلِّ مسلم يحبُّ دينه، ويغار عليه، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان من مولانا الرَّحمن الَّذي قال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾؟؟ [الأنعام: ١٢٢].

فيا حبذا لو أنّنا نقوم بالدَّعوة بأسلوبٍ لطيفٍ، وجذّابٍ، وقد عوّدت نفسي أن أقدِّم نصيحتي مطعَّمةً بالفكاهة، والمرح، مستخدمةً آداب الدَّعوة، وأصولها، فوجدت في ذلك صدىً إيجابيّاً مذهلاً، ومن هنا أؤكِّد ثانيةً على وجوب الدَّعوة، وأهمِّية سلوك الدّاعي بين الناس ظاهراً، وباطناً، لمن تجد في نفسها الكفاءة.. وفي جعبتها علمٌ صحيحٌ.. مقتديةً برسول الهدى ﷺ؛ كيلا تنفِّر المقبلين على الدُّخول في دين الله، وأعظم من ذلك كلِّه، أن نكون قدوةً صادقةً يطابق علمنا كلَّ أعمالنا، في

(١) رواه مسلم (٤٩) والترمذي (٢١٧٢) والنسائي (٨/١١١ و١٢٢) وابن ماجه (١٢٧٥ و٤٠١٣) عن أبي سعيد.

ذلك فقط نجاح المهمة في اتباع أثرنا.. سيروا في رحاب الله أخواتي، وانصروا دينكم، انصروه.. واحذروا الجاهلين من التَّدخُّل في أمور الدِّين، وامنعوهم، وإنَّهم لَمعاقبون عند ربِّ العالمين، أما أقسم تعالى، وقال: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر: ٩٢ - ٩٣] !

ويجب الأخذ بعين الاعتبار الفرق بين التبليغ والدَّعوة إلى دين الله، وبين الإفتاء، فهذه الأخيرة مهمَّة علماء الفتوى الأفاضل، فهم متميِّزون عن العوام، بفضل علومهم الكثيرة الشَّاملة للخير بأكمله، واللهَ أسأل أن ينفعنا بعلمهم، ويبارك لنا فيهم أجمعين!

كما أنَّ الدَّعوة إلى المعروف، ونبذ المنكر أمرٌ مقرَّرٌ، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله الكريم: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٧١].

واللهَ أسألُ أن يلهمَنا السَّدادَ، والرُّشدَ، وأرجو الله أن يجعلنا هداةً مهتدين، عندئذٍ يرحمنا الله، ويغفر لنا ما دمنا نهدف إلى تبيان الحقِّ، ووجوب الطَّاعة، بتوجيه النَّاس إلى ما يُصلحهم في أمور دينهم، ودنياهم؛ لينضبطوا على منهاج الله، جاعلين من تقوى خالقنا سبحانه حافزاً لنا، ودافعاً لذلك، ومتجرِّدين عن المصالح الخاصَّة بنا.. فإنَّني أعتقد: أنَّ الله سيؤيدنا بتوفيقٍ منه، وسوف يسدِّد خطواتنا إلى مرضاته بعونه، وفضله، ولا شكَّ: أنَّ هذه الخطوة صعبةٌ، ولكنَّها واضحةُ الهدف، محدَّدَةُ الغاية؛ والنِّهاية.. فتعالي نحققْ غايةَ وجودنا في هذه الحياة الدُّنيا، ونعملْ بمنهاج التكليف الإلهيِّ لنا، ونمتثلْ لأمر الله، ولما سخرنا من أجله، باذلين لهذا الأمر كبيرَ جهدنا علَّ اللهَ يرضى عنا، فهناك

تكاليف يجب أن تؤدَّى ، و مَحْظوراتٌ يجب أن تُترك . . وإن لم تكوني قد تعلَّمت من العلم شيئاً ؛ فعليك أن تتعلَّمي ما يجب عليك ؛ لتعبدي الله تعالى على بصيرةٍ . . وعلى هدىً ، فهذا واجبٌ ، وفرض عينٍ . . لا يسقط عن أيِّ إنسان . . كائناً من كان ، وذلك صريح الإيمان . . فهيَّا بنا يا أخواتي الفاضلات! ننهل من بحور العلم لوأد الجهل ما وسعنا إلى ذلك سبيل ، ونبلِّغ العلم الذي تعلَّمناه لأننا سنسأل عنه بين يدي الله عزَّ وجل ، ماذا عملنا بذلك العلم .

وقال أحدهم : إنِّي أحب أن أبلِّغ العلم قبل أن أذهب به إلى لحدي! وبذلك نُحَصِّل مصالحَ تنفعنا ، ونجني فوائد كثيرةً ومهمَّة في الدُّنيا ، والآخرة ، فنساهم بإعلاء كلمة الله ، ونحاول إزالة المنكرات التي كَثُرت جداً في زماننا هذا!! وندرأ مفاسدَ كثيرةً عمَّت بيوت المسلمين ، فنساعدهم على تجنُّب مضارِّها ، وخطرها ، مبتدئين بالرِّجال ، ثمَّ النِّساءِ ، والفتياتِ ، ولا ننسى الأطفالَ . . فالعلم الذي لا ينفع ، كالدَّواء الذي لا ينجَع . . كي نكون ممَّن قال فيهم المولى تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ [النحل : ١٢٥] .

فوالله يا أختاه! إنَّ الإنسان ليألم يوم يسمع عن عجائز في البيوت لا يُجدن قراءة الفاتحة الَّتي لا تتمُّ الصَّلاة إلا بها . . بل لا يعرفن كيف يصلين! ولا يعرفن بعض أحكام النساء الضرورية . . ذكر أحد الدعاة إلى الله عن رجلٍ جلس مع أسرته ذات يومٍ ، ليعرف ماذا وراء هذه الأسرة ، فقال لأمِّه العجوز : اقرئي الفاتحة ، قالت : وما الفاتحة يا بنيَّ؟! قال : إذا كبَّرت ماذا تقولين في صلاتك؟ قالت : أقول : (لا قرأت كتاب ، ولا حسبت حساب ، فلا تعذبني يوم العذاب!) وهذه المرأة قد يكون في

بيتها مَن حفظ مِن القرآن ما حفظ.. ونال من الشَّهادات ما نال.. وقد تخرَّجت من بيتها المتعلمة، وقد حفظت من كتاب الله ما حفظت، وكثيرون مَن تعلَّموا العلم لا ليعملوا به، ولكن لينالوا شهادة! فلا تكوني أختاه هذا حالك!

وأشهد الله بأنَّني شاهدت هذه النماذج في عدَّة بيوت! فماذا يكون الجواب يوم القيامة عن أوَّل سؤال وهو: عِلْمُكُنَّ ماذا عملتن به؟ يا أمهات المستقبل! ويا معلمات الدين! ويا مربيات الأمة!

وممّا يُفَطِّرُ القلوبَ حسرةً كثرةُ رجالنا الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.. فوقعوا في الانحرافات الشَّنيعة، ولم يعد لديهم ذرةٌ من النَّخوة، أو الغيرة على محارمهم!! أيُعقَل أن يجرفهم تيار التَّسيُّب إلى حدٍّ: أنَّهم يَدْعُون نساءَهم وبناتِهم إلى الولائم والمناسبات الاجتماعية المختلطة من الجنسين ذلك الاختلاط المحرَّم، يتباهون بما يملكون وهنَّ شبه عاريات، تحت شعار التحضُّر الواهم.. علماً بأنَّ الحضارة لم تكن يوماً بتلك المظاهر المزيَّفة، والمخجلة، المُتفلِّتة من أصول الأخلاق الاجتماعيَّة -والأهمُّ منها الدِّينيَّة- والبعيدةِ عن القيم والمبادئ الإسلاميَّة، الَّتي تبنَّتها الدُّول الغربية، وبَنَت منها حضاراتها.. والمؤسف أنَّنا تبنَّينا نحن مفاسدَهم، وكلَّ ما يُصدِّرون إلينا من مبتكراتهم المتنوعة، في عالم الأزياء الخليعة، والموضة المخجلة وتَسليع المرأة[1]، ويأتي هؤلاء ممَّن ينتسبون إلى ديننا فيُرَوِّجونها، ويُلبسون زوجاتِهم وبناتِهم من أحدث صيحاتها، ويجعلونهنَّ بذلك يسبقنَ نساء الغرب في كشف العورات، وإظهار قلَّة

(١) أي: جَعْل المرأة سلعة.

الحياء، والابتذال، فيجعلون منهن مصدر إغراءٍ، وجذبٍ للأنظار، يعرضونهنَّ كما تُعرض البضاعةُ الرَّخيصةُ على أعين الفضوليين، دون أن يستشعر أحدٌ منهم رقابة الله أثناء سهره على المعاصي، بل إنه يجاهر في الصَّباح بما كان، وما أكبر من المعصية عند الله إلا المجاهرة، والتَّباهي فيها، والأسف على عدم فعلها! ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩]؟ غفرانك!.

فهذا وعيدٌ خطرٌ من العليِّ الجبّار سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٧-٨].

ونناشد المرأة الَّتي هي زوجةٌ لأحد أولئك الرِّجال أن تقول له: إنِّني، وبناتي أثمنُ ما تملك في هذه الدنيا، فاتَّقِ اللهَ فينا، وحافظ علينا فنحن نفائسُك، ولا ترخِّصْنا، وأنت تحسب أنك تُحسن صنعاً فينا!! فإن خالقَنا سبحانه يغار على إمائه، فالأَولى بك أنت أن تغارَ علينا، وتحافظَ على جواهرك.. وتعالي أختي الداعية نحثُّه، وأمثاله على حفظ أعراضهم من الامتهان والتَّدنِّي، وستر عورات محارمهم عن المغرضين، ونقول لهم: أيُّها المسلمون! يا رجال الإسلام! حافظوا على الأمانة التي استودعكم إيَّاها مولاكم، فلا تنبهروا، وتنخدعوا بتلك الحضارة الغربيَّة، فتغرِّر بكم.. واحفظوا ماء وجوهكم.. واشكروا الله على هذه النِّعمة التي حباكم بها، ويا ليتكم تتدبرون هذه الآية الآكدة لمكر الله: ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٢]، ويومئذٍ ستبدو لكم حصائد أعمالكم كما بيَّن خالقنا سبحانه بقوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الزمر: ٤٨].. والله إنه لأمرٌ نكر!

وللرِّجال الذين يُنكِرون على نسائهم حِشمَتَهُنَّ ، وامتثالَهنَّ لأوامر خالقِهنَّ سبحانه ، بل ويُكرهونَهُنَّ على خلع الحجاب بأساليبَ مختلفةٍ ، ليجردوهُنَّ من مظهرِ إكرامِهِنَّ ، وسبيلِ وقايتِهِنَّ من مطامع ذوي النُّفوس المريضة! هؤلاء الذين لووا رؤوسهم ، ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون. . ولأنَّ الله لا يحبُّ المتكبِّرين. . نقول لهم: تنبَّهوا من هذا الوعيد: ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [النحل: ٢٨-٢٩] ؟! وبيَّنها في عدَّة سور لشدَّة سوء التكبُّر على الله تعالى!! لا أدري كيف يقبل رجلٌ مسلمٌ بأن تَهونَ عليه عزيزاته ، من زوجةٍ ، وأختٍ ، وابنةٍ ، فيجعلُ منهنَّ وسيلةَ انجرافه في تيار التَّقليد الأعمى ، والتَّبعية المستسلمة لأعوان الشَّيطان ، وأعداء الإسلام ، فيخطبون ودَّهم ، ويجاملونهم في باطِلهم ! فلنقل لأمثال هؤلاء: قولوا بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة: ١] .

أيُّها الرِّجال المسلمون ماذا دهاكم؟! أللشيطان تهبون نساءكم؟ أإلى الشَّيطان تبيعون أحبابكم؟! أَللشيطان تمدُّون أيديكم وهو الَّذي أقسم لَيَحْتَنِكنَّ ذرياتكم؟! أَإلى الشيطان تُسلِّمون رقابكم ، وتَقبَلون به ولياً على عقولكم؛ وقد أعلن نيته الحاقدة أمام ربه سبحانه: ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٢-٦٣] !

أترمون بهم إلى الَّذي حذَّركم منه ربُّكم بأنَّه من ألدِّ أعدائكم! أفترضون معه الهلاك لأنفسكم، ولأحبابكم؛ إذ يَنزغ الشيطان بينكم، فيخرّب معيشتكم.. ثمَّ يفرِّق بينكم، ويقضي على زواجكم وتكون نهايتكم هذا الإنذار من المولى سبحانه: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وشتَّان ما بين الرجل الذي يغار على دينه، ويصون عرضه، وشرفه في نسائه؛ سَكَنِهِ الذي أكرمه به ربُّه الدَّيَّان، وبين الذي يستهتر بحشمتهنَّ، ثم يزرع وليُّه اللَّعين الشكَّ في رأسه، فيحرمه نعمة الثقة بنسائه، وأصدقائه، وأقربائه، وحتَّى في نفسه، وهذا دأب الشَّيطان.. ويا لمصيبة إنسانٍ سخَّر له خالقه كلَّ شيءٍ، فسخر هذا الإنسان نفسه للشَّيطان!! وهو الذي أقسم بعزة الله أن يغوينا أجمعين.. إلا عباد الله المخلَصين، وبما أنَّكم لم تكونوا من عباد الله المخلِصين، فتركتم أنفسكم للشَّياطين، فأصبحتم ممَّن: ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩]؟! ذلك مصير: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة: ٨٦].

فاعملوا على درء الفتنة، والمفاسد المستوردة من أعداء الدِّين الحكيم، ولا تجعلوا نساءكم مادَّة التَّرويج لها، فإنَّكم عن ذلك يومَ القيامةِ لَمسؤولون، ولِربِّكم لا بُدَّ ملاقون، فلتنظروا بماذا تجيبون؟!: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا

﴿وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] .

وليتكم تتنبهون لتحذير الله ، وتستفيدون من رأفته ، نعم ، إنَّه رؤوفٌ بعباده؛ إذ يحثهم على طاعته ، لينجي من نقمته من كان يستهزئ بآياته ، وبهدي رسله ، فاحذَروه ، وامتثلوا لأمره ، وأَلزِموا نساءَكم الحجابَ ، والسَّيرَ على دين الله القويم ، واعملوا على إنقاذهنَّ وأنفسِكم من عذاب يوم عظيم! ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر: ٢٤] ، أفلا تهابون؟ ما لكم لا تتصرَّفون! نسأل الله السلامة ، والعافية!

أمَّا للرِّجال الَّذين غُلب على أمرهم من سطوة ألسنة نسائهم ، وتفلُّتهنَّ عن دينهن نقول: إنَّ سيدنا رسول الله ﷺ بيَّن لكم بقوله: «**ما رأيت من ناقصات عقل ودينٍ ، أذهب لِلُبِّ الرَّجل الحازم من إحداكنَّ**»[(١)] . . . فلا تغلِبَنَّكُمُ النِّساء على رجولتكم ، ولا يلهينكم الشَّيطان عن رعاية أَهاليكم ، ولا تشتغلوا بأموالكم عن الحفاظ على ما هو أهمُّ ، وأولى لكم . . ولا تنسوا أن نبيَّ الإنسانية ﷺ قد حذَّركم بقوله: «**ما تركتُ بعدي فتنة أضرَّ على الرِّجال من النِّساء**»[(٢)] .

فخذوا حذركم! واستعينوا بخالقكم ، وادفعوا نساءكم إلى طريق العلم ، أغروهنَّ بما يرضي غرورهنَّ مقابل إذعانهنَّ لطلبكم ، وإلا فهدِّدوهن بما يخشينه ، لإلزامهنَّ اتِّباعكم بما يرضي ربكم ، وخذوا بأيديهن حتَّى تصلوا وإيَّاهن إلى برِّ الأمان ، طريق النُّور الإلهي ، بالصَّبر ، والالتجاء إلى الله ، إلى مولاكم سبحانه الَّذي بشَّر الصابرين بقوله:

---

(١) رواه البخاري (١٤٦٢) عن أبي سعيد.
(٢) رواه البخاري (٥٠٩٦) ومسلم (٢٧٤٠).

﴿ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢٠] . . ﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١١] . . فلا يُلَقَّاها إلا الصَّابرون.

واعمل يا أخي المسلم! بأناةٍ ورويَّةٍ ، ودرايةٍ بأمور النِّساء ، على هدي نبيِّ الرَّحمة ، وتعامل مع التي جعلها الله سَكَناً لك بالحكمة ، والموعظة الحسنة؛ لتنالا معاً الفوز العظيم إن شاء السَّميع العليم ، فاليوم ينفعكم مالكم وجاهكم ، وغداً لا ينفعكم سوى عملكم ورجائكم ، والعاقبة للمتقين ، عافانا الله من غضبه أجمعين. وكم هو مغبونٌ رجلٌ يدعو أهله للخير ، وينسى حظَّه منه ، مثل الَّذي يأمر أهله بالصَّلاة ، والحجاب ، وهو لا يعرف قِبْلَةَ مولاه ، أو كالَّذي يبيح لنفسه المحذورات! ويحرم أهله من أبسط حقوقهم الحياتية! تعنُّتاً ، وتزمُّتاً أَحْمَقَ ، ناسياً قوله سبحانه: ﴿ ۞ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤] ، فيا أخي المسلم ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٣].

وما أَخوَفَني عليك إن لم تنقذ نفسك. . وكن ناصِحاً تقياً ، لئلا تلحق بالأَخْسَرِينَ أعمالاً ، وتكون من المغضوب عليه! ذلك الذي يعلَم الحقَّ ، ثمَّ يحيد عنه!!.

والآن أختي الكريمة! فقد جاء دور فتياتنا الغاليَاتِ؛ لنقول لكلِّ ابنةٍ ولكلِّ فتاةٍ مسلمة: صحيحٌ أنَّ الرجل هو الذي يخطو الخطوة الأولى في طريق الإثم ، ولكن لولا رضاكِ ما أقدم ، ولولا لِينُك ، واستهتارُك بمحارم الله ما اشتدَّ. . أنتِ التي أثرتِ رغبتَه بالتَّحرُّش بك ، وفتحتِ له باب الشَّيطان بتبرُّجك ، وتعطُّرك ، وتفلُّتك من قيود الأخلاق الإسلاميَّة ،

فدعوتِ ذوي النفوس الضَّعيفة إلى الدُّخول في حُرمة عفافك.

حبذا لو تعودي إلى دينك، وللبحث عن السَّعادة الحقيقية التي لا تكون إلا في شرع الله.. اشتري نفسك، وكرامتك بترخيص مهرك، لتتمتَّعي بدفء بيت الزَّوجيَّة؛ لأنَّ فتياتنا باتت تبور، لتمسكهنَّ بالمظاهر الفاجرة المستوردة ممَّن لا يعرفون الله، ولا تكوني من اللاَّتي يطلبن الشَّهادات، فيعزفن عن الزَّواج لأجلها.. بل يمكنُ الاستمرار في متابعة التعلُّم بعد الزَّواج، والاستقرار، أسوةً بالكثيرات اللاتـي عرفتُهنَّ ممن يقدِّسن العلم، ويأتمرن بأمر الله، فنجحن نجاحاً باهراً في المجالين، وكنَّ من الأوائل، وساهمن بإعمار بلدهنَّ بعائلاتهن المثقفة، في المساهمة بما ينهض بالمسلمين في بناء الحياة في جميع أمورها ممَّا يحفظ عليهم دنياهم كريمةً، ولا يجعلهم أقلَّ نجاحاً من غيرهم، كي لا يطمع فيهم طامعٌ، فيضيِّع عليهم دينهم ودنياهم، نعم لا أحد ينكر انتهاج العلم، والتعليم إطلاقـاً؛ لأنَّهما أكيدان في قيام الإسلام المتحضِّر الآمر بالتَّعلُّم، وتفعيلهما بما يستفيد منهما زوجك، وأولادك، ووطنك، فذاك هو الخير المراد منك، وتكونين على أكمل وجه قد أدَّيت في الحياة رسالتك.

واختاري لنفسك شاباً ملتزماً بالأخلاق الإسلاميَّة، واقصدي إعفافه؛ كي تعصميه، ونفسك عن التطلُّع إلى الحرام.. والله يريد الإعفاف في تلك المسألة، لينشأ الطفل على أرضٍ صلبةٍ من الطُّهر، والنقاء.. وتزوَّجي بتوفيقٍ من الله بعرسٍ إسلاميٍّ يباركه مولاك، لعلَّ الله يرزقك، وزوجك ذرِّيةً صالحةً تربينها على شريعة الإسلام القويم، ليرفعوا رايات دينهم الذي ينادي بالعلم، والحضارة، ويحثُّ على التَّفوُّق على العالم

بأكمله . . وينهضوا بهذه الأمَّة على أكمل وجهٍ في جميع المجالات ، فكم من مخطئ يظنُّ : أنَّ ديننا الحكيم ضد التَّعلُّم والتقدُّم ، بل هو ينعى على (التَّنابل) والمقصِّرين في البحث والتَّنقيب عمَّا سخَّره لنا خالقنا سبحانه من ثروات . . هؤلاء أعداءٌ لهذا الدِّين من حيث لا يشعرون ، لأنَّهم ظَلَمة . . ظلموه ، وظلموا أنفسهم ، ومن يتبعهم ممَّن يعتقدون بأنَّ ديننا ليس له علاقة بالحضارة ، وهو أصل الحضارات ، وتركوا الغرب يتحكَّم وحدَه في التَّطوُّر العلمي! ولكِ الأجر والثَّواب على مؤازرتك ، وانضمامك إلى فئة العاملين على إخصاب بذور الحضارة ، والتقدُّم العلمي في زوجك ، ومن ثَمَّ أبنائك ؛ ليكونوا على مستوى تحدِّيات الحياة ، فالمسلم الحقُّ هو الموقظ لنهضة الأمَّة الإسلاميَّة ، وليس الَّذي يزيد في غيبوبتها (ودروشتها) .

واعلمي بأنَّه لا عِزَّ لإنسانٍ إلا بالامتثال لأوامر الله ، والانتهاء عن نواهيه حيث قال عزَّ وجل : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ ﴾ [فاطر : ١٠] .

وتأكَّدي من أنَّ الشابَّ لا يحترم إلا الفتاةَ الملتزمةَ بدينها في حشمته ، وأخلاقه ، فهذا يطمئنه على عفافها ، حيث لا يشاركه كلُّ مَنْ هَبَّ ، ودَبَّ في التمتُّع بمشاهدة محاسنها ؛ لأنَّ ذلك من حقِّه الَّذي يجب أن يتفرَّد به . . ويثق بالتالي بأن تحمل اسمَه ، وأن تكون أمّاً مشرِّفةً لأولاده ، وأنصحك نصيحة الأم المُحبَّة لجميع الفتيات ، بأن تأخذي من تجربتي عبرةً تسعدك في الدَّارين .

* * *

هاذم اللذات

دعوني أسألكم عزيزاتي: ألا تؤمنون بالموت؟ ستقولون: بلى.. ولكنَّ العمر طويل، والله غفورٌ رحيم! فأقول: الموت يأتي ليتخطَّفنا بغتةً، وكلٌّ منَّا لا شك يسمع عن فلانٍ مات في حادث سيارةٍ وهو صغير، وآخر لم يتمَّ حديثاً وديّاً مع شقيقته على الهاتف، فأسلم الرُّوح في لمح البصر، وفلانٌ، وفلانةٌ.. فإذاً نحن متفقون، وموقنون بأنَّ الموت لا يعرف طولاً! أليس هذا ما أكَّدته لنا الحقيقة تطابقاً مع كلام رب العرش المجيد: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [ق: ١٩]!

وكلُّنا سيرحل، وسيغادر هذه الدَّار إمَّا إلى جنَّةٍ، وإمَّا إلى نارٍ.. فحقَّ علينا عند كلِّ عملٍ، وحالٍ أن نتذكَّر الموتَ، وما فيه من ألمٍ، وشدَّةٍ، والقبرَ، وما فيه من وحشةٍ، وظلمةٍ، وغربةٍ، وفرقةٍ، حتماً سيحدث لنا تغيير!! واسمعي قول المولى تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].. ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ﴾ [يونس: ٥١]؟!

ولا أخفيكم كم بلغ أثر هذه الآية العظيمة في إحساسي، حينما تخيَّلت

نفسي في القبر المظلم وحيدةً ، وقد تزوَّدت بالمعاصي!! أتخيَّل مُنكَر ، ونكير ، وكيف سيكون اللقاء؟! حيث قرأت عنهما أوَّل ما قرأت ، وعرفت شدَّة قوَّتهما ، وبأسهما في تنفيذ أوامر ربِّهما سبحانه ، وفظاعة شكلهما مع العاصين ، وأما مع المؤمن الطَّائع فإنَّهما يأتيانه على هيئةٍ جميلةٍ ، ويعاملانه بلطفٍ ، فبالله عليكم ، أمن عاقل يختار لنفسه السَّيئ ، بأن منحه الله حرية الاختيار؟! ولا ينتظر العبد بعد موته إلا جنةً نعيمُها مقيمٌ ، أو ناراً عذابها أليمٌ ، يا إلهي! أظلم جوف القبر وما أخوف النزول فيه مع الأوزار ، فتكون عيشة ضنكاً . . حيث الغربة ، حيث الدُّود ، والجماجم!! وما أصعب يوم التناد ، وما أحرَّ جحيمه!! وما أشدَّ غفلتي عنه ، فقد طويته في طيِّ النسيان في حياتي ، وأمام هذه الحقيقة المخيفة ، ولكثرة ما قرأت عنها تكسَّرت شوكة عنادي الجاهل ، فتركت كلَّ ما كنت أجده غالياً ، وعظيماً ، لأشتري الأغلى ، والأعظم ، في عمل كلِّ ما يرضي مولاي . . فيجب ألا تنسى إحدانا أن الموت قريب ، وأنَّه حقٌّ على كلِّ عبدٍ ، وبأننا ضيوف في حياتنا الدُّنيا
فالحياة بابٌ مفتوح على الموت ، والعمر ضيفٌ راحلٌ! فالأولى لنا ألاّ ننفكَّ عن التَّفكير بالموت ، وقصر الأجل ، وأن نجعله بين أعيننا في كلِّ لحظةٍ ، ففي ذلك خيرٌ كثير ، وأقلُّه أننا نقوِّم أنفسنا ، فتصلح بالتالي أعمالنا ، وعجباً ممَّن تضيق صدورهم مِنْ ذكر الموت ، والنَّبيُّ الكريم ﷺ قال: «**أكثروا ذِكْرَ هاذِمِ اللذاتِ**»[1] . . . و: «النَّاس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا»[2] . . . بل: «**إنَّما أنا والدُّنيا كراكِبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ ، ثمَّ راح**

---

(١) رواه الترمذي (٢٣٠٧) وابن ماجه (٤٢٥٨) وابن حبان (٢٩٩٣).

(٢) انظره في كشف الخفاء (٢٧٩٥) والأسرار المرفوعة (٥٥٥) والمقاصد الحسنة (١٢٤٠) والفوائد المجموعة (٧٦٥).

وتركها»(١). . أي بقدر قيلولة الظَّهيرة، ولكن خُلق الإنسان ظلوماً جهولاً، ومن أروع ما قرأت: أنَّه جاء رجل لتعزية صديقٍ له، وقال له: كنت خائفاً عليك من الصَّدمة بعد وفاة وحيدك، أجابه الصديق: وكيف أصدم بما لم يبارح فكري، فأنا لا أفتأ للحظةٍ عن تذكر الموت! وإليكم هذه الأبيات المختارة:

يا عباد الله! إنَّ أيامكم قلا ... ئل ومواعظكم قواتِل
فليخبر الأواخرُ الأوائلَ، ولـ ... ـيستيقظ الغافلُ قبل سير القوافل
يا مَن يوقن أنَّه لا شكَّ را ... حل، وما له زادٌ ولا رواحل
يا مَن لجَّ في لُجَّة الهوى، ... متَّى ترقى إلى السَّاحل
يا مَن يبني البُنيان ويشيدُ المعا ... قل، وهو عن ذكر قبرِه مُتشاغل
ويدعي بعد هذا أنَّه عاقل، تا الله ... لقد سبقه الأبطال إلى أعلى المنازل

ونحن لسنا إلاّ عباداً مملوكين لله، نتحرَّك في قبضته، والموت هو الشيء الوحيد الَّذي تحدى به الله تعالى عباده جميعاً. . لم يتحدَّاهم باختراعٍ ما، ولا باكتشافٍ في البر، والبحر، والفضاء. . ولكن تحدَّاهم بأن يصنعوا للموت أيَّ مانع كان! تحدَّاهم بالموت بأساليب مختلفة. أما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

وقد كنت يوماً في زيارةٍ تجمع الأهل، والمعارف، فروَت إحداهنَّ قصَّةً عن حادثة موت، وتبعتها أخرى تذكر ما عندها عن هاذِم اللَّذات، ثمَّ تبعتها ثالثةٌ، فرابعةٌ. . فإذا بواحدة من الزائرات تحتجُّ بحدَّة على هذا الحديث الَّذي طال في ذكر الموت، وأيَّدتها أخرى، وقالت: أتينا كي

(١) رواه الترمذي (٢٣٧٧) وابن ماجه (٤١٠٩).

ننسى همومنا، شكوتكم لله، فلا تزيدونا همّاً.. كلُّ واحدة فيهنَّ تودُّ لو تعمَّر ألف سنة! عجباً أيَّتها المسلمات.. أَبذكر الموت تزدَدْن هماً؟ إنَّه والله لهو الحديث الأنجع لتفريج الهمِّ، والتَّرويح عن النَّفس المكروبة.. فذكره ينشِّط للعبادة، ويردع عن المعاصي، ويلين القلب القاسي.. ويعين على تحقُّق العبودية من النَّاسي.. لأنَّك إذا ذكرت الموت عند كلِّ معضلةٍ تقف أمامك؛ لهانت عليك، فهو يهوِّن أمر أعظم المصائب.. لأنَّك ستذكِّرين نفسك بأنَّها ضيفة، وسترحل إلى بارئها المتعال، فيتبدَّد حتى التَّفكير فيها، لأنَّك وقتها ستحوِّلين تفكيرك في تحصيل رضا من ستعودين إليه! علَّه يستقبلك برضاه.

وإنَّه والله! لهو الحديث الذي استعنتُ به على إرغام نفسي على التَّخلُّص من عصيانها.. فباتت تطرب له أذني، وتخشع منه نفسي، وينضمُّ إليهما دمعي، وتؤازرهما روحي تحالفاً على حبِّ الله جلَّت قدرته، خوفاً من غضبه، وشدَّة عقابه، وشوقاً للعمل بما يرضيه، فلم يعد يزيدني ذكر الموت إلا سروراً بلقاء المولى سبحانه وتعالى، ونشاطاً في صلواتي الَّتي لا بدَّ سيحرمني الموت من التمتُّع بأدائها، ورغبة في الازدياد من الأعمال الصَّالحة الَّتي تفيدني في آخرتي، بحمد الله وفضله، حيث قال لعباده: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].. فأكثر من أوقات مطالعاتي الفقهية.. وأجهد في أن لا أنام إلا بعد قراءة كتابٍ لعلوم الدِّين، حتى إذا أتتني المنيَّة، وقُبِضَتْ روحي أكون في أعلى مرتبة العبادات.. وذلك أمرٌ أكيدٌ في صحَّته.. يا أَمَةَ الله! لنعلم بأنَّ العمر قصير، ولن يكون هناك عمرٌ آخر، تذكَّري يوم يأتيك منكرٌ، ونكير.. كيف يكون الحال عندما يسألانك!! كيف بك إذا نفخ إسرافيل في الصُّور، وقمتِ مع الخلائق حافيةً عاريةً ذاهِلةً! هل تنفع الأغاني،

والمسلسلات؟ هل تنفع (الموديلات والإكسسوارات؟) هل تنفع (الفيديوهات والتلفزيونات؟) هل ينفع المال، والمجوهرات مع هذه الآية: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

يــا غــارقــاً فــي المَنــام قُــمْ فــإنَّ الله لا ينــام

مضى الدَّهر والأيَّامُ والذَّنْبُ حاصل وجاء رسولُ المَوتِ والقَلْبُ غافل

نعيمك في الدُّنيا غرورٌ وحسرةٌ وعيشـك فيهـا محـالٌ وبـاطـل

فيا أختي المؤمنة! قال مالك بن دينار: عجباً لمن يعلم: أن الموت مصيره، والقبر مورده، كيف تقر بالدُّنيا عينه؟ وكيف يطيب بها عيشه؟ فاحذَري أن تكوني على الضَّلال حين يأتي مَلَكُ الموت؛ ليأخذ الرُّوح إلى بارئها، وعليكِ بالاستعداد لهذه النِّهاية المحسومة.. هذا الأمر المنسيُّ، وكم أمرنا المولى في كلِّ سورةٍ من كتابه العزيز أن نتَّقيه رحمةً بنا؟! وألفت انتباهك عزيزتي إلى أن تتأكَّدي بنفسك من أنَّ الله قد ذكر لعباده المؤمنين ما بين أمرٍ، وتنبيهٍ على تقاته في سورة المائدة وحدها، ثمانية عشرة مرَّةً! وكذلك ما يقارب هذا العدد في سورة الشعراء.. ووعوده للمتقين في سورة الطلاق! وكم من سورةٍ، وآيةٍ افتتحها ثمَّ اختتمها بكلمة التقوى! وذكرها في الآية الواحدة ثلاث مرَّات.. حتَّى فاق عددها الثلاثمئة!! وإليك مثلاً هذه الآية: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟﴾ [الحشر: ١٨].

لنعلم بأنَّ الخير كلَّه للإنسان هو في جعل مراده في الحياة الدنيا طبقاً لما أراده الله في تقاته، فيجعل قلبه مع مولاه، وإذا به يجد بذلك سعادته

في التقوى ، والتقوى: أن تهتمي بتزيين سرك وباطنك أكثر من أن تهتمي بمظهرك ، واجعلي شعارك اتِّهام النَّفس. . وراقبي الله ، وخافي منه ، وحاسبي نفسك دائماً ، واستشعري الذَّنب ، واحرصي على رضاء الله ، ولو غضب عليك أهل الأرض قاطبةً . . فـ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] واقرئي هذا القول:

تزوَّد من التَّقوى فإنَّك لا تدري إذا جَنَّ ليلٌ هل تعيشُ إلى الفجر
فكمْ مِنْ فتى أمسى وأصبح لاهياً وقد نُسِجَتْ أكفانُه وهو لا يَدري
وكمْ مِنْ صغارٍ يُرتجى طولُ عمرهم قد أدخلت أرواحُهم ظلمةَ القبر
وكمْ من عروسٍ زيَّنوها لزوجها وقد قُبِضَتْ أرواحُهم ليلة القَدْرِ
تزوَّدْ من التَّقوى فإنَّك لا تدري

أرجو الله تعالى أن يعيننا على حقِّ تقاته ، وأن يجعلنا نخشاه وكأنَّنا نراه. . وتمهيداً لنيل الدُّنيا ، والآخرة ، فينبغي علينا قسر هذه النفس وتطويعها لكلِّ ما يمليه علينا عقلُنَا ، الذي حبانا الله تعالى به. وجعله لنا ميزاناً كي نميِّز بين الحقِّ ، والباطل ، فمهمة العقل الاختيار بين البدائل ليحرسنا من طغيان الأهواء. . تلك الجوهرةُ العظيمةُ مِنَّةُ الله التي كرَّم بها الإنسان ، فلنقدِّرْ تلك الجوهرة حقَّ قدرها ، ونسخِّرْها لتحصيل خيرٍ أبديٍّ لا نهاية له ، فنجعلُ خير زادٍ لرحيلنا المؤكَّدِ تقوى الله الذي أمرنا: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [البقرة: ١٩٧] ، فإنَّه إذا فسد أفراد المجتمع ، وأصبحت النفوس تأتمر بالسُّوء؛ ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [الزمر: ١٥-١٦] .

فلا تغيبوا عن معارك النفوس ، فيستولي عليكم عدوُّكم ، وتسلَّحوا

بكلٍّ ما تقرؤون ، أو تسمعون من مذكِّرات ، ومواعظ من قبل أن يفوت الأوان ، فتقولوا: ﴿ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩٧] ، فمن لم يردعه القرآن ، والموت ، فلو تناطحت الجبال بين يديه ؛ لم يرتدع ، وإذا عَلِقَهُ حبُّ الدُّنيا ؛ لم تفلح فيه المواعظ .

فاتقي الله أختي المسلمة! . واحرصي على ألا تأتي يوم القيامة ، وتكوني ممَّن قال ربُّنا سبحانه فيهم: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴾ [الغاشية: ٢-٤] ! إن باب التوبة ولله الحمدُ مشروع ومفتوحٌ للتائبين . . فإن كنتِ قد ألمَمْتِ بشيء من الذُّنوب ؛ فسارعي بالتَّوبة قبل يوم المآب ؛ الذي قال المولى عنه : ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ۝٣٥ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ۝٣٦ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٧] .

وقبل أن يُغلق بابُها عندما يعلوكِ التُّراب . . الذي يمحو حسن الصُّورة ، ويبدِّد كلَّ أثر ، فتكوني يومئذٍ من النادمين ، حين تغيب شمس الدُّنيا ، ويشرق يومُ الحساب ، لأنَّ كل لحظةٍ تمرُّ تُحسَم من عمرنا ، كما قال الحسن البصريُّ: [يا بن آدم! إنما أنت أيامٌ مجموعةٌ ، كلَّما ذهب يوم ؛ ذهب بعضُك] ، وقال: [يا عجباً! من ضاحكٍ ؛ ومن ورائه النَّار ، ومن مسرورٍ ؛ ومن ورائه الموت] ، فالزَّمَنُ هو حقيقة الإنسان ، ففي كلِّ فجر ينادي يومٌ جديد: يا عبد الله! تزوَّد منِّي فإنني لا أعود إلى يوم القيامة ، يوم الحسرة ، والنَّدامة . وبما أنَّ العمر هو رأس مال الإنسان في حياته الدُّنيا ، والزَّمن هو عمرنا ، ووسيلة مكاسبنا ، ولأنه أثمن ما نملك ، فلنجعل هدف مطمعنا استغلاله في كسب رضاء الله ، فمن عاش مات ، ومن مات فات ، وكلُّ آت . . آتٍ ، فالموت آتٍ بسكراته ، والقبر آتٍ بعذاباته ، ويوم التَّغابن آتٍ بأهواله .

وعزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴾ [طه: ١٥-١٦] ! ﴿ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾ [النبأ: ٤٠] !!

وطالما كلُّ آت قريبٌ، وأنَّنا نؤمن بالموت الذي نراه فيمن حولنا على مدار السَّاعة، فلا ريب بأنَّنا نؤمن بيوم الحساب.. فلنعمل حسابنا لهذا الشأو العظيم ونتمعن هذا القول:

يا أسيرالغفلات! إلى كم التَّعامي عن أمورٍ وواجبات! وإلى كم أنت غارقٌ في بحر الظلمات؟!

يا كثير السَّيئات! إنَّ للموت سكراتٍ. يا صاحب الشَّهوات! إنَّ للنار زفرات.

يا هاتك الحرمات! إنَّ للقبر ظلمات. ماذا أعددت لتلك القبور الموحشات؟!

إن لم يلن قلبك أصلاً بالنَّواهي، والعظات! إلى متى يا أسير الغفلات؛ هل تنتظر: إذا قيل: مات؟!

قد مضى العمر، وفات، فاغتنم العمر، وبادر بالتُّقى قبل الممات! واطلب التَّوبة، والغفران ممَّن تُرْجَىٰ منه الهبات؟!

فبادري يا عزيزتي الغالية! إلى توبةٍ عاجلة؛ لأنَّ المبادرة عنوان الصِّدق وأوَّل خطواتها، وتفتح لك أبواب اللجوء إلى ربِّك.. عودي إلى مولاك، وتوجَّهي بقلبك إلى خير التَّوابين دون تسويفٍ، ولا مبررات، فإنَّهم وطول الأمل الباطل من المهلكات، حيث يورثون التكاسل عن

العبادة، ويحجبون النَّاس عن التَّوبة، ويجعلون أكثر أهل الجنة، وأكثر أهل النَّار حسرةً على تفريطهم بالوقت، ولذلك حذَّرنا تعالى في محكم آياته بقوله: ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١ ـ ٣]، ولكن:

﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١٧ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٧-١٨].

توكَّلي على مولاك؛ فإنَّه لا يضيِّعُك، فالأمر لا يحتمل التباطؤ، ولا التَّسويف، إلى متى تقولين سوف أعود، ولا تعودين، تضيعين الأوقات في فعل السَّيئات، وتفرحين؟! فلا تتردَّدي مع وساوس الشيطان؛ كيلا يأتيك هاذِم اللذات وأنت في غفلةٍ، فسبحان الحي الَّذي لا يموت! استعدِّي له من هذه اللحظة.. من ذا الذي يقولُ بأنَّ اللهَ تعالى سيرضى عنكِ بعد الموت! لا تغتري بمن قال ذلك!! فلا نجزى إلا أعمالنا، فاستغلي فسحة الوقت الَّتي أمهلك بها مولاك، لا تلتفتي إلى نزعات الهوى، فلا تكوني من أهل الدُّنيا بالأمل، وكوني من أهل الآخرة بالعمل، وسيري في ركاب التائبين، كي ترجعي إليه نادمةً ونقيَّةً، حزينةً ومنكسرةً، وقد سلِمتِ ذلك اليوم؛ وقد وضَّح لك الطريق: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المجادلة: ٦].

فالتَّوبة النَّصوح رأس مال الفائزات في الدَّارين. . وزاد المؤمنات في آخرتهم، فكلُّ حزن يبلى إلا حزن التائب! وقيل: لا خير في الدُّنيا إلا لرجلين، رجلٌ تائب، ورجلٌ يعمل في الدَّرجات! وأناشد أمَّة محمد ﷺ، وأقول: يا أمَّة الإسلام! عندما نولد نأخذ مسافة قدمين على الفراش، وعندما نموت نشغل مسافة خمسة أقدام في باطن الأرض، وكلُّ هذا الكفاح في هذه الحياة من أجل ثلاثة أقدام! فالدُّنيا حلمٌ والآخرة يقظة، يتوسطهما الموت قاطع الأماني، والأحلام! وطالما: أنَّ الموت لا محيد عنه، وكلُّ أمور الدنيا بعده ستكون نسياً منسياً من هول الحساب. . فَلِمَ التحاسد إذاً؟ ولم التَّكالبُ على الدُّنيا إذاً؟ ولم جَمْعُ المال من حلالِه وحرامِه إذاً؟ ولم التباغض، والتَّناحر، والتقاطع إذاً؟ طالما المآل إلى الزَّوال لجميع الأحوال، وهذه هي النِّهاية؟! إنَّها حقيقة الوجود الكبرى، الَّتي لا يقف أمامها أكبر جبَّار عرفه العالم!! ولا يقف أمامها شيءٌ في الوجود كلِّه، إنَّها الحقيقة الكبرى الَّتي فضحت الدُّنيا! نعم فضح الموتُ الدُّنيا.

فهنيئاً هنيئاً لِلَّذي باع نفسه لله. . وهنيئاً هنيئاً لِمَن قدَّم أعمالاً صالحةً وترك أعمالاً فاسدة. . هنيئاً لمن سيُقبل على الله طاهر النَّفس، نقيَّ القلب، مرفرف الجناحين. . وقالوا: الارتفاع فوق مطامع الدُّنيا يحتاج إلى جناحي نسرٍ، لا إلى جناحي فراشةٍ! فلنستعدَّ لهذا القبر الذي ينادي علينا كلَّ يومٍ، ويقول لنا: يا بن آدم! لا تتكبَّر على ظهري، لأنَّني غداً سأضمُّك في بطني، وما الحياة الدُّنيا إلا أضغاث أحلام، تنتهي في دقائق، وثوانٍ، فالموت قاطع الأحلام، والأماني. . ثمَّ ندخل ضيق القبر بعد فسحة الدُّنيا. . سنواتٌ تمرُّ كلمح البصر، ذهبت بأفراحها،

وأتراحها، وحلوها، ومرِّها.. ولكن بقي الحساب!! وذلك يومٌ عصيب.. وكل آتٍ قريب.. وتنبَّهي لقول مولانا عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

أشيءٌ غير حقيقة الموت جعلتني أتخلَّى عن طموحاتي الدُّنيوية؟ وأهجر رغباتي الشَّيطانية؟ أبداً، تراني عندما أرتدي ثياب الصَّلاة البيضاء، وأجلس بين يدي الله أرفع يديَّ أدعوه بذلِّ العبد إلى مولاه، وأطلب عفوه، وغفرانه.. أقارن نفسي وقتها بأيام الفجور.. بالرَّأس المَحسور، واللِّباس المغرور، فأتخيَّل بأن هذا الزِّي الأبيض الطَّاهر، كان يمكن أن يكون كفناً يستر جسداً فاجراً من أهل النَّار، إلى مثواه الأخير! وبئس المصير، فأحمد الله بدموعٍ ساخنةٍ سخيَّةٍ، امتناناً لفضله بتوبتي.. وأتفاءل بأنَّ كفن الموت بعدها سيكون إن شاء الله غطاءً لجسدٍ طاهرٍ من أهل البشائر.. وكلَّما أتذكَّر قرب الموت من الإنسان، وأنَّه بوابة الدَّار الآخرة؛ أصبح حزينةً بما فيه الكفاية بعد ذلك لأكون على حافَّة البكاء في كلِّ لحظةٍ، وأنا أنفرد بنفسي.

وأتساءل: أيُّ حماقةٍ، وغباءٍ توصِلُ الإنسان إلى حضيض الهاوية، فكلُّ الحمد، والشُّكر لك يا رب! يا من أنقذتني من البؤس والهلاك المؤكَّد بلا شكٍّ. فحذار أخواتي الكريمات أن تكنَّ ممَّن قال فيهم الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، فلا بدَّ من التَّعب، والتَّصبُّر على مرارة التَّقوى، ورغبة الرُّجوع إلى الله.. لئلا تقلن بعد فوات الأوان، يوم تشخص فيه الأبصار.. ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾.. فيقال لك: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ [المؤمنون: ٩٩]!!

فبالله عليكم! أوقفن شريط الأماني؛ لأنَّ الحياة الدُّنيا دارُ سفرٍ، ونفادٍ، وممرٍّ، لا دار إخلادٍ، وحبورٍ، ومقرٍّ، فهل من معتبرٍ؟! ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩].

ألا فتوبي إلى ربِّك يا جاهلة! . أين عدَّتك أيَّتها الغافلة؟! كم في كتابك مِن حسناتٍ! كم فيه من السَّيئات! الموت متوجِّه إليك. . والدُّنيا تطوى من ورائك! ويا حبذا لو تتوبي قبل ألا تستطيعي أن تتوبي! فهوِّني عليكِ يا أختي! ولا تقنطي من رحمة الله، إن أخطأت؛ فأصلحي، وإن كنت قد ارتكبت المعاصي؛ فاستغفري لذنوبك مهما كبرت، وبلغت خطاياك، فالرَّحمٰن غفَّار الذَّنب. . وعن الخطايا ولو عظمت يقبل التَّوب. . سيري في قوافل الصَّالحات، حتى يدركك الممات وأنت في أحسن الحالات. ألا فازدادي من الحسنات، ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [هود: ١١٤].

اتَّقي الله يا مَن تلبسين الحجاب للزِّينة لا للسَّتر! اتَّقي الله وعوِّدي نفسك على الصَّبر، اتَّقي الله يا من بالشارع تتزينين، وتتعطَّرين، وبلبس المُفْتِن من الألوان (والبارفان) تغرِّين! اتَّقي الله، وصوني نفسك من عدوى الفساد، ولا تكوني ألعوبةً في أيدي ضعاف الإيمان! اتَّقي الله يا من تزاحمين الرَّجل، وتتشبهين بما يلبس الرِّجال! اتَّقي الله يا من تربِّي أبناءها تربية البهائم، فلا تذكِّرهم بالله، ولا تعظهم! اتَّقي الله، وارجعي إلى الهدى، قبل أن يأتي يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار! فمَن قلَّد الآراء؛ فقد ضلَّ عن الهدى، ومن قلَّد المعصوم في الدِّين، اهتدى!

اللّٰهم! أسألك سؤال المحزونين أن تحفظ فتيات المسلمين من كيد الكائدين، وإغواء الشَّياطين، وتحميهم مِن شرِّ مَن: ﴿ لَّعَنَهُ

﴿ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾

[النساء: ١١٨ ـ ١١٩].

ومن العجب كل العجب.. ما آل إليه حال أكثر النِّساء في هذا الزَّمان! من جراء قيامهنَّ بعمليات التَّجميل، يعالجن بها ما أفسده الزَّمن، فيغيِّرن خلق الله، ويَبْدون على غير ما خلقهنَّ اللهُ كلِّياً، وذلك في جميع أنحاء أجسامهنَّ، والأعجب منه تلك الفتاة المراهقة الَّتي حكت مصيبتَها، بل معضلتها، في (ريبورتاج) عرض في برنامج ـ سيرة وانفتحت ـ بأنَّها لمجرد هوس التَّقليد فقط!! أجرت عملية تغيير فاشلةً لأنفها السَّليم.. حوَّلتها إلى شوهاء من بعد جمالٍ ربَّانيٍّ! أجارنا الله من أمورٍ أعظم يناصرن بها زعيمهنَّ اللَّعين، ويتَّحِدْن معه على غضب خالقهنَّ في الانقياد لأهوائهنَّ، فأرجوك اسمعي قول ربِّك، وهابيه، من قبل أن يأتي إحداكنَّ الموت، فتقول: رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأكن من الصالحات!! كلاَّ، فتمعَّني في هذا القول:

يا من يذنب، ولا يتوب! كم قد كُتِبَتْ عليك ذنوب؟ خلِّ الأمل الكذوب فرُبَّ شروقٍ بلا غروب!

وا أسفي أين القلوب، تفرَّقت بالهوى شعوب؟ تدعوك إلى صلاحك ولا تؤوب!

متى تطلب الآخرة يا من على الدنيا تتنافس؟! يا مَن تحدِّثه الأماني! دع هذه الوساوس!

واعجباً النَّاس في ضروب، متَّى تنتبه لخلاصك أيَّها النَّاعس؟ ومتى تذكر وحدتك إذا انفردت عن مؤانس؟

قال الحسن البصريُّ لأحد أصحابه بعد أن مرَّ بجنازة: لو رجع هذا إلى الدُّنيا؛ ماذا كان يتمنَّى؟ قال: أن يصلِّي ركعتين، قال: (فإن لم يكن هو فكن أنت).. فلو تعلمين مقدار العذاب المعَدِّ لكلِّ نوعٍ من الذنوب، ومقدار ما أعدَّ الله لعباده المتَّقين من عطاء؛ تجدين: أنَّ أوائل الأمور التي تتفكَّرين بها هي العودة إلى الله، والتَّوبة، ولهان عليك كلُّ أمرٍ من أمور دنياكِ، وجعلك تستصغرين كلَّ عظيم في نظرك، وتحتقرين كلَّ مغريات الدنيا.. وتسامحين كلَّ الناس.. وتستعلين فوق كلِّ إذلال، أو استهزاء، علينا ألا نعزل المعصية عن العقاب، فتصبح سهلة.. وألا نعزل الطَّاعة عن الثَّواب فتصبح ثقيلة.. وإذا ذكرتِ الثَّوابَ لكلِّ طاعةٍ، فإنَّك ستخشعين، وتعشقين التكليف، لأنَّك ستقرنين عندئذٍ العمل الصَّالح بثوابه، والعمل الطَّالح بعقابه، والخاشعون هم الذين يقرنون الطَّاعة بالثَّواب، والمعصية بالعقاب، والعذاب، فتلك العدَّة الكبرى؛ الَّتي يجب أن تتسلحي بها لتقاومي النَّفس، وتلك هي آثار الخوف، والمحبَّة لله في النَّفس.. فتصبحُ سريرتُكِ نقيَّةً لا تشوبُها شائبةٌ، ولا تلهها توافه الأمور، ولا تعودي تبتغين غير إرضاء مولاكِ: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ [المُلك: ٢]، فتفوزين بنيل جنَّته الَّتي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر!! إنَّ ربك غفورٌ، ورحيمٌ لمن تَبعَ دينَه ورجَع عن معصيته، ومنتقمٌ جبَّارٌ، وشديدُ العقاب لِمَن أصرَّ على معصيته.. وقد بيَّنَ لنا هذا في كتابه العظيم.. ألم يقل لرسوله الكريم ﷺ: ﴿ ۞ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩-٥٠]. فأسأل الله أن يوفِّقك إلى توبةٍ نصوحٍ، إنَّه سميع مجيب.

فَلْنُصَفِّ قلوبَنا يا أخت الإسلام! وَلْنُحِبَّ الخيرَ للآخرين ، ولْنُبعِدْ عنهم ما استطعنا كلَّ مكروه ، أما قال رسول الله ﷺ صاحب الدَّعوة: «**الخلق كلهم عيال الله ، وأحبُّهم إليه أنفعهم لعياله**»[1] . . إنَّ لقاء ربِّنا ليس بالأمر الهيِّن ، فلنجعلْ أرواحَنا حين تفيضُ تصعدُ إلى مولاها طاهرةً نقيَّةً ، مزكَّاةً بالإيمان ، والطَّاعة الخالصة لوجهه الكريم ، تبتغي إليه الوسيلة ، ليستقبلَها خالقُها بالسَّلام ، وتحظى بكرمٍ إلهيٍّ لا حدود له ، ترجو رحمته ، وتخشى عذابه . . ولنحاولْ أن نجعل سؤال الملَكين الموَكَّلَين بمحاسبتنا في القبر يسيراً ، وحيث لا ينزل معنا إلا عملُنا . . فما أحببنا أن يكون معنا فيه فلنقدِّمْه اليوم . . وما كرهنا أن يكون معنا فلنتركه اليوم ! وذلك بمحاسبة أنفسنا على أدقِّ الأمور قبل أن نُحاسَبَ عليها ، تصديقاً لقول سيدنا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : (حاسبوا أنفسَكم قبل أن تحاسَبوا) .

المهمُّ أن نجاهد في هجر المعاصي ، فتكتب لنا هجرة في سبيل الله ، ونتَّقي هذا الوعيد الشَّديد: ﴿ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ إلى قوله : ﴿ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٠-١٦] .

ولله در أبي الدَّرْداء ، فإنَّه على تُقاه ، وصلاحه ينصحنا ويقول عندما وقع في النزع الأخير: (ألا مِنْ رجلٍ يعمل لمثل مصرعي هذا ، ألا مِنْ رجلٍ يعمل لمثل يومي هذا ، ألا مِنْ رجلٍ يعمل لمثل ساعتي هذه)! صدق والله أبو الدَّرداء!

* * *

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٠٠٣٣) وفي الأوسط (٥٥٣٧) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ١٩١) عن ابن مسعود.

المال أمانة

قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ . . إنَّهُ استدراجٌ من خير الماكرين سبحانه . . أتمنَّى لي ، ولجميع المسلمين ألا ندع أوزار أعمالنا ، وأموالنا ترافقُنا إلى قبورنا ، التي هي بمثابة صندوق تخزينٍ لأعمالنا ، فينبغي ألا نجعل ذنوبنا هي زادنا فيه ، وكلُّنا يعلم بأنَّنا باديءُ ذي بدء سنُسأل عن كل قرشٍ ، من أين اكتَسَبْنَاهُ وأين صرفناه؟ فيا حسرتي الشَّديدة على البذخ الشَّديد الَّذي صار أغلب الناس يتنافسون فيه في أفراحهم ، وأتراحهم . . بشراء أغلى الملابس لإشباع غرورهم بالتَّعالي ، والمراءاة ، وبالغ أسفي على الأموال التي تُهدر سدى دون وازعٍ من ضمير؛ لأنَّها من حقِّ المحتاجين إليها أشدَّ الحاجة! فإنَّ الَّذي يعمي بصائرَ المبذِّرين ، ويُلغي إحساسَهم بالفقير هو نَهَمُهم في التَّقليد للمظاهر البالية ، وغيرتُهم العمياءُ ممَّن هم أشدُّ سخفاً ، وكفراً بنعم الله منهم ! وتعالى الله الَّذي وعظنا بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧] . .

فهذا المال أمانةُ الله استودعها عندهم؛ ليبتليهم ، ولِينظرَ ماذا يعملون به . . وجعل حقَّ الفقير في عنق الغنيِّ ، فالمال الَّذي يبدِّدونه على أهوائهم إذاً هو مال الله ليس إلا . . وما قلَّ منه وكفى خيرٌ ممَّا كثر ، وألهى! وليس

المال الماديُّ هو وحده المقصود ، فإنَّ هناك من الثرَّوات الضَّرورية ، والعظيمة ، كالكهرباء ، والماء اللَّذان يُهدَران سُدىً بلا وعيٍ ، ولا إدراك . . فهما أيضاً من نعم الله ، وأمانتهما بين أيدينا ، وعجبي ممَّن تملَّكتهُم الأنانية ، فأغمضت أعينهم عن الصَّواب مع العلم بأنَّ ديننا يحضُّ على إيثار الآخرين عن النَّفس ـ واتبعوا ما يفيد مصالحهم فقط! فيبدِّدون ثروة الماء تلك النعمة الربَّانيَّة والتي لا حياة لشيءٍ من دونها ، فيهدرونها في أعمالٍ تافهةٍ كغسيل السَّيارات الَّتي جعلوها موازيةً للإنسان في حاجته للماء .

إليك يا رب المُشْتكى! كيف هذا . . والإسراف في الماء من مكروهات الوضوء؟! والمبذِّرون جعلهم الله إخواناً للشَّياطين؟ وللمسؤول عن ذلك الهدر ألف شكر على معاقبة هؤلاء بإلزامهم دفع غرامةٍ عاليةٍ إن هم عادوا فعل ذلك ، ولكنَّ الأمر لا يخلو من بعض المخالفين! بل إنَّ هناك ما أثار حنقي ، وأدمى قلبي فعله أكثر . . وهو استعمال ربَّات البيوت للماء بعشوائية تتفطَّر منها القلوب في أمور تنظيف بيوتهنَّ دون وازع الضَّمير ، خاصَّةً عند تنظيف الأواني ، والأطعمة ، بحجَّة حبِّ النَّظافة ، بل هو حبُّ الانتهاء السَّريع من عملهنَّ ! فيتركون الماء ينهمر من الصنبور على آخره ، غير عابئاتٍ لما ينتاب غيرهنَّ من المعاناة من قلَّة المياه الَّتي لا تصلهم بسبب أنانيتهنَّ واستهتارهنَّ ، رغم التَّحذيرات من جميع وسائل الإعلام! فأولئك لا تَستطيع يد المسؤول أن تطالهنَّ ؛ لأنَّهنَّ لا يبدون للعيان ، ولكن أين مخافة الله سبحانه الَّذي يراهنَّ من حيث لا يرونه من حرمان الغير من نعمه! وأشدُّ ما يُحزن: أن جواب كلِّ واحدٍ هو : (هلَّق وَقَّفِتْ المشكلة عندي)!؟

وهناك طرقٌ عديدة للمحافظة على النَّظافة الَّتي توفِّر كثيراً من المياه . .

مثل الاهتمام بجدِّيةٍ بعدم تعريض الأشياء للاتِّساخ.. والتَّنظيف بطريقة المسح ما أمكن ذلك، بديلاً رحيماً عن الاستهلاك الجائر للماء في طريقة الشَّطف العشوائيِّ، بحجَّة ترطيب المكان وقت الحرِّ! فالضَّمير الحيُّ إذا حُكِّم يفعل العجائب! وفهمكم كفاية.. وأيضاً الرِّجال الذين يتركون الماء جارياً طيلة فترة حلاقة لحاهم!! والَّذين يريدون الاستحمام، فيهدرون أضعاف الحاجة، تمتُّعاً أنانياً على حساب المحرومين، وقبل البدء بالاستحمام تهدر المياه الباردة ريثما ينزل الماء الحار من الصُّنبور.. وعلى العكس تماماً للذين يبتغون الماء البارد في فصل الصَّيف، فيهدرون أيضاً كمِّياتٍ لا يستهان بها! ولو أنَّهم يحتفظون بتلك المياه في وعاءٍ يخصَّص لذلك، ويستعملونها في أمور تنظيفٍ أخرى؛ لأثابهم الله على حفظ كمِّياتٍ هائلةٍ من الماء المُهْدر.. وما يزيدني عجباً.. فعل ذلك من أهل الدِّين البريء من أعمالهم! وديننا يقول: «**لا يؤمن أحدكم حتَّى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**»(١).

ولو آمن الناس، واتقوا الله في إخوانهم؛ لكان خيراً لهم أجمعين؛ لأن من المفروض أن يتفكَّروا بالآخرين، فمن لا يَرحم لا يُرحم.. وغلطة العارف بألف.. وعلمه سيكون حجَّةً عليه بين يدي العزيز الحكيم الذي قال: ﴿وَذَرْنِي وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ [المزمل: ١١].. وهم أهل المعرفة، والعلم!! وهل هناك أعظم من مقت الله الَّذي لا يحبُّ المسرفين؟! ولأنَّ ذلك كفرٌ بالنِّعم فهو إذاً من الكبائر! فحافظوا على النِّعم، فإن النِّعم إذا ذهبت قلَّما تعود، وأيقظوا ضمائركم يا أهل الإسلام! وحكِّموها في أعمالكم.. أرجو الله أن يرشدَني، وإيَّاكم إلى سبل الهداية، إنَّه لَعَليٌّ قديرٌ، وبالإجابة جدير.

---

(١) رواه البخاري (١٣) ومسلم (٤٥).

وهناك مَنْ قال: كم من كافرٍ بالله أمواله تزداد أضعافاً على كفره، ومؤمنٍ ليس لـه درهم يـزداد إيمانـاً على فقره، لا خيـر فيمَنْ لم يكن عاقلاً يبسط رجليـه على «قدِّه»... ولأنَّ الله تعالى يملي على العبد كي يمتحنه، فيخلف على الكريم منهم، ويحثُّه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ [الحديد: ١٨]..

والشـيء المحـزن: أنَّ أكثـر الأغنيـاء لـم يعـودوا يُعِيْـرُونَ الفقـراء اهتمامهم! ولم يعودوا يتفكَّرون بهم، بل حذفوهُم من اعتبارهم!! واستحبُّوا البذخ على المظاهر، وتوافه الأمور، وفضَّلوها على مساعدة المحتاجين.. وما أكثرهم في زماننا هذا! رغم تذكير المولى عزَّ وجلَّ لهم: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧].. ولكنَّهم جعلوا كلَّ نصيبهم في الدُّنيا.. بل الأدهى من ذلك: أنَّ بعضهم يصرُّ على أنانيته في بذخه لمال الله حتَّى في حجه إلى بيت الله الحرام.. فجعلوا منها رحلة استمتاعٍ، ونزهةٍ، بما يتكلَّفون فيه من وسائل الرَّاحة، والرَّفاهية!! مع أنَّ من معاني الحجِّ المساواة بين العباد، فلم يتوقفوا عن عاداتهم في الإسراف، وتبديد الأموال الطَّائِلَة! وكلُّ فردٍ منهم يصرف ثروةً لا يستهان بها في زيارته لمولاه سبحانه، دون أيِّ خجلٍ منه على سوء التَّصرُّف بهذه الأمانة، ثمَّ يرجع من رحلة الحجِّ، فيشرع في التبجُّح والإعلان عن بذخه بالأرقام المؤسفة في تباهٍ وتعالٍ مغرور.. فيجعل من مراءاته حُجَّةً عليه يسجِّلها في صحيفة أعماله السَّيِّئة؛ لأنَّها من كبائر الآثام!! لأنَّ التَّرف، والبذخ مظهرُ تعظيمٍ وتقديرٍ للدُّنيا؛ التي هوّن الإسلام من شأنها، ومظهر عزوفٍ وغفلةٍ عن الآخرة.. التي هو بصدد التَّوجه إليها في ذلك المكان

المقدَّس ! فبتلك الازدواجية الخطيرة يحرمون فضل الآية العظيمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٢].

فإن كان ولا بدَّ من الرَّفاهية.. فليكونوا من عباد الرَّحمن.. بحدود ما شرع لهم المولى الحكيم سبحانه بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧]، كم أتمنَّى على هؤلاء الأثرياء، وكلِّ مقتدرٍ مالياً من المسلمين، أن يصون أهله، وأقاربه، ويكفيهم مؤونة الحاجة، وعوز السُّؤال! ولو أنَّ كل عائلةٍ تتكفَّل بأفرادها المحتاجين، وتغنيهم حتَّى ينضمُّوا إلى فئة المزكِّين على أموالهم، والمساعدين لغيرهم من المحتاجين، فتتسع دائرة العطاء، متَّبعين مقولة: إذا أعطيت؛ فأغْنِ، وإن أطعمت؛ فأشبع، فلا يبقى منهم أحدٌ عالةً على أحدٍ من الناس.. ولن يبقى محتاجٌ، ويا حبذا لو اتَّبعت ذلك كلُّ العائلات! وإذا لم يكن فيهم محتاج، أو عندهم فائضٌ في مالهم وأغنوا به اليتامى، والمساكين؛ لوجدنا المجتمع قد حمل بعضه بعضاً.. وقد سمعت بأنَّ عدداً من الأثرياء قد جعلوا صندوقاً للعائلة تجمع فيه أموال الزَّكاة، والصَّدقات، لكلِّ محتاجٍ من أرحامهم. وفي كلِّ آية تذكر الصَّدقات، وأعمال البرِّ يجعل المولى سبحانه ذوي القربى، والأرحام من الأولويات بل في المقدِّمة: ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٧٥].. متَّبعين بذلك أمر الله الواسع الكريم: ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٨].

فيا ليت كلَّ ثريٍّ يحذو حذوهم.. ويُغني كلٌّ مِنَّا أقرباءه من فائض ماله، وفائض طاقته، فلن يوجد محتاجٌ، وإن وجد المحتاجون، فسيكونون قلَّةً تتَّسع لهم الزَّكاة الواجبة، فوَ الذي نفسي بيده! ما جاع

الفقير إلا من تخمة الغني. . وبتأكيدٍ من سيدنا عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قوله: «ما جاع فقير إلا بما منع به غني»، القرآن يقول: اعلموا أنكم: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢].

ولو التزم الناس بتعاليم الإسلام؛ ما يبقى بينهم فقيرٌ، ولا جائع. . فـ: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الحديد: ٧]!! من كريم عظيم الله جلَّت قدرته. . هو الَّذي يُخلف على مَن أنفق في سبيله أضعافاً كثيرةً، وهو خير الرَّازقين. . بناءً على قوله ﷺ: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعطِ منفقاً خَلَفاً، ويقول الآخر: اللهم أعطِ ممسكاً تَلَفاً**»(١).

* * *

(١) رواه البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠).

داءٌ ودواء

أتدرون ما الدَّاء ، والدَّواء ، والشِّفاء؟ الدَّاء: الذنوب ، والدواء: الاستغفار ، والشِّفاء: أن تتوب ، فلا تعود. . وأعود لك أختي المسلمة. . بعد أن ذكَّرتُكِ المآل من وبال المال ، لأُذَكِّركِ بأنَّ علينا الانتباهَ كلَّ الانتباهِ ، والحذرَ كلَّ الحذرِ من آفات اللِّسان ، فلا نَدَعُ أنفسَنا تُسهِب بأحاديثَ لا نرجو فيها خيراً من الله. . ولهذا قال رسولنا الكريم ﷺ: «مِن حُسنِ إسلامِ المرءِ تركُهُ ما لا يعنيهِ»[1].

فلماذا نضيّع وقتنا الغالي؛ الَّذي هو عمرنا ، فيما يجعلنا عرضة لعذاب القبر ، وسبباً لمقت الله ، وغضبه ، ومن ثَمَّ عذابِهِ الَّذي لا طاقةَ لأحدٍ منا على تحمله ، وكلُّ ذلك من جراء إرضاء النَّفس الأمَّارة بالسوء ، والَّتي لا تَمَلُّ التسلية بالملهيات ، وتستسيغ الخوض في مغيبة المسلمين؛ والولوغ في أعراضهم! وترغب في فعل المعاصي. . فتورِّطُنا بما يُغضِبُ ربَّنا ، ونحن غافلين عن أنَّ الله السَّميعَ البصيرَ شهيدٌ على أعمالنا ، وهو أقرب إلينا من حبل الوريد.

فلنتقِ اللهَ ، فإنَّ هناك عن كلٍّ من اليمين والشمال قعيدٌ ، وما نلفِظُ من قولٍ إلا ويسجِّله علينا رقيبٌ عتيدٌ. . فالأولى لنا ألا ننسى للحظةٍ بأنَّ عينَ

---

(١) رواه الترمذي (٢٣١٧) ومالك في الموطأ (٢/ ٩٠٣).

اللهِ ناظرةٌ إلينا ، فنخجل منه ، وبالتَّالي لا نجرؤ على معصيته. . وجُلُّ ما أفادني من معرفتي ذلك هو أنَّني لا أفتأ أتخيَّل ربي سبحانه ناظراً إليَّ ، ويسمعني من مسافة رقبة النَّاقة عن راكبها! علماً من قول الصَّادق المصدَّق ﷺ ، لما قال لأصحابه: «**إنَّكم لا تدعون أصمَّ ، ولا غائباً ، إنَّكم تدعون سميعاً قريباً**»[1].

وقد جنيت من مقاله هذا فائدةً عظيمةً ، فلم أعد أجترئ على أن أهمس بكلمة سوء ، وأخجل أن أقوم بحركةٍ لا ترضي ربي سبحانه. . فأرجوك أيَّتها الأخت العزيزة! أن تتنبَّهي لتلك المعصية ، الَّتي أصبحت فاكهة المجالس ، لا يكاد يخلو منها بيت ، وصار النَّاس يتساهلون في أمر الغيبة ، على الرَّغم من شناعتها ، وقبحها عند الله. . يتفكَّهُ بها النِّساء ، والرِّجالُ على السَّواء ، جاعلين منها متعتهم ـ مع العلم بأنَّهم من المدَّعين بالتديُّن ـ!! غلبت عليهم أهواء النفس ، فأنستهم خطورة الأمر؟ إذ كانت إحدى الملتزمات جدّاً لا تدع مجلساً إلا واستغابت فيه النَّاس ، وإذا لامها أحدٌ تقول: لماذا نصلي إذاً؟ كلُّ ذلك سيغفر بالصَّلاة!؟ انظروا كيف تؤذي النَّاس بلسانها معتمدةً على صلاتها ، وتتوهَّم: أنَّ فيها المغفرة دون توبة!؟ متَّكلةً على تفسيرها الخاطئ لتلك الآية: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤] ، فأين هي مِنْ وعيده تعالى في سورة الواقعة للعصاة: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ أي: الذَّنب العظيم!! متناسيةً الفائدة من الصَّلاة في قوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ ، والبغي. . فأيُّ غبنٍ ذاك ، وأيُّ غباء؟!

وهناك من قال: كل مُتعةٍ وراءها «نتعَة» ؟! أي أن وِزْرَها سيُحمل على

---

(١) رواه البخاري (٢٩٩٢) ومسلم (٢٧٠٤).

الظَّهر يوم القيامة ، فتعرقل اجتياز العبد للصِّراط ساعَتَئذٍ ، وكذلك الحال في كلِّ مُتعة تُحَصَّلُ من معصيةٍ ، فتضع صاحبها أمام موقفٍ عسير . . ابتداءً من عذاب القبر ومروراً بيوم الحساب العسير ، ثمَّ انتهاءً إلى جهنَّم وبئس المصير! وكفى إبليسَ اللَّعينَ هذه المعصيةُ فهي حسبُه؛ لأنَّه يعلم بأنَّها من الكبائر ، فالغيبة تأكل الحسناتِ كما تأكل النَّارُ الحطبَ ، وإن النَّميمة هي الحالقةُ للدِّين !لأنَّها نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض للإفساد بينهم . . وهي من أعظم أسباب قطع الرَّوابط ، وإيقاظ نار الحقد ، والعداوة بين النَّاس! فمن تلبيس ذاك اللَّعين: أنَّه يتركك ، بل حتَّى يشجِّعكِ على أداء تسع وتسعين عملاً صالحاً ، ثمَّ يُخرب عليك جملةَ أعمالك بهذه المعصية الواحدة ، الَّتي تكفيه ليجعلَك من أتباعه إلى جهنَّم ، فيجب على مَنْ كان حاضراً في المجلس أن ينهى عن هذا المنكر ، ويدافع عن أخيه المغتاب ، وقد رغَّب في ذلك النَّبيُّ ﷺ بقوله: «من ردَّ عن أخيه؛ ردَّ الله عن وجهه النَّار يوم القيامة»[1] ، وأكثر ما يُدْخِل النَّاس الجنَّة تقوى الله ، وحسن الخُلُق ، وأكثر ما يُدخلهم إلى النَّار حصائِدُ ألسنتهم . . يحسبونه هيناً ، وهو عند الله عظيم!! وقال عبد الله بن مسعود: «والَّذي لا إله غيره ، ما على ظهر الأرض شيئاً أحوج إلى طول سجن من اللِّسان.

وتمعنوا في هذه الآية الشريفة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [المجادلة: ٩] . . أولئك الَّذين يتَّقون غضب الله ، وعذابه الأليم في جميع أعمالهم . . في ألسنتهم ، وأيديهم ، وأعينهم . . وقد جعل لنا المولى عينين ، وأذنين ، ولسان واحد؛ كي نسمع أكثر ممَّا نتكلم.

---

(١) رواه الترمذي (١٩٣١) وابن أبي الدنيا في: الصمت (٢٤٠) وذكره النووي في الأذكار (٩٠١).

وجاء في الحديث الشريف: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر؛ فليقل خيراً، أو ليصمُت**»[(١)].

وكان هناك امرأةٌ مؤمنةٌ جالست النِّساء، وهي تخشى الله تعالى، وتعلم: أنَّ هذا اللِّسان لطالما أوقعهنَّ في أعراض المسلمين، فأردى كثيراً من النَّاس في المهالك! لأنَّ أعراض المسلمين حفرةٌ من حفر النار؟ فلما لم تجد فائدة من وعظهنَّ؛ عملت بقول عيسى ابن مريم عليه السَّلام؛ إذ قال: طوبى لمن خزن لسانه، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته. فما كان منها إلا أن اعتزلت في بيتها، إيماناً بالآيات، والأحاديث العديدة الَّتي تحثُّ المسلم على عدم التَّساهل فيها، تحقيقاً لهذه الآية: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]، فهل من مهربٍ للعباد.. ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤]!! صدق الله، ورسولُه، والأنبياء، والصَّحابة أجمعين.

وذِكْرُ الله خيرُ دواءٍ للعالمين، فأَشغِلي يا أختي! لسانك بالذِّكر عن الكلام الباطل، سدّاً لمداخل الشيطان من أبوابه المتنوِّعة، من غيبةٍ، ونميمةٍ، ولغوٍ، ومدحٍ، وذمٍّ.. فإنَّ اللسان لا يسكت، فإن لم تشغليه بالذِّكر شغلك باللغو، والنَّفس إذا لم تشغليها بالخير شغلتك بالشرِّ، والقلب إن لم تسكُنْه محبَّة الله؛ سكنته محبَّة المخلوقين! ويمرض القلب كما يمرض البدن.. والتَّوبة شفاؤه، وحميته، ويعرى كما يعرى

(١) رواه البخاري (٦٠١٨) عن أبي هريرة، ومسلم (٤٨) في اللقطة عن أبي شريح العدوي.

الجسم ، وكساؤه التَّقوى ، والغفلة هلاكٌ له ، ويصدأ كما تصدأ المرآة ، وجلاؤه الذِّكر.

إذا مَـرِضْنـا تـداوينـا بـذِكْـركـم فنتـرك الـذِّكـرَ أحيـانـاً فننتكسُ

منتفعين بما وَرَدَ في الأثر: «ما من يوم ينشقُّ فجره إلاّ وينادي: يا بن آدم! أنا خلقٌ جديد، وعلى عملك شهيد، فتزوَّد منِّي، فإنِّي لا أعود إلى يوم القيامة» !! فذكرُ اللهِ جلاَّبٌ للنِّعم، ودافعٌ للنِّقم.

وفي الحديث الشَّريف: **«ما عمل آدميٌّ قطُّ أنجى له من عذاب الله من ذكر الله عزَّ وجل»**(١).

فيا عباد الله! ما أشرفَ الأوقات! وقد ضيَّعتموها ، وما أجهل النَّفوس! وقد أطعتموها ، وما أدقَّ السُّؤال عن الأموال! فانظروا كيف جمعتموها ، وما أحفظ الصُّحف للأعمال ، فتدبَّروا ما أودعتموها قبل الرَّحيل عن القليل. . والمناقشة عن النَّقير ، والفتيل! قبل أن تنزلوا بطون اللُّحود ، وتصيروا طعاماً للدُّود ، في بيت بابه مسدود ، ولو قيل فيه للعاصي ما تختار؟ لقال: أعود؛ ولا أعود ، ومن الملاحظ بأنَّ الزَّمن يمرُّ علينا سريعاً. . وهذا سيِّدنا أبو بكر الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ يشد على لسانه بقوَّةٍ ، ويقول: هذا أوردني شرَّ الموارد!!

فأين نحن ـ أيَّتها الأخوات ـ من أبي بكرٍ؟! وأين نحن من محاسبة اللِّسان في قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ ؟؟ سُبْحانك فبلى! وقد قيل:

«عجبتُ للنَّار كيف نامَ هاربُها ، وعجبتُ للجنَّة كيف نامَ طالبُها».

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٢٣١٧) والصغير (٢٠١) وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٧٤) عن جابر.

فتجنَّبي عزيزتي الغيبة بكلِّ ما أوتيت من قوَّة! لأن إبليس ماكرٌ ، وذو خبرةٍ بالأمور المؤدِّية إلى غضب الله ، فيدخلُ عليك بوسوسته حولها ، ويخدِّرك باطمئنانٍ واهمٍ ، بحيث لا تشعرين بفداحة ذنبك ، ويزيِّن لك عملك ليُهَوِّنَ عليك خطأك ، كيلا تتوبي إلى ربك ، فيكون بذلك خسرانُه الأكبر. . فتحصَّني بالعلم لاتِّقاء المحظور من سقطات الإنسان الذي يسقط فيها المرء يوميًّاً دون أن يدري ، وتتراكم عليه محقرات الذُّنوب حتى ينزلق إلى الهاوية ! فهناك محظوراتٌ للقلب ، وأخرى لِلِّسان. . فطهِّري سريرتك ، واحفظي عليك لسانك ، واعتصمي بخالقك ، ومولاك العليم ، القدير علَّه يحميكِ من شرِّ ذلك. . قال أبو بكر الرَّازي ـ رحمه الله ـ: الإيمان في قلب المؤمن كشجرةٍ لها سبعة أغصان:

* غصنٌ ينتهي إلى قلبه ، وثمرتُه صحةُ الاعتقاد.

* غصن ينتهي إلى لسانه ، وثمرتُه صدقُ المقال.

* غصنٌ ينتهي إلى يديه ، وثمرتُه إعطاءُ الصَّدقات ، وفعلُ الخيرات.

* غصنٌ ينتهي إلى عينيه ، وثمرتُه النَّظر إلى بديع صنع الله ، وغضُّه عن العورات.

* غصنٌ ينتهي إلى جوفه ، وثمرتُه أكلُ الحلال ، وترك الشُّبهات.

* غصنٌ ينتهي إلى نفسه ، وثمرتُه ترك الشَّهوات.

* غصنٌ ينتهي إلى رجليه ، وثمرتُه المشي إلى الطَّاعات.

فهل نبتت هذه الشجرة الإيمانيَّة في قلبك يا أختي؟! وهل بسقت أغصانها ، وتفتَّحت أزهارها؛ ونضجت ثمرتها ، فتفيَّأْتِ ظلالها؟ وإلا فاغرسي بذرتها عقيدةً صالحةً صحيحةً ، واسقيها بماء التَّوبة ، وتعاهديها

بالعمل الصَّالح لتنعمي بخيرها، ووافر ظلِّها.. وقد ورد عن رسول الله ﷺ أنَّه قال: «**يا فاطمة بنت محمد! أنقذي نفسك من النَّار، لا أغني عنك من الله شيئاً!**»[1].

وهذا إخطارٌ لك يا أَمَة الله! وإنذارٌ منه ﷺ، يوم عُرِضَتْ عليه النَّار، فرأى أكثر أهلها من النِّساء، هذا مصيرُك، أنت معرَّضةٌ للعذاب إن لم تخضعي لأوامر الله، ولم تقفي عند حدوده، وتجتنبي نواهيه، فاعملي بطاعة الله، إنَّك والله لأعجز من أن تطيقي عذاب النَّار! متاعٌ قليلٌ الآن، والحياة الأزليَّة الآخرة خيرٌ، وأبقى، وقيل: جعل الله الشَّرَّ كلَّه في بيتٍ.. وجعل مفتاحه حبّ الدُّنيا، وجعل الخير كلَّه في بيتٍ.. وجعل مفتاحه الزُّهد فيها! فلا مهرب من الله إلا إليه، ولا منجى منه إلا إليه، الكلُّ راجعٌ إليه.. والكلُّ مسؤول بين يديه، فماذا عسى أنْ يكون الجواب يا أخت الإسلام؟! أعدّي للسؤال جواباً.. واؤْمُلي أن يكون صواباً.. ليباركك الله، وملائكتُه.

يا أمة الله! كلُّ ليلة يقبض الله روحك، ثمَّ يرجعها، ولكنَّك لا تتوبين من ذنوبك، وأنت لا تأمنين على نفسك: أنَّها إذا خرجت لا ترجع إليك، ولكي تعلمي: أنَّ لشدة الموت سكراتٍ، وعذاباتٍ، وحتى تنزعجي، وتتركي السَّيئات، وتفعلي الحسنات، وتستغفري ربَّك إلى الممات.. اسمعي يا سيدتي المؤمنة عن التفَجُّع، والتحسُّر الَّذي كان عليه بعضُ المحتضَرين وهم يفارقون الدُّنيا، فتندَّموا وَلاتَ ساعةَ مَندَمٍ! فهو يلطم وجهَه بعد أن أطلق نفسه في شهواتها، ويقول وهو على سرير الموت: واحسرتاه على ما فرطت في جنب الله!

---

(١) رواه البخاري (٤٧٧١) ومسلم (٢٠٤).

ويقول آخر وهو يبكي: سخرتْ بيَ الدُّنيا حتى ذهبت أيَّامي.

وثالثٌ يقول والأنفاس تتقطع لخروج الرُّوح من البدن: ويحكم يا إخواني! لا تغترُّوا بشبابكم، ولا تغرَّكم الدُّنيا كما غرَّتني، وغرَّرت بي، فنزل به من الندم أضعاف ما ذاقه من اللَّذة، والشَّهوة الَّتي زالت، ولن تعود.

وكم كان خيراً لهم لو أنَّهم عملوا بكلام مولاهم: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥]! لنالوا حظَّهم من الدُّنيا، ولَحَظَوْا بنصيبهم الأوفر من رحمة ربهم.

فالله الحقُّ المبين يريد الخير لسائر مخلوقاته، وبهذا الحنان، والترغيب دعاك مولاك إلى التَّوبة، وفتح لك باب الإجابة، ليغفرَ لك، فأَبشري بقول ربك سبحانه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩].

ثمَّ أردف ذلك بآيات التخويف، والتحذير؛ ليحميكِ من شرِّ نفسك، ولكي تقدِّمي له الطاعة، والولاء وتعيشي في كنفه، فـ: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٨٩ـ٩٠]؟! لأنَّ الله ليس بظلاَّم للعبيد، بل وثَّق وعيده بتلك الآية المنبِّهة.. وجلَّ مِنْ قائل: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

فهل لك يا أختاه! أن تقرئي كتابَ الله بتمعُّنٍ، وإدراكٍ؟ فتتوثب روحك، وتنتصر لأمر الله.. وتعيه كما يجب أن يكون، فتكونين مستجيبةً، وفعالةً لما يكون.. تتدبري آياتِه، وتُجَوِّدي به أعمالك..

وتتأدبي بآدابه، كما أمرنا سبحانه، والله! إنَّ فيه لسحراً يسحر القلوب، ولذةً للرُّوح لا تماثلها لذة.. يجب أن نتلوه بتفهُّمٍ ووعيٍ؛ كي نتشرب صفات الكمال من الكامل العظيم سبحانه، ونصبح إنسانيين، وفي نيَّتنا السَّمع، والطَّاعة في الأمر، والنَّهي، وإلا حقَّ على مَنْ يختمه للكم، وليس للكيف قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، أما قال الحكيم الخبير: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

هذه الآية المعجزة النَّاطقة، والتي أرجو أن تقرئيها يا غاليتي لتتأكَّدي بنفسك كم كرَّرها المولى في هذه السُّورة، كي ينبِّهنا إلى أهمية تدبُّر القرآن في آياته.. وقد لفتنا إلى ذلك في أكثر من ثلاثمئة آية!!

خذوا حذركم أيُّها النَّاس جميعاً، وكفانا تلاواتٍ عاديةً للقرآن بلا إحساسٍ، ولا تطبيق، فأين حقُّ تلاوته بالعمل به؟ ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢]!!.

فكم من قارئ لآياتٍ بليغةٍ، ولكن لا يستشعر معناها الواضح، ولا يستنبط الغاية منها! نريد أذناً تعي بعد أن تقرأ، أوتسمع القرآن؛ لنجد معانيه في قلوب البشر، فينعكس على أخلاقهم التعامليَّة، وما أحلى الرُّجوع إلى كتاب الله، وفهم آياته فهماً سليماً! فشمِّري عن السَّاق، فإنَّ الدنيا ميدان مسابقة، الغاية منها الجنَّة، أو النار! ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾؟ [القمر: ١٧].

يا مَن للذَّنب مقترف ... احذرْ أحوالاً تختلف
ولم تزل معتكف ... على القبيح الشنَّع
كم ليلةٍ أودعتها ... مآثماً أبدعتها
لشهوةٍ أطعْتَها ... في مرقدٍ ومضجع

وكـــــم خطـــيً حشتهــــا		فــي خــزيــة أحــدثتهــا
وتــــــوبـــــةٍ نكثتهـــــا		فـــي ملعـــبٍ ومــرتـــع
وكـــم تجـــرَّأت علــــى		ربُّ السَّمـــــوات العـــلا
ولــــم تـــراقبـــه ولا		صـــدقـــت فيمـــا تـــدع
فـــالبــس شعـــار النَّـــدم		واسكـــبْ شـــآبيـــب الـــدم
قبـــــل زوال القـــــدم		وقبـــل ســـوء المصـــرع
واخضـــعْ خضـــوع المعتـــرف		ولـــذ مـــلاذ المقتـــرف
واعـــص هـــواك وانحـــرف		عنـــه انصـــراف المقلـــع
فيـــا مفـــازَ المتَّقـــي		وربـــح عبـــدٍ قـــد وقـــي
ســوء الحســاب المــوبــق		وهـــول يـــوم المفـــزع

عزيزتي.. لا تكوني كهذا المثال السَّيئ الذي قيل فيه: «رب تالٍ للقرآن، والقرآن يلعنه!!» ذلك الرَّجل الَّذي جعل العبادة وقفاً على شهر رمضان.. ثمَّ يقول في تفاخرٍ، وعُجبٍ: إنَّني أختم القرآن في شهر رمضان مرَّتين، أو أكثر.. يقولها في تباهٍ، وكأنه ضمِن بذلك دخول الجنَّة!!

صحيحٌ أن نكثر الاهتمام بالقرآن في هذا الشَّهر الَّذي باركه الله بالصَّوم تكريماً لكتابه العظيم! وصحيحٌ: أنَّ الإنسان يطمع بوعد سيدنا محمد ﷺ لمن ختم القرآن بأنَّ له دعوةً مجابةً بإذن الله، هديةً كريمةً، وجائزةً عظيمةً لعمله من ربٍّ كريم.

وقد جاء في الأثر بأنَّ أربعة آلاف من الملائكة، أو أكثر يحضرون دُعاء الخِتام، ويصلُّون على الدَّاعي ـ أي: يستغفرون له، ويُؤَمِّنون على دعائه ـ ولكن الويل، والخسران المبين لمن يختم القرآن دون أن يتدبَّره ويترجمه

في أعماله ! لقد حوَّل هذا الإنسان عمله الكبير من خالص العبادة إلى عمل يشوبه العجب ، والرِّياء ، وفوق كلِّ هذا فهو لم يعمل به . . حيث يقضي ليالي الشَّهر المبارك في لعب النَّرد مع أصدقائه ، يتفكَّهون بالحديث عن النَّاس ! ولا يقوم بالعبادات التعامُليَّة إلا من جانبها السَّيىء . . فهو خمولٌ ، وبخيلٌ على أهله ، ويؤذي غيره بالغدر؛ الذي يعتبره شطارة ! وأما العبادات الدِّينية ، والشكلية فإنَّه يوفِّرها لرمضان الكريم ، وكأن ربَّ رمضان هو غير ربِّ كلِّ زمانٍ ، ومكان . . جلَّت عظمتُه . . فأسقطه عملُه بذلك من قمَّة الثواب . . إلى حضيض العقاب ! فليس لله حاجةٌ للعبد أن يدع شرابه وطعامه إن لم يصم وجوارحه عن المعاصي ، ويحاسب نفسه على المناهي ، ويتداركها بالتَّوبة الماحية ، والحسنات .

فحريٌّ بالمسلم أن يستغلَّ التَّعامل بدقَّةٍ ، ويقظةٍ؛ أيَّام الله المباركات ، ويستقبلها كاستقبال رجال الأعمال لفرص العقود ، والمناقصات ، الَّذين يَصِلون اللَّيل بالنَّهار في دراساتٍ دقيقةٍ واستشاراتٍ . . فيكثر من الطَّاعات ، وفعل الخيرات ، ويتجنَّب جميع المنهيَّات ، ويحافظ على الواجبات ، والبعد عن المحرَّمات ، ويترك الكذب ، والغشَّ ، والغيبة ، وسوءَ الأخلاق في المعاملات .

وقال سيدنا عمر بن الخطَّاب ـ رضي الله عنه ـ : ويل لمن كانت الدُّنيا أمله ، والخطايا عمله ، قليل فطنتُه ، عالمٌ بأمر الدُّنيا جاهلٌ بأمر الآخرة ! .

ولا تكوني ممَّن يقضون نهار وليل رمضان حول شاشة التِّلفاز ، يتابعون كلَّ ما أَعدَّ له عبيد المال ، والمغرضون من ملاهٍ ، وفسوق ! ! وعلينا أن نتحاشى اقتراف الذُّنوب على الأقل تعظيماً لحرمة الشَّهر الفضيل؛ لأنَّ أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت : إنَّكم لن

تلقوا الله بشيء خير لكم من قلَّة الذُّنوب، فتسبقون بذلك المجتهد الدَّائب! وهل لك أن تهابي مولاك و تتَّبعي سنةَ نبيهِ، وتتمسكي بها.. واقفةً عند حدودها دونما تجاوزات؟ وقد هدَّد الله الذي يتعدَّى حدوده، وينتهك حرُماته قائلاً: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾.. وبالمقابل قال: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾

[النساء: ١٣ ـ ١٤].

فهلاَّ أقبلتِ إلى مغفرةٍ من ربك، ورضوانٍ في فرص المغفرة، والعتق من النَّار، ورجوتِ السَّلامةَ من وعيده بالعذاب الأليم، الَّذي لن يحتملَه إنسانٌ مهما علا شأنه، وعظم، كما في قوله سبحانه: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: ٣].

وهلا تحاشيت أهوال الآخرة: خلود النِّيران، وسخط الدَّيان، مع الحَجْب عن النَّظر إلى وجهه الكريم، فيا له من عذاب أليمٍ! وهلاَّ تأمَّلتِ نيل الفوز العظيم، وسعيت لتحصيل الثَّمن الكبير في تجارة مع الله، وتقولين: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾! فتنالين خلود الجنان، ورضا الرَّحمن، مع النَّظر إلى وجهه الكريم! فياله من نعيمٍ عظيم، تحقيقًا لقوله ﷺ: «ما من شيءٍ أحبّ إلى الله تعالى من شابٍّ تائب»(١) وما من شيءٍ أبغض إلى الله تعالى من شيخٍ مقيمٍ على المعاصي.

وقال يزيد بن ميسرة: يقول الله تعالى في حديثٍ قدسيٍّ: «أيُّها الشَّاب

---

(١) رواه ابن عدي في الكامل (٥/ ١٨٩) والديلمي في الفردوس (٦١٥٣) عن أنس.

التَّـارك لشهوته ، المبتذل شبابه لأجلي ! أنت عندي كبعض ملائكتي»[1] .

وكم أتمنَّى لكِ أن تكوني ممَّن يباهي اللهُ بهنَّ ملائكته بشبابك الَّذي اشتريتِ به رضاءَ مولاكِ ، واستقمتِ على دينه ، وطاعته كما يريد ، وتزوَّدتِ بخير الزَّاد ، تستعدين ليوم المعاد ، فيكون من نصيبكِ جنات الخلد ، عند ربكِ العزيز الرَّحمن . . ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الغاشية : ٨ـ١٠] ، ومن جميل ما قرأت عن ذلك الأمر :

ولـــو أنّـــا إذا متنـــا تُـــرِكْنَـــا ... لكـانَ المـوتُ راحـةَ كـلِّ حـي
ولكنَّـــا إذا مُتنـــا بُعِثنـــا ... ونُسْـأَلُ بعـدهـا عـن كـلِّ شـي

* * *

(١) ذكره الزبيدي في الإتحاف (٤/١٩٣) وقال العراقي : رواه ابن عدي من حديث ابن مسعود.

أمَّهاتٌ واهمات

لك الله يا غاليتي! تنبَّهي لقول الله تعالى في هذه الآية: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...﴾ .. أولئك الذين وعدهم الله رضاه، وجنانه، وقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فابتغي رضوانَ مولاك سبحانه في أمره لعباده مع الحذر.. وزادنا تنبيهاً بقوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]، كإرضاء الأهل بالباطل، ولا يهيبكِ في طاعة الله لَومَة لائم، كائنٍ مَن كان، وبناءً على هذا، لا تُعيري أذناً صاغِيَةً لمن يقول لك إنك مازلت صغيرةً على التديُّن، ولبس الحجاب!! وبأنَّ العمر مازال طويلاً أمامَك.. فكم وكم سمعتُ هذه العبارة من أُمَّهاتٍ يقلْنَها شفَقَةً خاطئةً على بناتهنَّ من التحجُّب، وحتَّى من حفظ القرآن!! مع العلم بأنَّ بناتَهن يرغبن بالاثنتين. فهؤلاء الأمَّهات يرفُضْنَهُ واهماتٍ، بتغريرٍ مِن قِبَل أستاذِهن الخبيثِ إبليسَ اللَّعينِ، بأنَّ ذلك يؤثِّر على نفسيتهنَّ، وحيويتهنَّ، ونشاطهنَّ، ويجعلهنَّ «معقَّدات»، فيقلن: (لسَّه بكير عليهن)! ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ..﴾ [الكهف: ٥].

تالله! إنَّني قلقةٌ عليكنَّ جداً، وأخاف عليكنَّ عذاب يومٍ رهيب.. إنَّ من واجب ابنتك عليك أيَّتها الأم الرَّؤوم أن تعززي رغبتها في لبس الحجاب، بإقامة حفل تكريم لائقٍ ومشجِّعٍ، تدعين إليه صديقاتها مع فتيات العائلة، وتجعلين منها قدوةً حسنةً تدبُّ فيهنَّ الحماس تشجيعاً مأجوراً من المولى سبحانه، وتكون دعوةً لطيفة منك إلى الالتزام بما هو فرض من حضرة الله عليهنَّ، بدل أن تثبِّطي من عزيمتها عن طاعة خالقها سبحانه، وتكوني عوناً لتحريضِ إبليس اللَّعين.. ولشياطين الإنس مِنْ حولها..!

لماذا؟! لماذا يا أُمَّ الغاليَات ذلك الصَّدُّ عن سبيل الله؟ ألم تدري بأنَّك تضعينها أمام خطرين أكيدين؟ أولاهما: تعوُّدها على التَّفلُّت، وقلَّة الحياء من الله، وحين ترتئين بأنَّه آن وقت لبسه كما يمليه عليك هواك، وقتها تندمين أشدَّ النَّدم؛ لأنَّها لن تطيعك بسهولةٍ كما تتوهَّمين! وثانيهما: عدم ضمان أحد من العباد موافاة الأجل، ولا تأخيره! فكم من أمٍّ نعت ابنتها الشَّابَّة بعد أن استردَّها خالقُها إليه.. ثمَّ بكت نفسها طويلاً؛ لأنَّها كانت سبباً في عدم التزامها بدينها، والأعجب أنَّك تعطِّلين رغبة ابنتك في حفظ القرآن، وأنت تعلمين: أنَّ الحفظ في الصِّغر كالنَّقش على الحجر؟! وأنت نفسك قد أتيتِ بأعمالٍ صالحةٍ، فإذا بك تحرمين أولادك منها، إما بإهمالك لمهمَّتك الَّتي فطرك عليها المولى سبحانه، وإمَّا إخفاقاً لجهلك في أمور التَّربية الَّتي خُلقتِ من أجلها، وإمَّا خضوعاً لوساوس الشَّيطان.. فلا تكوني من: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۢ بَعِيدٖ﴾ [إبراهيم: ٣].

فيا أيتها الأمُّ الحنون لا تنسي أنَّ: ﴿مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ

ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]! ولنعلم أيضاً: أنَّ العقوبة في الدُّنيا متوقعةٌ، وأنَّ كلَّ ما يصيبنا من مصائبَ فهو بلا شكٍّ بسبب ذنوبنا، وشؤم المعاصي.

لماذا أيَّتها الأمُّ المسلمة المصلِّية لمولاك تتغافلين عن أوامره؟! لماذا والحجاب عنوان شرفها، ورمز كرامتها، وسياج حفظها وصيانتها! هل إذا سارت ابنتُكِ على هُدى الله، ونالت رضوانه يَحْزُنُكِ حالُها، ويقلقُكِ أمرُها؟! أم إذا تفلّتَت عن الأخلاق الإسلاميَّة، واتبعتْ سبيل الشَّيطان الذي لا يؤدي إلا إلى المهالك في الحياة وبعد الممات من غضب الله؟ ثمَّ إن كثيرات تقلن إنَّنا نخاف عليهنَّ من ردَّةٍ عكسيةٍ، فيخلعن الحجاب.. أقول لهنَّ: وهذا شيءٌ خطير فعلاً، ولكن لن يحدث في بيت مسلم حقاً، فلن تتوقف المهمَّة عند تحقيق الهدف.. بل تتعدَّاها إلى الدَّعم المعنويِّ للمحافظة عليها بالقدوة الحسنة منك بكونك مثلاً فاضلاً تعايشه.. وبتقوية عقيدتها الدِّينيَّة، لا أُصدِّق أبداً بأنكِ أُمٌّ تحب الخير لبناتها؛ وأنتِ تعارضين رغبتهن بالتزام دينهنَّ.. فأنتِ تدفعينَهنَّ لجهلك بتلبيس ذاك اللَّعين إلى الأسباب الَّتي سوف تجعلكِ تغرقين في دوامة القلق الحقيقيِّ المستمرِّ من أجلهنَّ.. هذا إن لم يكن حزناً، وخسراناً مزدوجاً في الدَّارينِ.. لتجمعي بين النَّكالَيْن! فحذارِ أن يخدعك، ويدخلك في حبائلهِ، فتُصنَّفين مع أوليائه.. ثمَّ يتبرأ منك ذاك اللَّعين يومَ القيامة، ومِن أمثالك.. و: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]!! ويكون العقاب الخلود معه في النار! تالله! إنَّها لإحدى الكُبَر، ونذيراً للبشر، لمن شاء من العباد أن يتقدَّم أو يتأخر.

نسأل اللهَ العافية من: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].. ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، فإنَّكِ مسؤولة عنها، وعن أخواتها يوم

القيامة ، فحَسَنٌ تربيةُ الأولاد ، ولا سيَّما البنات منهم ، فهنَّ طريق إلى الجنَّة ، وهو العمل الذي لا ينقطع عند موت صاحبه ، فلا تكوني عدوةً لإبليس في العلانية ، صديقةً له في السر.

ومن قلبٍ مليءٍ بالحسرات ، ودموعٍ حزينةٍ من آيبةٍ إلى الله أَسترحمك أولادك ، وأناشدك بأن تهوني عليهم طاعة ربهم بالتعوُّد عليها منذ الصِّغر. . فكم أتمنَّى لو أنَّ والدتي ـ طيَّب الله ثراها ، وأسكنها فسيح جنانه ـ كانت قد أزهقت روحي ، ولم تترك لي الحبل على الغارب ، بعد أن يئسَتْ من عنادي في توجيهاتها! حيث إنها كانت تعاملني ، وأخواتي بمنتهى الليونة ، والتي كانت تعتبرها حناناً. . ذلك الحنان المفسد في تربية الأولاد. . فلولا فضل الله ورحمته بهداه؛ لكنت من الهالكين! . . من هذا المنطلق أقول: أيَّتها الأم الفاضلة! . بالله عليك هل ترضين أن تكون ابنتك ، وثمرة فؤادك من أهل النَّار؟! أتريدين أن تعرِّيها من الحياء ، وهو زينة كلِّ إنسان!والمفروض أنْ تربِّيها عليه ، وهو شعبةٌ من شُعَب الإيمان ، ويا له من مكمِّلٍ لشخصية المرأة. . هل ترضين أنَّ ابنتك تُعرض كما تعرض السِّلع الفاتنة ، ليتعلَّق بها كلُّ سافلٍ ، وحقيرٍ ، ومهينٍ ، ورذيلٍ؟! ولا تقولي مازالت صغيرةً. . ألم تبلغ سنَّ التَّكليف؟ إذاً صارت في حكم النِّساء ، وأصبحتِ مسؤولةً عنها أمام الله ، لا تنظري إلى حجم بُنيتها ، إن كانت تبدو صغيرةً ، ولا يغرّك طول الأمل ، واتركي سوف ، وحتى ، ذلك (الفيروس) الذي يقضي على العزم ، والهمَّة! فحكم الله لا يعترف بالمزاجيّات ، فمن طال أمله؛ ساء عمله ، ولا تَدَعِي آراء الجهلة تفتنك. . ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢]؟! واللهِ لأعجب من أنانيتك ، وأنت تمنعين الخير عن أحبائك!! كيف تجرئين على هذا؟! فكوني على مستوى المسؤولية وأنشئي ابنتك نشأةً إسلاميَّةً ، وعوِّديها على ستر

عوراتها حتَّى أمام أخواتها ، دون أن تلبسيها الحجاب مع البنطلون على حساب طفولتها من سن الخامسة إلى العاشرة وبطريقة خاطئةٍ ـ كما هو شائع الآن وبكثرةٍ ـ لا تقيِّديها بلباسٍ لم يفرضْ عليها بعد، فهو سابق لأوانه ، نمِّي فيها العقيـدة أولاً ، كي تلبسه برغبة الاحتجاب عن كلِّ شيءٍ يغضب الله ، وليس حجب الشَّعر فقط.. ودعيها تتلقى الفضائل من خلالك؛ لأن الأدب مطلوبٌ قبل الحجاب.. سينفعها ذلك في المستقبل وستدعو لك بالخير ، فإنَّ أعظم ما تملك المرأة حياؤها ، وأعظم حيائها الحجاب تداري فيه جسدها ! وشجِّعيها على قراءة قصص الأنبياء والصَّحابة الأَجِلاَّء ، أعينيها على حفظ القرآن؛ لأنَّه يحيي القلب ، وينير الأذهان ، وينشط الذَّاكرة ، ويفقه في بلاغة اللُّغة العربيَّة ، ولا علاقة لحفظه بالتأخر في حفظ الدَّرس كما تتوهمين ، هذه أوهامٌ شيطانيَّة أعاذك الرَّحمن منها ، وجنِّبيها ، وإخوتها ما استطعت أخبار الفنِّ والموضة ، وحفظ الأغاني ومشاهدات (التِّلفزيون ، والفيديو) والمجلات المبتذلة! وكلَّ ما هو مستورد من أعداء الإسلام ، حتَّى لا تعرضيهم لعشق أهل المفاسد ، فَيُلحقهم الله بهم والعياذ بالله! فالمرء مع من أحبَّ يوم القيامة.. يوم الطَّامة الكبرى: ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧] ، وأتحفي أسماعهم بالقرآن ، والأحاديث الشَّريفة.

وبذلك يكون أولادك نموذجاً رائعاً يُحْتَذى به ، وتكوني أنت مثالاً للأم المسلمة ، الَّتي أدَّت أمانة الله.. وقد جاء في الحديث الصَّحيح: **«ما مِنْ عبدٍ استرعاه الله رعيَّةً ، فلم يَحُطْها بنصيحةٍ إلا لم يجد رائحة الجنة»** [١]... فمهمَّة تربية الأبناء ، وتعليمهم الإسلام من أعظم

---

(١) رواه البخاري (٧١٥٠) ومسلم (١٤٢).

المهمَّات » وجعل الله الجنَّة لأجله عند قدميك؛ لأنه من شأنك.. وذلك واجبُ كلِّ أمٍّ تتحلَّى بالأمومة الحقيقية، الَّتي تتمنَّى لأولادها خيرَ الدُّنيا، والآخرة، وتخشى عليهم من غضب ربِّنا العزيز المُتعال، فإيَّاكِ أن يأتي يوم القيامة؛ ولكلِّ ولدٍ من أولادك عليك مظلمة!! لأنَّك قصرت في تربيتهم الدِّينيَّة والدُّنيويَّة.. كيف وأنت تقرئين: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الممتحنة: ٣].

وقال المولى في حديثٍ قدسيٍّ: «وعزَّتي، وجلالي! لا يجاوز هذا الصِّراط ظالمٌ»... فيفرح المرء أن يكون له حقٌّ على أبيه، أو زوجه، أو أمِّه، أو أخيه! فلا أنساب بينهم ذلك اليوم!! ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

فاحذَري أن يكون أبناؤك، وبناتك خصماءكِ عند الله وقتها، أجارك الله من الهلاك! ولتُنقذي نفسك في يومٍ لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً.. يوم يجعل الولدان شيباً!! لذلك حقَّ عليكِ ترشيدك لأبنائك، وتحصينهم بالتوعية.. وتشجيعهم، بل إلزامهم بطاعة خالقهم على شريعته الصَّحيحة، كي تجنبيهم سوءَ العاقبة في الدَّارين، وتكوني قد أديت دورك في الحياة بما يرضي الله الموصل إلى الفوز بالسَّعادة المطلقة في الآخرة بوجوهٍ مسفرةٍ، ضاحكةٍ مستبشرةٍ في نعيم لا يبيد: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣-٢٤].

وهذا استغفارُ ودعاءُ الملائكة حملة عرش الرَّحمٰن للمؤمنين، فاستفيدي منه كي تقلَّدي (ميدالية) الشَّرف الإلهيَّة، والله، ثمَّ والله! ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ فـ: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ [الصافات: ٦٠-٦١].

أمَّا المرأة الغارقة في الرَّفاه ، والتنعُّم المترف ، والتي تستهلكها الدُّنيا ، من طعامٍ ، وشرابٍ ، وزينةٍ ، وتفاخرٍ ، ومظاهر براقةٍ ، وزياراتٍ . . لا تربي أطفالاً ، ولا تربي العلماء ، ولا تربي الأتقياء ، إنَّما تربِّي التَّنابل ، والعاطلين ، والكسالى ، والخاملين ، والعالة على المجتمع ، والمتسكِّعين ، وتنشئهم على الترفُّع ، والتَّنعُّم ، والميوعة . . وتدفعُهم بذلك على التسكُّع في الشَّوارع ، واكتساب مساوئ الأخلاق . . ربما أصبحوا بذلك أشباه الرِّجال ولا رجال ، والمولى سبحانه سائلها عمَّا استرعاها : حفظته ، أم ضيعته؟! فتجنَّبيها ، وجنِّبي أولادك مغبة مصاحبة أولادها ، وربِّي أطفالك على : قال الله ، وقال رسول الله ؛ كي تنالي مرتبة الأمِّ الفاضلة . . فأرجو أن تكونيها أختي المسلمة! وتجنَّبي أن يحقَّ عليك قولُ ربِّك سبحانه : ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الروم : ٢٩] .

* * *

نصائحُ مجرِّبة

غاليتي! بما أنَّه لا طاقة للإنسان على تحمُّل عذاب القبر ، ولا عذاب النَّار بعده ، فيا ليتكِ تُذكِّري نفسكِ الَّتي ترغب أطايب العيش الهنيء ، وتضييع الوقت في الملهيات السَّيئة ، وكثرة النَّوم بتلك النَّصيحة التي أطبِّقها على نفسي كي أروِّضَها على الاستمرار في طاعة الله ، فإنَّني كلَّما أشعلت نار «البوتوغاز» في المطبخ ، أقرب منها يدي ، أو وجهي قليلاً لألمس الحرارةَ المحرقةَ ، والمخيفةَ ، والَّتي لا تقارن بحرارةِ نار جهنَّم التي تفوقها سبعين ضعفاً ، كما أخبرنا رسولنا ﷺ ، فتعزُّ عليَّ نفسي أن تجعلني من أهل النَّار . . فأخوِّفها منها ، وأحذِّرُها من هول المصير ؛ إن هي تفلَّتت عن طاعة ربها ، وكذلك عندما أستحمُّ بالماء الحار ، فأذكِّر نفسي بماء الحميم في جهنَّم الذي يشوي الوجوه ، والَّذي أشار إليه تعالى في هذه الآية المخيفة قائلاً : ﴿ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾

[الدخان : ٤٧ ـ ٤٩]!

وأيُّ عقوبةٍ أشدُّ من النَّار! فأدعو الله راجيةً رحمته سبحانه : اللَّهُمَّ! إنِّي أعوذ بك من النِّيران بعفوك يا رحمن! وأسألك رضاك والجنَّة . . اللَّهُمَّ! مغفرتك أوسع من ذنوبي ، ورحمتُك أرجى عندي من عملي يا أرحم

الراحمين! متَّعظة من مشاهد البراكين الَّتي يعرضها التلفاز في برامجه عن الطَّبيعة المرعبة والَّتي يقشعِرُّ منها البدن، والمخيفة لدرجة الإغماء! وكأنَّها صورةٌ مصغَّرةٌ عن عذاب جهنم حيث نرى الانفجارات ترسل قطعاً من طينٍ لزجٍ ملتهبٍ تتناثر، وترتفع إلى الأعلى، فأشبِّهها بالجِمَالة الصُّفر؛ ثم تنهمر مندفعةً كسَيلٍ عارمٍ، مزيجٍ من نارٍ، وصخرٍ بتوهُّجٍ مذهلٍ؟! وكأنَّه وحش كاسر يريد أن يحرق، ويفترس العاصين لأمر مولاهم سبحانه: ﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ۝٣٢ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ۝٣٣ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات: ٣٢ـ٣٤]، وأشبِّه يوم الحشر بمشاهدتي لتجمُّع ملايين البشر في الحجِّ عند عرضها في (التلفزيون).

أمَّا عن ظلمة القبر، وعذابه، واللَّذان سببُهما ذنوبُنا.. فأذكِّر نفسي كلَّ يومٍ مساءً قبل النَّوم، وصباحاً قبل صلاة الفجر بهذا الأمر: أُطفِئ أنوارَ البيت كلَّها لدقائق، وأجد نفسي في الظَّلام الدَّامس الذي يشعرني بالغم والخوف من المجهول، حيث لا شيء أراه إلا العَتَمة، أذكِّر نفسي فيها بنزولها إلى القبر، وأخوِّفُها ذاك المصير طال الأمد، أم قَصُر، وأقسرها على التَّفكير، وأقول لها: هل لكِ طاقةٌ تتحمَّل هكذا مصير.. بكلٍّ تأكيد: لا، وألف لا! إذاً ائتمري بأمر الله، لأنَّ ظلمةَ القبر لا تكون إلا للغافلين عن العبادة، فلا أشعر بنفسي إلا وأنا أدعو الله. وبخوف شديد بأن يعينني على حسن طاعته، كي يرضى عنِّي، ويوسِّعَ لي داري الأبديَّة؛ الَّتي سأبقى فيها إلى ما شاء العليم الرَّحيم، وينورها لي من نور رحمته على عباده.

وما أشاهد هطول الثَّلج إلا وأذكر نفسي بتطاير الصُّحف على العباد يوم المعاد، لا أدري أنِّي سآخذ كتابي بيميني، أم بشمالي!! وكلَّما سرت في الطريق أُذَكِّر نفسي بالسَّير على صراط الله يوم القيامة، كي تستقيم جميع

خطواتي على طاعة الله ، حذراً من غضبه الذي يتبعه السُّقوط في النَّار ، حيث أتخيَّل أنِّي أسير على جسرٍ ضيِّق جدّاً ، وطويلٍ ، يمتدُّ فوق جهنم المظلمة ، ينتهي إلى جنَّةٍ ، أو نار ، وعليه أشواك! حاملة ذنوبي جبالاً على ظهري ، فجعلتني أسير زحفاً ، حيث تتحوَّل الذنوب وقتئذٍ بقدرة المولى إلى أثقال!! والذين سقطوا فيها يصطرخون من تحتي ، وأنا هلعة على مصيري: هل سأنجو ، أم لا !! فأَجدها تُقبِلُ على الطَّاعة برغبةٍ ورهبةٍ. فأرجو أن تجرِّبي نصيحتي الَّتي أفادتني أيَّما إفادة ، كي تردعي نفسك عن شهواتها ، وتقمعي تمرُّدها على أوامر خالقها ، وتذكِّريها بأيام الله ، أرغميها على طاعته ، وروِّضيها على ذلك النحو ، فتستسلم لنداء العقل حيث يقول لها: ألم يقلْ لنا ربُّنا في كتابه العزيز: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣١] .. ثم: ﴿ وَجَعَلْنَـٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص: ٤١] .. وبالمقابل قال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤] .

فماذا تختارين؟! وتفاءلي برحمة مولاكِ العليِّ الكبير في هذه الآية الكريمة: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠] .

* * *

فكرةٌ تفيد الأطفال

وأمَّا أطفالنا ، أكبادنا ، أحباب الله ، أمل المستقبل ، وإشراقة الحياة . . يجب علينا أن نقول لأوليائهم : نفِّذوا كلامَ الله تعالى حيث قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦] . . وهذه الآية أصلٌ في تعليم أهل البيت ، وتربيتهم ، وأمرِهم بالمعروف ونهيهِم عن المنكر . . فارحموا أولادكم أيها الآباءُ! فقد حقَّ على المسلم بأمرٍ من ربه أن يعلِّم أولادَه الدِّينَ القويمَ ، وما لا يستغني عنه من الآداب . . والكثيرون قد تأهَّبوا ، واستعدُّوا ، وعملوا على تربية أبنائهم أجساداً ، وأهملوا تربية القلوب الَّتي بها يحيون ، ويسعدون في الدَّارين . . ولمساعدتهم يجب أن نشتريَ لهم بعض الكتب الَّتي تحتوي على موادَّ لتسلية الأولاد ، وفائِدتهم ، لقد ذخرت بذلك مكتبات بلدنا بشكلٍ رائعٍ ومتميِّز . . بحمد الله ، ونُنْشِيءَ مكتبةً صغيرةً لهم في البيت . . ويا حبذا لو أنَّ الوالدَ ، أو الوالدةَ هما اللذان يتولَّيان قراءة هذه الكتب القيِّمة على مسامع أولادهم ، وبطريقةٍ روائيةٍ مُشوِّقة ، فتكون أبلغ لإفهام الطفل ، ومن ثَمَّ سيعتاد بل سيُدمن على حبِّ المطالعة ، التي هي من أرقى أنواع الهوايات ، والَّتي توسِّع مدارك الطفل بشكلٍ ينفعه في مستقبله الدِّراسي . . وذلك من أهمِّ ما يجب أن يهتمَّ به الآباء ، وقد كانت لي

تجربةٌ مع أولادي في هذا الصَّدد ، ونجحتْ نجاحاً باهراً ، ممَّا يدعونني لأن أتمنَّاها لكلِّ طفلٍ. . ونساعدهم بذلك على عدم التعلُّق بذاك الوباءِ المدمِّرِ لصحَّتهم ، والمخرِّبِ لعقولهم ، والمفسدِ لمداركهم ، والمشوِّهِ لعقيدتهم الإسلاميَّة ، من برامج مسيئة. . ألا وهو ذاك اللَّعين المسمَّى بالتلفاز ، وقرينيه : الأتاري ، والكمبيوتر ، فهم مغسلةُ الأدمغة ، والأخلاق ، فيهم نفع ضئيل يسير ، ومعظمه شرٌّ مستطير! والبدائل ممكنةٌ. . يجب أن نجعل لهم مكتبةً مرئية خاصَّةً تتناسب مع أعمارهم ، ونهتمَّ بشراء ، أو استئجار أشرطةٍ ، أو (سيديّات) تفيدهم ، ونختارَ لهم الموادَ المسلِّيَةَ بفكاهاتٍ هدفُها ثقافيٌّ ، وأدبيٌّ رفيعٌ ، في ثناياها توجيهاتٌ تربويةٌ نافعةٌ وهادفةٌ تنطوي على إغناء عقل الطفل بالعلوم المفيدة ، وإنمائه على نحوٍ متحضِّرٍ ، وسليم ، كي يصبح إنساناً ذا شأن.

أيها الأب الحنون! ما أجمل أن تجمع أولادَك لتُقْرِئَهم القرآنَ الكريم مع شرحٍ مبسَّطٍ ، وتَقُصَّ عليهم من قَصَصِ القرآن ، والأنبياء ، والصَّحابة ، أمثالِ سيدِنا عمرَ بنِ الخطابِ ، وغيرِه ، وقصص الصَّالحين ، وأبطال التَّاريخ الَّذين تشدُّ انتباهَ الأطفال بطولاتُهم ، ومعاناتُهم ، أو تختار لهم مجلاَّتٍ مصورةً متنوِّعةً تنمِّي معارفَهم العلميَّةَ ، والتي أصبحت تذخر بها مكتباتنا في دمشق ، ولله الحمد! وهذه تغنيهم عن كثيرٍ من المجلات المخالفة للشَّريعة ، والرِّوايات الخرافيَّة ، أو المخيفة التي تَتوضَّع في كيان الطفل ، فتزعزعَه ، وتورِّثَ فيه الجُبْنَ والخوفَ. . وهذا لأَشدُّ ما نخاف منه على أولادنا!! وما أكثرَ ما يشاهدون ذلك على شاشة ذاك اللَّعين ، التِّلفاز! وما أكثرَ ما شاهدت من تلك الحالات المحزنة في أطفال عائلات كثيرةٍ لا تعبأ لمثل هذه الظَّاهرة المريبة ، ولا تلمَسُ خطورتها إلا عندما يصبح أطفالُهم شباباً ذوي شخصيةٍ مهزوزةٍ!! والغريب في الأمر : أنَّ كثيراً

من الأمَّهاتِ يشتكين تلك المشكلة بطريقةٍ ، وكأنَّها أمرٌ مسلَّمٌ به! وكأنَّهنَّ لا يُرِدنَ أن يُحمِّلْنَ أنفسَهن مسؤولية تَسبُّبِهن بدايةً في هذه المشكلة الخطيرة في مستقبل أولادهنَّ! وللأمَّهات اللاتي طَرحنَ عليَّ مثلَ هذه المشاكل ، يُرِدنَ نصيحتي بعد أن لمسوا حسن تربيتي لأولادي . . قلت لهنَّ ، وأقول دائماً : عليكِ بالصَّبر ، والأناة في تحقيق إصلاح أمر أطفالك على منهاج ما ذكرت ، وسأذكر لكِ أسلوباً تربوياً من أجل صحته البدنيَّة ، والدِّينية ؛ لأنَّها تضمن صحَّةً نفسيَّةً ، واجتماعيةً لإنشاء طفلٍ مثاليٍّ ، معافى من مركبات النَّقص الخطيرة ، وهذا بالطَّبع يستوجب عليكِ وعلى الأب صبراً كبيراً . . فإذا وضعنا هذا الدَّافع نصب أعيننا ، فإنَّ كلَّ مادةٍ مدروسةٍ بوعيٍ منَّا نقدِّمها لأطفالنا ستكون مساهِمةً في بناء شخصيَّاتهم على السُّلوك السويِّ . . وحمايتها من الانحراف والفساد ، بالتربية السليمة المبنية على مبادئ أخلاقيَّةٍ صحيحةٍ مستمدَّةٍ من تعاليم الإسلام ، فالواجب أن يعتمدها الآباء والمربُّون إذا أرادوا أن يجنِّبوا أولادهم والناشئة أخطار الانزلاق في مهاوي الظَّلام ، والعقد النَّفسيَّة .

وكم أشعُر بالحُزْنِ عندما أُلاحِظُ : أنَّ أكثرَ شبابِنا ، وشابَّاتنا لا يفقهون شيئاً من أمور دينهم القويم ، بل حتَّى إنَّهم يستهترون بمبادئ الإسلام القيِّمة ، إنَّهم لعمري يفتقدون مجتمعاً إسلامياً حقيقيَّاً ، فأشعر : أنَّهم في ضياعٍ وحَيرةٍ ، لا هُم توصَّلوا إلى إرضاء أهاليهم الذين أَنشؤوهم هذه النشأةَ الخاطئة ، ثمَّ هم يتذمَّرون من انحرافاتهم وعدم طاعتهم . . ولا هم توصَّلوا إلى طاعة ربِّهم ، فهم يعيشيون بلا هدفٍ نافع . . وكيف لهم ذلك ولم يجدوا منْ يعلِّمُهم أمورَ دينهم ، ويَحثُّهم على تنفيذها ، بل يطمحون إلى أهدافٍ مخجلةٍ ، ومحزنةٍ ، ومستهلكةٍ . . فأخذوا يتأرجحون بين أوامر الأهل وأوامر الشَّيطان باضطراباتٍ نفسَّيةٍ مؤلمةٍ ، يعبِّرون عنها

بتصرفاتٍ عدوانيَّةٍ كإيذاء الغير ، والفوضى ، والميوعة ، وقلَّة الأدب ، وعدم التَّركيز أثناءَ تفريغ شحنات طاقاتهم ، فأشعرُ بالخُسران ، والهَدْرِ لطاقاتٍ فتيَّةٍ فذَّةٍ كان من المُمكن الاستفادةُ منها ، واستغلالُها بما يُفيد الوطنَ . والناسَ ، يجب أن تُحكم تصرفاتُهم هدفاً أصيلاً يتحرَّك من خلاله ، يلغي عشوائية الحركة بالشَّغب ، والضَّياع ، أُسوةً ببعض الشباب والشَّابات الَّذين تربَّوا على الوازع الدِّينيِّ ، والإنسانيِّ السَّليم ، والمبادئ الإسلامية . . وبأهدافٍ ثابتةٍ ، وساميةٍ ، فشكَّل عندهم رادعاً ذاتيّاً مريحاً ، ومفيداً ، و مطمئِناً.

أيتها الأمُّ الحنون! بما أنَّ أطفالنا هم أملنا ، وأغلى شيءٍ في حياتنا ، علينا أن نترجم هذه المحبَّة إلى صيغٍ تربويَّةٍ متنوِّعةٍ. . فهم يستأهلون الصَّبر الجميل. . فقضاءُ الوقتِ معهم من أمتعِ الأوقاتِ ، فضلاً عن أنَّه من أبسط حقوقهم علينا.

فمهمَّة التَّربية أخطر مهمَّةٍ! فلنهتمَّ بفَلِذات أكبادنا أجملِ ما خلق الله على وجه الأرض ، ولنمنحهمْ كبيرَ جهدِنا المستمرِ الذي هو حقُّهم الشَّرعيُّ علينا ، فنشتريَ لهم بعضَ أشرطة (الكاسيت) الحاوية على أمورٍ تربويَّةٍ مستوحاةٍ من تعاليم دينهم ، ونعملَ لهم أيضاً مكتبةً صوتيةً ، ومرئيةً صغيرةً في البيت ، ونُثريها بما يمكن أن يغذيَ شخصيتَهم بالعقيدة الصَّحيحةِ ، تحتوي على مجموعةٍ من الأشرطة (والسيديَّات) الإسلاميَّة الجيدة لمواضيع فقهيَّـةٍ وأناشيد للأطفال تبسِّط لهم الآداب الإسلاميَّة بطريقةٍ جميلةٍ ، وجذابة. . وعلوم الدِّين ، وتلاوات من القرآن الكريم؛ لأنَّ سماعَ مثلِ هذه الأشرطةِ له تأثيرٌ إيجابيٌّ على أهل البيت ، من جهة تعلُّمِهم صحَّة التِّلاوة ، وحفظهم للقرآن من جرَّاء تكرارِ ما يسمعون ،

وكان لذلك فضلٌ كبيرٌ بمساعدة الأطفال على حفظ القرآن في سنٍّ مبكِّرةٍ ، وقد حازوا على جوائز قيمة من المهتمين بتشجيع الأطفال ، جزاهم الله ما هو أهله . . وذلك في الدنيا ، زد على هذا الجزاء الأوفر في الآخرة .

وأيضاً نُغنيهم بالسَّماع الرَّحمانيِّ عن السَّماع الشيطانيِّ من الألحان المحرمة ، والأغاني الهابطة ، لأنَّ الآذان ، والأذهان لا يَصلُح أن يختلط فيهما كلامُ القرآنِ بمزمار الشَّيطان ، مع ضرورة الاحتفاظ بما حفظوا من آيات القرآن في أذهانهم . . وذلك من جرَّاء التَّكرار الضَّروري . . مدى الحياة .

ولا بدَّ أن نعتني بالمصدر الَّذي نأخذ عنه الفتوى ، وهذا أمرٌ مهمٌّ فانظروا ممَّن تأخذون دينكم ، لتعلِّموه لأولادكم ، فيجب أن يكون الأخذ ممَّن عُلِم صلاحُه ، وتقواه ، وورعُه ، وفقهُه السليمُ المدعَّم بالدَّليل الصَّحيح ، والتزامُه المنهجَ الوسط ، بلا تشدُّدٍ ، ولا تساهلٍ ، ونحاول أن نساعدهم في اختيار الصَّديق الخَلوق ، فلا ندعهم يخالطون من هبَّ ، ودبَّ من الأولاد؛ كيلا يتعلّموا الألفاظَ السَّيئةَ ، والأخلاقَ الفاسدةَ ، فيضيعَ بذلك مجهودُنا ، ويتيهون عن الطَّريق السَّويِّ . . ويجب اختيارُ الألعاب المحَفِّزَة للمدارك ، وتجنبُ الألعاب المخالفة للشَّريعة ، والمخرِّبة للعقيدة . . (وسيديَّات) الكمبيوتر الحاوية على موادَّ غير أخلاقيةٍ ، أو مرعبةٍ ، والتي تستهوي الغالبية العظمى من الأطفال ، وتشدُّهم مشاهدتها . ثمَّ يشتكون معاناتهم من شدَّة المخاوف الَّتي تعتريهم عند النَّوم ، وأثناءه من أحلام تجعلهم يخشون النَّوم بسبب تأثيرها على عقولهم الفتيَّة . . وأن نبعدهم ما أمكن عن (الأتاري) وأشباهِه من ألعاب (الكمبيوتر)؛ لأنَّهم سبب الجنوح عن المطالعة . فالقليل والمفيد منهم يكفي ، كي نفتح لهم باب الحوار المفيد . وبروحٍ عاطفيَّةٍ عاليةٍ يجب أن

نخاطب أطفال القرن الواحد والعشرين ذاك الجيل الواعي، ونعلِّمهم الانضباط، والانصياع بالإقناع، لا بالقمع، نعلِّمه كيف يتقرب إلى ربِّ العالمين بالعلم النَّافع، والعمل المتقن، ونعلِّمه معنى الأخوة الإسلاميَّة، ونحثُّه على الكسب الحلال، وكيف يكون خيراً محضاً يمشي على الأرض، وبذا يكون الطِّفل قد تربَّى على الصِّدق، والأمانة، والعفَّة، والاستقامة.. وبذا أضمنُ لكِ سيدتي بأن يصبحَ طفلُكِ نموذجاً رائعاً سائراً على طريق السَّلامة، فيصلُ إلى سِنِّ الرُّشدِ متَّزنَ الشخصيةِ متكاملَ المقوِّماتِ، إنساناً فاضلاً متحضِّراً.. متحلِّياً بالكمالات الإنسانيَّة.. ملتزماً بقوانين الإسلام.. واضِح الهويَّة، والهدف.. سعيداً أبياً، وشامخاً بالانتماء لديننا الراقي، فتكونين قد قدمت أكبر خدمةٍ للمجتمع.. وقد صنعت رجالاً حقاً، لا أشباه رجال.

ولي رجاءٌ حارٌّ جداً. أن يهتمَّ الآباء بتنمية السُّلوك الاجتماعيِّ لأولادهم، من خلال احترام نفسيَّاتهم في التعامل معهم بأخلاقٍ إسلاميَّةٍ.. فنكون مثالاً صالحاً لغريزة التَّقليد الفطرية عند الأولاد لآبائهم.. فلا نحرِّم عليهم أموراً سيئةً، ونبيحها لأنفسنا.. بحجَّة صغر سنِّهم؛ كيلا يصابوا بالعقد النفسيَّة المحزنة! ولا نطلب منهم أكثر من طاقتهم، فالحكمة تقول: «إذا أردت أن تطاع، فاؤمر بما يستطاع» حتى لا نعوِّدهم العناد، والرَّفض لحاجتنا لهم بسهولة، ونكون مثالاً ناجحاً في تنشئة جيلٍ سويِّ السُّلوك.

وأحبُّ أن ألفت نظر الأهل إلى أن يعملوا بين الحين والآخر حفلةً متواضعة، وهادفة، يجمعون فيها أولادهم مع أصدقائهم المختارين بمساعدة الأبوين.. فيلهون معهم، ويفرحون، ويقضون أوقاتاً سعيدةً، وحبَّذا لو أنَّهم يفعلون ذلك أيضاً في شهر مولد نبينا محمَّدٍ ﷺ بديلاً

إيجابياً عن الاحتفالات التَّقليديَّة ، التي عَهِدْنَاهَا من الصِّغر ، ولا يذكر فيها إلا كيفية ولادة سيد الخلق ﷺ دون ذكر الأهم. . ألا وهي سيرة رسالته العظيمة ! لعظيم أثرها على نفوس الأطفال ، وأن يعملوا لهم مسابقاتٍ بإشرافٍ واعٍ ، تذكِّر بأخلاقياته ، وبطولاته ، وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ ، ويوزعوا الهدايا على الفائزين ، كي تكون حافزاً لتحرِّي العلوم المفيدة تهيؤاً لحفلةٍ قادمةٍ بعدها. . ونزيِّن البيت من أجلهم بزينة الأفراح في العيدين الأصليين للمسلمين الفطر ، والأضحى. . كي نعلمهم بأنَّه عيدٌ لعظمة رمضان. . وعيدٌ لعظمة الحجِّ. . ولكي يكون بديلاً إيجابياً وممتعاً عن الاحتفالات بميلادهم وهو في السَّنة مرة ، وبديلاً رائعاً عن إيهامهم بما يسمُّونه (بابا نويل) وهداياه في رأس السَّنة ، وذلك أمتع لهم ، وأصدق! كي نعمل على إبطال جميع العادات المستوردة من الأغراب عن الدِّين. . والمحشوة في رؤوس أطفالنا الأبرياء. . إنَّ كلَّ شكلٍ من أشكال اللَّعب ، والحركة في الأطفال ، إنَّما يُسهم في بناء جانبٍ من جوانب شخصيته ، ليُقدَّمَ إلى المجتمع وقد توافرتْ لديه شخصيةٌ متكاملةُ البناء ، ومن التَّوجيهات المعروفة للشريعة الإسلاميَّة لتوظيف دوافع الحركة واللَّعب توظيفاً هادفاً وبنَّاءً ، أن نعلِّم أولادَنا السِّباحةَ ، والرميَ ، بناءً على هدي نبينا ﷺ الَّذي قال: «**علموا أولادَكم السِّباحةَ ، والرَّميَ**»(١).

والأهمُّ في ذلك الخضم. . أنَّنا مسؤولون أمام أبنائنا يوم القيامة عن إفساد عقيدتهم ، وعدم متابعتنا لأمور دينهم ، وحثِّهم على تنفيذ أوامر الشَّرع ، فماذا نحن فاعلون إذا كُنَّا سبباً في علو شأنه في الدنيا على حساب الآخرة ، حيث صببنا طموحنا ، وأملنا ، واهتمامنا كلَّه على راحته

---

(١) انظره في كشف الخفاء (٢/ ٦٨) والتمييز (١٠٥) والمقاصد الحسنة (٧٠٨).

وسعادته في دنياه، وبنينا له بيت الطِّين، والإسمنت، وحرمناه بيت اللؤلؤ، والياقوت، والمرجان في أخراه، وكنا سبباً في هلاكه؟! حين يأتي كتابه بشماله، ثمَّ يصيح بأعلى صوته: ﴿... يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ۝٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ۝٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩]!!

وحيث يأخذ الأولاد بتلابيب آبائهم، فيقول الولد: لِمَ تركتني على المعصية يا أبي؟! فيا حبَّذا لو أننا استطعنا أن ننقذَ أحبابَ الله من ضرر المخاطر.. ونجنبهم سوء العاقبة في الدَّارين.. بشيءٍ من التَّوازن بين الدُّنيا والدِّين.. وإن لم تفعلوا هذا؛ فلن تفلحوا إذاً أبداً.. فوالله! إنّ هذا لشيء يراد.

* * *

الإيمان الكامل

إلهي! لولا أنَّكَ أعنتنا بحلمك ما عبدناك ، إلهي! لولا أنَّكَ رحَمْتَنا بكتابك ما عرفناك ، إلهي ، لولا أنَّكَ أكرمتنا بأنبيائك ما بلغْنا رضاك ، إلهنا! لولا محبتك للغفران ما أمهلت من يبارزك بالعصيان ، ولولا عفوك وكرمك ما سُكنت الجنان ، ولولا مشيئتك ، وعظمتك ما كنَّا ولا شيء كان ، يا إلهي! شرعت لنا التوبة لصيانة حركة الهداية في الأرض ، وجعلتها مخرجاً لنجاة الإنسان حين تحطُّ به خطيئاته ، فهي صِمَام الأمان حينما تضغط عليه سيئاته ، وجعلت منها تصحيحاً لمسار حياته حينما تضلُّه أهواؤه. إنَّها حبل الله المتين الَّذي ينقذ الإنسان حينما تغرقه زلاَّته ، وجعلت نهرالتَّوبة النَّصوح نهراً يتطهَّر فيه أهل الذُّنوب؛ لتنقذ أحبابك قبل أن يطهِّرهم نهر الجحيم يوم القيامة.

تيقَّنتُ من رحمة ربي ، وأنَّ اللهَ يحبُّ عبادَه ، وأنَّه لم يخلقْهم ليُعذِّبَهم أبداً ، بل خلقهم ليكرمَ مَنْ يسيرُ على منهجه منهم. . وبسبب رحمته لهم أَرسلَ أنبياءَه ورسلَه بالآيات البيِّنات ، وجعل لهم رحمةً أكبرَ ، باباً لولاه لهلك كلُّ إنسانٍ على وجه الأرض ، ألا وهو باب التَّوبة: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤] .

تلك المِمْحاة الَّتي امتنَّ بها الله العفو القديرعلى عباده ليمحوَ بها أكبر

الذنوب، والخطايا: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٥].

فالله يستر عبده مرَّاتٍ ومرَّاتٍ.. ولكن إذا ازداد وتمادى في المعصية؛ يوقفه الله عند حدِّه ببعض البليَّات، والمصائب رحمةً به.. بل إنَّ الله يحبُّ من العبد أن يستغفر من الذُّنوب؛ ليتوب بالتَّالي عليه، وهذا ما أكَّده حديث رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده! لو لم تذنبوا؛ لذهب الله تعالى بكم، ولجاء بقومٍ يذنبون، فيستغفرون الله تعالى، فيغفرُ لهم**»[(١)].

والتَّوبة قائمةٌ لكلِّ مَن يخطئ، حتَّى لا ييأس الإنسان، ولا يُحِسَّ: أنَّه إذا أخطأ، أو نسي؛ أصبح مصيره جهنَّم.. بل يُحِسَّ: أنَّ أبواب السَّماء مفتوحةٌ له دائماً، وأنَّ الله الذي خلقه رحيمٌ به.. وأنَّ هذه المِمْحاة الإلهية حمايةٌ من طغيان اليائس على نفسه، وعلى المجتمع.. فلِلَّهِ كثيرُ الحمد، والشُّكر على حكمته البالغة، ورحمته العالية!

إنَّ الله يمهلنا؛ كي نتدارك أنفسنا، فلا يزال فاتحاً لباب التوبة ما لم تطلع الشَّمس من مغربها.. فيجب أن ننتهز الفرصة قبل أن يأتي ذلك الأمر، وقبل أن تفلت من أيدينا فرصة رجوعنا إلى الله.. إنَّ الكون سيندثر كلُّه وسيأتي ذلك الأمر لا محالة.. والمؤمن الذي كان يتوقَّعه سيقع عليه كلُّ هذا برداً، وسلاماً، وسيقول كما قال العليم الخبير سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٢].

ومن فضائل كرَمِه سبحانه: أنَّهُ منَّ علينا من وسائل التَّنقية الشَّيءَ الكثير، بالاستغفار، والتَّوبة.. وبأوقاتٍ جليلةٍ، وأيامٍ فضيلةٍ، يضاعِف

---

(١) سبق تخريجه.

فيها الأجر، والثَّواب، ويضمن للدَّاعي فيها إجابةَ الدُّعاء.. وفي ذلك قال ﷺ: **«اطلُبوا الخيرَ دهركم كله، وتعرَّضوا لنفحات الله؛ فإن لله نفحاتٍ يصيب بها من يشاء من عباده»**[1].

فمن أجلِّ الأوقات الفضيلة: الثُّلُثُ الأخيرُ من اللَّيل، وبعد صلاة الفريضة.. وساعة وقت الظَّهيرة تبدأ من بعد الأذان، وساعة قبل أذان المغرب.. ومن الأيام: يومُ الجمعة الذي فيه بركةُ ساعةٍ مجابةٍ، والعشرُ الأوائلُ من ذي الحجة، ومن الأسبوع: هنالك كفارات للذنوب: الصَّلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفّارةٌ لما بينَهما إذا اجتُنِبَت الكبائرُ.. ومثل ذلك أيضاً من الشهور: شهرُ رمضانَ المباركُ، الذي توَّجه أيضاً بليلة القدر. ومن السنين: الحج لمن استطاع إليه سبيلاً، وجعل منه المِمْحاة الأم، وتوَّجَهُ بيوم عرفة، ولمن لم يستطعْ أن يحجَّ.. جعل له من العبادة، والأعمال الصَّالحة في العشر الأوائل من ذي الحجة فرصةً لتحصيل الخير الكثير، فإذا كان القلب مع الله، والأمنيةُ مع الحجَّاج؛ فله أجرُ ما تمنَّى.. مع إخلاص النِّيَّة لله ذي الجلال والإكرام، وهاكم من الذِّكر المفيد مثالاً: أن نقول بعد صلاة الصبح والمغرب، وقبل أن نقوم، أو نكلِّمَ أحداً: لا إله إلا الله وحده لا شريك له... إلى نهايتها، عشر مرات، فيمحوَ الله بها عنا عشر سيئات موبقاتٍ برحمته، ويكتبَ لنا فيها عشر حسناتٍ.. وكلُّ حسنة بعشرة أمثالها ويضاعف لمن يشاء فضلاً منه سبحانه، والنَّوم على التوبة من كلِّ ذنب.. والاستغفار مئة وسبعين مرَّةً في السَّحر.. قبل صلاة الفجر، وهنالك من الأدعية، والأذكار المفيدة الشَّيء الكثير ممَّا علَّمَنا نبيُّنا الكريم ﷺ مع الإكثار من الصَّلاة والسَّلام عليه.

---

(١) ذكره الزبيدي في الإتحاف (٥/ ٤٠) عن أبي هريرة.

وأعظمُ من ذلك كلِّه . . أن نتعلم قول: لا إله إلا الله بمعناها الحقيقيِّ ، وأن ندرسها دراسةً . . فلا نقلِّد فيها الآباء ، والأجداد!! يجب ألا نأخذ الدِّين وراثةً . . فكثيرمن المسلمين يقلِّدون أهاليهم؛ ولو علموا: أنَّهم على خطأ! ويرضون أن يكونوا كما وصفهم الواحد الأحد سبحانه بقوله: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾! وقد تحارون فيهديكم القرآن إلى الصَّواب في عبادة المولى تعالى في تتمة الآية حيث: ﴿ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ﴾ [الزخرف: ٢٣ ـ ٢٤]؟!

إنَّ تقليد النَّاس لعادات آبائهم ، ومَن حولَهم من دون علم ، ووعيٍ ، قضيَّةٌ خطيرةٌ في المجتمع الإسلاميِّ . . هذا التقليدُ المتوارَثُ ـ الَّذي هو من أكبر المصائب على ديننا ـ سبَّب تراجعاً في التَّطبيق الصَّحيح للدِّين بسبب الأخطاء المتوارَثَة؛ والدِّين منها بريء ، وآفة إسلامنا اليوم: أنَّه موروث عن الآباء!! فكلمة التَّوحيد هي روح العبادة ، وجوهرها؛ أي: بالعمل الشَّامل بمضمونها ممَّا يجعلها أعظم مِمْحاةٍ لأكبر الذُّنوب ، وأوجبَ سبيلٍ للمغفرة ، ودخول الحصن الحصين ، حيثَ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ١١٦] وكلُّ اتِّباعٍ ، وانقيادٍ لغير الله فهو شركٌ . . وما أكثر الآلهة الَّتي يعبدها النَّاس! فالمال ، والبنون ، والشَّهوات ، والطَّاغوت المتمثِّل في اتِّباع أهواء النفس في جميع أنواع التَّلهِّي المتغلِّبة على العقل هي آلهة أكثر النَّاس قديماً ، وحديثاً ، وليست أصنام الجاهليَّة فقط كما أعلمنا ربنا سبحانه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] .

فيا أمَّة لا إله إلا الله انتبهوا!! فهذا جواب سيدنا الحسن البصريِّ

ـ رحمه الله ـ وإيّانا ـ عندما قيل له: إنَّ أناساً يقولون: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، فقال: بل من قال: لا إله إلا الله؛ فأدّى حقَّها، وفرْضَها؛ دخل الجنة.. فلا يَغُرَّنَّكم بالله الغَرور.. وقال أحد العلماء لمن سأله: أليس مفتاح الجنَّة لا إله إلا الله؟ قال: بلى! ولكن ما من مفتاح إلا وله أسنان.. فإن أتيت بمفتاحٍ له أسنان؛ فتح لك، وإلا لم يُفتح لك. وأسنانه سبعةٌ، وهي: ١ً ـ العلم بمعناها ـ ٢ً ـ اليقين ـ ٣ ـ القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه، ولسانه ـ ٤ً ـ الانقياد لما دلَّت عليه ـ ٥ ـ الصِّدق، وهو أن يقولها صادقاً من قلبه، يواطِئُ قلبُه لسانَه ـ ٦ً ـ الإخلاص: وهو تصفية النِّيَّة عن جميع شوائب الشِّرك، فترك الإخلاص يبطل العبادة ـ ٧ً ـ المحبَّة لهذه الكلمة، ولما اقتضته، ودلَّت عليه.. ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها.. وبُغض ما ناقض ذلك.

وعلامة حبِّ العبد لربه تقديم محابّه؛ وإن خالفت هواه.. وبغض ما يبغض ربّه؛ وإن مال إليه هواه، واتِّباع رسول الله، واقتفاء أثره، وقبول هداه، فمن كان يحبُّ الله، ولم يتَّبع رسوله؛ فهو كاذب، فهذا هو الدَّرب الموصل إلى رحمة الله، وكرمه، ثمَّ نأمل عند اجتيازه بجدارة أن يبلغنا ربُّنا ذو الفضل العظيم واسع جَنَّاته، فالعبادة المخلصة لله هي المعراج الذي يرفعنا إلى عالم الخير بإذنه تعالى.

أترون معي بأنَّه تعالى جدُّ رحيمٍ بنا؟ فكلُّ هذه الأذكار، والأعمال الصَّالحة جعلها مِمْحاةً لآثامنا، وسيِّئاتنا؛ ليغفر لنا ذنوبنا، ويتوب علينا، ما دمنا مخلصي العمل لله، وما ذلك الَّذي ذكرت إلا أمثلةً قليلةً.. نزراً يسيراً من كثيرٍ، وغيضاً من فيضٍ، وصدق رسول الله حينما قال:

«اتَّقِ اللهَ حيثما كنتَ، وأتْبِعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تَمْحُها، وخالقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حسنٍ»[1].

ويجب ألا ننسى: أنَّ اللهَ شديدُ العقابِ.. ولقد تيقنت من شدَّة عقابه، حيث أذاقني منه الكثير وقت تفلُّتي عن طاعته، وكان يرحمُني في نهايةِ كلِّ أمرٍ، فيختمُ عقابَه برحمةٍ، وسِترٍ مذهِلَيْن، ممَّا يجعل كلَّ مَنْ حولي يُدهش من هول ما يرى، ويتساءل: ماذا فعلتْ لربِّها؛ حتَّى كشف عنها بلاءه برحمةٍ عظيمة؟! ولكن للأسف كان على قلبي أقفالٌ شيطانيَّةٌ، وكنت ممَّن وصفهم سبحانه: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢ـ٤٣].

وسأذكر بعض ما ابتلاني ربِّي من مصائب كبيرةٍ، وما واجهته بسببها من معاناة؟! وسأبدأ بفواجع السَّيارة الجديدة التي من شدَّة فرحتي بها استجبت لنصيحة من قال لي: يجب أن تفديها بذبح من الأنعام، وأطعمي منها البائس الفقير.. قرباناً لله كي يحميها لك من الأذى، إلى هنا والأمر لا شبهة فيه من أجل التَّقُّرب إلى الله بالتصدُّق على الفقراء ـ ولكن ليست الذَّبيحة بشرط ـ بل أضافوا من الخزعبلات، وهراء البدع البشريَّة ما تشمَئِز منه نفوس العقلاء، وتهيب منه قلوبُ العارفين بالله؛ إذ قالوا: يجب أن تلطِّخيها والدَّواليب بدم الذَّبيحة! وذلك عين الشِّرك بالله سبحانه!! وبكلِّ صدقٍ أقول: فلم ألبث إلا أياماً حتى جاءني البلاء، وتوالت علي المصائب فيها بأنواع شتَّى من الأذى، والشَّيء العجاب.. حيث كانت تتعرَّض لصدماتٍ، ويتكسَّر أجزاءٌ منها، وهي واقفة داخل المرآب ثمَّ

(١) رواه أحمد (٥/ ١٥٣) والترمذي (١٩٨٧) والدارمي (٢٨٣٣) عن أبي ذر.

يختفي غريمي.. إنَّها النتيجة الحتمية لذلك الشِّرك المبين، ولهذا الجهل!! إلى أن خسرتها نهائياً في أكبر حادثِ سيرٍ أليمٍ حصل معي منذ عهدت القيادة منذ أكثر من عشرين سنة.. وقتما ذهبت مع عددٍ من أفراد عائلتي، ألبِّي دعوة أحد أبنائي إلى أحد المطاعم الفاخرة، حيث أقام من أجلي احتفالاً خاصّاً بمناسبة عيد الأم، فانطلقت أحملهم بسيارتي بسرعةٍ كبيرةٍ كادت تقفز خارج عداد السُّرعة، نترنَّم بنشوة الطَّرب مع (الكاسيت) ومتبرِّجين بأجمل زينةٍ، وأفخر ثياب، وبلحظةٍ خاطفة، (وبِرَمشة) عين انقلبت السَّيارة من جرَّاء صدمةٍ هائلة مع سيارةٍ أخرى.. نزعت أبوابَها، وألقت مَنْ فيها إلى قارعة الطريق! وبدل أن ندخل المطعم، دخلنا المشفى، وبدل أن نأكل الطَّعام اللَّذيذ.. ونتحلَّى (بالتورتة)، ونشرب المشروبات المبردة، كان طعامنا الخوف، والرُّعب.. وتحليتنا الحزن البليغ.. وشرابنا الدِّماء الممزوجة بالألم، كلُّ هذه الأمور حصلت جرَّاء حادثٍ حدث في ثانية، وجعلنا نعاني من جرَّائه أعواماً في غمٍّ، وهمٍّ، وآلامٍ، ولكن على الرَّغم من ذلك، فقد تناسيت كلَّ ما حصل، ومارست حياتي كما اعتدت من قبل، ولكنَ الله كان لي بالمرصاد، ولأنَّه يمهل، ولا يهمل، إليكم ما حصل لي بعد عدَّة أشهر من فعلتي في حادثٍ سابق..

لقد ساقتني يد القدر إلى مصيري، وتجسَّد الانتقام بعدم تقيُّدي بأنظمة السَّير، وبسبب السُّرعة في حادثٍ مروِّع، كان بمثابة إنذارٍ لي، حيث تصادمت سيارتي مع عدَّة سيارات.. فأهابني ذلك، ومن شدَّة ذعري لهول ما حصل أصابني الجبن على غير عادتي، فلم أتمالك أعصابي فسوَّلت لي نفسي الهرب من مكان الحادث، وتركت المتضرِّرين بعضهم يموج في بعض، وتسلَّلت من بينهم، ولذت بالفرار، ثمَّ تواريت عن

الأنظار بدهاءٍ خبيثٍ، فالغاية الآن تبرِّر الوسيلة مع عدم النَّزاهة! وسخَّر لي الشيطان أعواناً ساعدوني على إخفاء جريمتي، وبحنكةٍ مذهلةٍ! وظننت بأنَّ كلَّ شيءٍ ذهب في حال سبيله، ولكن أين لي ذلك من الله الذي عينه لا تغفل عن ظالمٍ، ولا تنام؟! ومكرتُ، ومكر الله، والله خير الماكرين! وهذه الآية مؤكدة ذلك: ﴿ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، وأنّى لحَذِرٍ أن ينجو مِنْ قَدَر؟! لقد كان الانتقام الإلهي لي بالمرصاد، وصار لزاماً علي أن أنال جزائي، ونصيبي من العذاب.. وعلى الباغي تدور الدَّوائر! ففهمت بعد أن عرفت ربي، أن العذابَ هو الرَّحمةُ بعينها؛ لأنه يَجبُر الذَّنب، وأنَّه نداءُ تنبيهٍ بأنَّ الذي آتٍ أعظم ممَّا فات، فقد حقَّ عليَّ قولُه تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢١-٢٢]، فأين تذهبون؟ أفلا تذكرون؟!!

إلهي ما أشد بطشك! وما أسرع انتقامك.. يا الله! وما أحكم عدلك! فحين يسقط الإنسان في معصيةٍ؛ يجب عليه أن يستعيذ برحمة الله من عدله ويقول: اللَّهم بالفضل لا بالعدل، وبالإحسان لا بالميزان، وبالجبر لا بالحساب! لأنَّ عدل الله لا يترك صغيرةً، ولا كبيرةً إلا أحصاها.. مصداقاً لقوله: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨] فالله يمكر لإظهار الحقيقة، والإنسان يمكر لإخفائها.. ومكر الله كلُّه خير، ومكرنا كلُّه شرٌّ.. مكر الله عدلٌ، ومكرنا ظلمٌ.. وعدل الله يجعل المكر السَّيِّئ ينقلب على فاعله..: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦۚ﴾ [فاطر: ٤٣].

لقد أمهلني فقط حتَّى حين، ثمَّ استردَّ مني حقَّ المظلومين بتدبيرٍ عجيب من القدر: ﴿ وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ [النمل: ٥٠ ـ ٥١]؟! ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾.

نعم! وما أصابكم من مصيبةٍ قد أصبتم مثليها! كان ذلك انتقاماً عادلاً اقتصَّ به الله منِّي، ثأراً لأناسٍ كنت قد تسبَّبت لهم بمضرَّة كبيرةٍ، إلهي! إنَّ تفصيل آياتك مطابقٌ لحالتي!.

وهكذا كان الجزاء من العمل نفسه، ولا يظلم ربك أحداً.. فالله يحبُّ عباده، ويؤدِّبُهم بمعرفته، فكان يدعوني إليه برحمته الغامرة عن طريق عذابٍ أدنى؛ كي يقيني شرَّ العذاب الأكبر؛ الَّذي لا يقارن مع أيِّ عذابٍ في الحياة الدنيا مهما عَظُم.. باطنه فيه الرَّحمة، وظاهره من قِبَلِه العذاب.. ولكنَّني ـ وبكلِّ جرأة على مولاي الأعلى ـ أيضاً تناسيت هذه الواقعة بعد فترةٍ وجيزةٍ، وعدت إلى سابق عهدي ظاهرياً، وكأنَّ شيئاً لم يكن، فكان حالي مطابقاً لقول العليم الحكيم سبحانه: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩]! وفعلاً هذا ما كنت عليه بعد كل مصيبةٍ، أو معضلةٍ تعترض سبيلي في الحياة، أدعو ربي، وأتضرَّع إلى الله تعالى كي يكشف الضُّرَّ عنِّي.. ثمَّ أعود، وأنسى نعمته عليَّ بعد نجاتي من كلِّ مصيبةٍ، وأنسب خلاصي منها إلى شطارتي، وإلى مَنْ ساعدني من البشر! وأفخر من دهائي في كل تدبيرٍ! جاحدةً فضل ربي الرَّؤوف الرَّحيم؛ الَّذي قال: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾! [هود: ١٠]، فعاقبني القدر بجرح في قلبي لن يندمل ما بقيت حيَّةً.. وبأَبْلَغِ كيٍّ من النَّدم يصفع خيالي.. كلُّ شيءٍ يذكِّرني بماضٍ أليم.. ولا أجد العزاء لنفسي إلا في الصَّلاة، والدُّعاء، وأعمال البرِّ،

والإحسان ، وتلاوة القرآن؛ الذي يحاورني فيه ربي الرَّحمن ، فتشترك نفسي بالتَّبعية في تلقِّي نصائح خالقها ، وأوامره؛ كيما تستنير بها في حياتها ، وتسير عليها . . فهذا علاج ما اقترفت يداي . . بعد أن تهاونت كثيراً في معصيته . . وعشت في دوَّامة التَّعاسة ، والشَّقاء ، وقد نبَّهنا أصدق القائلين سبحانه محذراً: ﴿ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧] . . و: ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢] .

لذلك قلت ، وأقول دائماً بأنِّي لا أخاف إلا ذنبي ، ولا أخشى إلا عذاب ربِّي ، ولذا أيضاً قلت بأنَّني أُكثر من الصَّدقات ، حتَّى تكون لي عوناً عند ربي المتعال يوم الجزاء . . خاصَّةً ، وأنِّي لا أعرف ممَّن آذيتُهم من جرَّاء ذلك الحادث أحداً أستَسْمِحُه كي أتخلَّص من حقوقهم عليَّ في الحياة الدُّنيا قبل حساب الآخرة!! وذلك لبعد الزَّمن بين جريمتي هذه . . ووقت معرفتي ربي ، علماً بأنِّي سمعت ممَّن ساعدني في إخفاء فعلتي الظَّالمة ، بأنَّهم جميعهم بخيرٍ ، ولم يصبهم إلا بعض الخدوش ـ وبالتَّأكيد رعبٌ هائل من ذاك الصِّدام المفاجئ ـ ولكنَّ ضميري لن يهدأ . . فلا راحة لمذنبٍ أبداً ، ولمَّا توجهت إلى الله بقلبي؛ أعانني على التعويض بأعمالٍ ترضيه عنِّي ، قبل أن تتخَّطفني يد القدر الإلهية بالموت؛ لأنَّ الله لا يريد منَّا إلا أن نتوجَّه بقلوبنا إليه . . ونطلب منه المعونة وحدَه . إلهي! يا خير مُكرِمٍ! ما أرحمك بعبادك! وما أجلَّ حلمك!

لم أكن أعلم بأنَّ الله تعالى يبتلينا بالمصائب؛ ليطهِّرنا من ذنوبنا . . محبَّةً منه لعباده ، كي يذكِّرنا بما خُلِقنا لأجله ، فنؤوب ، ونلتجئ إليه تعالى . . ولم أكن أعلم بأنَّ الله أراد أن يغلَّ يدي عن اقتراف المزيد من المعاصي؛ إذ كنت أنفق الأموال بما لا يرضي رازق المال عزَّ كرَمُه . . وكنت أسرف؛ والله لا يحبُّ المسرفين . . فسلَّط علي محتالاً ليسلبني

أموالي باسم التِّجارة ، ـ ولا يسلِّط الظَّالمُ إلا على الظالم ـ ! ثمَّ ابتلاني بأن سُرق من بيتي كلُّ ما أملك من المجوهرات من الغالي ، والنَّفيس ، والنَّادر الصُّنع ، فابتأست ، وانْهَرْتُ ، وبكيتُ فجعةً على مالي ، وأحلامي منه ، وممَّن سرقني ، وككلٍّ مفجوعٍ لا يعرف الله . . عملت بنصيحة الصَّديقات ، وذهبتُ للكهنة ، والمشعوذين . . وذلك ماكنت أمقت ، وأستنكر فعله طيلة عمري . . (ولكنَّ الغاية تبرِّر الوسيلة!) فلم أوفِّر منهم نوعاً شرقاً ، ولا غرباً! رغم اندهاشي لكثرتهم!!! فما زادوني إلا خسارةً وحيرةً! وأمَّا المولى تعالى؛ فقد أمهلني مدَّة سنتين . . ثمَّ ساق إلي من يخبرني عن السَّارق في عقر داري . . سبحان الله . . وكانت صدمتي يوم عرفته أكبر من مصيبتي بالسَّرقة . . وأصبت بشللٍ عضويٍّ من هول الصَّدمة! وحيث جعل الله من الظَّالم سيفاً يضرب به . . ثمَّ ينتقم منه ، فكان هذا السَّارقُ السيفَ الذي أدَّبني به ربِّي ، ثمَّ شفاني من إصابتي بالشَّلل النِّصفي المؤقَّت . . وردَّ الكرَّة على شريكه الَّذي يسهِّل له السَّرقات ، فانتقم منه شديد الانتقام سبحانه ، وابتلاه بمصيبةٍ سبَّبت له شللاً كلِّيَّاً دائماً مدى الحياة! لأنَّه أنكر فعلته في المحكمة بحلف اليمين كذباً ، وظلمني في مالي ، وأمَّا السارق فقد هرب إلى بلدٍ غريبةٍ تؤوي المجرمين الفارِّين من القانون . . فاحتسبته عند مليكٍ مقتدرٍ يتكفَّل أمره . . وأنَّى له الفرار من الَّذي يمهل ولا يهمل! إنَّه بلا شكٍّ ينتظر دوره من المنتقم الجبَّار سبحانه ، حقاً . . ما أبلغ قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

والمعيشة الضَّنْك: هي عقابٌ من جنس الذَّنب للإنسان الَّذي أراد

الحياة ، والتَّرف ، والنَّعيم على غير هدى الله ، وهرب من أجلهم من عبادته ، وكأنَّ هذه المعيشةَ الضَّنكَ وجبةٌ فطور ، والعشاء آتٍ في النَّـار . . ! !

ولم يخطر في بالي يومـاً: أنَّ ذهاب أموالي الَّتي كنت أحقِّق بها ما يدعِّم شخصيتي المتحرِّرة ما كانت إلا رحمةً من ربِّـي العظيم ، وحبَّـاً شديداً منه سبحانه . . ويريدني أن أتفرَّغ ، وأعود إليه بحبٍّ شديدٍ ! ولم أدْرِ: أنَّ هذه المصيبـة كانت لحكمةٍ بالغـةٍ أراد بهـا تأديبـي . . لأنَّني لم أقُمْ بواجب ما استودع عندي من الأمانة الإلهيَّـة . . فاستِرْدادها منِّي كان بلاءً حسناً قطع به شريان الطُّغيان عن الشَّيطان الَّذي اتَّخذ منها سلاحاً مهلكاً ليجعـلني من أصحـاب السَّعير ، محقِّقـاً بذلك قولـه تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [المُلك : ١٠] . . لأنَّ المال ذو حدَّين ، وكنت أستعمل حـدَّهُ السَّـلبيَّ المهلك . . وعشت سنواتٍ في دائرة البحث عنها ، وبحزنٍ بالغٍ ، أحتضن حقدي على السَّارق ، وأدعو عليه ، ولم أوفر اتِّباع أيِّ مصدرٍ يعيدها إليَّ ، فكنت أدور داخل حلقةٍ مفرغةٍ ، وبلا شكٍّ استعنت بالمسؤولين عن هذا الأمر ، ولكن دون جدوى ، وطال انتظاري ، وحزني؛ لأنَّ فقدان مالي بدَّد من رأسي أحلاماً كثيرةً ، أو على الأقلِّ جمَّدها تفاؤلاً بعودتها ، هذه الأحلام التي لم تتجاوز الاستزادة من التَّـرف ، والتَّفاخر بين الناس ، وجلست على رصيف الأمل لرجوع أموالي كي أعود لحياة الثَّراء والدَّعة ، ومع شديد الأسف ، أنَّني بالرَّغم من ثرائي لم أفكر بفقيـرٍ ، أو محتاجٍ إلا ما ندر ، ولو تذكَّرت: أنَّ هناك مَنْ يحتاج للمساعدة؛ لكنت أسرعت لمساعدته لأنَّني أملك قلباً رقيقاً ، ولكنِّي نسيت ملك الناس . . فسُلِّط عليَّ الشَّيطانُ العدوُّ المضلُّ للإنسان ، فأعمى بصيرتي بملهيات الحياة ، وحجب عنِّي

رؤية ما ينبغي عليَّ فعلهُ، وجعلني أبدد هذه الأموال بلا رادعٍ.

وأمَّا المضحك، والمخجل في هذا الموضوع: أنَّ إحدى قريباتي نصحتني أن أكتب على بابِ منزلي آية الكرسي.. فإنَّها تجعل أموالي في مأمنٍ من السرقة، فكتبتها قبل أسبوع فقط من سرقتها؟! وطبعاً ذلك بديهيٌّ جداً لمن عرف بأنَّ القرآن دستورٌ، يُتَّبَع، ويحفظ في الصُّدور، وذلك هو المراد لعظيم الفوائد، وليس بتمائم حرزٍ يُعلَّق على الأجسام، وفي السَّيارات، وعلى الجدران، ويكتب على الأبواب!! اللّهُمَّ! ألهمنا الصَّواب.

وبما أنَّ نفسي عزفت عن كلِّ شيءٍ يستلزم مالاً.. فليس لي من حاجةٍ إليه الآن إلا لأنفقه في سبيل الله، كي أعوِّض ما فاتني من الخير.. على رأي ابن المقفَّع؛ إذ قال: ما رأيت إسرافاً إلا وبجانبه حقٌّ مضيَّع! فأعانني ربي بفقدان أموالي على صحوتي من الغفلة، ولكي أتفرَّغ لعبادته.. ولم أدركْ ذلك إلا بقبسٍ من نوره.. وبعد أن لُذتُ بجنابه، وعرفت أنَّها الرَّحمة بعينها، تبدَّد حزني، وشفيتُ من الكآبة الَّتي سيطرت عليَّ سنواتٍ.. حقّاً تناسيتها، فصارت كأنَّها شيءٌ لم يكن، وانزاح الكابوس المضني عن كاهلي، وتبدَّلت تلك المشاعر المضنية من كدرٍ وغمٍّ، إلى شعورٍ بسعادةٍ فاقت كلَّ وصفٍ، إنَّه حبُّ الله العليِّ الكبير.. فلن أجعل المعاصي وذكرى مساوئها حائلاً بيني وبين مَنْ أحببت أبداً.. وليس أعظمُ من الرُّجوع إليه إلا تحصيل رضاه.. ولم يبقَ إلاّ حسرتي على سوء استعمالي لهذا المال، وحرمان الفقير حقَّهُ منه، أسأل الخبير البصير سبحانه أن يردَّ عليَّ أموالي، ويجعلني من المنفقين لها في سبيله.. فما زلت آمل عودتها إلي حتَّى كتابة هذه السطور طمعاً في ربِّي؛ الَّذي قال:

﴿ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧٠].

فبالرَّغم من أنَّني أدركت حكمة العقاب النَّفسيِّ، والماديِّ الذي عوقِبْتُ به، وآمنتُ بالهدف منه، وأنَّه القدر.. وأنَّ الله قدَّرَ، وما شاء فعل، وقد أصبح إيماني بالقدر كبيراً بعد أن عرفت خالقه، فكلُّ ما يدور حولي من أحداثٍ أَكِلُهُ إلى الله، لأنَّه صانع القدر.. فأوجَد عندي العزاء لنفسي قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [التوبة: ٥١].. فأريح نفسي من أمرٍ مُسَلَّمٍ به، ولكن غيرُ المُسَلَّمِ به هو استخدام العقل فيما لا يُعقل فعله، حيث أصابني بسبب أعمالي غير العاقلة شديدُ العقابِ ومرُّ العذاب! وما زالت تجعلني أزفر الآهات.. وتبكي عيوني الأسف لما مضى.. وتتقطَّع أفئدتي على ما فات وانتهى! وبدا لي أنَّه لا فكاك من ذلك العذاب إلى الممات.. فأصبح وكلُّ رجائي غفرانُ الذُّنوب، ورضا علام الغيوب، وصرت حذرةً من الوقوع في ذلِّ المعصية.. نعم.. إنَّه فعلاً مهانةٌ وذلٌّ، وأيُّ ذلٍّ؟! مما جعلني أخشى أن أقترف أدنى ذنبٍ علَّه يكون في نظري لاشيء، ويكون عند الله عظيم.. فيكون حجاباً بيني وبين حسن الخاتمة وزيادة الشَّقاء! فأحاسبُ نفسي على كلِّ هفوةٍ في تصرُّفاتي رحمةً بنفسي.. فكفاني شقاء! حتَّى الشَّوكةُ إذا شاكتني أعتبرها تنبيهاً رَحمانياً عن ذنبٍ أصبتُه دون انتباه، وفعلاً بعد أن أبحث في أعمالي، فأجدُ فيها ما يوجب ذلك التَّنبيه، حيث يرحمني سبحانه بأنْ أُصابَ بجرحٍ بسيط في يدي، أو حرقٍ طفيف في بعض جسمي أثناء الطَّهي، أو من المكواة؛ لأذَّكَّر، وأتنبَّه لخطئي، وما أكثر الأخطاء والمخالفات الشَّرعية! فهي لا تنتهي، وكأنَّها أمرٌ حتمٌ.. و﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء: ١٢٣] فأتمنَّى أن تحسب عليَّ

من اللَّمم عسى الله أن يغفرها ، فأستغفرُ الله ، وأتوبُ إليه في كلٍّ هفوة أقوم بها ، حتى لا تتجمع سيئاتي ، فتدخلني في عذاب الدَّارين ! وأعوذ برضاهُ من سخَطِه ، وبمعافاته من عقوبته! خوفاً من عقابه الَّذي أذاقني ، والَّذي به يكمن سِرُّ رحمته بعباده ، يخوِّفُهم نفسَه؛ كي ينجيَهم من أن يَحِقَّ القولُ عليهم بعذابهم ، ويحثَّهم على التَّوبة حتَّى تحقَّ لهم رحمتُه ، وغفرانُه ، وصار يدهشني أناساً يبتليهم المولى بمصائب كبيرةٍ ، ومتتاليةٍ؛ كي يحاسبوا أنفسهم ، وعن الذَّنب يرجعون. . إلا أنَّهم ما زالوا للآثام فاعلون ، وعن العدول هم ساهون ، وفي الغيِّ تائهون ، وهم في غمرتهم يَعمَهون ، وعن التوبة عَمُون ، والكثير منهم في الغفلة نائمون ، فيا ليت أولئك النَّاس يَعُون ، ذهبت الأماني وحلَّت المنون ، وإنَّا إلى ربنا لمنقلبون ، أفلا يتذكَّرون !؟ عافاهم الله من هذه المعضلة الخطيرة الَّتي فيها غارقون ، وإيَّانا أجمعين.

إلهي ما أَحلمك على عبادك! إذ تغفر لهم بعد التَّوبة مهما أَسَاؤوا ، ثم تكرمهم بهداك ، لأنَّه لا منجى ، ولا ملجأ منك إلا إليك ، و سُبْحانَك إذ قلت: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه: ١٢٣] .

❊ ❊ ❊

هديتي الغالية مِنَ الله

لقد مَنَّ عليَّ ربي الكريم بأن استجاب لدعائي المُلِحِّ ، ودعاني خير المكرمين إلى زيارة بيته المُكرَّم ، ونلت أعظم هديةٍ يحلُم بها عبدٌ من ربِّه . . وهي شرف الحجِّ ، ويا لها من فرحة غامرة أَخذتْ لُبّي ! . وسَحَر ناظريَّ ذلك المشهدُ الذي كثيراً ما كنتُ أراه على شاشة التلفاز من صور إيمانَيّةٍ رائعةٍ ؛ مشهدُ الكعبة المشرَّفة يطوف مِن حولها جماهيرُ النَّاس ، وكنت أقف مشدوهةً أمام ذلك المشهد المثير لدموع الشَّوق ، والرَّجاء ، فأدعو الله بأن يأذنَ لي بزيارة ذلك المكان المقدَّس ، وأنا أهنِّئ أولئك النَّاس على تلك النِّعمة الَّتي أتمنَّاها ، فهاأنذا أقف الآن شخصياً أنظر إلى الكعبة المشرَّفة ، أكاد لا أصدق ما أرى على أرض الواقع ، ويا لها من دهشةٍ بالغةٍ انتابتني من روعة المشهد ، وقفت فترةً وأنا مذهولةً أمام هيبتها . . مأخوذة اللُّبِّ ، والجوارح ، فشخص لها بصري ، واستشعرتُ عظمة الله كما لم أستشعرها طوال حياتي ، وأخذت نفسي تسمو وتتسامى ، وتنغمس مستغرقةً في لُجَج الجمال ، والكمال الإلهيِّ . . فتتوهَّج شعلةُ الإيمان فيها ، وتهيِّجها ، فتشعر وكأنَّها كُسِيَت بجناحين لتعرج في معارج القدُس . . وقد شاقتها إلى لقاء الجلال الإلهي ! فتسمَّرت

قدماي على الأرض. . ولم أعد أقوى على السَّير ، فركبتاي ترتجفان. . تكاد الأرض أن تميد بي فأقع. . من رهبةٍ اعترتني كادت تصهر كياني ، وتذوب منها أَوصالي من خشية الله. . وبرحمة ربِّي تشملني ، تغلف مشاعري ، وقد تعثر لساني ، وخانتني ذاكرتي في دعاء الاستقبال. . إلا أنَّني تمالكت نفسي حتَّى لا أفوِّت عليها أكبر فائدة للحاجِّ ، والحقَّ أقول ، وبشهادةٍ من حضرة المولى تعالى. . إنَّ أعظم لحظة يعيشها العبد في حياته كلِّها عندما يشاهد القبلة المشرَّفة لأوَّل وهلةٍ.

لم أتأكدْ من محبَّة ربي لي إلا وأنا أطوف حول بيته المحرَّم؛ إذ أفاض عليَّ مِن برِّه ، وكرمه ، حيث يكاد قلبي يقفز من مكانه من شدَّة الفرح ، لأنَّني واثقةٌ من أنَّ الله لم يَدْعُني إلى باب رحمته إلا ليغفرَ لي ، وكم طال عليَّ أمدُ الوصول إلى هذا المكان المعظَّم؛ الَّذي حلمت به مذ عرفت ربِّي ، فكنت أدعو الله في كلِّ وقتٍ ، وموضع علمت بأنَّه فاضلٌ أن يدعوَني لزيارة بيته الحرام ، ليُكَفِّرَ عنِّي سيِّئاتي ويخلِّصَني من ثقل ذنوبي ، وأوزاري ، وأن يكتب لي حجّاً مبروراً ، لا أبتغي منه سوى غفران ذنبي؛ الَّذي أقَضَّ مضجعي سنواتٍ ، والَّذي طالما أبكاني بحرقة الخائف ، والنَّادم على ما فرطت من عمري هدراً ، فها أنذا أتيت بيت الله الكريم أحطُّ في عتبته ما أنقض ظهري من الأثقال ، والأحمال ، الَّتي طالما أرهقني حملُها ، وآلمتني ذكراها ، وحسرات النَّدم من فعلها ، طامعةً بما خصَّ اللهُ ضيوفَ بيته ، حيث وعدهم بعفوٍ ليس بعده إلا الجنَّة ، جائزةً منه لمن التزم بمناسك الحجِّ على أصولها ، وجاء البيت الحرام بشوقٍ كبيرٍ خالصاً لوجه ربِّه الكريم ، راجياً مغفرةً شاملةً ، وهو العليم الخبير بذات الصُّدور ، ومن ذا الذي لا يطمع برحمة ربه ، وعفوه ؟!

حمداً لك يا ربي! يا مجيبَ دعاء عبادك! حمدي، وشكري، وامتناني لك يا مولاي! شكراً أترجمه بالعمل الجادِّ، والمخلص في جميع ما أمرتني.. ويا ليتني أعلم ما هو أعظم من ذلك كي يكونَ أبلغَ في التعبير عن اعترافي بمنَّتِكَ عليَّ! لقد رحمتني بزيارة بيتك المعظم بعد أملٍ، وشوقٍ كبيرين داما ثلاث سنين حسبتهم دهراً، وأذِنتَ لي بأن أُلقي بخطاياي، وأوزاري على عتبة بابك، حيث هدأتْ نفسي، وغمر الارتياح كياني، وسكنت الطُّمأنينة قلبي.. ويالهُ من شعورٍ رائعٍ عظيمٍ أن يشعر الإنسان بأنَّه خُلِقَ من جديدٍ مُبَرَّأً من خطاياهُ الكريهةِ، وأنَّ صحيفةَ أعمالِه صارت بيضاءَ نقيَّةً، إيماناً بقول رسول الله ﷺ: **«من حجَّ فلم يَرفُثْ ولم يَفسُقْ؛ رجَعَ كيومِ ولَدَتْه أمُّه»**[1].

ولله الحمد، وهو أصدق القائلين. ما هذه النِّعمة الإلهية؟! ما هذه الرَّحمة العالية يا إلهي! لقد فزتُ بكرمك يا إلهي! إلهي! قد عشقت منهجك.. ويا إلهي! كم أرغب في طاعتك، بك أخطب ودّك بعد أن توضَّعَ في كياني حبُّك! إلهي كم أحبُّ ذلِّي بين يديك.. وكم أفرح بعبادتك بعد أن استقمت على أمرك.. وبعت نفسي وقلبي لك.. وأجهد في عمل الصَّالحات ابتغاء مرضاتك.

يا إلهي! كم تسعدني هيمنتك على مشاعري، فأنا أحمدك بجميع المَحامِد التي تليق بعظمة جلالِك يا إلهي! سبحانَك فتحتَ لي أبوابَ فضلك، وأدخلتني في رحمتك، وقبلتني بعفوك، وأكرمتني بتوبتك، ولأنَّك تحبُّ التائبين من عبادك.. منحتني فضلك، ودعوتني إلى رحاب

(١) رواه البخاري (١٥٢١) ومسلم (١٣٥٠) عن أبي هريرة.

بيتك ، فلا تحرمني لذَّة الإيمان بك . . بعد أن ذقت جحيم الكفران يا مولاي! يا رحمن! .

إلهي ، ما أبلغ حِلمك ، وحنانك على عبادك يا خير العافين! وإنَّني لفخورة كلَّ الفخر ، ومعتزَّة كلَّ الاعتزاز بأنَّك إلهي . . يا إلهي!

* * *

رحلتي إلى الحجِّ

لا أخفي عليكِ أختي المسلمةَ بأنِّي حقَّقتُ حجّاً مبروراً بإذن الله ، وعونه ، فقد عملتُ بتوصية أستاذي عالم الدِّين ، فكنت ضيفةً مؤدَّبةً حقَّ الأدب في زيارة مولاها الجليل ، وتخلَّصتُ من شوائب النَّفس والأعمال قبل السَّفر إلى بيت الله ، فتسامحتُ مع جميع الأهل ، والمعارف ، حتَّى لم يعد يشغل بالي من مشاكلهم شيء ، وبرَّأت ذمَّتي من كلِّ ما عليَّ من ذِممٍ ، وأمانات ، ضئيلِها ، وكبيرِها ، حتَّى الكتابُ الذي كنت قد استعرته من إحدى قريباتي رددتُه لها ، لأنَّه أمانةٌ عندي ، وكتبتُ وصيَّتي ، وتأهَّبتُ للرَّحيل بأتمِّ الاستعداد ، وبذلت أقصى جهدي لكي أنفِّذَ مناسك الحجِّ على أصولها ، وبحذافيرها ، وألاَّ أجعلَ حجِّي إلا ابتغاءَ مرضاة الله . . فأعانني ربِّي على ألاَّ ألتفت إلا لعبادته ، وتحصيل الخيرات في ضيافته ، وهو الجواد الكريم ، فلم تأخذني عنها بضاعةٌ ، ولم تلهني المشتريات من الأسواق ، كدأب أغلبية الحجَّاج ، كيلا أضيِّعَ لحظةً في أمور الدُّنيا ، ومشاغلها ، وحتَّى لا أفرِّطَ بالوقت الثَّمين ، بل أستغله كي أشبع نهمي في التزوُّد من سخاء ربِّي عزَّ وجلَّ ، فأنا فقيرةٌ بائسةٌ على باب مولاها ، جاءته محتاجةً لكرَمِهِ ، راجيةً تجارةً لا تبور ، تكون رصيداً نافعاً

ليومٍ لا ينفع فيه مالٌ ، ولا بنون ، عند ربٍّ رؤوفٍ حنون. وجعلت من دعائي لله في كلِّ فرصة متاحة لاستجابة الدُّعاء في ذلك المكان الطَّاهر رمزاً رائعاً لمحبَّتي لجميع أقربائي ، وبديلاً بالغاً ينوب عن الهدايا المادِّيَّة والدُّنيويَّة لكلِّ فردٍ منهم ، وقد كنت أعلنت لهم قبل سفري بأنَّني سأعمل بوصية أستاذ الدِّين الَّذي علَّمني بألاَّ أتحوَّل مِن حاجَّةٍ متعبِّدةٍ ، إلى إنسانة منشغلة بشراء الهدايا ، والمشتهيات ، والمغريات ، فنفَّذتُ بذلك وصية شيخي ، فحافظت على أن يكون حجِّي لله فقط ، وكم شاهدت ، وسمعت أغلاطاً ممَّن كانوا حولي في الحجِّ ، كادت تفقدني صوابي. . وهذا سبب ما جعلني أنوِّه عن أخطاء بعض الناس هناك لعلِّي أفيد بذلك من يهمُّه هذا الأمر.

لم أتخيَّل ، ولم أصدِّق أن يكون هناك حجَّاج ليس لهم حديث إلا عن البضائع ، وأسعارها ، وشراء الكثير ، الكثير منها. . يقضون معظم اللَّيل ساهرين في الأسواق من أجل التزوُّد من متاع الدُّنيا ، ثمَّ تدخل النِّساء علينا في غرفتنا المشتركة بضجيجٍ وجلبةٍ مزعجةٍ. . وكم كنت حزينةً من أجلهم ، لِما أسرفوا في شراء الهدايا ، وأضاعوا من الوقت الثَّمين الذي كان من الممكن أن يستثمروه فيما هو أهمُّ ، وأعظم ، ألا وهو تحصيل المزيد من خيرات مولاهُم ، وتجنُّب الجدال أثناء عملية الشِّراء حيث أُمِرنا ألاَّ جدال في الحجِّ. . لقد سنحت فرصةٌ نادرةٌ لنا بفضل الله تعالى قد تكون الأخيرةَ في حياتنا ، فكيف نضيِّعُ دقيقةَ عطاء إلهيٍّ يمكن ألا تتكرر ، ولا تعوَّض. . كيف يستطيع إنسانٌ أن يشعر بالشِّبع ، أو الاكتفاء من الكنوز ، والغنائم التي دُعيَ لهم من الدَّاعي العظيم سبحانه ، وهو الذي لا يشبعه شيءٌ من خيرات الدُّنيا.

والأخزى من ذلك: أنَّ بعضهم. . رجالاً ، ونساءً. . غلبتْ عليهم

عاداتُهم السَّيئةُ ، فنَسُوا ذِكرَهم ، وأخذوا يتفكَّهون بما حرَّم الله ، وينتهكون حرمته ، ويعصونه في حرمه ، وأحاديث الباطل من غيبةٍ ، ونميمةٍ ، وسخريةٍ ، ويتداولون النكاتِ المخجلةَ ، زعماً منهم أنَّهم يخفِّفون مشقَّة الحجِّ ، وهم في واقع الأمر يُذهبون هيبته ، حيث يقهقهون بصوت مرتفع ، وكانوا للأسف كثيرين. . فيُحدِثون ضوضاء تزعجني أنا ، والأقلِّيَّة الباقية من المجموعة ممَّن جاؤوا ليحجُّوا ، لا ليتفسَّحوا ، ويوقظنا ضجيجهم كلَّ ليلةٍ من النَّوم القليل الذي نحن بأمسِّ الحاجة إليه؛ كي نتقوى به على العبادة؛ الَّتي لم يكن مجيئنا إلا من أجلها! وعلى الرَّغم من نصيحتي المتكرِّرة لهم ـ مع حرصي الشَّديد على عدم الجدال ـ إلا أنَّني كنت أنفِّذ أمر الله بإزالة المنكر ، عبر تذكيرِهم بحرمة ما يفعلون ، ولكن دون جدوى! وكلَّما لفتُّ نظرهنَّ لخطورة الأمر ، بأنَّه في ذلك المكان المقدَّس تكون الحسنة بمئة ألف ، وكذلك السَّيِّئة!! كنَّ يقدِّمن لي التبريرات حول الغيبة المتداولة بينهنَّ ، وكأنَّني أنا التي ستحاسبهنَّ ، وكأنَّهنَّ ضيوفٌ في بيتي! فلم أكن أُعِرهنَّ أذناً صاغيةً؛ لأنه لا وقت لديَّ هناك لمثل هذا ، ولحرمة المشاركة في الاستماع للغيبة. . لقد كنت منشغلةً بتلاوة القرآن الكريم ، والصَّلاة الَّتي كنت عبثاً أحاول أن أجعلها خاشعةً لله ، لأنهنَّ كنَّ يرغمني على سماع كلامهنَّ ، وأصواتهنَّ على مسامعي ، ممَّا جعلني أبكي حزناً عليهنَّ ، وعلى نفسي ، حيث جعلهنَّ قدري يرافقنني ، فأيَّ حجٍّ أراد هؤلاء ، وأيُّ تعظيمٍ لشعائر الله عندهم! أين حرمة الزَّمان ، والمكان في قلوب هؤلاء ، والله تعالى يقول: ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ ؟!.

وهداني تفكيري إلى أنَّ الله أحكم الحاكمين وضعني أمام امتحانٍ ، وعينه سبحانه ترى كيف سأواجه بلاءه! فأخذت أصرفهنَّ عن تلك

المعصية بتشجيعهنَّ على الصَّلاة ، والتَّسبيح ، والدُّعاء ، ليكسبن خير الدَّارين ، فقد كان أكثرهنَّ أمِّيَّات لا يستطعن تلاوة القرآن ، ثمَّ أجلس معهنَّ أدعو الله ، وهم يؤمِّنون على الدُّعاء ، ولكن سرعان ما يرجعن إلى متعتهنَّ الشَّيطانية بعد الانتهاء ، ويتشاغلون بها عن الإنصات ! فأعود لإلهائهنَّ من جديد بذكر الله ، وقراءة بعض تفاسير كتابه الكريم ، وهكذا لم يكن يردعهنَّ أيُّ شيءٍ عن عاداتهنَّ المحزنة.. بذلك البلاء العظيم... !

ومن عجائبهم الَّتي يستنكرها أيُّ عاقلٍ متَّزنٍ: أنَّ ذلك تكرَّر يوم عرفات ، بل زاد الأمر سوءاً بمشاركة أزواجهنَّ لهنَّ في اغتياب النَّاس! والكلُّ يعلم بأنَّ الحجَّ عرفة!! بل تفتحَتْ قريحتُهم بما لا يليق بقدسية المكان ، دون استحياءٍ ممَّن حولَهم. . يلتهمون أنواع الطَّعام ، ويتفكَّهون بالأحاديث المخجلة ، والمكروهة! وكأنَّهم في منتزهٍ ، والنِّسوة من حولهم ، حيث جمعونا في خيمةٍ واحدةٍ ومن دون حاجز يفصل بين الرِّجال والنِّساء ، فكانت الجلسة مختلطةً ممَّا جعلني أبكي خوفاً من غضب الله من ذلك الوضع الخاطئ الذي لم يشعرْهُم بالخجل منه ، حيث يكون في ذلك المكان متجلِّياً بجلال عظمته على الحجَّاج ، والمضحك المخزي في آنٍ واحدٍ: أنَّهم أخذوا يمنُّون أنفسهم بأطعمةٍ شعروا بأنَّهم ظلموا أنفسهم بعدم جلبها! فتاقت أنفسهم شوقاً لها ، وتعاهدوا مع بعضهم بألا يعودوا لمثل هذا الخطأ الفادح في المرَّة القادمة. . والأعجب من ذلك أنَّهم يغتابون النَّاس ، ويضحكون بطريقة اللامبالاة والسَّذاجة المقزِّزة للنَّفس ، وغلب عليهم استهتارهم ، فتكشفت عوراتُهم بسبب الحرِّ! ممَّا تشمئز منه النفوس ، ويدمي القلبَ حزناً عليهم ، وحسرةً على خسارتهم ، وأسفاً على حجب الفرصة عمَّن أراد الحجَّ غيرَهم! ولم

يستجيبوا لنصيحتي الَّتي سبَّبَتْ غضبَهم منِّي، وزادتهم إثماً باغتيابي!! وذلك أكثر ما كنت أخاف عليهم منه، وعكسُ ما نويت لهم، فما كان منِّي بعد ذلك إلا أن تركتُ، وأقربائي المكان لمن فيه، وانسحبنا بصمتٍ حامدين الله تعالى على أنَّه قال: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [فاطر: ١٨].. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]! إذ التحقنا بخيمةٍ أخرى أفضل شأناً بكثيرٍ، وكانوا هناك يقومون بالعبادة على أحسن ما يرام، جاعلين حاجزاً يفصل بين الرِّجال، والنِّساء، على الأقل في هذا المكان المقدَّس تأدُّباً مع مولاهم، جزاهم الله خيراً حيث أراحونا ممَّن تمكنت منهم عاداتُهم السَّيِّئة، فسبَّبوا الأذى لهم، ولمن شاركهم، وأنستهم فضل الله عليهم بفرصة الرُّجوع إليه، والتَّوبة ممَّا كانوا عليه! يا إلهي! لا أصدق كيف للحاجِّ أن يتناسى حرمة هذا المكان المقدَّس، فيتلهّى فيه بلا تأدُّب!! كيف يجرؤ على نسيان قدسية الهدف من الزِّيارة، بتحوُّله إلى أمور الدُّنيا التَّافهة، وقد كان ينبغي عليه أن يخلعها من ذهنه قبل أن يلبس ثياب الإحرام، ولا ينسى: أنَّه ضيف الرَّحمن، ربنا العلي القدير، كيف هذا وباب الرحمة والكرم مفتوح على مصراعيه لكلِّ عبدٍ أوَّابٍ أتى إلى ربٍّ جوادٍ معطاء، فيحرم نفسه من أن تنهَلَ من ذلك الخير؛ الذي مهما فاض، وكثر؛ فالإنسان لكثرة أخطائه، وذنوبه يحتاج إلى الأكثر، والذي من أجله ارتحلنا إليه، وكيف نسوا: أن على الضَّيف حُسْنَ الأدب مع المُضيف.. وبسبب جهلهم غرَّهم بربهم الغَرور، وهم ينتهكون حُرماته! وأنَّهم بذلك عادوا من الحجِّ بعاداتهم السيئة، كما جاؤوا إليه بها.. ولم يتَسَنَّ لهم فائدة الانسلاخ منها، ومن أوزارها. لأنهم لم يدربوا أنفسهم على حسن الأخلاق، لا مع الله ولا مع الناس، قبل أن يفكِّروا بأن يحجُّوا، اللّهم غفرانك!

ومن الجدير بالذِّكر.. حقيقةٌ يجهلها الكثيرُ من النَّاس، ولا يؤمن بها إلا القليل منهم.. حيث يعتقدون بأنَّ الحجَّ يبدأ في مكَّة! كلا.. فإن الحجَّ يبدأ منذ اللحظة الَّتي يقررون فيها الذَّهاب إلى مكَّة لأداء الحجِّ، ومن شدَّة جهلهم يحضِّرون قائمة المشتريات المطلوبة من أجل الأهل، والمعارف مع نيَّة السَّفر، ولا ينتبهون إلى أنَّهم بذلك الفعل قد توجَّهوا للسَّفر إلى بيت الله بنيَّة التَّسوّق الَّتي سبقت نيَّةَ الإحرام! ناسين: أنَّ لكل امرئ ما نوى.. وبأنَّ ذلك أيضاً قد يسببُ لهم الخوضَ في المحظور، من ارتكابٍ للأخطاء المخالفة لتعاليم الحجِّ، كالجدال وغيره.. هذا إذا اقتنع الحاجُّ بذلك أولاً.. ولم أتوصل إلى إقناعهم أيضاً حين لفتُّ نظرَهم إلى تحوُّلهم من حجَّاج إلى متسوِّقين بتلك النِّيَّة.. مع العلم بأنَّه لا يلزم الحاجَّ هذا العناء في جلب الهدايا.. فهو يستطيع أن يشتري معظم ما يريد شراءه من بلده، المتوافر فيها كلُّ شيءٍ، قبل السَّفر، ويقدِّمها لأصحابها حين عودته.. ولو ترى عينٌ؛ إذ ترى، كم تحمَّلوا هؤلاء من مشقَّةٍ في نقل المشتريات، والهدايا إلى بلادهم، وكم تسبَّبوا في عرقلة حركة السَّفر في المطار، وفي وسائل النَّقل الأخرى! كلٌّ منهم أتى بحقيبة واحدةٍ وعاد بثلاثةٍ، أو أكثر! وأصبحوا يتدافعون من أجل الوزن، فحصل من جرَّاء ذلك مهاتراتٌ، وسبابٌ!! ما لا يصدِّقه عقلٌ.. وكأنَّهم بذلك استكثروا على أنفسهم فضل صفة الحاجِّ الحقِّ، واكتفوا بالاسم بسبب الجهل الذي جعلهم في غَمرتهم ساهين، وبفرحٍ كبيرٍ مؤسفٍ واهمين: أنَّهم أصبحوا «حجَّاجاً»، وتحقُّ لهم التهنئة المعهودة (حجَّاً مبروراً، وسعياً مشكوراً)، وكان ذلك مبلغ همِّهم، والله أعلم بمرادهم.. حيث قالت لي إحداهنَّ بعد أن انتهينا من المناسك، وكانت من المشاغبات: الآن صرنا حجَّاجاً، صحيحٌ أننَّا ثرثرنا كثيراً، ولكنَّا تعبَّدنا كثيراً! أين هم من ذلك يا ترى؟!

فالله أعلم بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ، وكفى به سميعاً بصيراً ، ليتهم تعلَّموا قبل أن يحجُّوا ، فهناك تباينٌ واضحٌ كبير بين أهدافهم وتصرُّفاتهم. . وكلُّ امرئ بما كسب رهين. . وذلك ما جعلني أحمد الله كثيراً على نصيحة شيخي العظيمة ، والَّتي لَمَستُ أهمِّيتها عندما شاهدتْ عيني ، وسمعت أذني ما يُذهل العاقل ، ويدمي القلب. . جزى الله عنِّي من أسدى إليَّ هذه النَّصيحة الفاضلة ، وأمثاله ما هو أهله. . أدعو الله أن يكتب لكم زيارة بيته المقدس ، وألاَّ يحرِمَها أحداً من عباده المسلمين ، ليُغفرَ لنا جميعاً. . ربِّ اغفر ، وارحم ، وأنت الغفور الرَّحيم.

لذلك يا إخوتي في الله! الَّذين لا يدركون معنى الحج. . أرجوكم بأن تتعلَّموا آداب الحجِّ جيِّداً إن كتب الله لكم حجَّاً. . كي تجعلوه حجَّاً مبروراً ، فأعدُّوا أنفسكم قبل ذهابكم الإعداد اللائق بذلك اللِّقاء ، كي تنزلوا ضيوفاً على ربٍّ كريمٍ يهب الجزيل على القليل ، ويجزي الصَّادقين بصدقهم! ولتعودوا إلى بلدكم أرقى حالاً ممَّا ذهبتم ، وقد فزتم بأحسن غنيمةٍ. . وثمرة الحجِّ الصَّحيح هي التَّقوى. . ولكلٍّ درجاتٌ مما عملوا. . ! ولن يحصلَ ذلك إلا بتوسيع المدارك بالعلم ، والدَّأب على تحصيله حيث لا نهاية له ، والتَّعوُّد على العمل به ، طبعاً إلى جانب الالتزام بأوامر الله ، والابتعاد عن نواهيه كيلا تندموا بعد فوات الأوان ، حيث لا ينفع النَّدم ، وكم من حاجٍّ يشتكي بعد عودته عدم سلامة تطبيقه للمناسك ، ويبقى طوال حياته يتحسَّر ندماً على قلَّة علمه ، وحقِّقوا العمل بنصيحة أهل الخبرة من علماء الدِّين. . ولا تبالوا بإرضاء النَّاس مهما كبر شأنهم عندكم ، فرضاء اللهِ هو الأهمُّ ، وتحصيلُكم الفائدةَ لأنفسكم هي الأَولى. . فيا أخي المسلم ! ويا أختي المسلمة ! . تسلَّحوا بالعلم ،

وتغلَّبوا على موانع التعلُّم مهما بلغت صعوبة ذلك ، وبكلِّ عزيمةٍ وَجِـدٍّ . . فأوَّل كلمةٍ نزلت على سيِّـد الخلق ﷺ : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق: ١] ، وذلك تكريمٌ ، وتعظيمٌ للقراءة والعلم ، قال تعالى : ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩] ، وقد جاء الأمر بالعلم قبل الأمر بالصَّلاة ، فلا عذر إذاً عند الله للجاهل مهما بلغت أهمية مشاغله ، ولأنَّ الجهلَ كريهٌ ومفسدٌ لكلِّ شيءٍ ، والله لا يحبُّ المفسدين! وإليكم ما جعلني أقول ذلك .

هناك ونحن على جبل عرفات قام بعض الحجَّاج بأعمالٍ جاهلةٍ ، كادت تفسد عليهم حجَّهم كلَّه! هذا إن لم تكن أفسدتها فعلاً ، وأوجبت غضب الله عليهم!! فالله أعلم . . فقد أخذوا يضعون خصلةً من شعر أحد أقاربهم ، أوصاهم أن يضعوها فوق شجرةٍ ، حتَّى يتسنَّى له بذلك المجيء إلى هذا المكان في العام القادم!!! وكانت الشَّجرة ذات أوراق معطَّرة ، وهم مُحرِمون! فوجب عليهم الهدي كما أفتى لهم شيخ القافلة ، وبأنَّ عليهم التَّوبة إلى الله تعالى ممَّا أشركوا به ، بجهلهم لأمور العقيدة . . وآخرون أتوا بصور ليدفنوها تحت التراب في جبل عرفات للسَّبب نفسه!! وإن نسيت فلن أنسى بكاء فاعلها ، وهو ينتحب لجهله المقيت . . ما هذه المحدَثات أيُّها المسلمون؟! وما هذه البدع ، ولماذا؟؟ أين المعرفة بتوحيد الله؟! .

والأمر الثاني : عندما كنَّا في المدينة المنوَّرة ، وفي حرم النَّبيِّ ﷺ ، كانت النِّسوة تتمسَّح بالجدران ، والحديد حول قبر سيدنا النبي ﷺ ، وتتدافع بشكلٍ مستميتٍ للحصول على لمسةٍ منها!! والمتطوِّعات المخصَّصات لهذا الشان ، يدفعنهنَّ ليمنعن بدعة الشِّرك هذه ! الَّتي كثيراً

ما تتسبب بالفوضى ، والأذى لبقيَّة الحاجَّات ، فقد رأيت حاجَّةً تُنقَل إلى المشفى بعد أن وقع فوقها عددٌ من النِّساء بسبب التَّزاحم الشديد ، فكُسِرت يدُها . . ورأيت بعضهنَّ يتوسَّلن بالأموات ناسين : أنَّ الأمر كلَّه بيد الله وحدَه سبحانه لا شريك له . . وشاهدت أخرى تتلمَّس بيديها حديد خزائن المصاحف ، ثمَّ تمسح به وجهها!! فاقتربت منها ، وسألتها قصدها في ذلك ، قالت : أتبرَّك بخاصَّة النَّبيِّ!! قلت : وما أدراك أن تلك من آثار النَّبيِّ ؟! ألم تعلمي : أنَّه صلوات الله عليه وصحبه مضى على ارتحاله عن الدنيا ما يقارب الخمسة عشر قرناً؟! أيعقل أن تكون هذه من زمانه ، وهل كان نبينا ﷺ على هذا الحال من الأبَّهة ، والثراء؟ ألم يخطر ببالك : أنك تتعبَّدين الحديد ، وتنسين الله ، قالت : بل أتقرَّب به إلى الله ، وقد شاهدت الناس يفعلون فقلَّدتهم! قلت : انتهي يا هذه هداك الله! إنَّك بهذا تقلِّدين المشركين في عبادتهم للأصنام . . لأنَّهم كانوا أيضاً يتقرَّبون عن طريقها إلى المولى الَّذي قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣]! تنزه وتعالى علواً كبيراً بقوله : ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٦] .

فلا وسائط بين العبد وربه ، وقد أبطلها ﷺ وهدم المعتقدات الباطلة الَّتي تُتَّخذ وساطةً بين الخالق والمخلوق! والله أجلُّ وأعلى من أن يكون بينه وبين عبده وسيط ، ونحن ما جئنا إلى هنا لإغضاب الله سبحانه بهذا الشِّرك بل لعبادته ، ونيل رضاه . . فما كان منها إلا أن شكرتني باكيةً تَفَجّع من الجهل . . فالإنسان أكرم مخلوقٍ على وجه الأرض عند الله عزَّ وجل . . فلنحافظ على هذه المكانة ، بالارتقاء إلى أعلى مستوى يحبُّه الله ، ويرضاه . . بلا إله إلا الله مبنياً على العلم . . وذلك هو الإيمان الحقُّ الَّذي يحجز الإنسان عن المعاصي والموبقات؛ لأنَّه تعالى قال : ﴿ قُلۡ هَلۡ

يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وهناك من المسلمات من تحجُّ أكثر من مرَّةٍ دون أن تعزم على لبس الحجاب! وكم أحزنني مشاهدة قريبةٍ لي؛ وهي عائدةٍ من بيت الله للمرَّة الثَّانية، وما زالت سافرةً.. وقالت: سأدرس الدِّين، ثمَّ أرتدي الحجاب!! لماذا يا من آمنت بأنَّ الحج فرضٌ، وأنَّ الصَّلاة فرضٌ.. والحجاب مثلهما تماماً؟! وكيف هذا وصحائفك صارت بيضاء، فالله الله أن تسوِّديها بتلك المعصية!

* * *

ومسك الختام

هذه قصَّة توبتي الَّتي هزَّت كياني ، وأنشأتني خَلْقاً آخر ، وأعادتني كأنَّما أنا امرأةٌ أخرى . . لا تمتُّ للقديمة بصلةٍ ، عرفت ديني ، فأصبح فداه المال ، والأهل ، والبنون ، والنَّفس . إلى مَنْ عرف قصَّتي : لا ترفضوا دينكم قبل أن تتعرفوا عليه جيداً ؛ لأنَّكم إذا عرفتموه ؛ لن تتخلَّوا عنه أبداً . . فكتبتُها كي تكونَ فيها عبرةٌ لأخواتي المسلمات ، وأسأل الله العليَّ القدير ، وبأسمائه الحسنى ، وصفاته العلى . . أن ينفعهنَّ بهذا التَّذكير ، ويعيننا ألا نكون ممَّن يقولون ما لا يفعلون . . سلك الله بي وبهنَّ سبيل الاستقامة ، وأعاذني وإيَّاهنَّ من أسباب الخِزي ، والنَّدامة ، وغفر لنا سيئاتنا ، وثبَّتنا على طاعته ، وهو البرُّ العظيم ، ربَّنا تقبَّل منا إنَّك أنت السَّميع العليم .

فأنا الآن أعيش في حالة تهيُّؤٍ للقاء ربِّي عزَّ وجلَّ بشوقِ المحبِّ ، ولأكون على أتمِّ استعدادٍ لذلك اللِّقاء . . أتجهَّز لسفر طويل ، ولا بدَّ للمسافر من الزَّاد المفيد لأهوال يوم الوعيد !! ولا يمنعني بل لا يؤخِّرني عن شوقي الكبير للقاء أرحم الرَّاحمين إلا انقضاء أجلي المكتوب عنده سبحانه ، فيختم بالموت المقدَّرِ على كلِّ حيٍّ لحكمةٍ بالغةٍ .

وما تغيب الشَّمس يوماً إلا ذكَّرتني بأنَّني سأغيب عن الأحباب ، إلا أنَّني لا أُنكرُ فرحتي بكرمه عليَّ كلَّما أحياني يوماً آخر ، فأحمده ، وأشكره على أن منحني فرصةً عظيمةً كي أزداد من الخير في طاعته . . لأكفِّر عن سيِّئاتي بكلِّ ما آتاني ربِّي من عزمٍ ، وهمَّةٍ في تحصيل الحسنات ، فجعلت من دنياي جسراً لآخِرَتي قدر ما في وسعي؛ لأنَّ الآخرة لا تنال إلا بها ، تعويضاً عمَّا فاتني ، وتقرُّباً إليه سبحانه ، هكذا يوماً بيوم . . ولحظةً بلحظةٍ . . مهما طال بي العمر بإذن الله ، وإلى ما شاء الله ، فأنا أعيش حياتي بعد أن عرفت الله ، حياةَ مودِّعٍ ، حياةَ ضيفٍ خفيفٍ يتأهَّب للرَّحيل ، أعُدُّ على نفسي أنفاسَها كيلا تخطئ ، ولَشَدَّ ما يخيفُني الوقوعُ في الخطايا ، فأُهرَع إلى الاستغفار ، والتَّوبة . . مؤمنةً : أنَّه لا صغيرةَ مع الإصرار ، ولا كبيرةَ مع الاستغفار عند ربِّ العالمين ، وصدق رسول الله ؛ إذ أخبرنا بأنَّ مجاهدة النَّفس هو الجهاد الأكبر ! واضعةً نصب عيني خوف الله تعالى ، وراجيةً عفوه ، ولله بالغ الشُّكر . . بأن جعل لنا في عبادته متنفَّساً نعبِّر من خلاله عن امتناننا لفضله . . ونشكره على نعمه الَّتي لا تحصى .

فاللهَ أسألُ أن يلهمَني الصَّبرَ ، والسَّدادَ ، فأقوم بكلِّ ما يدعو إلى حياةٍ دنيويَّةٍ هادفةٍ لإرضاء الله سبحانه . . مؤهِّلةٍ لحياةٍ أبديَّـةٍ أخرويَّـةٍ لا تقارنها سعادة! ولا همَّ لديَّ إلا الخاتمة ، عاملةً بقول جرير في عبد العزيز بن مَرْوان :

فلا هـو في الدُّنيـا مضيـع نصيبـه   ولا عرض الدُّنيـا عن الدِّينِ شاغله

إنَّني مشوقة للقائه سبحانه ، ولقاء الأحبة ، محمَّدٍ وصحبه . . وكلِّي أملٌ ، ورجاءٌ ، بأن يعينَني على أن تصعد إليه روحي طاهرةً زَكيةً ، وأسألُه

من عظيم كرمه حسن الختام ، وأن يعينني على المحافظة على أن تبقى صحيفتي نقيَّةً خاليةً من السَّيئات بفضل كرم الحجِّ . . وسأحافظ على ذلك العطاء العظيم بعون الله ، ريثما يحين وقت لقائه سبحانه . . فأنا الآن أمضي وقتاً أصبِّر به نفسي ، كحال الجائع الَّذي يصبِّر نفسه ، ويهدهدها . . يمنِّيها بحصولها على طعام شهيٍ لذيذٍ ، من كريمٍ غنيٍّ إن هي صبرت ، وحرصت على إرضاء صاحب الطَّعام . . فأجدُني متحفِّزةً بقوَّةٍ أنشط بها لعمل كلِّ ما يرضي ربِّي الغنيَّ الأكرم سبحانه ؛ كي يُدخلَني جنَّته بغير حسابٍ لأنني أعمل بقول سيدنا عمر بن الخطاب : (حاسبوا أنفسَكم قبل أن تُحاسَبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم ، فإن ممَّا يخفف الحساب عليكم غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم) ؛ لأنَّ نبينا محمَّداً ﷺ قال : «**من نوقِش الحسابَ عُذِّب**»(١) .

ويقول الحسن البصريُّ : (لا يزال العبد بخير ما كان له واعظٌ من نفسه . . وكانت الفكرة من عمله ، والذِّكر من شأنه . . والمحاسبة من همِّه! ولا يزال بِشَرٍّ ما استعمل التَّسويف والمماطلة ـ أي : تأخير التَّوبة ـ واتَّبع الهوى ، وأكثر من الغفلة ، ورجَّح الأماني ، والمولى في كتابه يقول : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ [النساء : ١٢٣] .

ومن رحمته ـ تسامى في أسمائه ، وصفاته ـ أن غفر للعاصين ، وأعطى السَّائلين ، وأحبَّ التَّوابين والمتطهِّرين ، نذنب ، ونعصي . . ونخطئ ، ونسيء . . ثمَّ نأوي إليه آناً بعد آن . . نرجوه ، وندعوه . . ونستغفر ، ونتوب . . فأين منه نهرب!! ونحن ضيوف ذاهبون إلى ضيافة أبديَّةٍ ،

(١) رواه البخاري (٤٩٣٩) ومسلم (٢٨٧٦) .

عائدون من مقرِّ سلطان الكون ، سائرون نحو مولانا ، ومالكنا ، إلى البقاء لا إلى الفناء ، والنِّسيان ! بل إلى الوجود الدَّائم . . ماضون لقبض الأجور ، واستلام الأرباح!! أرجو أن نكون خير مدعوِّين إلى الجنَّة الخالدة . . ادعوا الله لي ولكم ، ألا يجعل الدُّنيا أكبر همِّنا ، ولا مبلغ علمنا ، راجين أن نكون ممَّن حقَّ عليهم وعْدُ الله ذي الجلال والإكرام لمن أطاعه ورسولَه . . أن يكرِّمَه مع الَّذين أنعم عليهم من النَّبيين ، والصدِّيقين ، والشُّهداءَ ، والصَّالحين . . وحسن أولئك رفيقاً ، وادعوا الله معي أن يبلِّغَني وإيَّاكم جَنَّات العُلى ، كي نحظى بالنَّظر إلى وجهه الكريم ، وها نحن نبدأ سنةً جديدةً ، وهي عام (٢٠٠٤) أرجو أن يكون عام تحصيل الخير ، والبركة ، فإنَّنا على مائدة الزَّمان وعليها أشهى ما نصبوا إليه ، ونسعى من خير الدُّنيا ، والآخرة ، والله من وراء القصد ، وسبحان الذي إذا أعطى؛ أدهش ، وإذا أخذ؛ فتَّش! ولا ننسى الدُّعاء لإخواننا في الأقطار العربية ، وفي بقاع الأرض بالنَّصر العاجل على الأعداء .

والحمد لله الَّذي هداني لهذا وما كنت لأهتدي لولا أن هداني خير الهادين . . أحمده حمداً كبيراً تعظيماً لشأنه ، وصلَّى الله على سيدنا محمَّدٍ الدَّاعي لرضوانه ، صلاة تملأ خزائن السَّموات والأرض نوراً ، وتكون لنا فرحاً ، ونصراً وسروراً ، اللَّهُمَّ تقبَّل ، واستجب . . وآخر دعوانا أنِ الحمد لله ربِّ العالمين في الأول ، والآخر .

* * *

خواطر حرَّة

كيف.. وكم.. ومتى.. ولماذا.. وإلى أين..؟ أسئلةٌ تدور في رأسي، تسكنه، وتكاد لا تفارقه مذ أسلمت وجهي لربِّ العالمين، دون أن أجد جواباً يريح فؤادي.. فهل هناك مَنْ يجيب مِنْ أعزائي المسلمين؟!

كيف أصبح الإسلام يئنُّ حزناً من أتباعه المسلمين؟. كيف صار المسلم مغترباً في بلده، غريباً وسط أهله المسلمين؟.

كيف تسرَّبت مكائد الأعداء، واستوطنت عقائد بعض المسلمين؟. كيف نشتري من الغرب مساوئهم، ونهدي إليهم مبادئ المسلمين؟.

إلى أين سيؤدي بنا جبروت الطُّغيان المشوِّه لعقيدة المسلمين؟.

إلى أين المصير لمن أطاع، وعبد هواه، وباع دينه ليشتري دنيا أعداء المسلمين؟.

متى كان الإسلام يسمح بالتَّباهي في عمل المعاصي بين المسلمين؟.

متى انقلبت الموازين، حتَّى صارت المرأة تأخذ مكان الرَّجل، وتلغي الرُّجولة من قائمة أكثر رجال المسلمين؟.

متى سنعير اهتمامنا لدنوِّ أشراط السَّاعة الكبرى، بعد أن تحقَّقت أَشْراطُها الصُّغرى، ومعظم أَشراطها الوسطى، وقد تبيَّنها المسلمون؟.

لماذا لا نخاف من أن تأتينا أهوالها بغتةً ، وقد غفل عنها المسلمون؟ . لماذا تباعدت المسافات ، وتكاثفت الحجب ، وتعالت الحواجز بين قلوب المسلمين؟ .

لماذا لا نخاف على أنفسنا من غضب خالقنا من شرور أعمالنا ، وما آلت إليه أحوال المسلمين؟ .

كم بقي من عمر الدُّنيا؛ التي سلبت ألباب المسلمين؟ . كم ننعم على أنفسنا من خيرات الدُّنيا ، وننسى من حقوق فقرائنا المسلمين؟ .

كم نتمتَّع بالنِّعم ، ثمَّ ننسى المنعم على العباد أجمعين ! !

إذاً . . . يجب ألا ننسى هذا الوعيد الشَّديد في عظيم جلاله: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٨] ! !

فاعتبروا يا أولي الأبصار . . وأنصحكم من قلبٍ مخلصٍ اتِّباع أمر الله في قوله: ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١] .

والله أصدق القائلين

* * * *

* * *

* *

*

المحتوى

تقديم الأستاذ الدكتور محمد راتب النابلسي ٥

تمهيد ١٣

ماضٍ كم أتمنى لو لم يكن ٢٣

انتفاضة : مرحلة التمرد على الأنا ٤٧

طريق التوبة ٥٥

مطالعات مثمرة ٦١

صحوة من غفلة ٦٧

أمنية ٧٥

من عالم الأزياء والموضة إلى عالم الكتب والعبادة ٧٩

معركة النفس على التحجب ٨٧

على طريق الهداية ٩٣

مرحلة العبادة وتقوية العقيدة ١٠٩

من مآسي الجهل ١٢١

حان أوان ترجمة العلم إلى عمل ١٤٣

أنماط من الناس تثير العجب ١٦٥
أخطاء يجب تداركها ١٩١
إزعاجات ٢١٣
من صميم القلب ٢١٩
مصارحات عجيبة ٢٣٩
دعوة ونداء إلى سبيل الله ٢٤٩
هاذم اللذات ٢٦١
المال أمانة ٢٧٧
داء ودواء ٢٨٣
أمهات واهمات ٢٩٧
نصائح مجربة ٣٠٥
فكرة تفيد الأطفال ٣٠٨
الإيمان الكامل ٣١٦
هديتي الغالية من الله ٣٣١
رحلتي إلى الحج ٣٣٥
ومسك الختام ٣٤٥
خواطر حرة ٣٤٩
المحتوى ٣٥١

طريق النور

قصةٌ واقعيةٌ نَبَتَتْ من وحي التَّجربة الذَّاتية للكاتبة ، حيث استطاعتْ ـ بتوفيق الله ـ أن تنتقلَ إلى محراب التوبة ، وتُصحِّح مسيرةَ حياتها بعد أنْ أضلَّتها الأهواء .

وكانتِ الأحداثُ المتسلسلةُ في القصة تشهدُ بصدق المعاناة ، والتعبير عن المشاعر الدقيقة لكلِّ حقبة ولحظة ، وكان رائدها حالة نفسية مُتوهِّجة ؛ دفعتِ المؤلِّفة كي تتمسَّك بالمنهج القويم ، والصِّراط المستقيم .

كما بيَّنتِ المؤلفةُ لبني جِنْسها عقبات الضَّلال والشُّرود ، وحلاوة الطاعة والعبادة ، مع توضيحٍ للأخطاء التي يقعُ بها كثيرٌ من النساء الشَّاردات عن الحق والصَّلاح .

وامتازتِ القصةُ بفيضٍ زاخرٍ من الصَّراحة ، والصِّدق ، وتصوير أهوال المعاناة ، وضرورة تمثُّل قيم الإسلام في حياة المرأة ، فالإيمانُ قولٌ وعملٌ ، وقنديلٌ يشعُّ باتِّقاد الحقيقة ، وضياء التوبة والعبادة .

دارُ المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com
سورية – دمشق – حلبوني – جادة ابن سينا
ص ب ٣١٤٢٦ - هاتف ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail : almaktabi@mail.sy